« مذكّرات شُجاعة »
– Washington Post

الحائزة على
جائزة نوبل
للسلام

الفتاة الأخيرة

قصّتي مع الأسر
ومعركتي ضد تنظيم داعش

نادية مراد

تقديم أمل كلوني



ترجمة نادين نصر الله

نادية مراد

الفتاة الأخيرة

قصّتي مع الأسر ومعركتي ضد تنظيم داعش

تقديم أمل كلوني

ترجمة نادين نصر الله



الكتاب: الفتاة الأخيرة، قصّتي مع الأسر ومعركتي ضد تنظيم داعش

تأليف: نادية مراد

تقديم: أمل كلوني

ترجمة: نادين نصر الله

عدد الصفحات: 400 صفحة

الترقيم الدولي: 5 - 061 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2019



هذه ترجمة مرخصة لكتاب

THE LAST GIRL

My Story of Captivity, and My Fight Against the Islamic State

by: Nadia Murad

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة – 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

توطِئة

نادية مراد ليست موكّلتي وحسب، بل لقد أصبحت صديقتي. عندما التقينا للمرّة الأولى في لندن، سألتني إن كنتُ أقبل أن أمثّلَها وأترافعَ عنها، أي أن أكون محاميتها. ثم شرحَت لي أنّها لن تتمكّن من سداد أتعابي، وأن القضية ستكون على الأرجح مضنية وقد لا تتكلّل بالنجاح. لكن قبل أن تقرّري، قالت لي، استمعي إلى قصتي.

في العام 2014، هاجم تنظيم الدولة الإسلاميّة قرية نادية في العراق، فتهشّمَت حياة طالبة الواحد والعشرين ربيعًا. أُجبرَت نادية على مشاهدة أمّها وإخوتها يسيرون نحو حتفهم. أمّا هي، فقد تاجر بها مقاتلو التنظيم، فتناقلوها من واحد لآخر. أجبرَت على أداء فرائض الصلاة، وأُجبرَت على التزيّن والتبرّج استعدادًا لاغتصابها، حتى لاقت ما لاقته في إحدى الليالي من مجموعة من الرجال، فغابت عن الوعي. كشفَت لي عن آثار خلّفتها حروق سجائر وندوب تركتها ضربات رجال. وأخبرتني كيف أن المقاتلين كانوا يطلقون عليها طوال محنتها لقب «الكافرة النجسة»، ويتبجّحون بقهر نساء أيزيديّات ومحو ديانتهن عن هذه الأرض.

نادية واحدة من آلاف الأيزيديّات السبايا اللواتي اعتقلهن تنظيم الدولة الإسلاميّة كي يبيعهن في سوق النخاسة وعبر موقع فايسبوك،

مقابل ما لا يزيد أحيانًا عن دولارات عشرين. وأمّ نادية واحدة من ثمانين امرأة متقدّمة في السن تم إعدامهن ووأدهن في مقبرة مجهولة. ستّة من إخوتها كانوا من بين مئات الرجال الذين قتلوا في يوم واحد.

ما تخبرني عنه نادية هو إبادة بحق. والإبادة لا تقع عشوائيًا. بل عليك أن تخطّط لها. فقبل أن تبدأ المجزرة، قام مجلس شورى التنظيم بدراسة واقع الأيزيديّين، فخلص إلى أن الأيزيديّين، بما أنّهم مجموعة لا تملك كتابًا مقدّسًا، وفوق ذلك يتكلمون باللغة الكردية، فهم كفّار يُعتبر استعبادهم «وجهًا راسخًا من أوجه الشريعة». لهذا السبب يجوز، بحسب أخلاقيّات التنظيم المنحطّة، اغتصاب الأيزيديّات وسبيهنّ، على عكس المسيحيّات والشيعيات وغيرهن. ولا شكّ في أن هذه كانت إحدى أنجع الطرق للقضاء عليهن.

استتبع ذلك انتشار بيروقراطيّة الشرّ على مساحة منقطعة النظير. حتّى أن تنظيم الدولة قد أصدر منشورًا بعنوان أسئلة وأجوبة حول سبي النساء الكافرات ومواقعتهن جنسيًّا.

«سؤال: هل يجوز وطء الأَمَة التي لم تبلغ الحلم؟

جواب: يجوز وطء الأمة التي لم تبلغ الحلم إن كانت صالحة للوطء، أمّا إذا كانت غير صالحة للوطء، فيُكتفى بالاستمتاع بها دون الوطء.

سؤال: هل يمكن بيع السبايا؟

جواب: يمكن شراء السبايا والجواري وبيعهن ومنحهن كهدايا، إذ هنّ مُلكيّات لا أكثر ولا أقل».

عندما سردت لي نادية قصّتها في لندن، كان قد مضى قرابة العامين

على مجزرة تنظيم الدولة الإسلامية ضد الأيزيديين. وكانت لا تزال آلاف النساء والأطفال الأيزيديين في قبضة داعش، من غير أن تتمّ ملاحقة أي عضو من أعضاء التنظيم قضائيًّا في أي من المحاكم، في أي بقعة من بقاع العالم، على ارتكابهم هذه الجرائم والأفعال. وغالبًا ما يتم فقدان الأدلة أو تلفها، حتى ليبدو أفق العدالة مسدودًا.

وبالطبع، أخذتُ هذه القضية على عاتقي. فقضينا أنا ونادية أكثر من عام نعمل معًا من أجل تحقيق العدالة. فالتقينا مرارًا وتكرارًا بالحكومة العراقيّة، وبممثّلين عن الأمم المتحدة، وبأعضاء من مجلس الأمن الدولي، وبضحايا تنظيم الدولة الإسلامية. ورحتُ أعِدّ التقارير وأقدّم المسوّدات والتحاليل القانونيّة، وألقي خطابات أحثّ فيها الأمم المتّحدة على التحرّك. غير أن معظم محاورينا كانوا يواجهوننا بالرفض قائلين إن هذا مستحيل: فمجلس الأمن لم يقم بأي خطوة على صعيد العدالة الدوليّة منذ سنوات.

لكنْ، في الوقت الذي أكتب فيه هذه التوطئة، تراني أتبلّغ أن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدّة قد تبنّى قرارًا تاريخيًّا يقضي بإنشاء فريق تحقيق لجمع الأدلّة على الجرائم التي ارتبكها التنظيم في العراق. وما هذا إلا نصر مبين لنادية ولضحايا تنظيم الدولة الإسلاميّة كلّهم، لأنّه يعني الحفاظ على الأدلّة، وإمكانيّة ملاحقة أفراد تنظيم داعش. جلستُ بالقرب من نادية في مجلس الأمن عندما تم التصويت على القرار بالإجماع. وبينما رحنا نشاهد خمس عشرة يدًا ترتفع إلى الأعلى بالموافقة، نظرنا إلى بعضنا البعض، وابتسمنا.

بصفتي محامية ناشطة في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، غالبًا ما أكون صوت الذين أجبروا على الصمت: من الصحافي القابع خلف

القضبان، إلى ضحايا جرائم الحرب الذين يقاتلون من أجل حقّهم في المحكمة. لا شكّ في أن التنظيم حاول إسكات نادية عندما خطفها واستعبدها واغتصبها وعذّبها وقتل سبعة من أفراد عائلتها في يوم واحد.

لكنّ نادية رفضت أن ترضخ لمحاولات إسكاتها. لقد تحدّت كل التسميات التي وصمتها بها الحياة: يتيمة. ضحية اغتصاب. جارية. لاجئة. وخلقت منها تسميات جديدة: ناجية. قائدة أيزيديّة. مناصرة للمرأة. مرشّحة لجائزة نوبل للسلام[1]. سفيرة الأمم المتّحدة للنوايا الحسنة. والآن كاتبة.

في الفترة التي قضيتها أتعرّف إليها، لم تسترجع نادية صوتها وحسب، بل أضحت صوت كل أيزيدي وقع ضحيّة المجزرة، وكل امرأة تعرّضت لشتى أنواع الاستغلال، وكل لاجئ تم التخلي عنه.

أولئك الذين ظنّوا أنفسهم قادرين على إسكاتها بفعل إجرامهم كانوا مخطئين. فروح نادية مراد لم تنكسر، وصوتها لن يتم إسكاته. لا بل سيعلو صوتها بواسطة هذا الكتاب، أكثر فأكثر.

أمل كلوني

محامية

سبتمبر 2017

(1) في 5 أكتوبر 2018، فازت نادية مراد بجائزة نوبل للسلام بالمشاركة مع الطبيب الكونغولي دينيس موكويغي.

الجزء الأول

الفصل الأول

في بداية صيف العام 2014، وبينما كنتُ منهمكة في التحضير لآخر عام دراسي لي، اختفى مزارعان من حقلَيهما خارج كوجو، القرية الأيزيديّة الصغيرة القابعة في شمال العراق، حيث ولدتُ، وحيث خلتني، حتّى وقت قريب، سأعيش ما حييتُ. كان الرجلان يتمدّدان برخاء تحت فيء خيمة خشنة يدويّة الصنع، ليجدا نفسَيهما في اللحظة التالية أسيرَيْن في غرفة صغيرة في قرية مجاورة، تحتضن بمجملها عربًا من السنّة. وقد أخذ الخاطفون مع الرجلين دجاجة وعددًا من صيصانها، الأمر الذي أربكنا. فرحنا نطمئن بعضنا البعض قائلين: «لربّما كانوا جياعًا»، من غير أن يثلج ذلك التحليل قلوبنا.

لطالما كانت كوجو قرية أيزيديّة، أسّسها أوائل المزارعين البدو والرعاة الذين هبطوا إليها وقرّروا بناء منازل لهم تحمي زوجاتهم من لهيب الصحراء، بينما يرعون أغنامهم في مساحات خضر. فاختاروا أرضًا تصلح للزراعة، لكنّها كانت خطيرة من حيث الموقع، إذ تجدها رابضة على الطرف الجنوبي لمنطقة سنجار العراقيّة، حيث يعيش أغلب الأيزيديّين، وعلى تماس مع سائر أقسام العراق. وعندما وصلت أولى العائلات الأيزيديّة في منتصف خمسينات القرن الماضي، كان

سكّان كوجو يتألّفون من المزارعين من العرب السنّة، يعملون لصالح أصحاب أراضٍ في الموصل. لكن تلك العائلات الأيزيديّة استأجرت محاميًا لشراء الأراضي - ولا يزال يُنظر إلى هذا المحامي، وهو مسلم، على أنّه بطل قومي. وإلى حين ولدتُ، كانت كوجو قد باتت تضم حوالى المئتي عائلة، كلّها أيزيديّة، تربطها علاقات قويّة في ما بينها، كما لو كنّا عائلة واحدة كبرى، وهو ما كنّا عليه بالفعل.

لكن تلك الأرض التي جعلت منّا أفرادًا مميّزين، أصابتنا في مقتلنا أيضًا وحوّلتنا مجموعة هشّة. فلطالما عانى الأيزيديّون الاضطهاد لقرون من الزمن، وذلك بسبب معتقداتنا الدينيّة، وقد كانت كوجو، مقارنة بغالبيّة البلدات والقرى الأيزيديّة، بعيدة عن جبل سنجار، الجبل الشاهق النحيل الذي سهر على حمايتنا لأجيال مضت. وهكذا، وقعنا على مر السنين ضحيّة صراع تنافسي بين عرب العراق السنّة، والأكراد السنّة، يطالبنا كل فريق منهم بإنكار إرثنا الأيزيدي والالتزام بالهويّة الكرديّة أو العربيّة. وحتى العام 2013، عندما تم أخيرًا تعبيد الطريق بين كوجو والجبل، كنّا نقضي نحو الساعة تقريبًا في رحلتنا بشاحنة الداتسون البيضاء الصغيرة، التي تحملنا عبر الطرقات المغبرة الوعرة عبر مدينة سنجار إلى سفح الجبل. ترعرعتُ في منطقة أقرب جغرافيًّا إلى سوريا منها إلى الأماكن المقدّسة، وتاليًا أقرب إلى الغرباء منها إلى برّ الأمان.

كانت الرحلة باتّجاه الجبل تتّسم بالمرح. ففي مدينة سنجار، كنّا نبتاع السكاكر ونوعًا محدّدًا من لفائف لحم الضأن الذي لم يكن متوفّرًا في كوجو. وكان أبي غالبًا ما يتوقّف ليسمح لنا بشراء ما نريد. كانت شاحنتنا تخلّف وراءها سحبًا من الغبار عندما ننطلق بها، ومع ذلك، كنتُ أجدني أفضّل الهواء الطلق، فأتمدّد في عربة الشاحنة الخلفيّة

حتى نخرج من القرية ونبتعد عن أعين الفضوليّين من جيراننا، ثم أنتفض لأستقبل الهواء يتغلغل في خصيلات شعري، وأشاهد أطياف الماشية ترعى على طول الطريق. وسرعان ما كانت تلك المشهديّة تسحرني فأقف على قدميَّ في مؤخّرة الشاحنة، حتى يصرخ بي أبي أو أخي الأكبر الياس يحذّرانني من أنّني قد أطير وأنقلب من على ظهر الشاحنة إن لم آخذ حذري.

وفي المقلب الآخر، بعيدًا عن لفائف لحم الضأن والراحة التي يمنحنا إيّاها الجبل، يمتد ما تبقّى من أراضي العراق. في أوقات السلم، إن لم يكن على عجلة من أمره، قد تستغرق رحلة البائع الأيزيديّ خمس عشرة دقيقة في السيّارة من كوجو إلى أقرب قرية سنّية مجاورة كي يبيع حبوبه أو الحليب. وكان لدينا أصدقاء في تلك القرى - من فتيات قابلتهن في حفلات زفاف، إلى أساتذة قضوا وقتهم يبيتون لياليهم في مدرسة كوجو، ورجال تمّت دعوتهم ليمسكوا بصغارنا من الصبية خلال حفل ختانهم - ومن هنا كانت العلاقة تتوطّد مع تلك العائلة الأيزيدية ليصبح كريفًا، أو نوعًا من العرّاب. وغالباً ما كان الأطبّاء المسلمون يأتون إلى كوجو، أو إلى مدينة سنجار لمعالجتنا عندما يتملّكنا المرض، بينما كان الباعة المسلمون يتجوّلون عبر البلدة يبيعون الفساتين والسكاكر، وكل ما لم يكن بالإمكان إيجاده في محلات كوجو المعدودة، التي اقتصر بيعها على الضروريّات. في طفولتي، كان إخوتي غالبًا ما يسافرون إلى قرى غير أيزيدية لجني بعض المال من أعمال غريبة بعض الشيء. لكن العلاقات كانت تشوبها قرون من انعدام الثقة - إذ لم يكن من السهل ألّا تشعر بالسوء عندما يرفض أحد ضيوف الزفاف من المسلمين تناول طعامنا، مهما حاول تلطيف رفضه - ومع ذلك، كانت الصداقات

حقيقيّة وصادقة. فتلك الروابط تعود إلى أجيال غابرة، وقد استمرّت طوال مدة الاحتلال العثماني، وفترة الاستعمار البريطاني وفترة حكم صدّام حسين وصولًا إلى الاجتياح الأميركي للعراق. في كوجو، كنّا نتميّز على وجه الخصوص بعلاقاتنا الوثيقة مع القرى السنيّة.

لكن عندما كان الاقتتال يندلع في العراق، ويبدو كأن الاقتتال دائم في العراق، كانت تلك القرى ترمي بثقلها علينا، نحن جيرانها الأيزيديّين الصغار، ليفسح تعصّبها القديم المجال أمام حقد أعمى. وغالبًا ما ينقلب هذا الحقد عنفًا. ففي السنوات العشر الماضية على الأقل، ازدادت الهوّة بين منازلنا منذ أن وَجَد العراقيّون أنفسهم في خضم نزاع مع الأميركيّين بدأ في العام 2003، ثم تدهورت الأمور إلى أعمال قتاليّة محليّة أشدُّ فتكًا، لتنتهي إرهابًا كاملًا لا هوادة فيه. فبدأت القرى المجاورة تأوي الإرهابيّين الذين دانوا المسيحيّين وغير المسلمين السنّة، والأسوأ من ذلك، اعتبروا الأيزيديّين كفّارًا. وفي العام 2007، قادت زمرة من هؤلاء المتطرّفين شاحنة وقود وثلاث سيّارات إلى وسط بلدتين أيزيديّتين مكتظّتين بالسكان على بعد عشرة أميال شمال غرب كوجو، ثم فجّروا الآليّات، فقتلوا مئات السكان الذين هرعوا إليهم، إذ اعتقدوا أنهم يجلبون السلع لبيعها في السوق.

الأيزيديّة ديانة توحيديّة قديمة، انتشرت شفويًّا على لسان رجال مقدَّسين عهد إليهم بحفظ قصصنا. وعلى الرغم من العناصر الكثيرة التي تشترك فيها الأيزيدية مع العديد من ديانات الشرق الأوسط، من الميثريّة إلى الزردشتيّة والإسلام واليهوديّة، إلا أنّها فريدة بحق، وقد يصعب شرحها حتّى على الرجال المقدّسين الذي يحفظون قصصنا لشرحها. أمّا أنا، فأرى ديانتي شجرة قديمة تتدلّى منها آلاف الحلقات،

وكل حلقة تروي قصة من تاريخ الأيزيديّين الطويل. لكن للأسف، فإن أغلب هذه القصص يمكن تصنيفه في خانة المآسي.

واليوم، لا يتخطّى عدد الأيزيديّين في العالم المليون. فطوال حياتي - وأنا على يقين أنه قبل أن أبصر النور بفترة طويلة - كانت ديانتنا العامل الذي يحدّد وجودنا ويبقينا معًا كمجتمع حيّ. لكنّها جعلتنا أيضًا عرضة للاضطهاد من قبل مجموعات أكبر، من العثمانيّين إلى بعث صدام، الذين هاجمونا أو حاولوا إجبارنا على إعلان ولائنا لهم. فحقّروا ديننا، معلنين أنّنا نعبد الشيطان أو أنّنا نجِسون، وطالبونا بأن نتخلّى عن إيماننا. وهكذا عاصر الأيزيديّون هجمات دامت عقودًا طويلة وهدفت إلى مَحوِنا عن خارطة العالم، إمّا بقتلنا أو بإجبارنا على اعتناق الإسلام، أو ببساطة، طردنا من أراضينا وأخذ كل ما نملك. قبل العام 2014، حاولت قوى خارجيّة القضاء علينا ثلاثًا وسبعين مرّة. وكنّا نسمّي تلك الهجمات ضد الأيزيديّين فرَمانًا، وهي كلمة عثمانيّة، قبل أن نتعلّم مصطلح الإبادة الجماعيّة.

عندما تناهت إلى مسامعنا طلبات الفدية للمزارعَين الاثنين، تملّك الذعر القرية بأكملها. «أربعون ألف دولار»، قال الخاطفون لزوجتَي المزارعَيْن عبر الهاتف: «أو توجّها إلينا مع أولادكما حتى تعتنقوا الإسلام كعائلات». وإلّا سنقتل الرجلين. لم يكن المال ما جعل الزوجتين تنهاران وتذرفان الدمع أمام مختارنا، أحمد جاسو؛ فصحيح أن أربعين ألف دولار هو مبلغ خيالي، لكنه مجرّد مبلغ من المال. وكنّا كلّنا على يقين بأن المزارعَيْن يفضّلان الموت على اعتناق الإسلام، لذا ذرف القرويّون دموع الفرح متنفّسين الصعداء عندما تمكّن الرجلان في إحدى الليالي الليلاء من الفرار من نافذة مكسورة، فركضا عبر حقول

الشعير، وظهرا عند عتبة منزلَيْهما، على قيد الحياة، يلهثان لهاثًا متقطّعًا والوحل قد بلغ ركبتَيْهما. لكن الخاطفين لم يستسلموا.

بعد ذلك بفترة قصيرة، اختُطف ديشان، وهو رجل يعمل لدى عائلتي، آل طه، بينما كان يرعى ماشيتنا في حقل بالقرب من جبل سنجار. كانت أمّي وإخوتي قد قضوا سنينًا طويلة يشترون أغنامًا ويرعونها، حتى إنهم اعتبروا كل واحدٍ منها نصرًا بحد ذاته. فكنّا فخورين بماشيتنا، نحتفظ بها في باحة منزلنا الخارجيّة عندما لا تكون خارج القرية ترعى، ونعيش معها فهي حيواناتنا الأليفة. وكانت جلسة جزّ الصوف احتفالًا بحد ذاته. فكنتُ أحب تلك الطقوس، وكيفية تهاوي الصوف على الأرض في كومات سحابيّة، بينما يعبق المنزل برائحة المسك تلك، وتثغي الخراف بسكينة وطمأنينة. كنت أحب النوم متدثّرة باللحاف الذي تعدّه أمي، شامي، من الصوف الذي تحشوه وسط قطع القماش الملوَّن. أحيانًا، كنتُ أجدني أتعلّق بأحد الخراف إلى حد أنني لا أطيق البقاء في المنزل عندما يحين وقت ذبحها. وفي الوقت الذي اختُطف به ديشان، كنّا نملك حوالى المئة خروف، وهي ثروة قيّمة بالنسبة إلينا.

تذكّر أخي سعيد الدجاجة وصيصانها التي اختُطفت مع المزارعَين، فهرع في شاحنة العائلة إلى سفح جبل سنجار، للاطمئنان على خرافنا، بينما رحنا نهمهم ونحن نندب حظّنا «لا شك في أنّهم أخذوها. تلك الخراف هي كل ما نملك».

بعد هنيهة من الزمن، اتّصل سعيد بأمّي وقد بدا مربَكًا. «لم يأخذوا إلا اثنين»، أخبرها بِحِيرة من أمره - كبش عجوز بطيء الحركة ونعجة شابة. أمّا باقي الخراف فكانت ترعى بهناء على العشب المائل بخضرته

إلى البنّي وقد لحقت أخي إلى المنزل. ضحكنا بعد أن اطمأنّ بالنا. لكن علامات القلق كانت بادية على وجه أخي الأكبر الياس. فراح يتساءل: «لا أفهم. هؤلاء القرويّون ليسوا أثرياء. لمَ تركوا الخراف في حال سبيلها؟». كان مقتنعًا أن في الأمر سرًّا ما.

في اليوم الذي تلا اختطاف ديشان، عمّت الفوضى في كوجو. فقد تجمّع أهالي البلدة أمام عتبات منازلهم، وأخذوا يترقّبون أي سيارة غير مألوفة تعبر كوجو، يعاونهم في مهمّتهم رجال راحوا يتناوبون على نقطة تفتيش جديدة استحدثوها خارج أسوار قريتنا. عاد حزني، وهو أحد إخوتي من وظيفته كرجل شرطة في مدينة سنجار، والتحق برجال القرية الآخرين الذين كانوا يتجادلون عاليًا حول ما يُفترض القيام به. فقد أراد عمّ ديشان الأخذ بالثأر، وقرّر قيادة بعثة إلى قرية تقع شمال كوجو ترأسها قبيلة سنّية محافظة. وأعلن غاضبًا، «سنأخذ اثنين من رُعاتهم. وهكذا يضطرّون إلى إعادة ديشان».

كانت خطّة محفوفة بالمخاطر، ولم يقف الحاضرون كلّهم في صف عمّ ديشان. حتّى إخوتي الذين ورثوا كلّهم شجاعة أبينا ونخوته القتاليّة، انقسموا حول ما يجب فعله. فسعيد الذي يكبرني بأعوام قليلة، كان يقضي معظم وقته يحلم في اللحظة التي يستطيع فيها إثبات بطولته، وكان بطبيعة الحال مع خيار الانتقام. أمّا حزني، الذي يكبره بعقد من الزمن والذي كان أكثرنا لينًا وعطفًا، فاعتبر الأمر بالغ الخطورة. ومع ذلك، استجمع عمّ ديشان ما أمكنه من حلفاء واختطف راعيَيْن سنّيين عربيّين ثم قادهما إلى كوجو، حيث احتجزهما في منزله وجلس ينتظر.

كانت غالبية نزاعات القرية تجد حلًّا لها على يد أحمد جاسو، وهو مختارنا العملي والديبلوماسي في قراراته، وقد اختار أن يساند حزني

في موقفه. فقال: «يكفي ما يشوب علاقاتنا مع جيراننا السنّة من توتّر. من يدري ماذا قد يفعلون إن أدى أي تصرّف إلى الاقتتال معهم». وراح يحذّر من أن الوضع خارج كوجو أكثر تعقيدًا وسوءًا ممّا نخاله. فثمّة جماعة تطلق على نفسها اسم تنظيم الدولة الإسلاميّة، وقد أُنشئت بجزئها الأكبر هنا في العراق، قبل أن تنمو في السنوات القليلة الماضية في سوريا، وها هي تحكم قبضتها على قرى متاخمة لنا، حتى لأمكننا رؤية الهيئات المتّشحة سوادًا بينما يعبرون بشاحناتهم على مقربة منا. وهؤلاء هم الذين يختطفون راعينا. كان هذا ما أخبرنا به مختارنا. ثم أشار إلى عم ديشان قائلًا: «جلّ ما أنت فاعله هو جعل الأمور تزداد سوءًا». ولم يمضِ نصف يوم على اختطاف الراعيين السنّيين، حتى أُطلق سراحهما. غير أن ديشان بقي محتجَزًا.

كان أحمد جاسو رجلًا فطنًا يتحدّر من عائلة جاسو التي يعود تاريخها إلى عقود من الخبرة في التفاوض مع القبائل العربية السنّية. وكان كلّ أهل القرية يلجأون إليهم لحلّ مشاكلهم. أمّا خارج حدود كوجو، فكانوا ذائعي الصيت كمحاورين ديبلوماسيّين ماهرين. ومع ذلك، قد يتساءل البعض إن كان هذه المرّة متعاونًا أكثر ممّا يلزم، بإرساله رسائل إلى الإرهابيّين مفادها أن الأيزيديّين لن يحموا أنفسهم. ففي الواقع، إن ما كان يقف حاجزًا بيننا وبين تنظيم الدولة الإسلاميّة هم المقاتلون الأكراد العراقيّون الذين يُطلق عليهم تسمية البيشمركة، والذين أُرسلوا من المنطقة الكرديّة المستقلّة لحماية كوجو بعدما سقطت الموصل قبل حوالى الشهرين. كنّا نعامل البيشمركة ضيوفًا مكرَّمين، فنأويهم على منصّات في مدارسنا، بينما تعمَد عائلة مختلفة كلّ أسبوع إلى ذبح خروف لإطعامهم، وهو ما كان يُعتبر تضحية كبرى

بالنسبة إلى القرويّين المعدومي الحال. كنتُ أنظر إلى هؤلاء المقاتلين نظرة إجلال وإكبار. فقد سمعتُ عن النساء الكرديّات من سوريا وتركيا، اللواتي يقاتلن الإرهابيّين ويحملن السلاح. وكان مجرّد التفكير بذلك يمنحني شجاعة وقوة.

كان البعض من السكّان، بمن فيهم عدد من إخوتي، يؤمنون بحقّنا في الدفاع عن أنفسنا. لذلك، أرادوا أن يتولّوا أمر نقاط التفتيش، بينما حاول شقيق أحمد جاسو نايف أن يقنع السلطات الكرديّة بالسماح له بتشكيل وحدة بيشمركة أيزيديّة، لكن طلبه لم يلقَ آذانًا صاغية. لم يعرض أحد تدريب الرجال الأيزيديّين أو تشجيعهم على المشاركة بالقتال ضد الإرهابيّين. فكان البيشمركة يطمئنوننا أنّهم طالما هم موجودون هنا، فلا داعيَ للجزع، وأنّهم عازمون على حماية الأيزيديّين كما يحمون عاصمة كردستان العراق. «نتعهد حماية سنجار كما نحمي إربيل» راحوا يردّدون على مسامعنا. وقد طلبوا منّا أن نثق بهم، وهكذا كان.

ومع ذلك، كان أفراد من بعض العائلات في كوجو يحتفظون بالأسلحة في المنازل - من بنادق كلاشنيكوف صدئة، إلى سكين مسنّن أو اثنين غالبًا ما يُستخدمان لتقديم الذبائح في الأعياد. وقد وجد العديد من الرجال، بمن فيهم إخوتي الأكبر سنًّا، وظائف لهم في دوريّة الحدود أو في قوّة الشرطة بعد العام 2003، عندما أصبحت تلك الوظائف مفتوحة أمام شبابنا، فبتنا على ثقة أنّه طالما يراقب أصحاب الاختصاص حدود كوجو، فيستطيع رجالنا حماية عوائلهم. ففي النهاية، كان أولئك الرجال، وليس البيشمركة، من بنوا سورًا ترابيًّا بأيديهم حول القرية بعد هجمات العام 2007، وكان رجال كوجو هم من راقبوا هذا السور ليل نهار لعام كامل، فأوقفوا السيّارات عند نقاط تفتيش طيّارة،

وتحقّقوا من الأغراب، حتّى بتنا نشعر بما يكفي من الأمان كي نعود إلى ممارسة حياتنا الطبيعية.

لكن اختطاف ديشان من غير أن يحرّك البيشمركة ساكنًا للمساعدة، جعلنا نسقط كلّنا فريسة الذعر. لربّما خالوا الأمر مجرّد تنازع بين قرى مجاورة، وليس السبب الذي حمل رئيس حكومة إقليم كردستان مسعود البرزاني على إرسالهم من كردستان الآمنة إلى مناطق غير محميّة في العراق. ولربّما كانوا خائفين شأنهم شأننا. فقد بدا بعض الجنود وكأنّ سنًّ بعضهم لا يتجاوز سن أصغر أبناء أمّي، سعيد. لكن الحرب تغيّر الناس، ولا سيّما الرجال منهم. فحتّى الأمس القريب، كان سعيد يلعب معي ومع ابنة اختنا كاثرين في الرواق، ولم نكن لنعلم بعد أنّه لا يجوز للصبية أن يلعبوا بالدمى. إلّا أن سعيدًا أصبح مؤخّرًا مهووسًا بالعنف الذي كان يجتاح العراق وسوريا. فقد وجدته ذات يوم يشاهد أفلام فيديو على هاتفه الخلوي عن عمليّات قطع رؤوس ينفّذها تنظيم الدولة الإسلاميّة، والصور تهتز بين يديه، قبل أن يفاجئني فيريني الشاشة حتى أستطيع أن أشاهد معه. وعندما دخل أخونا الأكبر مسعود الغرفة اعترته فورة من الغضب. «كيف تسمح لنادية أن تشاهد هذا؟»، راح يصرخ بسعيد الذي انكمش حول نفسه. كان آسفًا، لكنّني فهمت. كان يصعب أن يشيح المرء ببصره عن تلك المشاهد المقيتة التي تتكشّف على بعد خطوات من منزلنا.

كانت لقطات من الفيديو تعود إلى ذاكرتي كلّما رحتُ أفكر براعينا البائس المخطوف. إن لم يساعدنا البيشمركة في استعادة ديشان، فعليّ أن أقوم بخطوة ما. ثم دخلتُ إلى منزلنا. كنتُ طفلة العائلة، أصغر الأولاد الأحد عشر، وفتاة. ومع ذلك، كنتُ منطلقة وواثقة من نفسي،

أتكلّم فأفرض نفسي. لكنّني كنتُ في تلك اللحظة كتلة مشتعلة من الغضب.

كان منزلنا يقع على مقربة من الطرف الشمالي للقرية، وهو عبارة عن طابق واحد من الغرف الطينيّة المصفوفة الواحدة تلو الأخرى، كما لو أنّها حبّات عقد مرصوفة، تربط بينها مداخل بلا أبواب، وتقود إلى باحة خارجيّة فسيحة، في جانب منها حديقة مزروعة بالخضار، وفرن تنّور، وتسرح فيها خِراف ودجاج. كنتُ أعيش هناك مع أمّي وستة من إخوتي الشباب الثمانية وأختيَّ، إضافة إلى زوجتَي أخَوَيْن لي والأولاد الذين رزقوا بهم، وعلى بعد خطوات منّا إخوتي الآخرون، وإخوتي غير الأشقاء والشقيقات ومعظم عمّاتي وأعمامي وأبناء عمي. كان السقف يسرّب المياه شتاءً عندما تمطر، بينما يبدو الداخل وكأنّه فرن في أيّام الصيف العراقيّة الحارّة، فيدفعنا إلى السطح ننام تحت السماء المقمِرة. وعندما انهار جزء من السقيفة، رقّعناه بقطع معدنيّة أحضرناها من متجر مسعود الميكانيكي، وعندما احتجنا إلى مساحة إضافيّة، بنيناها بأيدينا. كنّا ندّخر المال لبناء منزل جديد أكثر صلابة، مشيّد من كتل الاسمنت، وكنّا على قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفنا.

دخلتُ المنزل من الباب الأمامي وهرعتُ إلى الغرفة التي كنتُ أتقاسمها مع الفتيات الأخريات، حيث وقفتُ أمام المرآة. لففتُ وشاحًا شاحب اللون حول رأسي، ذاك الذي أضعه عادة لأزيح بشعري عن عينيّ عندما أنحني فوق أثلام الخضار، ورحتُ أتخيّل ما قد تفعله المقاتلة استعدادًا للمعركة. لا شكّ في أن سنوات طويلة من العمل في المزرعة قد جعلتني أكثر قوّة وصلابة مما يوحي به مظهري الخارجي. ومع ذلك، ما كنتُ أدري ما سأفعله لو رأيت الخاطفين، أو أناسًا من

قراهم، يقودون سيّاراتهم عبر كوجو. ماذا عساي أقول لهم؟ «إرهابيّون اختطفوا راعيًا لدينا وتوجّهوا إلى قريتكم»، رحتُ أتدرّب أمام المرآة، متجهّمة الوجه زاجرة. «كان بإمكانكم أن توقفوهم. أقلّه أخبرونا أين أخذوه». أخذتُ عصًا خشبيّة كتلك التي يحملها الرعاة، كانت موضوعة عند زاوية الباحة الخارجيّة، وتوجّهتُ مجدّدًا إلى الباب الأمامي، حيث وقف بعض من إخوتي مع أمّي، وقد غرقوا في سجال عميق. بالكاد تنبّهوا إليّ عندما لحقت بهم.

مرّت دقائق قليلة قبل أن تصل شاحنة بيضاء من قرية الخاطفين وتعبر الطريق الرئيسيّة، وفي داخلها رجلان في الأمام واثنان آخران في الخلف. كانوا عرَبًا بالكاد تعرّفتُ إليهم من القبيلة السنّية التي اختطفت ديشان. أخذنا نراقب شاحنتهم تعبر الطريق الترابي المتعرّج داخل قريتنا، بطيئة، من غير أدنى شعور بالخوف. لم يكن لديهم أي سبب يحملهم على المرور في كوجو - فالطرقات حول القرية تربط مدنًا مثل سنجار والموصل - وما حضورهم إلى هنا إلّا بداعي الاستفزاز. انفصلتُ عن عائلتي وسارعت أقف في وسط الشارع، أسدّ الطريق أمام الشاحنة. «توقّفوا!»، صرختُ وأنا ألوّح بالعصا فوق رأسي، أحاول أن أجعل نفسي أبدو أعظم شأنًا: «أخبِرونا أين ديشان!».

تطلّب الأمر أكثر من نصف عائلتي كي يكبحوا جماحي. «ماذا تخالين نفسك فاعلة؟»، وبّخني الياس. «مهاجمتهم؟ كسر زجاج شاحنتهم؟». كان قد عاد لتوّه مع عدد من إخوتي الآخرين من الحقل وقد بدوا خائري القوى يعبقون برائحة البصل النتنة الذي كانوا يحصدونه. بالنسبة إليهم، بدت محاولة انتقامي لديشان لا تتعدّى كونها ثورة طفوليّة. كانت أمّي غاضبة منّي لأنني ركضتُ في الشارع. في

الحالات الطبيعيّة، كانت لتتحمّل مزاجي، حتّى لكأنّها تأنس له، لكن في تلك الأيّام، كانت رؤوس الجميع في أنوفهم، نتيجة حال الانفعال والتوتر التي كانت تعتريهم. فعلى ما يبدو، كان من الخطورة بمكان أن تلفتي الانتباه إليك، خاصة إذا ما كنتِ امرأة شابّة غير متزوجة. «تعالي واجلسي»، قالت لي أمّي بحزم: «من المخزي أن تقومي بذلك يا نادية، هذا ليس شأنك. دعي الرجال يهتمون بالأمر».

واستمرّت الحياة. فالعراقيّون، والأيزيديّون منهم على وجه الخصوص وأقلّيات أخرى، يجيدون التأقلم مع المخاطر المستجدّة. فالأمر ليس خيارًا إن أردتَ أن تحاول العيش حياة شبه طبيعيّة في بلاد تبدو وكأنها تتهاوى أشلاء متباعدة. وقد كان التأقلم أحيانًا بسيطًا نسبيًّا. إذ كلّ ما كان علينا فعله هو قضم أحلامنا - من إنهاء الدراسة، أو الإقلاع عن أعمال الزراعة من أجل القيام بعمل أقل إجهادًا، أو إتمام مراسم زفاف في التوقيت المحدّد له - ، ولم يكن من الصعب أن نقنع أنفسنا أن تلك الأحلام لم تكن واقعيّة في المقام الأول. وقد يحدث التأقلم أحيانًا تدريجيًّا، من دون أن يلحظه أحد. فتجدنا نتوقّف عن التكلّم مع الطلاب المسلمين في المدرسة، أو نقبع داخل منازلنا مخافة أن يأتي أغراب إلى القرية. كنا نشاهد أخبار الهجمات عبر التلفاز، فيساورنا القلق مما يدور في السياسة. أو نقفل الباب أمام أي حديث في السياسة، إذ نخال الصمت ملاذًا آمنًا لنا. وبعد كل هجوم، كان الرجال يعمدون إلى تدعيم السور الترابي خارج كوجو، بدءًا من الجانب الغربي المواجه لسوريا، إلى أن استفقنا في أحد الأيام لنجد السور قد أحاط بنا من الجهات كلّها. بعد ذلك، بما أنّنا كنّا لا نزال نشعر بانعدام الأمان، عمد الرجال إلى حفر خندق حول القرية أيضًا.

بتنا عبر الأجيال نألف ألمًا بسيطًا أو ظلمًا عابرًا حتى ليصبح من الطبيعي تجاهله. أعتقد بأن هذا هو السبب الذي حملنا على تقبّل بعض المهانات، مثل رفض طعامنا، الأمر الذي ربّما بدا جريمة لمن لاحظه في الدرجة الأولى. حتى إن التهديد بفرمان جديد بات أمرًا اعتاده الأيزيديّون، مع أن هذا التأقلم كان أشبه باعوجاج. وهو مؤلم.

مع استمرار احتجاز ديشان، عدتُ مع أقربائي إلى حقول البصل. هناك لم يتغيّر شيء. فالخضار التي زرعناها قبل أشهر خلت قد نبتت؛ وإن لم نقطفها، فلن يفعل أحد ذلك. وإن لم نبِعها، فلن نجني المال. لذا، جثونا كلّنا في خط مستقيم بجانب البراعم الخضر المتشابكة، ننتزع في قبضة واحدة عددًا من البصيلات من التربة، ونجمعها في أكياس بلاستيكيّة منسوجة حيث نتركها لتجفّ إلى أن يحين وقت حملها إلى السوق. «هل نأخذها إلى القرى المسلمة هذه السنة»، كنّا نتساءل من غير أن نجد إجابة شافية. وعندما كان أحدنا يقوم بسحب بقايا بصلة عفنة سوداء تبعث رائحة كريهة، كانت تعلو صيحاتنا سخطًا فنكمّ أنوفنا ونواصل عملنا.

وبما أن ذلك كان ما اعتدنا القيام به، فقد كنّا نثرثر ونمازح بعضنا البعض ونخبر قصصًا سمعها الواحد منّا مئات المرّات. فكانت أختي أدكي، مهرّجة العائلة، تستذكر شكلي ذاك اليوم وأنا أطارد السيّارة، فتاة مزارعة نحيلة، ووشاحي يسقط أمام عينيّ، ألوّح بالعصا فوق رأسي، حتى كنّا نكاد ننقلب على ظهورنا من فرط الضحك. كنّا نجعل العمل سلوى لنا، فنتسابق لنرى من يقطف العدد الأكبر من البصل، تمامًا كما فعلنا قبل أشهر، عندما تسابقنا لنرى من ينجح في نثر أكبر عدد من البذار. وعندما تبدأ الشمس تميل الى الاحمرار في السماء، نلتحق

بأمّي في المنزل إلى طاولة العشاء في الباحة الخارجيّة، ثم ننام كتفًا إلى كتف على الفرشات فوق سطح منزلنا، نتأمّل القمر ونهمس لبعضنا البعض حتى يُلقي الإرهاق بثقل صمته على العائلة كاملة.

لم نستطع أن نفهم لِمَ سرق الخاطفون الحيوانات - الدجاجة والصيصان وخروفَينا - إلّا بعد أسبوعين تقريبًا، عندما احتلّ تنظيم الدولة الإسلامية كوجو وغالبيّة سنجار. فقد قام مقاتل من الذين شاركوا في جمع سكّان كوجو كلّهم في مدرسة البلدة الثانويّة بشرح أسباب عمليّتَي السرقة والاختطاف لنساء القرية. فقد قال للنساء وبندقيّته تتدلّى من على جانبه: «تقولون إنّنا جئناكم على حين غرّة، لكنّنا بعثنا لكم بإشارات كانت بمثابة رسائل. عندما أخذنا الدجاجة وصيصانها، أردنا أن نقول لكم إنّنا سنأخذ نساءكم وأطفالكم. وعندما أخذنا الكبش، فكأنّنا نمسك بقادة قبيلتكم، وعندما قتلنا الكبش، فيعني أنّنا نخطّط لقتل هؤلاء القادة. والنعجة الصغيرة تشير إلى فتياتكم».

الفصل الثاني

كانت أمي تحبّني، لكنّها لم ترد إنجابي. فقد سعت طوال أشهر قبل أن تحمل بي، لادّخار ما أمكنها من مال - دينار من هنا ودينار من هناك، فكّة حصلت عليها بعد رحلة إلى السوق أو كيلو بندورة تحاذقت في بيعه - كي تشتري حبوب منع حمل لم تكن تجرؤ على طلبها من أبي. فالأيزيديّون لا يتزوّجون من خارج دينهم، أو يسمحون لشخص غير أيزيدي باعتناق الأيزيديّة، لذلك كانت العائلات الكبرى أفضل وسيلة لضمان عدم اضمحلالنا كليًّا. فضلًا عن ذلك، كلّما أكثرتَ من ذريّتك، كلّما ازداد العون الذي تحصل عليه في الزراعة. وهكذا تمكّنَت أمّي من شراء الحبوب لفترة ثلاثة أشهر قبل أن ينفد ما جمعته من المال، فتحمل بي مباشرة، لأكون طفلها الحادي عشر الأخير.

كانت أمّي زوجة أبي الثانية. فقد توفّيت زوجته الأولى صغيرة، لتتركه مع أربعة أفواه يحتاجون امرأة تسهر على تربيتهم. وكانت أمّي جميلة، قد ولدَت في كنف عائلة فقيرة تقيّة في كوجو، فسعدَ والدها بتقديمها لأبي زوجة له، إذ كان العريس يملك أرضًا وبعض الماشية، ومقارنة بسائر المقيمين في كوجو، كان يُعتبر ميسور الحال. وهكذا قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، وقبل أن تتعلّم الطبخ، أصبحَت أمّي زوجة

وخالة تهتم بأربعة أولاد، وسرعان ما حملت بطفلها الأول. لم ترتدِ المدرسة يومًا ولم تتعلّم القراءة أو الكتابة. ولم تكن تتكلّم الكثير من اللغة العربيّة شأنها شأن العديد من الأيزيديّين الذين كان لسان حالهم اللغة الكرديّة، فكانت بالكاد تنجح في التواصل مع القرويّين العرب الذين كانوا يأتون إلى البلدة لحضور حفل زفاف أو لبيع بضائعهم. حتّى إن قصصنا الدينيّة كانت بمثابة لغز بالنسبة إليها. لكنّها عملت بجهد، فتحمّلت مسؤولية المهام التي تتأتّى عن زواجها بمزارع. فلم يكن كافيًا أن تلد إحدى عشرة مرّة – وكل مرة تلد في منزلها، باستثناء مخاضها العسير في التوأم سعود ومسعود – بل كان يُفترَضُ بالمرأة الأيزيديّة الحامل أن تجرّ خشب الوقود وتزرع المحاصيل، وتقود الجرارات حتى تحين لحظة ولادتها، ثم تحمل رضيعها معها بينما تعمل.

كان أبي معروفًا في كوجو لكونه رجلًا أيزيديًّا تقليديًّا ورِعًا. كان يعقد شعره بضفائر طويلة ويغطي رأسه بقماشة بيضاء. وعندما كان «القوّالون»، وهم رجال دين يعزفون الناي ويدقّون على الطبول ويردّدون التراتيل في تعاليمهم، يزورون كوجو، كان أبي من بين أولئك الذين يتوجّهون لاستقبالهم. وكان شخصيّة بارزة في الجفات، أو الديوان، حيث يجتمع الرجال مع المختار لمناقشة مسائل تواجه سكّان القرية.

كان الظلم يصيب من أبي مقتلًا أكثر من أي إصابة جسديّة، إذ كانت عزّته مصدر قوّته. وأولئك القرويّون المقرّبون منه كانوا يحبّون سرد القصص حول بطولاته، كمثل إنقاذه أحمد جاسو من بين يدي قبيلة مجاورة أصرّت على قتل مختارنا، أو عندما فرّت جياد عربيّة أصيلة تعود لشيخ قبيلة عربيّة سنّية من اسطبلها، فاستخدم أبي مسدّسه للدفاع عن خَلَف، وهو مزارع فقير من كوجو، اكتُشف أمره وهو يمتطي أحد الجياد في حقل مجاور.

وبعد وفاته، كان أصدقاؤه يردّدون حكايات عن مآثره على مسامعنا من غير أن تخفّف السنون التي مرّت من وطأة انبهارهم. «كان أبوكم يسعى دائمًا للقيام بما هو صحيح. ويحكون كيف أنه في إحدى المرّات، سمح لثائر كردي فرّ من الجيش العراقي أن ينام في منزله، مع أن الثائر قاد الشرطة إلى عتبة منزله». وتقول القصة إنّه عندما تم اكتشاف الثائر، أرادت الشرطة احتجاز الرجلين، لكن أبي نجح في إخراج نفسه من المأزق، قائلًا للشرطة: «أنا لم أساعده بسبب السياسة. بل ساعدته لأنّه رجل وأنا رجل». فأطلقوا سراحه.

ويتذكّر أصحابه كيف «تبيّن أن هذا الثائر هو صديق لمسعود برزاني!».

ومع أن والدي لم يكن متنمّرًا، إلّا أنّه لم يكن يتوانى عن القتال لو اضطر لذلك. فقد بصره في عين واحدة في حادث مزرعة، وما تبقّى في فجوة العين من كرة بيضاء صغيرة تبدو ككلّة كنتُ ألهو بها في صغري، كانت تمنحه تلك الهالة المخيفة. كنتُ غالبًا ما أفكّر منذاك الحين أنّه لو كان أبي على قيد الحياة عندما دخل تنظيم الدولة الإسلاميّة كوجوء لكان قاد انتفاضة مسلّحة ضد الإرهابيين.

بحلول العام 1993، في السنة التي ولدتُ فيها، كانت العلاقة بين والديّ تتداعى، وكانت أمّي تعاني كثيرًا. كان ابن أبي البكر من زوجته الأولى قد قتل قبل سنوات قليلة في الحرب الإيرانيّة - العراقيّة، فأخبرتني أمّي أنه بعد ذلك، لم تعد تستوي الأمور بينهما كما في السابق. ثم أحضر أبي إلى المنزل امرأة أخرى، اسمها سارة، تزوّجها وباتت تعيش مع أولادها في طرف من المنزل الذي لطالما اعتبرته أمّي منزلها. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن تعدّد الزوجات لا يُعتبر خروجًا عن القانون

لدى الأيزيديّين، لكنه أمرٌ لا يستسيغه الجميع في كوجو. إلّا أنّ أحدًا لم يطرح أي سؤال على أبي. ففي الفترة التي تزوّج بها بسارة، كان يملك عددًا ملحوظًا من الأراضي والأغنام، وفي وقت جعلت فيه العقوبات والحرب مع إيران من الصعب على أيّ كان الصمود في العراق، كان يحتاج أبي لعائلة كبيرة تعينه، أكبر ممّا تقوى أمّي على تقديمه.

ما زلت أجد صعوبة في انتقاد أبي على زواجه من سارة. فأيّ كائن حيّ ترتبط ديمومته بشكل مباشر بعدد رؤوس البندورة التي يجنيها في السنة أو بحجم الوقت الذي يقضيه وهو يرعى قطيعه في مراعٍ أكثر خضرة، يتفهّم حاجة أبي إلى زوجة أخرى وإلى المزيد من الأولاد. فهذه الأمور لم تعد شخصيّة. لكن لاحقًا، عندما هجر أمّي رسميًّا وأرسلنا لنعيش في مبنى صغير وراء منزلنا من دون لا مال ولا أرض، أدركتُ أن قراره الزواج بثانية لم يكن قرارًا لأسباب محض عملية. بل هو أحبّ سارة أكثر من أمّي. وتقبّلتُ ذلك، تمامًا كما تقبّلتُ أن ينفطر قلب أمّي عندما أحضر زوجة جديدة إلى المنزل. وراحت أمّي تقول لي ولأختيّ ديمال وأدكي بعد أن هجرنا أبي، «لن يحدث لكنّ ما حدث لي، بمشيئة الله». وأنا أردتُ أن أكون مثلها أشبهها في كلّ شيء، لكنّني لم أرِد أن يتم هجري.

لم يكن إخوتي كلّهم على الدرجة نفسها من التفهّم. فعلى سبيل المثال، استشاط مسعود مرّة غضبًا فراح يصرخ في وجه أبي «سيحاسبك الله على ما فعلتَ!». لكن مع ذلك، اعترفوا كلّهم بأن الحياة أصبحت على قدر من السهولة عندما لم تعد أمّي وسارة تعيشان تحت سقف منزل واحد تتنافسان فيه على شحذ انتباه أبي. وبعد سنوات قليلة، توصّلنا إلى التعايش معًا. فكوجو صغيرة، وغالبًا ما كنّا نراه مع سارة. كنتُ أمرّ أمام بيتهما، البيت الذي ولدتُ فيه، كلّ يوم في طريقي إلى المدرسة

المتوسّطة؛ كان كلبهما الكلب الوحيد الذي يعرفني ولا ينبح عندما أسير من أمامه. كنّا نقضي الأعياد معًا، إذ يصطحبنا أبي أحيانًا إلى مدينة سنجار أو إلى الجبل. في العام 2003، تعرّض أبي لذبحة قلبيّة، فبتنا كلّنا نتأمّل أبي القويّ يتحوّل رجلًا كهلًا عليلًا، أسير كرسيّ متحرّك في المستشفى. وعندما فارق الحياة بعد أيّام قليلة، بدا وكأن المنية وافته خجلًا من إعيائه أكثر من نتيجة قلبه الضعيف. أما مسعود، فشعر بالندم من صراخه آنذاك بوجه أبي. كان يفترض أبانا قويًّا قادرًا على تلقّف أي شيء.

كانت أمّي امرأة بالغة التقوى، تؤمن بالعلامات والأحلام التي يفسّرها العديد من الأيزيديّين لفهم الحاضر، أو توقّع المستقبل. فعندما كان يتحوّل القمر في السماء هلالًا، كنتُ أجدها في الباحة الخارجيّة، تضيء الشموع. فتشرح لي أن «في هذه الفترة، يكون الأطفال عرضة للأمراض والحوادث. أنا أدعو ألّا يصيب أيًّا منكم مكروه».

كنت غالبًا ما أصاب بأوجاع في معدتي، فتأخذني أمّي إلى المطبّبين الأيزيديّين الذين يعطونني أعشابًا وشايًا، فتحثّني على شربه ولو كرهتُ طعمه. وعندما كان يموت أحدهم، كانت تزور الكوجك، وهو رجل روحاني أيزيدي، يساعد على التثبّت من أن المرحوم قد انتقل إلى الحياة العلى. وكان معظم الحجّاج الأيزيديّين يأخذون حفنة من التراب قبل أن يغادروا لالش، وهو سهل في شمال العراق يحتضن معابدنا المقدّسة، فيغلّفون حفنة التراب بقطعة قماش صغيرة ويجعلونها على شكل مثلّث يحتفظون به في جيوبهم أو في محفظتهم كتعويذة. ولم تكن أمّي لتدع نفسها من دون ذلك التراب المقدّس، ولا سيّما بعد أن بدأ إخوتي يغادرون المنزل للخدمة في الجيش. فكانت تقول: «هم يحتاجون لكل الحماية الممكنة يا نادية. فما يفعلونه خطير».

كما كانت أمّي نشيطة تكدّ في عملها، وتحاول قدر المستطاع أن تجعل حياتنا أفضل. وإذا كان الأيزيديّون من بين أفقر المجتمعات في العراق، إلّا أن عائلتي كانت فقيرة حتى وفق معايير كوجو، لا سيّما بعد انفصال أهلي. فقضى إخوتي سنوات يحفرون الآبار بأيديهم، يهبطون برويّة داخل الأرض الكبريتيّة الرطبة، إنشًا بعد إنش، مخافة أن يكسروا عظامهم. كما عملوا مع أمّي وأخواتي في زراعة أراضي آخرين، يأخذون نسبة هزيلة من أرباح محصول البندورة والبصل الذي يجنونه. في السنوات العشر الأولى من حياتي، كنّا نادرًا ما نأكل اللحم على العشاء، بل نعيش على الخضار المسلوقة، بينما كان إخوتي يردّدون أنّهم ما كانوا ليشتروا سروالًا جديدًا قبل أن تظهر سيقانهم من السراويل القديمة.

لكن وضعنا، كما وضع الكثيرين من الأيزيديّين، تحسّن تدريجيًّا، بفضل جهد أمّي الكبير والنمو الاقتصادي الذي شهده شمال العراق بعد العام 2003. فحصل إخوتي على وظائف كحرس حدود ورجال شرطة عندما فتحت الحكومات المركزيّة والكرديّة باب التوظيف أمام الأيزيديّين. وكان عملًا محفوفًا بالمخاطر - إذ التحق أخي جلو بوحدة للشرطة تحرس مطار تلّعفر الذي خسر عددًا من رجاله في القتال في السنة الأولى - لكنّ الراتب كان جيّدًا. في النهاية، تمكّنا من الانتقال من أرض أبي إلى منزلنا الخاص.

كان أولئك الذين يعرفون أمّي بمعتقداتها الدينيّة الراسخة وأخلاقيّاتها في العمل يتفاجأون كم يمكن أن تكون مسلّية، وكيف تعمد إلى تحويل مشقّاتها إلى لحظات مرح. فكانت تتمتّع بأسلوب ساحر في السخرية لم تكن لتكبته أمام أي شأن، ولا حتّى حقيقة أنّها لن تتزوّج بالتأكيد مرة أخرى. ففي أحد الأيام، بعد سنوات على طلاقها من أبي، زار كوجو

رجل سعى إلى لفت أنظار أمّي. وعندما سمعت أنه يقف عند الباب، التقطت عصا وركضت خلفه تطلب منه الذهاب بعيدًا، وتصرّ على أنها لن تتزوج مرّة أخرى. عندما عادت إلى الداخل، كانت تضحك. «يا ليتكم رأيتم كم كان خائفًا!». راحت تخبرنا وهي تقلّده حتى شاركناها الضحك. وقالت: «لو كنتُ لأتزوّج مجدّدًا، فبالتأكيد ليس برجل يهرب من امرأة عجوز تحمل عصا!».

كانت تسخر من كل شيء - من هجر أبي لها، ومن انبهاري بالشعر والتبرّج، ومن فشلها الشخصي. كانت قد بدأت تحضر صفوفًا لمحو الأمّية قبل أن أولد، وعندما أصبحتُ يانعة ما يكفي، بدأتُ أدرّسها أنا بنفسي. كانت سريعة البديهة، ربّما لأنّها قادرة على السخرية من أخطائها.

عندما كانت تتكلّم عن تلك المشقّة للحصول على حبوب منع الحمل قبل أن تنجبني، كانت كما لو أنّها تخبر قصّة من كتاب قرأته منذ زمن ولم تحفظ منه إلّا خطوطه العريضة. فتَردّدها في الحمل بي كان مضحكًا لأنها الآن لا تستطيع تخيّل الحياة من دوني. فكنتَ تراها تضحك كيف أحبّتني لحظة وقع بصرها عليّ، وكيف أنّني كنتُ أقضي كل صباح أحدّثها في دفء الفرن بينما تعدّ الخبز. كنّا نضحك لأنّني كنتُ أشعر بالغيرة كلّما غنّجت أخواتي أو أنسبائي بدلاً منّي، ولأنّني تعهّدتُ ألّا أترك المنزل، ولأنّنا نمنا في السرير نفسه من اللحظة التي ولدتُ فيها إلى أن دخل تنظيم الدولة الإسلاميّة إلى كوجو فشتّتنا. كانت أمّنا وأبانا في الوقت نفسه، وبتنا نحبّها أكثر عندما كبرنا وأصبحنا نعي كم عانت في حياتها.

ترعرعتُ في منزلي أتعلّق به ولا أخال نفسي يومًا أعيش في أيّ مكان آخر. قد تبدو كوجو بالنسبة للغير رقعة على هذه الأرض مدقعة

الفقر لا يمكن لأهلها أن يكونوا سعداء، وشديدة الانعزال، عقيمة لا يمكن أن تكون إلّا فقيرة بائسة. ولا بدّ من أن الجنود الأميركيّين قد خرجوا بهذا الانطباع عندما أتوا إلى البلدة، بعد أن اجتاحهم الأطفال أسرابًا وفرادى يشحذون الأقلام والسكاكر. وكنتُ واحدة من أولئك الأطفال، أطلب أشياء منهم.

كان الساسة الأكراد يزورون كوجو أحيانًا، وإن اقتصرت زياراتهم على السنوات الأخيرة ليس إلا، وتحديدًا قبل الانتخابات. وقد فتح أحد الأحزاب الكرديّة، الحزب الديمقراطي الكردستاني التابع لبرزاني مكتبًا صغيرًا من غرفتين في كوجو بعد العام 2003، لكنّه بدا نادِيًا يلتقي فيه رجال البلدة المنتمون إلى الحزب أكثر منه مقرًّا حزبيًّا. وقد اشتكى عديدون في المجالس الخاصة من أن الحزب الديمقراطي الكردستاني كان يضغط عليهم لدعم الحزب والقول إن الأيزيديّين هم أكراد وسنجار هي جزء من كردستان. في المقابل، كان الساسة العراقيّون يتجاهلوننا، بينما سعى صدام في السابق إلى إرغامنا على الإعلان أنّنا عرب، كما لو أنه يمكن للمرء تهديدنا من أجل التخلّي عن هويّتنا، وأنه ما إن نقوم بذلك حتى نتخلّى عن فكرة الثورة إلى الأبد.

كان مجرّد العيش في كوجو يُعتبر بطريقة أو بأخرى، تحدّيًا بحدّ ذاته. في منتصف سبعينات القرن الماضي، بدأ صدّام يجبر الأقلّيات على الانتقال، بمن فيهم الأكراد والأيزيديّون، من قراهم وبلداتهم إلى مجمّعات سكنيّة من الطوب حيث يمكن السيطرة عليهم بسهولة، في حملة أطلق عليها الناس لفظة «تعريب» الشمال. لكنّ كوجو كانت نائية بعيدة عن الجبل، ما جنّبها كأس النزوح المرّة. وهكذا، كانت التقاليد الأيزيديّة التي باتت بالية في تلك المجتمعات الجديدة تزدهر في

قريتي. فترى النساء يرتدين فساتين بيضًا شفّافة وأوشحة على رؤوسهن ورثنها عن جدّاتهن؛ بينما تتميّز حفلات الزفاف المترفة بالموسيقى الأيزيديّة والرقص؛ وكنّا نلتزم الصيام تكفيرًا عن ذنوبنا في الوقت الذي تخلّى فيه العديد من الأيزيديّين عن تلك العادة. كنّا نشعر بالأمان، حتّى إن الاحتكاك، أو حتى الاقتتال حول قطعة أرض، أو حول زواج، يبدو أمرًا ثانويًا. أقلّه لم يكن ليؤثّر أيّ من ذلك على مدى حبّ الواحد منّا للآخر. فكان سكّان البلدة يزورون بعضهم البعض ليلًا ويمشون في الشوارع بلا خوف. وقد سمعتُ زائرين يقولون إن كوجو في الليل تبدو، عن مسافة، متلألئة في الظلمة. وتقسم أدكي أنّها سمعت يومًا أحدهم يصفها بأنّها «باريس سنجار».

كانت كوجو بلدة صغيرة تعجّ بالأولاد. وثمّة عدد من القرويّين قد هرموا ما يكفي فيها ليكونوا شاهدين على الفرمان الأول، لذا، كان يخال معظمنا أن تلك الأيّام قد ولّت إلى غير رجعة وباتت من الماضي، وأن العالم قد بلغ من الحداثة والحضارة ما يحول دون أن تُقتَل مجموعة كاملة بسبب دينها. أقلّه هكذا كنتُ أشعر أنا. فقد كبرنا ونحن نسمع قصصًا عن المجازر الماضية وكأنّها حكايات شعبيّة ساعدت في لُحمتنا. ففي إحدى القصص، كانت صديقة لأمّي تصف كيف هربت، مع أمّها وأختها، من القمع في تركيا، حيث عاش عدد من الأيزيديّين في السابق. وكيف علِقن لأيّام في مغارة من دون أي قوت، حتى اضطرّت الأم إلى غلي الجلد كي يستطعن الصمود. ومع أنني سمعتُ هذه القصص عددًا كثيرًا من المرّات، إلّا أنّني ما انفكّيتُ أشعر بالغثيان في كل مرة. فلم أكن أخالني أستطيع أكل الجلد، وإن كنتُ أتضوّر جوعًا. لكنّها كانت بالنسبة لي في ذلك الحين قصّة ليس إلّا.

في الواقع، يمكن للحياة في كوجو أن تشكّل وزرًا يصعب على كثيرين تحمّله. فهؤلاء الأولاد كلّهم، أيًا كان حجم الحب الذي يحصلون عليه من أهلهم، كانوا يشكّلون عبئًا عليهم، إذ يتعيّن على الأهل أن يشتغلوا ليل نهار كي يطعِموا عوائلهم. وعندما كنّا نمرض، ولم يكن في الإمكان مداواة المرض بالأعشاب، كانوا يضطرّون لأخذنا إلى مدينة سنجار، أو إلى الموصل لاستشارة طبيب. وعندما كنّا نحتاج ملابس جديدة، كانت أمّي تخيطها لنا، أو عندما بتنا أثرياء بعض الشيء، كنّا نشتريها مرّة في السنة من سوق المدينة. خلال السنوات التي فرضت فيها الأمم المتّحدة عقوبات على العراق، تهدف إلى إجبار صدّام على التنحّي عن السلطة، كنّا نبكي عندما أصبح من المستحيل أن نجد سكّرًا. وعندما تمّ أخيرًا بناء مدارس في القرية، مدرسة ابتدائيّة في البداية، ثم بعد سنوات عديدة، مدرسة ثانويّة، كان على الأهل أن يقيسوا منافع تعليم أولادهم مقابل إبقائهم من دون تعليم لمؤازرتهم في العمل. فالأيزيديّون المتوسّطو الحال كانوا قد حرموا التعليم - ليس من قبل الحكومة العراقيّة وحسب، بل من رجال الدين الذين خشوا من أن يشجّع التعليم الرسمي على الزيجات المختلطة وتاليًا التخلّي عن الدين وخسارة الهويّة الأيزيديّة - ، لكن بالنسبة للأهل، كان التخلّي عن العمالة المجّانيّة بمثابة تضحية كبرى. لأي مستقبل، يتساءل الأهل، ولأي وظائف، وأين؟ فما من عمل في كوجو، والحياة المستقرّة خارج البلدة، بعيدًا عن الأيزيديّين الآخرين لا تجذب سوى الذين بلغ بؤسهم حد عدم الاحتمال، أو المغالين في طموحهم.

قد يتحوّل حب الأهل بسهولة إلى مصدر ألم. فالحياة في المزرعة كانت محفوفة بالمخاطر، وغالبًا ما تقع الحوادث. وتشير أمّي إلى

اللحظة التي تحوّلَت فيها من فتاة يانعة إلى امرأة راشدة، عندما توفّيت أختها الكبرى بعد أن سقطت من على ظهر جرّار مسرع فدُهست في وسط حقل قمح العائلة. وقد يكون علاج الأمراض أحيانًا باهظ الثمن. فقد خسر أخي جلو وزوجته جنان الرضيع تلو الآخر نتيجة مرض موروث عن عائلة جنان. وكانا فقيرين لا يقويان على شراء الأدوية أو أخذ الأطفال إلى الطبيب، فتوفّي أربعة من ثماني ولادات.

في المقابل، سلب الطلاق أختي ديمال أولادها منها. ففي المجتمع الأيزيدي، كما في سائر العراق، لا تحصل النساء سوى على قلّة قليلة من الحقوق عندما ينتهي الزواج، أيًا كان السبب الذي أدّى إلى إنهائه. من جهة أخرى، توفّي أولاد كثيرون في الحروب. أمّا أنا، فقد ولدتُ بعد عامين على حرب الخليج الأولى، وخمسة أعوام على انتهاء الحرب الإيرانيّة - العراقيّة، وهي نزاع عقيم امتدّ على فترة ثمانية أعوام يبدو وكأنّه كان يلبّي رغبة صدّام بتعذيب شعبه أكثر منه أي أمر آخر. وباتت ذكرى هؤلاء الأولاد الذين لن نراهم مجدّدًا، تعيش كالأشباح في منزلنا. فقد قصّ أبي ضفائره عندما قُتل ابنه البكر، ومع أن أحد إخوتي قد سمّي باسم ذلك الولد، إلّا أن أبي لم يحتمل إلا مناداته باسم مستعار وهو «حزني»، تجسيدًا لألمه.

كنّا نقيس حيواتنا بحسب المحاصيل والأعياد الأيزيديّة. وقد تكون الفصول قاسية أحيانًا. ففي الشتاء، تمتلئ أزقّة كوجو بوحل أشبه بالإسمنت يشدّ بأحذيتنا فينزعها من أقدامنا، وفي الصيف، يشتدّ القيظ، حتّى لنضطرّ إلى سحب أنفسنا إلى المزرعة ليلًا، خشية أن ننهار تحت أشعة الشمس نهارًا. وفي بعض المواسم، تخذلنا المحاصيل، وعندما يحصل ذلك، تخيّم الكآبة لأشهر، أقلّه حتى نقوم بزرع الجولة التالية

من البذور. وفي مرّات أخرى، أيًا كان حجم المحاصيل، لم نكن لنجني ما يكفي من المال. فقد تعلّمنا من كيسنا – عبر تحميل المنتجات إلى السوق ثم مشاهدة الزبائن يقلّبون الخضار بين أيديهم قبل أن يفلتوها ويديروا لنا ظهورهم – ما الذي يبيع وما الذي لا يبيع. فكان القمح والشعير الأكثر ربحيّة. أما البصل، فيُباع، من غير أن يحقّق الكثير. وغالبًا ما كنّا نطعم البندورة الناضجة لماشيتنا، للتخلص من الفائض منها.

ومع ذلك، أيًا تكن المشقّة، لم أرِد يومًا أن أعيش في أي مكان غير كوجو. صحيح أن الأزقّة قد تغرق بالوحل في الشتاء، لكن لم يكن الواحد منّا مضطرًا إلى قطع مسافة طويلة لرؤية من يحب. وفي الصيف، صحيح أن القيظ كان يشتدّ، لكنّ ذلك يعني أنّنا ننام كلّنا على السطح، جنبًا إلى جنب، نتسامر ونضحك مع جيراننا المتمدّدين على سطوحهم. كان العمل في المزرعة شاقًا، لكنّنا ما كنّا نجنيه من المال على قلّته كنّا نراه كافيًا لنعيش حياة كريمة سعيدة. كنتُ أحب قريتي حبًا جعلني وأنا صغيرة ألعب لعبتي المفضّلة، وهي استحداث كوجو مصغّرة من الصناديق الفارغة وبعض القمامة. وكنّا نملأ أنا وكاثرين هذه المنازل النماذج بدمى خشبيّة يدويّة الصنع ثم نزوّجها لبعضها البعض. وبالطبع، قبل كل زواج، كانت الدمى الإناث تزور المنزل الفخم الذي أعددته من صندوق بندورة بلاستيكي، حيث كنتُ أدير صالون التجميل.

والأهم من ذلك، لم أكن لأغادر كوجو يومًا، لأن عائلتي تعيش هناك. فقد كنّا قرية صغيرة بأنفسنا. كان لدي ثمانية إخوة: إلياس، الأكبر سنًا، وكان يتصرّف بمثابة أبٍ لنا. أمّا خيري، فكان أول من خاطر بحياته وعمل حارس حدود ليساعد على إطعامنا. بيز، وكان عنيدًا

وفيًّا يستحيل أن يسمح بإصابتنا بمكروه. ثم يأتي مسعود الذي أصبح أفضل ميكانيكي (وأحد أفضل لاعبي كرة القدم) في كوجو، وتوأمه سعود الذي كان يدير متجرًا صغيرًا في البلدة. أما جلو، فكان يفتح قلبه للجميع، حتّى للأغراب. وسعيد كان مفعمًا بالحياة شقيًّا يتوق لكي يصبح بطلًا، غير أن حزني، الحالم، كان من نتنافس كلّنا على عطفه. أما أختايَ، ديمال الهادئة الحنونة وأدكي التي قد تتقاتل يومًا مع إخوتي ليتركوها، هي المرأة، تقود الجرار، وتنتحب في اليوم التالي على خروف سقط صريعًا في فنائنا – فكانتا تعيشان معنا في المنزل. وإخوتي غير الأشقاء، خالد ووليد وحجّي ونواف، وأختاي غير الشقيقتين حلم وهيام، كانوا كلّهم يعيشون على مقربة منّا.

كوجو هي المكان الذي كرّست فيه أمّي شامي، كسائر الأمّهات الصالحات، حياتها لضمان قوتنا وحُسن تدبير حياتنا. لم تكن كوجو المكان الأخير الذي رأيت فيه أمّي، لكنّ كوجو حيث هي عندما أتذكّرها، وهذا ما أفعله كلّ يوم. حتّى في خلال أسوأ سنوات العقوبات، كانت تحرص على أن نحصل على ما نحتاج. وعندما كانت تفتقد للمال لشراء الأطايب، كانت تعطينا الشعير لنستبدله بالعلكة في المتجر المحلّي. وعندما كان يأتي تاجر إلى كوجو يبيع فستانًا لا نقوى على تسديد ثمنه، كانت تفاوضه لشرائه بالدين: «افرحوا فقد أصبح منزلنا أوّل منزل يزورونه عندما يأتون إلى كوجو!»، كانت تقول لإخوتي ممازحة إذا ما اشتكوا من الدَّيْن.

ترعرعَت أمّي فقيرة ولكنها بذلت كل جهد حتى لا نختبر العوز يومًا. ولم يتوانَ القرويّون عن مساعدتنا، فكانوا يعطوننا كمّيات قليلة من الطحين أو الكسكس كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. وفي إحدى

المرّات عندما كنتُ طفلة صغيرة، كانت أمّي عائدة إلى المنزل من المطحنة وليس في كيسها سوى القليل القليل من الطحين، فأوقفها عمّها سليمان. وسألها مستفسرًا: «أعلم أنّك بحاجة للمساعدة. لمَ لا تأتين إليّ؟».

في البداية، هزّت رأسها نفيًا، وقالت: «نحن بخير يا عمّي. نملك كلّ ما نحتاجه». لكن سليمان أصرّ، «لديّ الكثير من القمح، فلتأخذي البعض منه». وما هي إلّا ساعات حتى وصلتنا أربع جرار ضخمة من القمح، ما يكفي لصنع الخبز لشهرين. لكن أمّي شعرت بِالخجل لاحتياجها للمساعدة، حتّى اخضوضلت عيناها بالدموع وهي تخبرنا ما حصل، وقد عاهدتنا وعاهدت نفسها أنّها ستجعل حياتنا أفضل. وهكذا فعلَت، يومًا بعد آخر. فكان حضورها يبعث على الطمأنينة حتى بوجود الإرهابيّين على مقربة منّا، إذ كانت تكرّر كل يوم، «الله يحمي الأيزيديّين».

كثيرة هي الأشياء التي تذكّرني بأمّي. اللون الأبيض. نكتة مضحكة ولربما فاضحة. طاووس، وهو ما يعتبره الأيزيديّون رمزًا مقدّسًا، والصلوات القصيرة التي أردّدها في ذهني عندما أرى صورة هذا الطير. على مدى واحد وعشرين عامًا، كانت أمّي محور كلّ يوم يمرّ. ففي كلّ صباح، كانت تستيقظ باكرًا لتصنع الخبز، فتجلس على خشبة أمام فرن التنّور الذي كنا نحرص على وجوده في فنائنا، فترقّ كريات العجين وتلطمها على جوانب الفرن حتى تنتفخ وتتقمّر فتصبح جاهزة لنغطّسها في أطباق زبدة الغنم الذهبيّة الذائبة.

في كلّ صباح، على مدى واحد وعشرين عامًا، كنت أستيقظ على لطم، ولطم، ولطم العجين البطيء على جوانب الفرن ورائحة الزبدة

الزّكيّة، فأطمئن أن أمّي على مقربة منّي. وكنتُ ألتحق بها أمام التنّور وأنا نصف غافية، فأدفئ يديّ شتاء بحرارة النار، وأشرع أحدّثها عن كلّ شيء - المدرسة وحفلات الزفاف والعراك مع الأقارب. كنتُ لسنوات على قناعة بأن الأفاعي تضع بيضها على ألواح الزنك الذي يشكّل سقف حوض استحمامنا الخارجي. فأصرّ أمامها: «أنا سمعتها!». وأروح أقلّد أصوات الفحيح. لكن جلّ ما تفعله كان الابتسام لي، وأنا أصغر أولادها. في المقابل، كان أقربائي يسخرون منّي: «نادية تخاف من الاستحمام بمفردها!». وحتى عندما وقعت أفعى صغيرة على رأسي، لتدفعنا أخيرًا إلى إعادة بناء الحمام، عليّ أن أقرّ بأنّهم كانوا على حقّ نوعًا ما. فأنا لم أرغب يومًا بالبقاء وحيدة.

كنتُ أنتقي حروف الخبز الطازج المحروقة، أتناولها بينما أطلعها على مخطّطاتي للمستقبل. لن أصفّف الشعر في الصالون الذي خطّطتُ لافتتاحه في منزلنا وحسب، بل نحن نملك ما يكفي من المال لتقديم الكحل وظلال العينين التي باتت شائعة في مدن خارج كوجو. سأقدّم خدمة التبرّج بعد أن أعود إلى المنزل من حصة تعليم التاريخ في المدرسة الثانويّة. فتومئ أمّي برأسها موافقة. «كل ما تريدينه يا نادية، شرط ألّا تتركيني»، تقول ذلك، قبل أن تغلّف الخبز السخن بالقماش. فأجيبها: «بالطبع يا أمّي. لن أتركك ما حييت».

الفصل الثالث

يؤمن الأيزيديّون بأن الله قبل أن يخلق الإنسان، خلق سبعة مخلوقات سماويّة، غالبًا ما نسمّيها ملائكة، وهي انعكاس لصورته. فبعد تشكيل الكون من أجزاء كرة لؤلؤيّة الشكل، أرسل الله رئيس الملائكة، الطاووس ملك إلى الأرض، حيث تدثّر على شكل طاووس، فلوّن العالم بألوان ريشاته الزاهية.تروي القصة أن على الأرض رأى طاووس ملك آدم، الإنسان الأول، والذي أمر الله ملائكته بالسجود له لكي يكون خالداً ومثالياً، الأمر الذي رفضه طاووس قائلاً لله، السجود لك وحدك ولا يمكن السجود لغيرك، وإنه لو كان لآدم أن يتكاثر فلا يمكنه أن يكون خالداً ولا يسعه أن يكون مثالياً بل عليه أن يأكل القمح، فردَّ الله على ملاكه بأن القرار قراره وكرَّمه وجعله رئيساً للملائكة وكان ذلك بمثابة امتحان للملائكة وهل أنهم مستعدون أن يسجدوا لغير الله، وهكذا أكل آدم القمح فنزل من الجنة إلى الأرض وولد الجيل الثاني من الأيزيديين.

وتأكيدًا على جدارته أمام الله، أصبح الطاووس ملك الرابط بين الله والأرض، والرابط بين الإنسان والسماوات. عندما نصلّي، غالبًا ما نصلّي للطاووس ملك، ونحتفل في رأس السنة بيوم نزوله على الأرض. وكيفما تنقّلتَ، وجدتَ صورًا ملوّنة للطاووس تزيّن العديد من المنازل الأيزيديّة، لتحثّنا دائمًا على التذكّر أنّنا موجودون كلّنا هنا، نتيجة حكمته

الإلهيّة. ويحب الأيزيديّون الطاووس ملك لإخلاصه اللامتناهي لله، ولأنّه يربطنا بإلهنا الواحد الأحد. لكن المسلمين العراقيّين يحتقرون الطاووس ملك ويشهّرون بنا لقيامنا بالصلاة له، ويفعلون ذلك لأسباب لا تمتّ إلى قصصنا بأي صلة.

يؤلمني قول ما يلي، حتّى إنّه لا يفترض بالأيزيديّين أن يتفوّهوا بالكلمة، لكن العديد من سكان العراق يستمعون إلى قصّة الطاووس ملك ويعتبروننا عبَدة للشيطان. فيقولون إن الطاووس ملك هو الملاك الرئيس لدى الله، مثل إبليس، الشيطان الوارد في القرآن. ويدّعون أن ملاكنا قد تحدّى آدم وتاليًا الله. ويروي البعض عن نصوص - قد كتبت على يد علماء في بداية القرن العشرين لم يكونوا على اطّلاع على تقاليد الأيزيديّين الشفويّة - تقول إن الطاووس ملك قد أُرسل إلى الجحيم لرفضه السجود أمام آدم، وهو ما ليس صحيحًا. فذلك سوء تفسير جليّ، تترتّب عليه تبعات مريعة. فالقصّة التي نستخدمها لشرح جوهر إيماننا وكل ما نؤمن به من صالح في الديانة الأيزيديّة هي القصة نفسها التي يستخدمها آخرون لتبرير المذابح ضدّنا.

تلك أسوأ كذبة انتشرت حول الأيزيديّين، لكنّها ليست الكذبة الوحيدة. فالناس يقولون إن الأيزيديّة ليست ديانة «حقيقيّة»، لأن لا كتاب مقدّسًا لها مثل الإنجيل أو القرآن. ولأن البعض منّا لا يستحم يوم الأربعاء - وهو اليوم الذي جاء فيه الطاووس ملك إلى الأرض للمرّة الأولى، ويوم الراحة والصلاة - ويقولون إنّنا نجسون. ولأنّنا نصلّي إلى الشمس، يعتبروننا وثنيّين. أمّا إيماننا بتناسخ الأرواح، الذي يساعدنا على التأقلم مع الموت والإبقاء على مجتمعنا متلاحمًا، فيرفضه المسلمون لأن أيًا من الديانات الإبراهيميّة لا تؤمن به. ويتفادى

بعض الأيزيديّين بعض الأطعمة، مثل الخسّ، فتتم السخرية منهم ومن عاداتهم الغريبة. كما لا يرتدي آخرون اللون الأزرق لأنهم يعتبرونه لون الطاووس ملك ويفوق بقدسيّته أي إنسان، فيتم الاستهزاء أيضًا بهذا الخيار.

كبرتُ في كوجو، من غير أن أعرف الكثير عن ديانتي. فقلة قليلة من الأيزيديّين يولدون ضمن الطبقة الاجتماعيّة الدينيّة، فهذه تتألف من الشيوخ والكبار في السن الذين يعلّمون سائر الأيزيديّين الدين. وقد بلغتُ سن المراهقة قبل أن تملك عائلتي ما يكفي من المال لترسلني إلى لالش كي تتم عمادتي، ولم يكن بإمكاني القيام بتلك الرحلة بشكل منتظم كي أتعلّم من الشيوخ الذين عاشوا هناك. وقد شتّتتنا الهجمات وفرّقنا الاضطهاد وقلّص من أعدادنا، حتى لبات من الصعب نشر قصصنا شفويًّا، كما يُفترض بنا فعله. ومع ذلك، كنّا سعداء أن يقوم رجال ديننا بحماية الأيزيديّة - وكان واضحًا، أنه لو وقع ديننا في الأيدي الخطأ، فلا أسهل من استخدامه ضدّنا.

ثمّة أمور يتعلّمها الأيزيديّون كلّهم منذ نعومة أظفارهم. فقد كنتُ أفهم الأعياد الأيزيديّة، وعلى وجه الخصوص كيف نحتفل بها، أكثر من إدراكي اللاهوت الكامن وراءها. فكنتُ أدرك أنّه في عيد رأس السنة الأيزيديّة، نزيّن البيض، ونزور ضريح العائلة، ونضيء الشموع في معابدنا. كما كنتُ أعرف أن أكتوبر هو أفضل شهر للذهاب إلى لالش، وهو سهل مقدّس في مقاطعة شيخان، حيث يرحّب بابا الشيخ، أرفع مقام روحي لدينا، وبابا الجاويش، حارس معابدنا، بالحجّاج. في شهر ديسمبر، نصوم ثلاثة أيّام تكفيرًا عن خطايانا. ولا يُسمح بالزواج من خارج ديننا؛ ولا اعتناق دين آخر. وقد تعلّمنا الفرمانات الثلاثة

والسبعين السابقة ضد الأيزيديّين، فباتت قصص الاضطهاد هذه تتداخل مع ما نحن عليه حتى تحوّلت قصصًا مقدّسة بحد ذاتها. كنتُ أعرف أن الدين يعيش في الرجال والنساء الذين ولدوا للحفاظ عليه، وأنا واحدة منهم.

علّمتنا أمّي كيف نصلّي: باتجاه الشمس في الصباح، ولالش خلال النهار، والقمر في الليل. ثمّة قواعد للصلاة، لكنها بمعظمها مرنة. فالصلاة يفترض أن تكون تعبيرًا شخصيًّا، لا ممارسة روتينيّة وطقوسًا فارغة. فيمكنك الصلاة بصمت في قرارة نفسك أو بصوتٍ عالٍ، ويمكنك الصلاة بمفردك أو ضمن جماعة، طالما أن كل من في هذه المجموعة من الأيزيديّين. وتترافق الصلوات مع عدد من الحركات، مثل تقبيل السوار الأحمر والأبيض الذي يتمنطق به العديد من النساء والرجال الأيزيديّين حول معاصمهم أو، بالنسبة للرجل، تقبيل ياقة قميصه الأبيض التقليدي.

كان معظم الأيزيديّين الذين نشأتُ معهم يصلّون ثلاث مرّات في اليوم، وفي أيّ مكان أو رقعة من الأرض. فقد صلّيتُ في الحقول، وعلى السطح، وحتى في المطبخ وأنا أساعد أمّي على تحضير الطعام، أكثر ممّا صلّيتُ في المعابد. بعد تلاوة أسطر قليلة ثابتة تمجّد فيها الله والطاووس ملك، يمكنك قول ما شئتَ. فكانت أمّي تقول لي: «أخبري الطاووس ملك ما يزعجك»، وترشدني إلى الحركات التي يتعيّن عليّ القيام بها. «إن كنتِ قلقة بشأن أحد تحبّينه، أخبريه ذلك، أو إن كنتِ خائفة من أمر ما. تلك هي الأمور التي يستطيع الطاووس ملك مساعدتك فيها». لكنّني كنتُ أدعو لمستقبلي - إنهاء المدرسة وافتتاح صالون التجميل الخاص بي - ومستقبل أقربائي وأمّي. أمّا الآن، فأجدني أدعو لديمومة ديني وبقاء شعبي على قيد الحياة.

لقد عاش الأيزيديّون على هذا النحو لفترة طويلة، فخورين بدينهم، وسعداء لبقائهم بمنأى عن المجتمعات الأخرى. لم نكن نملك أي طموح للاستحصال على المزيد من الأراضي أو السلطة، ولا شيء في الدين يأمرنا بالسطو على غير الأيزيديّين ونشر إيماننا. إذ لا يسع أحد اعتناق الأيزيديّة بأي حال من الأحوال. لكن طفولتي شهدت تغيّرًا ملحوظًا في مجتمعنا. فقد أحضر القرويّون التلفزيونات التي شاهدوا بواسطتها أوّلًا محطّات تابعة للدولة قبل أن تخوّلنا الصحون اللاقطة مشاهدة المسلسلات التركيّة والأخبار الكرديّة. وقد اشترينا أول غسّالة كهربائية بدت لنا كما السحر، على الرغم من أنّ أمّي استمرّت تغسل أوشحتها وفساتينها البيض التقليديّة يدويًّا. وقد هاجر عدد من الأيزيديّين إلى الولايات المتّحدة وألمانيا وكندا، ناسجين بذلك علاقات مع الغرب. وبالطبع تمكّن جيلي من القيام بأمر لم يكن بإمكان أهلنا أن يحلموا حتّى به، ألا وهو ارتياد المدرسة.

تمّ بناء أوّل مدرسة في كوجو في سبعينات القرن الماضي، في ظل حكم صدّام. لكنّها لم تكن تؤمّن التعليم إلّا للصف الخامس، وكانت الدروس باللغة العربيّة وليس الكرديّة، وتحمل كلّها طابَعًا قوميًّا صرفًا. وكانت المناهج الدراسيّة واضحة الوضوح كلّه حول مَنْ المهم في العراق، وأي ديانة يفترض اتّباعها. ولم تأتِ كتب التاريخ العراقي التي كنتُ أقرأها في المدرسة على أي ذكر للأيزيديّين، لا بل كان الأكراد يوصفون على أنهم مصدر تهديد للدولة. وكنتُ أقرأ التاريخ العراقي فيتكشّف أمام ناظريّ سلسلة من المعارك تزجّ بالجنود العراقيّين العرب ضد شعوب يُقال إنها قد تسلبهم أرضهم. كان تاريخًا دمويًّا يهدف إلى

جعلنا فخورين ببلادنا وبالقادة العظماء الذين طردوا المستعمرين البريطانيّين وانقلبوا على الملك، لكن تأثير ذلك جاء عكسيًّا عليّ. لاحقًا، رحتُ أفكّر بأن تلك الكتب قد تكون أحد الأسباب التي حملت جيراننا على الالتحاق بداعش أو أقلّه على عدم الإتيان بأي بفعل عندما هاجم الإرهابيّون الأيزيديّين. فما من أحد ارتاد مدرسة عراقيّة يرى أنّه يحقّ لنا أن نحمي ديننا، أو أنّ ثمّة ما هو سيىء أو حتى غريب في حروب لا هوادة فيها. لقد تعلّمنا العنف منذ أولى أيّامنا في المدرسة.

كانت بلادي تسحرني وأنا طفلة، إذ كانت تبدو لي وكأنّها كوكب بحدّ ذاتها، تتألّف من عدد من الأراضي المختلفة، حيث عملت عقود من العقوبات والحروب والسياسات السيّئة والاحتلال على تناحر الجيران بين بعضهم البعض. ففي أقصى الشمال العراقي، أكراد يتوقون للاستقلال. أمّا الجنوب، فيحتضن بمجمله المسلمين الشيعة، الأكثريّة الدينيّة والغالبيّة السياسيّة في البلاد اليوم. وفي وسط البلاد يتمركز المسلمون السنّة، الذين سيطروا في ما مضى، عندما كان صدّام حسين رئيسًا، على الدولة التي يحاربونها اليوم.

تلك هي الخارطة المبسّطة، التي ترتكز على ثلاثة خطوط ملوّنة، مرمّزة، مرسومة أفقيًّا نوعًا ما في البلاد. وهي تترك الأيزيديّين خارجًا أو تصنّفهم «الغير». ويصعب تصوير حقيقة العراق حتّى لمن عاش فيها. فخلال نشأتي في كوجو، كان القرويّون قلّما يتكلّمون في السياسة. بل جلّ ما كان يعنينا كانت دورة المحاصيل، ومَنْ يتزوّج، وما إذا كانت نعجة تدرّ الحليب - تلك الأمور التي يقوى على فهمها أي فرد من أفراد بلدة ريفيّة صغيرة. وكانت الحكومة المركزيّة، باستثناء حملات تجنيد الأيزيديّين للقتال في حروبها، أو للالتحاق بحزب، تبدو وكأنّها

غير مبالية لأمرنا. لكنّنا كنّا نفكّر كثيرًا في ما يعنيه أن نكون أقلّية في العراق، بين المجموعات الأخرى في فئة الـ«الغير» تلك، لا سيّما وأن الأيزيديّين، إذا ما أدخلوا إلى الخارطة، يقلّبون تلك الشرائط الأفقية الثلاثة إلى رخام مرقّط، ملوّن.

شمال كوجو، يظهر خطٌّ مرقَّمٌ على مقربة من الطرف الجنوبي لكردستان العراق الأماكن التي يعيش فيها التركمان، من المسلمين الشيعة والسنّة على حدّ سواء. أمّا المسيحيّون - ومن بينهم الأشوريّون والكلدانيّون والأرمن - فيعيشون في عدد من المجتمعات المشتّتة في البلاد، خاصة في سهل نينوى. وفي أماكن أخرى، تشير النقاط إلى منازل مجموعات صغيرة مثل الكاكائيّين والشبك والنوار والمندائيّين، إلى جانب الأفارقة وعرب الأهوار. وقد سمعتُ أنه في مكان يقع على مقربة من بغداد ثمّة جماعة صغيرة من اليهود العراقيّين. ينصهر الدين داخل الأعراق. فغالبيّة الأكراد على سبيل المثال هم من المسلمين السنّة، لكن بالنسبة إليهم، تأتي هويّتهم الكرديّة أوّلًا. ومعظم العراقيّين العرب هم من المسلمين الشيعة أو السنّة، وقد تسبّب هذا التقسيم - شيعة وسنّة - بالكثير من الاقتتال على مر السنين. غير أن قلّة قليلة من تلك التفاصيل ترد في كتب التاريخ العراقيّة.

كان عليَّ، كي أتوجّه من المنزل إلى المدرسة، أن أسير على الطريق المغبرة التي تدور حول طرف البلدة، فأمرّ من أمام منزل بشّار الذي قتلته القاعدة؛ ومن أمام المنزل الذي ولدتُ فيه، حيث يعيش أبي وساره؛ وأخيرًا من أمام منزل صديقتي ولاء. كانت ولاء جميلة، وجهها مستدير شاحب، تعمل بسلوكها الهادئ على التخفيف من حدّة ضوضائي. كانت كلّ صباح تهبّ خارجًا لملاقاتي في رحلة سيري إلى

المدرسة. فلا أسوأ من السير وحيدة، إذ إن الكثير من العائلات تسرح كلاب الحراسة في باحاتها، فتقف الحيوانات الضخمة في الحدائق، تنبح وتزمجر إذا ما مرّ عابر سبيل. وإذا كانت البوّابة مفتوحة، تراها تركض خلفنا مكشّرة عن أنيابها. لم تكن حيوانات وديعة؛ بل كانت كبيرة وخطيرة، فنعمد أنا وولاء إلى الركض سريعًا بعيدًا عنها، فنصل المدرسة لاهثتَين متعرّقتَين. وحده كلب أبي، الذي كان يعرفني، كان يتركنا في حال سبيلنا.

كانت مدرستنا عبارة عن بناء رتيب. شُيّدت من الخرسانة الترابيّة اللون وزُيّنت بملصقات باهتة وأُحيطت بجدار منخفض وحديقة صغيرة قاحلة. لكنْ أيًّا كان شكلها، كانت بمثابة أعجوبة أن نتمكّن من ارتيادها والدراسة والاجتماع بالأصدقاء. كنّا أنا وولاء وكاثرين نلعب في حديقة المدرسة مع زمرة من الفتيات الأخريات، لعبة تسمّى «بن آخه» وتعني بالكرديّة «في التراب». فكانت كلّ واحدة منّا تخبّئ في الوقت نفسه شيئًا ما – قطعة رخاميّة، أو عملة معدنيّة، أو حتّى سدّادة قنينة – في الأرض، ثم نركض كالمجانين نحفر حفرًا في الحديقة إلى أن يؤنّبنا معلّمنا فنعمد إلى مسح التراب عن أصابعنا الوسخة التي لا شك في أنّها ستُخرج حفيظة أمّهاتنا علينا. وكانت كل واحدة منّا تحتفظ بما تجد، وغالبًا ما تنتهي اللعبة بالدموع وهي لعبة قديمة، حتى أمّي تتذكّر أنّها كانت تلعبها في طفولتها.

على الرغم من الفجوات والظلم الذي كان يشوب الدروس، كان التاريخ مادّتي المفضّلة، حيث برعتُ. أمّا اللغة الانكليزيّة، فكانت أسوأ ما درست. وقد سعيتُ جهدي لأكون طالبة مجتهدة، وأنا أدرك أنّني بينما أدرس، يعمل إخوتي في المزرعة. وكانت أمّي من الفقر بحيث

لم يكن بإمكانها أن تشتري لي حقيبة ظهر مثل تلك التي يحملها غالبيّة التلامذة، لكنّني لم أشتكِ يومًا. فلم أكن أحب أن أطلب منها شراء أيّ شيء لي. وعندما لم تعد قادرة على تسديد رسوم سيّارة الأجرة لترسلني إلى مدرسة ثانويّة على بعد بضع قرى منّا ريثما يتمّ بناء واحدة في كوجو، توقفت عن الدراسة وعدتُ إلى مزاولة العمل في المزرعة، ورحتُ أنتظر وأدعو حتّى يتمّ إنجاز مبنى المدرسة سريعًا. فلا فائدة من الشكوى، إذ لن يظهر المال على حين غرّة، ولم أكن وحدي في كوجو مَن لا يستطيع أهله تحمّل تكاليف إرساله بعيدًا.

بعد أن اجتاح صدام الكويت في العام 1991، فرضت الأمم المتّحدة عقوبات على العراق، آملة أن يحدّ ذلك من قوّة الرئيس. لم أكن أفهم سبب العقوبات في نشأتي. فالشخصان الوحيدان اللذان كانا يتكلّمان عن صدّام في منزلي كانا شقيقيَّ مسعود وحزني، وذلك لمحاولة إسكات من يتذمّر خلال الخطابات المتلفزة، أو يبديان تململًا لدى مشاهدتهما أي حملة دعائيّة على المحطّة الرسميّة. وقد حاول صدّام كسب ولاء الأيزيديّين حتى يقفوا معه ضدّ الأكراد ويقاتلوا في الحرب، لكنّه قام بذلك عبر فرض التحاقنا بحزب البعث وإجبارنا على اعتبار أنفسنا عربًا وليس أيزيديّين.

أحيانًا كان كلّ ما تبثّه شاشة التلفاز صور صدّام بشخصه، يجلس وراء مكتبه يدخّن ويروي قصصًا عن إيران، وإلى جانبه حارس ذو شاربين، فيتواصل سرد المعارك بينما يمجّ سيجاره من ماركة بريانس. فيسأل أحد إخوتي الآخر: «عمّ يتكلّم؟»، ويستهجن الجميع. لم يأتِ الدستور على ذكر الأيزيديّين، وكانت أي إشارة لأي ثورة محتملة تعاقَب على الفور. أحيانًا، كانت تتملّكني رغبة بالضحك على ما أراه على التلفاز –

الديكتاتور وقبّعته المضحكة - لكن إخوتي كانوا يحذّرونني ألّا أفعل، فيقول مسعود: «هم يراقبوننا. انتبهي إلى ما تقولين»، لوزير مخابرات صدّام عيون وآذان في كل مكان.

كلّ ما كنتُ أدركه في تلك الفترة أن العراقيّين العاديّين وليس النخبة السياسيّة، وبطبيعة الحال ليس صدّام ومن حوله، كانوا أكثر من يرزح تحت ثقل العقوبات. فقد انهارت مستشفياتنا وأسواقنا. وبدأت أسعار الأدوية ترتفع وتتخطّى المعقول، بينما اختلط الطحين بالجبس الذي غالبًا ما يستخدم لصنع الاسمنت. وكان التراجع باديًا لي في المدارس. فبعدما كان النظام التعليمي في العراق يجتذب طلّابًا من الشرق الأوسط كلّه، بات يتداعى تحت العقوبات. وقد تدنّت رواتب الأساتذة إلى شبه لا شيء، حتّى بات من الصعب إيجاد أي معلّم، ووجد ما يناهز الـ50 بالمائة من العراقيين أنفسهم عاطلين عن العمل. وكان الأساتذة القلائل الذين قدموا إلى كوجو - وهم مسلمون عرب عاشوا في المدرسة والتحقوا بالأساتذة الأيزيديّين - بمثابة أبطال بالنسبة إليّ، وقد عملتُ جاهدة كي ألفت انتباههم.

عندما كان صدّام في السلطة، كانت المدرسة تؤدّي غاية واحدة جليّة: تقديم تعليم رسميّ كان يأمل بأن ينتزع منّا هويّتنا الأيزيديّة. وقد بدا ذلك واضحًا في كل درس وكل كتاب تعمّد ألّا يأتي على ذكرنا وذكر عائلاتنا وديننا، والفرمانات التي صدرَت في الماضي بحقّنا. وعلى الرغم من أن معظم الأيزيديّين قد نشأوا على اللغة الكرديّة، كانت دروسنا باللغة العربيّة. فالكرديّة كانت لغة الثورة، وكان يُنظر إلى الكرديّة التي يتكلّمها الأيزيديّون على أنها مصدر تهديد للدولة. ومع ذلك، كنتُ أذهب كلّ يوم إلى المدرسة بشغف، وقد تعلّمتُ اللغة

العربيّة سريعًا. ولم أكن أشعر بأنّني أخضع لصدّام أو أخون الأيزيديّين بتكلّمي بالعربيّة أو بدراستي تاريخ العراق المنقوص؛ بل كنتُ أشعر بتمكّني وذكائي. وكنتُ أواظب على تكلّم الكرديّة في المنزل وأدعو باللغة الكرديّة. وعندما كنتُ أكتب رسائل إلى ولاء أو كاثرين، كانت بطبيعة الحال بالكرديّة، ولم أكن أعتبر نفسي إلا أيزيديّة. وأستطيع القول إنه أيًّا كان ما تعلّمناه، إلا أنّ ارتياد المدرسة كان بالغ الأهمّية. فبعد أن بات الأولاد كلّهم في كوجو يحصلون على تعليم، تغيّرت علاقاتنا مع بلادنا ومع العالم الخارجي، وصار مجتمعنا أكثر انفتاحًا. فالأيزيديّون الصغار كانوا يحبّون ديننا، لكنّهم أرادوا في الوقت عينه أن يكونوا جزءًا من العالم. وعندما كبرنا وبتنا في ريعان الشباب، كنتُ على يقين بأنّنا سنصبح أساتذة بدورنا، نضيف تاريخ الأيزيديّين على دروس التاريخ، أو حتّى نترشّح للانتخابات البرلمانيّة، ونكافح لتحصيل الحقوق الأيزيديّة في بغداد. كان يعتريني إحساس في ذلك الوقت أن خطّة صدّام بالقضاء علينا ستنقلب عليه.

الفصل الرابع

في العام 2003، بعد مضيّ أشهر قليلة على وفاة أبي، اجتاح الأميركيّون بغداد. لم نكن نملك صحنًا لاقطًا لنتابع سير المعارك، ولا حتّى هواتف خلويّة تربطنا بسائر البلاد، لذا علمنا بالتدريج ومع الوقت كيف سقط صدّام سريعًا. كانت مقاتلات قوّات التحالف تحلّق في سماء كوجو بجلَبة وهي متّجهة إلى العاصمة، فتوقظنا من سباتنا؛ وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها طائرة. لم يكن لدينا في تلك الفترة أدنى فكرة كم ستطول الحرب ولا ما الذي ستخلّفه من تداعيات على العراق، لكن كنّا نأمل، بأبسط الأمور، أن نتمكّن بعد صدّام من شراء الغاز للطبخ.

ما أذكره تحديدًا من هذه الأشهر الأولى التي تلت الاجتياح كان خسارة أبي. ففي الثقافة الأيزيديّة، عندما يموت أحدهم - خاصّة إن جاءته المنيّة فجأةً وعاجله أجله باكرًا - تدوم فترة الحداد طويلًا وترخي بظلالها على البلدة بكاملها. فينكفئ الجيران عن عيش حياتهم الطبيعيّة مع عائلة الفقيد وأصدقائه. ويحلّ الحزن في كل بيت وكل متجر ويتنقّل عبر الشوارع كما لو أن مكروهًا واحدًا أصاب الجميع بعد تناولهم الحليب الفاسد نفسه. وتُلغى حفلات الزفاف وتنتقل

الاحتفالات بالأعياد إلى ما وراء الأبواب وتتّشح النسوة بالأسود بدل ثيابهن البيض. فنعامل الفرح وكأنّه لصّ علينا أن نأخذ حذرنا منه، إذ ندرك كم يسهل أن يمحو ذكرى من أحببنا وخسرنا، أو يجعلنا مكشوفين في لحظة فرح بينما يتعيّن علينا أن نكون مفجوعين، لذلك نعمد إلى الحدّ من وسائل تسليتنا وترفيهنا. فنطفئ أجهزة التلفاز والراديو، أيًّا كان ما يجري في بغداد.

قبل سنوات معدودة من وفاة أبي، أخذَنا أنا وكاثرين إلى جبل سنجار للاحتفال برأس السنة الأيزيديّة. تلك كانت المرّة الأخيرة التي زرتُ فيها الجبل برفقته. يحلّ رأس السنة عندنا في شهر أبريل، بينما تزدان التلال في شمال العراق بعشبٍ أخضر لمّاع ويتحوّل الصقيع القارس دافئًا عذبًا، قبل أن تجتاحك حرارة الصيف كما قطار سريع. وشهر أبريل هو الشهر الذي يحمل وعدًا بمحصول كبير مربح، ينقلنا إلى أشهر نقضيها خارجًا، فننام على السطوح، ونتحرّر من منازلنا الباردة المكتظّة. فللأيزيديّين علاقة خاصة بالطبيعة، إذ تُطعِمنا، وتحمينا، وعندما نموت، تلتحم أجسادنا بالأرض فتذوب فيها. ورأس السنة لدينا فرصة ليذكّرنا جميعًا بهذا.

في رأس السنة، كنّا نزور أي فردٍ من العائلة عمل كراعٍ هذا العام، فقاد ماشيتنا إلى الجبال وانتقل معها من حقلٍ إلى آخر كي ترعى. كان العمل بجزء منه مسليًا. فالرعاة ينامون تحت بطّانيّات حيكت على اليد ويعيشون حياة بسيطة، ويقضون وقتهم الطويل الفارغ في التفكّر، وقلّما يكون لديهم ما يقلقون بشأنه. لكنّه عمل مرهق في الوقت عينه، بعيدًا عن المنزل والعائلة. وبينما كان الحنين يدبّ فيهم، كنّا نشتاق إليهم في كوجو. في السنة التي تركتنا فيها أمي لتهتم بالماشية، كنتُ في المدرسة الإعداديّة،

وقد تملّكتني حالة من الاضطراب والذهول جعلتني أرسب في موادّي كلّها. «أنا عمياء البصر والبصيرة من دونكِ»، قلتُ لها عندما عادت.

في رأس السنة الأخير الذي قضيته مع أبي، جلسنا أنا وكاثرين على ظهر الشاحنة، بينما جلس أبي والياس في المقدّمة، يراقباننا بالمرآة الخلفيّة للتأكد من أنّنا لا نقدم على أيّ فعل متهوّر. كانت المناظر الطبيعيّة تمر خاطفة أمام ناظرَينا، فيتداخل في معالمها الضبابيّة العشب الأخضر الرطب والقمح الأصفر. كنّا نمسك بيديّ بضعنا البعض ونثرثر، فنعِدّ تصوّرًا معظّمًا لأحداث اليوم نستخدمه لاحقًا لنغيظ الأولاد الذين اضطرّوا للبقاء في المنزل. أمّا في ما يعنينا نحن، فستكون تلك التسلية التي لم يسبق لها مثيل، بعيدًا عن الحقول والمدرسة والعمل. فنقلب أنا وكاثرين من جهة إلى أخرى، بينما تسرع الشاحنة على الطريق، ونروح نتأمّل الغنمة المربوطة في الخلف على مقربة منّا، وهي أكبر غنمة رأيناها في حياتنا. ولدى عودتنا إلى المنزل، نخبرهم: «لقد أكلنا الكثير، الكثير من السكاكر»، ونجلس نتأمل الحسرة على وجوههم. «ورقصنا طوال الليل، وقد انبلج الفجر لحظة آوينا للنوم. يا ليتكم رأيتم ذلك».

غير أن القصّة الحقيقيّة كانت على درجة أقلّ بقليل من تلك الإثارة. فنادرًا ما كان أبي يمانع في شراء السكاكر التي كنّا نتوق إليها، وكان اللقاء عند سفح الجبل مع الرعيان بهيجًا على الدوام. أما الغنمة التي قَعَتْ في الواقع معنا في خلفيّة الشاحنة ثم ذبحها أبي وطبختها النسوة، فكانت طريّة شهيّة، وقد رقصنا كلّنا رقصات أيزيديّة، ممسكين بأيدي بعضنا البعض، ندور في حلقة واسعة. وبعد تناول أفضل ما قدّمته لنا الذبيحة وصمتت الموسيقى التي صدحت طويلًا، كنّا ننام في خيم

تحوطها أسوار منخفضة مصنوعة من القصب لتحمي من الريح. أمّا عندما يكون الطقس معتدلًا، فكنّا نزيل تلك الأسوار وننام في الهواء الطلق. كانت حياة بسيطة مخفيّة. فجلّ ما عليك القلق بشأنه كان الأشياء والناس من حولك، وكلّها على مرمى حجر منك.

لا أعلم كيف كان أبي لينظر إلى اجتياح الأميركيّين للعراق وإلى إطاحة صدّام من السلطة، لكنّني كنتُ آمل لو أنّه عاش ما يكفي ليشهد على تغيّر العراق. فالأكراد رحّبوا بالجنود الأميركيّين، وساعدوهم على دخول العراق، وشعروا بنشوة لا مثيل لها لدى خلع صدّام. فقد استهدف الحاكم المستبد الأكراد لعقود خلت، وفي أواخر ثمانينات القرن العشرين، حاولت قوّاته الجوّية إبادتهم بالأسلحة الكيماويّة في ما سمّاه حملة الأنفال. وقد حدّدت تلك المجزرة هويّة الأكراد الذين أرادوا حماية أنفسهم من الحكومة في بغداد بأي طريقة. وبسبب الأنفال، أنشأ الأميركيّون والبريطانيّون والفرنسيّون منطقة حظر جوّي فوق الشمال الكردي، وفوق المناطق الشيعيّة في الجنوب، لذا، كان الأكراد على استعداد لأن يكونوا حلفاء لهم. وإلى هذا اليوم، يسمّي الأكراد الاجتياح الأميركي في العام 2003 «تحريرًا»، ويعتبرونه بداية تحوّلهم من قرى صغيرة هشّة إلى مدن عصريّة كبرى تعجّ فيها الفنادق ومكاتب شركات النفط.

بشكل عام، رحّب الأيزيديّون بالأميركيّين، لكنّهم كانوا أقلّ ثقة من الأكراد بخصوص ما قد تؤول إليه حياتنا بعد صدّام. فالعقوبات قد جعلت حياتنا صعبة، كما حياة مجمل العراقيّين، وكنّا نعي جيّدًا أن صدّام حاكم مستبدّ حكم العراق بالترويع. وكنّا فقراء، معزولين عن العالم، مجبرين على القيام بأكثر الوظائف صعوبة وخطورة وأقلّها أجرًا

في العراق. لكن في الوقت نفسه، مع البعثيّين في السلطة، كان بإمكاننا في كوجو أن نمارس ديننا ونزرع حقولنا ونكوّن عائلاتنا. كانت تربطنا علاقات وثيقة بالعائلات العربية السنّية، ولا سيّما الكريف، الذين كنّا نعتبرهم جزءًا من عائلاتنا. وقد علّمنا انعزالنا أن نثمّن تلك الروابط بينما حملَنا فقرنا على أن نكون عمليّين قبل أي شيء آخر. لذلك، كانت بغداد والعاصمة الكرديّة إربيل تبدوان وكأنهما على بعد سنوات ضوئيّة من كوجو. فالقرار الوحيد الذي اتّخذه الأكراد والعرب الأثرياء النافذون، والذي كان يعنينا، كان قرار تركنا وشأننا.

ومع ذلك، فإن الوعود التي قطعها الأميركيّون - وقد تمحورت حول العمل والحريّة والأمن - سرعان ما جعلت الأيزيديّين يقفون بالكامل في صفّهم. فالأميركيّون وثقوا بنا لأنّنا لم نكن نملك أي سبب يحملنا على الولاء لمن يعتبرونه عدوًّا لهم، وهكذا أصبح عدد من رجالنا مترجمين، أو عملوا مع الجيشين العراقي، أو الأميركي. وقد اضطر صدّام إلى الاختباء، قبل أن يتم العثور عليه فيُشنق، ويتم تفكيك مؤسّساته البعثيّة. وهكذا فقد العرب السنّة، بمن فيهم المقرَّبون من كوجو، أي سلطة في البلاد، وفي الأجزاء الأيزيديّة من سنجار، واستُبدل رجال الشرطة والساسة من العرب السنّة بالأكراد.

تعتبر سنجار أرضًا متنازَعًا عليها - إذ تطالب بها كل من بغداد وكردستان على حدّ سواء - فهي على مقربة استراتيجيّة من الموصل وسوريا، وغنيّة فرضيًّا بالغاز الطبيعي. وكما كركوك، وهي أرض أخرى متنازَع عليها في شمال العراق، تَعتبر الأحزاب السياسيّة الكرديّة سنجار جزءًا من الأرض الكرديّة الكبرى. فبرأيهم، من دون سنجار، تولد الأمّة الكرديّة، إن أبصرت يومًا النور، ناقصة ومجتزأة. بعد العام 2003،

وبفضل الدعم الأميركي، ومع خسارة العرب السنة ثراءهم وقوّتهم، تولّى الأكراد، المناصرون للحزب الديمقراطي الكردستاني، عمليّة ملء الفراغ في سنجار بكل رحابة صدر. فأنشأوا مكاتب سياسيّة لهم وملأوها بأعضاء للحزب. ومع تصاعد التمرّد السنّي، فرضوا حواجز على طول طرقاتنا. وأخبرونا أن صدّام كان مخطئًا عندما سمّانا عربًا؛ فلطالما كنّا أكرادًا.

في كوجو، كانت التغييرات بعد العام 2003 ملحوظة. ففي غضون بضع سنين، بدأ الأكراد ببناء برج للهاتف الخلوي، فكنتُ أذهب بعد المدرسة مع أصدقائي خارج القرية لنشاهد ذلك الهيكل المعدني العملاق ينمو خارج مزارعنا كناطحة سحاب. «أخيرًا، ستتّصل كوجو بسائر أنحاء العالم!»، هتف إخوتي مسرورين. وسرعان ما امتلك معظم الرجال وبعض النساء هواتف خلويّة. كما تم تركيب الصحون اللاقطة على أسطح المنازل فلم نعد ملزَمين بمشاهدة الأفلام السوريّة والمحطة الرسميّة العراقيّة، لا بل اختفت مسيرات صدّام وخطاباته من غرفة معيشتنا. وكان عمّي من بين أوائل الذين ركّبوا صحنًا لاقطًا، وما إن فعل، حتّى بتنا نتجمّع في غرفة معيشته نشاهد ما يتم بثّه. كان إخوتي يبحثون عن الأخبار، ولا سيّما تلك التي تبثّها القنوات الكرديّة، بينما أدمنتُ أنا مسلسلًا تركيًّا حيث لا يلبث الأبطال أن يقعوا في غرام بعضهم البعض حتّى يتركوا بعضهم البعض.

لقد قاومنا إطلاق تسمية عرب على أنفسنا، لكن البعض لم يجد صعوبة في تقبّل أن يقال عنّا إنّنا أكراد. فغالبية الأيزيديّين تشعر بأنّها أقرب إلى الهويّة الكرديّة – إذ كنّا نتشارك اللغة والإرث الإثني – وكان من المستحيل أن نتجاهل التحسينات في سنجار بعد أن دخلها الأكراد،

حتى لو كان الفضل يعود إلى الولايات المتّحدة أكثر منه إلى برزاني.
فجأة، باتت الوظائف في العسكر وفي قوّات الأمن متاحة للأيزيديّين، فسافر بعض إخوتي وأبناء أعمامي إلى إربيل للعمل في الفنادق والمطاعم التي يبدو وكأن كلّ يوم يشهد على افتتاح واحد جديد منها. وسرعان ما امتلأت بعمّال النفط أو السيّاح القادمين من أجزاء أخرى من العراق بحثًا عن مناخ أكثر اعتدالًا، وعن كهرباء أكثر موثوقيّة، أو عن استراحة من العنف المستشري في سائر أنحاء البلاد. وقد عمل أخي سعود في البناء بالقرب من دهوك، غرب كردستان، فتولّى تشغيل جبّالة إسمنت. وكان يعود إلى المنزل ليروي قصصًا عن أكراد ينظرون إلى الأيزيديّين، كما العرب، نظرة استعلاء. ومع ذلك، كنّا بحاجة للمال.

بدأ خيري العمل حارسًا للحدود، تلاه حزني الذي شغل منصب شرطيّ في مدينة سنجار. وقد ساعدت رواتبهما على تأمين أول مدخول ثابت لعائلتنا، فبدأنا نعيش ما بدا لنا حياة حقيقيّة، نفكّر في المستقبل وليس مجرّد اليوم التالي. فاشترينا أرضًا خاصّة بنا لنزرعها وقطيعنا الخاص من الأغنام لنرعاه ولم نعد مضطرّين للعمل عند الإقطاعيين. وسهّلت الطرق المعبّدة خارج كوجو عملية القيادة في الجبال. فرحنا نتنزّه في الحقول القريبة من القرية، نتناول أطباقًا من اللحم والخضار المقطّعة، بينما يشرب الرجال البيرة التركيّة ثم الشاي الذي يبلغ من الحلاوة ما يجعل شفتيّ تتجعّدان. كما أصبحت حفلات زفافنا أكثر تنميقًا؛ إذ باتت النسوة يقمن برحلتين أحيانًا إلى مدينة سنجار لشراء الملابس، بينما يذبح الرجال المزيد من الأغنام – وإن كانوا على درجة كبيرة من الثراء، يذبحون بقرة – تكريمًا لضيوفهم.

كان بعض الأيزيديّين يتخيّل سنجار المستقبل بحكومة محلّية قويّة

ضمن العراق، لكنّ آخرين اعتبروا أنّنا قد نصبح جزءًا من كردستان المستقلّة. ومع افتتاح مكتب للحزب الديمقراطي الكردستاني في كوجو وتواجد البيشمركة في سنجار، نشأت وأنا أرى ذلك مصيرنا. فقد ازددنا تباعدًا عن جيراننا العرب السنّة. وبينما بات السفر إلى كردستان أكثر سهولة، ازدادت صعوبة الوصول إلى القرى السنّية، حيث بات المتمرّدون، بنظريّاتهم المتطرّفة التي تتحكّم بهم، يتعاظمون نفوذًا. في غضون ذلك، لم يرحّب العرب السنة بالتواجد الكردي في سنجار، إذ كان يعيد إلى أذهانهم مجدًا غابرًا، وقد اعتبروا أنّه بوجود الأكراد في السلطة، لم يعودوا يشعرون أنّه مرحَّب بهم في سنجار ولم يعد بإمكانهم زيارة القرى الأيزيدية، حتى تلك التي يعيش فيها أقرباؤهم من الكريف. فقد كان أكراد البيشمركة يوقفونهم ويستجوبونهم عند حواجز كانت في السابق تحت سيطرة البعثيين، وقد خسر كثيرون منهم رواتبهم ووظائفهم عندما جاء الأميركيّون وفكّكوا مؤسسات صدّام. فقد كانوا حتّى الماضي القريب أكثر السكّان ثراء وعلاقات في البلاد. لكن مع حكومة شيعيّة يدعمها المحتل الأميركي، خسر العرب السنّة فجأة نفوذهم، فباتوا منعزلين في قراهم، حتّى قرّروا سريعًا العودة إلى القتال. وفي غضون سنوات، بات هذا القتال يستعِر بفعل تعصّب دينيّ جعل الأيزيديّين، مع أنّنا لم نملك يومًا أي سلطة في العراق، هدفًا سائغًا لهم.

لم أكن أدري أن الحكومة الكردية كانت سعيدة بإبعاد الأيزيديّين عن جيرانهم العرب لأن ذلك يساعدها في حملتها لإحكام سيطرتها على سنجار، ولا كنت أعلم كم أن الاجتياح الأميركي مدمّر بالنسبة للسنّة العاديين. كما كنتُ أجهل أنه، بينما كنتُ أذهب إلى المدرسة، كان ثمّة تمرّد لا اسم له، يعدّ العدّة للقاعدة وتاليًا لتنظيم الدولة الإسلامية، للنمو

في قرانا المجاورة. فقد حاولت القبائل السنّية في العراق أن تثور ضد السلطة الشيعيّة في بغداد وضد الأميركيّين لكنّها فشلت بمعظمها. فقد باتت هذه القبائل معتادة على العنف والحكم القاسي، الذي استمر فترة طويلة، حتى إن العديد من السنّة من أبناء جيلي وأصغر قد ترعرعوا وهم لم يعرفوا إلا الحرب والتفسير الأصولي للإسلام الذي أصبح جزءًا من هذه الحرب.

أخذ تنظيم الدولة الإسلاميّة يبني قوّته رويدًا رويدًا في تلك القرى المتاخمة لحدودنا، في شرارة لم أفقه شيئًا من أمرها إلى أن تحوّلت نارًا مستعرة. بالنسبة لفتاة أيزيديّة شابّة، لم تتحسّن الحياة إلا بعد أن أحكم الأميركيّون والأكراد سطوتهم. فباتت كوجو تتوسّع، بينما كنت أرتاد المدرسة، فأخذنا ننهض بأنفسنا شيئًا فشيئًا من حالة الفقر التي كنّا غارقين فيها. وجاء الدستور الجديد ليمنح مزيدًا من السلطة للأكراد ويطالب بجعل الأقلّيات جزءًا من الحكومة. كنتُ أعلم أن بلادي في حرب، لكنّ هذه الحرب لم تبدُ حربنا.

في البداية، كان الجنود الأميركيّون يزورون كوجو مرّة في الأسبوع لتقديم الغذاء والمساعدات والتحدّث إلى أعيان القرية. هل نحتاج الى المدارس؟ إلى طرقات معبّدة؟ إلى مياه جارية حتّى لا نضطر لشراء مياه الخزّانات من الشاحنات؟ بالطبع كانت الإجابة على هذه الأسئلة كلها نعم. وكان أحمد جاسو يدعو الجنود إلى مآدب ضخمة، بينما يزهو رجالنا فخرًا عندما يقول الأميركيّون إنهم يشعرون بالأمان في كوجو، حتّى لأمكنهم أن يضعوا أسلحتهم جانبًا ويستريحوا. فيقول أحمد جاسو: «هم يعرفون خير معرفة أن الأيزيديّين سيحمونهم».

كان الأطفال يركضون نحو الجنود الأميركيّين ما إن يدخلوا

كوجو بآليّاتهم المدرّعة التي تخترق الأرض المغبرة فيُغرقون القرية بمحرّكاتهم الصاخبة. كانوا يعطوننا اللبان والسكاكر ويأخذون الصور معنا ونحن نبتسم فرحين بالهدايا. كنّا نقف مذهولين أمام بزّاتهم المتموّجة الألوان، ونعجب للطريقة التي يكلّموننا فيها، على عكس من سبقهم من جنود عراقيّين. وكانوا في المقابل يتحفون أهلنا بالحديث عن ضيافة كوجو، وعن نظافة القرية وراحتهم فيها، وعن مدى استيعابنا أن أميركا حرّرتنا من صدّام. أخبرونا أن «الأميركيّين يحبّون الأيزيديّين. وكوجو على وجه الخصوص. نشعر هنا بأنّنا بين أهلنا». حتّى عندما خفّت زياراتهم إلى أن توقّفت كليًا، كنّا لا نزال متمسّكين بالإطراء الأميركي كما لو أنّه نيشان على صدورنا.

في العام 2006، عندما كنتُ لا أزال في الثالثة عشرة من عمري، أعطاني أحد الجنود الأميركيّين خاتمًا هديّة لي. كان عبارة عن حلقة رفيعة تتوسّطها حجارة حمراء صغيرة. وكانت أول قطعة مجوهرات أمتلكها. فأصبحتْ في الحال أكثر ممتلكاتي قيمة. - فرحتُ أتزيّن به أينما كان - إلى المدرسة، وبينما أحفر في الحقل، وفي المنزل بينما أشاهد أمّي تعدّ الخبز، حتّى وأنا نائمة في الليل. بعد سنة، أصبح الخاتم صغيرًا فاضطررت إلى أن أنزعه وأضعه في الخنصر كي لا أتركه في المنزل. لكنّه كان ينزلق من ذاك الإصبع، إذ بالكاد يصل إلى العقدة، وكنتُ أخشى أن أفقده، فأعمد إلى التحقّق من أمره مرارًا لأتأكّد من أنه لا يزال هنا، وأكوّر يدي في قبضة لأشعر به يضغط على إصبعي.

وإذ بي في يوم من الأيام، بينما كنتُ في الخارج مع إخوتي نزرع أثلام البصل، أنظر إلى يدي فألاحظ أن الخاتم قد اختفى. كنتُ أكره زراعة البصل ما فيه الكفاية - إذ كان يتعيّن علينا وضع كل بصيلة بعناية في

التراب البارد، حتى إن الشتلات الصغيرة كانت تجعل رائحة أصابعنا وأيدينا نتنة - والآن، تملّكني غضب شديد من هذه الشتلات، فأخذت أحفر كالمجنونة أحاول أن أجد هديّتي. سألني إخوتي ما القصّة بعد أن لاحظوا هولي. فأخبرتهم: «فقدتُ الخاتم!»، فتوقّفوا عن العمل وهبّوا لمساعدتي على التفتيش. فقد كانوا يعلمون جيّدًا ما يعنيه هذا الخاتم لي.

رحنا نذرع الحقل بكامله بخُطانا ذهابًا وإيابًا، نبحث في التربة الداكنة عمّا يمكن أن يكون ذهبًا أصفر وأحمر، لكن مهما كان الجهد الذي نبذله ومهما بكيتُ، لم نستطع أن نجد الخاتم. وعندما بدأت الشمس تغرب، لم يعد أمامنا من خيار إلّا الاستسلام والعودة إلى المنزل للعشاء. «لا بأس يا نادية»، قال لي الياس بينما كنّا نسير نحو المنزل. «إنّه مجرّد خاتم صغير. ستحصلين على المزيد من المجوهرات عندما تكبرين». لكنّني بكيتُ لأيّام. كنتُ متأكّدة أنّني لن أحصل مجدّدًا على حلية بهذا الجمال، وكنتُ أخشى إن عاد الجندي الأميركي يومًا أن يغضب عندما يعلم أنّني أضعتُ هديّته.

بعد مضيّ سنة، وقعت المعجزة. بينما كان أخي خيري يقطف البصل الجديد الذي نبت من الشتلات الصغيرة، رأى حلقة ذهبيّة صغيرة تنبت من التربة. «نادية، خاتمك!». أشرق وجه أخي وهو يقدّم لي الخاتم، فركضت إليه وانتزعت الخاتم من يديه وعانقته. عانقت بطلي. لكنّني عندما حاولت وضع الخاتم في إصبعي، وجدتُ أنّني مهما حاولت، كان الخاتم قد بات صغيرًا ضيّقًا حتى في خنصري. رأته أمّي لاحقًا على الدرج فحثّتني على بيعه. «لم يعد يناسب يدك يا نادية. لا فائدة من الاحتفاظ به إن كنتِ لا تستطيعين أن تضعيه». بالنسبة إليها، كان الفقر على بعد خطوة ناقصة واحدة. ولأنّني كنتُ أقوم دائمًا بما تطلبه منّي، توجّهتُ إلى بائع المجوهرات في بازار مدينة سنجار، فاشترى الخاتم منّي.

بعد ذلك، بدأ الندم يتآكلني. لقد كان الخاتم هديّة، ولم يكن من اللائق أن أبيع الهديّة. كنتُ أخشى ردّة فعل الجندي إذا ما عاد وسألني عن هديّته. هل يخالني قد خنتُه؟ أو أنّني لم أحبّ الخاتم؟ لم تعد الآليّات المدرّعة تتوجّه إلى كوجو كما في سابق عهدها - إذ إن القتال قد احتدم في سائر أرجاء البلاد، وقد تقلّص عدد الأميركيّين - حتّى إنّني لم أرَ أي جنديٍّ في أشهر. وقد اشتكى بعض جيراننا من أن الأميركيّين قد نسوا أمرنا، وباتوا يخشون من أنه من دون أي وسيلة اتصال بهم، سيفقد الأيزيديّون أي حماية لهم. لكنّني شعرتُ بالراحة لعدم اضطراري لتبرير ما حصل بالخاتم. لربّما سيغضب الجندي الذي أعطاني الخاتم، على الرغم مما بدا عليه من لطف، لقيامي ببيع هديّته إلى بائع المجوهرات في مدينة سنجار. فهو آتٍ من أميركا، وقد لا يفهم ما قد يعنيه هذا المبلغ الزهيد من المال لنا.

الفصل الخامس

عندما كانت الأمور تسوء في العراق، كان الأيزيديّون في كوجو يشعرون عادة بتداعيات العنف كما ارتدادات الزلزال. وقد تمّ تجنيبنا أسوأها، ولا سيّما المعارك بين المتمرّدين ورجال المارينز الأميركيّين في محافظة الأنبار، فضلًا عن تصاعد السلطويّة الشيعيّة في بغداد، وتعاظم قوة القاعدة. وكنّا نتابع الأخبار على شاشة التلفزيون فيساورنا القلق على الرجال من قريتنا الذين يعملون في الشرطة والجيش، لكن كوجو قد نجت من الهجمات الانتحاريّة والعبوات الناسفة الموضوعة بجانب الطرق كما كان يحدث كل يوم في سائر أرجاء البلاد. فالعراق اليوم على درجة من التشرذم قد يصعب ترميمها؛ وكنّا نراقبه يتفكّك عن بعد.

كان خيري وحزني وجلو يعودون إلى المنزل بعد قضاء ساعات طوال في مراكزهم، فيقصّون علينا قصص المعارك الدائرة في الخارج. أحيانًا، كانوا يذهبون إلى كردستان، حيث قلّما يسمع المرء هناك عن هجمات إرهابيّة. وفي أحيان أخرى، كان يتم إرسالهم إلى مناطق خارج سيطرة البيشمركة في أجزاء مجهولة من العراق، الأمر الذي يُدِبّ الذعر في فرائص من بقي منّا في المنزل. فقد ترتدي هذه الأعمال خطورة بالغة. فحتّى لو لم تصادف قتالًا أو إرهابًا، إلّا أن العمل مع الأميركيّين

في الترجمة يجعلك هدفًا سائغًا. وقد حاول العديد من الأيزيديّين اللجوء إلى الولايات المتحدة لأن حياتهم باتت في خطر بعد اكتشاف المتمرّدين أنّهم عملوا مع الأميركيّين.

تواصلت الحرب لفترة من الزمن تخطّت ما توقّعه الجميع. وسرعان ما نسي الشعب نشوة تلك الأشهر القليلة التي تلت خلع صدّام، عندما هوى تمثاله في ساحة الفردوس في بغداد وراح الجنود الأميركيّون ينتشرون في البلاد يصافحون القرويّين ويعدون ببناء المدارس وبتحرير السجناء السياسيّين وبجعل الحياة أسهل للعراقيّين. وبحلول العام 2007، بعد سنوات قليلة تلت سقوط صدّام، أصبح العراق يرزح تحت ثقل العنف، فأرسلت الولايات المتّحدة أكثر من عشرين ألف جندي إضافيّ - مطلقة على خطوتها تلك تسميات عدة منها «الاندفاعة surge» - ردًا على تزايد العنف في الأنبار وبغداد. ويبدو أن تلك العمليّة قد أتت ثمارها لبرهة من الزمن، إذ تراجعت الهجمات، واحتل رجال المارينز المدن، وتنقلّوا من باب إلى آخر بحثًا عن المتمرّدين. لكن بالنسبة للأيزيديّين، كان عام الاندفاعة، العام الذي طرقت فيه الحرب بابنا.

في أغسطس من العام 2007، وقع أسوأ عمل إرهابي في تاريخ الحرب العراقيّة - وثاني أكبر هجوم إرهابي في التاريخ - في سيبا شيخ خضر وتل عزير (المعروفتين أيضًا بأسماء القحطانيّة والجزيرة البعثيّة)، وهما مدينتان أيزيديّتان إلى الغرب من كوجو. ففي الرابع عشر من أغسطس عند العشاء، جاء صهريج وقود وثلاث سيّارات، سمع البعض أنّها تحمل لوازم وطعام للأيزيديّين، لكنها توقّفت في وسط البلدات وانفجرت. قتل ثمانمئة شخص، بعد أن مزّقتهم المتفجّرات

أو بعد أن علقوا تحت مبانٍ منهارة، بينما أصيب أكثر من ألف بجراح مختلفة. وكانت الانفجارات من الضخامة بحيث رأينا سحُب النار والدخان حتى كوجو. فبدأنا نمسح الطرق المؤدّية إلى قريتنا، خوفًا من أي سيارة لا نتعرّف إلى صاحبها.

على الرغم من فظاعة الهجمات، إلا أنّها لم تكن مفاجئة، ولم تكن إلّا مسألة وقت قبل وقوعها. فقد كان التوتّر بين الأيزيديّين والعرب السنة في ازدياد مضطرد منذ سنوات، آخره بسبب تعاظم النفوذ الكردي في سنجار، والنمو المتواصل للتطرّف في المناطق السنّيّة. وفي وقت سابق من ذاك العام، بعد أشهر قليلة من الاندفاعة الأميركيّة، تعهّد السنّة بالانتقام لمقتل امرأة أيزيديّة شابّة اسمها دعاء خليل أسود، تم رميها بالحجارة بوحشيّة حتى لفظت أنفاسها، لأن أقرباءها شكّوا في أنّها تريد اعتناق الإسلام والزواج من رجل مسلم. لا يهم إن كان الأيزيديّون قد راعهم ما حصل لدعاء؛ لكن بالنسبة للعالم الخارجي، نحن متوحّشون معادون للإسلام.

تقع جرائم الشرف في المجتمع الأيزيدي، كما في سائر أنحاء العراق، ويعتبر اعتناق ديانة أخرى فعل خيانة للعائلة والمجتمع، لا سيّما وأن الأيزيديّين قد أجبروا عبر قرون من الزمن على التخلّي عن دينهم من أجل إنقاذ حياتهم. ومع ذلك، نحن لا نقتل النساء والرجال الذين يتخلّون عن الديانة الأيزيديّة، وقد شعرنا بالعار ممّا فعلته عائلة دعاء بها. فهي لم تُرجَم حتّى الموت وحسب، بل كان الناس يشاهدون ما يجري وقد أصابهم الفزع، من غير أن يتمكّنوا، أو ربّما يحاولوا وقف ما يجري، بل تم بث شريط قتلها على الشبكة العنكبوتيّة، فتصيّدته بعض المحطّات الإخباريّة واستخدمته عذرًا للهجوم علينا، أيًّا كان حجم تنديدنا بما جرى.

ما إن بدأت قصة دعاء بالانتشار، حتى برزت حملات دعائيّة تسِمُنا بالكفّار وبمستحقّي الموت، وهي لغة شبيهة باللغة التي يستخدمها تنظيم الدولة الإسلاميّة اليوم في الموصل. وانقلب الأكراد، وغالبيتهم من السنّة، علينا أيضًا. فبتنا نعيش أسرى العار والخوف. غادر طلّاب الجامعة الأيزيديّون جامعاتهم في كردستان والموصل، ووجد الأيزيديّون الذين يعيشون في الخارج أنفسهم مضطرّين للدفاع عن أنفسهم أمام شعب لربّما لم يسمع قطّ بالأيزيديّة من قبل، لكنّه بات يخالنا الآن ديانة قتلة.

وبما أن الأيزيديّين يفتقدون لأي ممثّل فعلي في وسائل الإعلام، ولأي صوت قويّ في السياسة ليشرح ما حصل بالفعل، تنامى الكره والحقد ضدّنا في المجتمعات السنّية. لربّما كان الوضع دائمًا على هذه الحال، لكنّه كان موقفًا راقدًا تحت السطح. أمّا الآن، فقد خرج إلى العلن، وبدأ ينتشر كما النار في الهشيم. وبعد مضيّ أسبوعين على مقتل دعاء، أوقف مسلّحون سنة باصًا يحمل أيزيديّين فأعدموا ثلاثة وعشرين من الركّاب، انتقامًا لدماء دعاء على ما أفادوا. وهكذا بتنا نتحضّر للمزيد من الهجمات، لكنّنا لم نتوقّع يومًا هجومًا بحجم ما حصل في سيبا شيخ خضر وتل عزير.

ما إن رأوا التفجيرات، حتى تجمّع إخوتي في سيّارات وذهبوا إلى موقع الاعتداء، لينضمّوا إلى مئات الأيزيديّين الذين كانوا ينقلون الأطعمة والفراش والأدوية إلى القرى المنكوبة. ثم عادوا في وقت متأخّر تلك الليلة، يطأطئون الرؤوس تحت وقع الأسى والتعب. فعبّر الياس عمّا رآه قائلًا: «الوضع يفوق سوءًا ما يمكن تخيّله بكثير. المدن قد دمّرت والقتلى أينما كان».

أجلستهم أمّي وأعدّت لهم الشاي بينما ذهبوا ينظّفون الوسخ عن أيديهم. «رأيت جسدًا مقطوعًا نصفين»، قال حزني وهو يرتجف. «بدا وكأن البلدة بأكملها تغرق في بحيرة من دماء». فقد حوّلت التفجيرات الأجساد أشلاء بقوّة دفعت بالشَّعر وقطع الثياب إلى الأسلاك الكهربائيّة العالية في الشوارع. وسرعان ما امتلأت المستشفيات والعيادات بينما نفدت الأدوية. وقد راع صديق أخي شوكت ما رآه من جثة يتم سحبها من قدميها، فانتزعها من يدَي المسعف وحملها إلى المشرحة بنفسه، قائلًا: «هذا والد أحدهم أو ابنه. ويتم سحبه على هذا النحو، في الغبار».

كان أفراد العائلات يتحلّقون حول الدمار مدهوشين، يدفعون أنفسهم بصمت عبر الهواء المثقل بالدخان والغبار. أو ينادون أحبّتهم، والبعض منهم قد يكون مات قبل أن يتوقّف أهله عن البحث عنه. في النهاية، بعد أن يتم تنظيف القرية وتحديد هويّة أكبر عدد من الجثث، سيتفجّع أعضاء العوائل الناجون ويرثونهم ويدفنونهم في مقابر جماعيّة. «ربّما يتحوّل البقاء على قيد الحياة أكثر سوءًا من الموت»، عبّر حزني بأسى.

بعد ذلك الهجوم، أخذنا بعض الاحتياطات. فعمد الرجال إلى حراسة كوجو في نوبات يقف فيها اثنان من الجهة الغربيّة واثنان من الجهة الشرقيّة، متسلّحين ببنادق الكلاشنيكوف والمسدّسات. وراحوا يستجوبون كلّ من يركب سيّارة غير مألوفة - وغالبيّتهم من العرب السنّة والأكراد الذين لم نتعرّف إليهم - وباتوا يترقّبون أي شخص قد تثير ملامحه القلق. في المقابل، قام أيزيديّون آخرون ببناء متاريس حول مدنهم وحفروا خنادق كي يعيقوا حركة مرور السيّارات المفخّخة إليها. ومع أنّنا في كوجو كنّا على تماس مع القرى العربيّة السنّية، إلّا

آنّنا لم نُراكم المتاريس أو نحفر الخنادق حتى سنوات خلت. لا أعلم لماذا، لربّما لأنّنا كنّا لا نزال نأمل في أن علاقاتنا مع جيراننا من القوّة بما يكفي لحمايتنا. ولربّما لم نرِد أن نشعر آنّنا عالقون أو معزولون. بعد مضيّ عام بلا أيّ هجوم، غادر الرجال مراكز حراستهم.

كان حزني الفرد الوحيد في عائلتي الذي حاول مغادرة العراق. كان ذلك في العام 2009، بعد سنتين على ذاك الهجوم الدامي. وقع حزني في غرام جيلان، ابنة جيراننا، لكنّ أهلها عارضوا أي تواصل بينهما لأنّنا كنّا نملك القليل من المال مقارنة بهم. غير أن ذلك لم يمنع حزني من المحاولة. وعندما منع أهل جيلان أخي من الذّهاب إلى منزلهم لزيارتها، صعد الاثنان إلى السطح وبدآ يتكلّمان عبر المعبر الضيّق الذي يفصل منزلَيْنا. وعندما بنى أهل جيلان جدارًا حول سطحهم لإخفاء ابنتهم، كدّس حزني الأحجار الواحدة فوق الأخرى حتى يقف عليها ويصبح أكثر طولًا فيتمكّن من النظر من فوق الجدار. «ليس ثمّة ما يردعني»، كان حزني يقول. كان بطبعه خجولًا، لكنّ العشق الذي كان يكنّه لجيلان جعله مستعدًّا للقيام بأي شيء كي يكون معها.

كان حزني يرسل أبناء عمّه أو إخوته إلى منزل جيلان، حيث تُلزِم العادات العائلة على تقديم الشاي والطعام للزوّار، فيتلهّى الأهل حتى تتمكّن جيلان من مغادرة المنزل ولقاء حزني. وكانت هي تحبّه بقدر ما هو يحبّها، فأخبرت أهلها آنّها تريد الزواج به، لكنّهم ما انفكّوا يعارضون. وكنتُ أستشيط غضبًا لرفضهم - إذ ستكون جيلان محظوظة بالحصول على حزني المحب - لكنّ أمّي، جريًا على عادتها، كانت تسخر من الأمر فتقول: «على الأقل السبب الوحيد لرفضنا هو لأننّا فقراء. ولا عيب في كوننا فقراء».

أدرك حزني أن أهل جيلان ما كانوا ليوافقوا على الزواج قبل أن يجني ما يكفي من المال، وفي تلك الفترة، لم ينجح في الحصول على أي وظيفة في العراق. وهكذا، اجتاحه اليأس. فباستثناء جيلان، شعر بأن ليس ثمة ما يبقيه في وطنه، وبما أنّه لا يستطيع الحصول عليها، فلا معنى لبقائه. لذلك، عندما قرّر عدد من الرجال في القرية أن يحاولوا الوصول إلى ألمانيا، حيث يعيش عدد قليل من الأيزيديّين، قرّر حزني الالتحاق بهم. بكينا كلّنا عندما حزم أمتعته. كنتُ أشعر بحالة مريعة وأنا أراه يغادر؛ فلم يكن بوسعي أن أتخيّل المنزل من دون أيٍّ من إخوتي.

قبل أن يغادر، دعا حزني جيلان إلى حفل زفاف خارج كوجو، حيث يمكنهما الكلام من دون أن يتهامس الجميع حولهما. وصلت وانفصلت عن الجموع كي تجده. لا يزال يتذكّر ماذا كانت ترتدي. أخبرها: «سأعود في غضون سنتين أو ثلاث. سأجني ما يكفي من المال كي نبدأ حياتنا». وقبل أيام قليلة من بدء مرحلة الصوم الأولى، كان حزني قد غادر كوجو مع الرجال الآخرين.

عبروا أوّلًا الحدود العراقيّة الشماليّة سيرًا على الأقدام وصولًا إلى الداخل التركي، حيث توجّهوا ببطء إلى اسطنبول. هناك، دفعوا لمهرّب لينقلهم على ظهر شاحنة إلى اليونان. وطلب منهم المهرّب أن يخبروا حرس الحدود أنّهم فلسطينيّون. «إن علموا أنّكم عراقيّون، فسيعتقلونكم». أوصاهم بذلك قبل أن يغلق أبواب الشاحنة ويقود عبر الحدود.

عندما اتّصل بنا حزني بعد بضعة أيّام، كان في السجن. كنّا قد جلسنا لتوّنا إلى مائدة الإفطار عندما رنّ هاتف أمّي الخلوي. كان الذعر قد تملّك أحد العراقيّين مع حزني فخشي الكذب حول موطنه الأصلي، فتم افتضاح أمرهم. قال لنا حزني إن السجن رهيب، مكتّظ، أرضه من

البلاط الخرساني ولا تعلوه سوى مفارش رقيقة للنوم. لم يخبرهم أحد متى يُطلَق سراحهم أو إن كانوا سيحاكَمون على جريمة ما. في إحدى المرّات، ولاجتذاب انتباه الحرس، أضرم بعض السجناء النار بمفارشهم، فخشي حزني أن يموتوا كلّهم اختناقًا. وسألنا كيف يجري صيامنا قبل أن يضيف: «أنا أيضًا جائع». ومنذ تلك اللحظة، كلّما اتصل حزني، تبدأ أمّي تنتحب حتّى يضطّر إخوتي إلى الإسراع لالتقاط الهاتف قبل أن تردّ.

بعد ثلاثة أشهر ونصف، عاد حزني إلى كوجو. بدا هزيلًا محرَجًا، ففكّرت حين رأيته، أنّني ممتنّة لعدم رغبتي بالهجرة إلى ألمانيا. لا أزال أرى أن إجبارك على مغادرة منزلك تحت وقع الخوف هو أحد أسوأ أوجه الظلم التي قد يواجهها مخلوق. فكلّ ما تحب يُسلَبُ منك، وتعرّض حياتك للخطر كي تعيش في مكان لا يعني لك شيئًا وحيث لا يكون مرغوبًا بك، لمجرّد أنّك قادم من دولة باتت ذائعة الصيت نتيجة الحرب الدائرة فيها والإرهاب الذي يعصف بها. لذا تقضي ما تبقّى من سنيّ عمرك تتوق لما تركته وأنت تصلّي ألّا يتم ترحيلك. لقد جعلتني حادثة حزني أفكّر بأن الدرب التي يسلكها اللاجئ العراقي لطالما تقوده إلى الوراء، إلى السجن أو إلى المكان الذي أتى منه.

كان ثمّة جانب إيجابي في فشل حزني. فقد عاد أدراجه كما ازداد إصرارًا على الزواج بجيلان، وخلال بُعدهما عن بعضهما، اتّخذت هي أيضًا القرار نفسه. لكن عائلتها كانت لا تزال تعارض. ومع ذلك، كانت التقاليد الأيزيديّة تقف إلى جانب الثنائي. فبحسب ثقافتنا، إن وقع شخصان في غرام بعضهما البعض وأرادا الزواج، يمكنهما الزواج خطيفة أيًّا كان رأي عائلتيهما. وهذا من شأنه أن يثبت أنّهما يقدّران

بعضهما بعضًا أكثر من أي أمر آخر. وبعد ذلك، يعود للعائلتين أن تتصالحا مع الثنائي الجديد. قد يبدو الأمر باليًا وحتى رجعيًّا، لا سيّما الطريقة التي توصف بها العادة - امرأة تهرب خطيفة - لكن الأمر بمثابة تحرّر، إذ إنه يسحب السلطة من يد الأهل ويمنحها للثنائي الشاب، وتحديدًا للمرأة التي يتعيّن عليها الموافقة على تلك الخطّة.

لذا، في إحدى الأمسيات، ومن دون أن تهمس بكلمة لأحد، تسلّلت جيلان من الباب الخلفي والتقت حزني الذي كان ينتظرها في سيّارة جلو. غادرا إلى قرية مجاورة، سالكَيْن طرقًا تسيطر عليها القاعدة كي يتفاديا الالتقاء بوالد جيلان على الطريق الأساسي. (كان حزني يسخر من أنّه يخشى والدها أكثر من أي إرهابي). وبعد أيام قليلة تزوّجا، وبعد أشهر قليلة، وإثر مفاوضات تمحورت بمعظمها حول المال بين العائلتين وكانت تارة سعيدة وطورًا حادّة، أقام الزوجان حفل زفاف حقيقي في كوجو. ومذاك الحين ينظر حزني إلى محاولته الفاشلة للهجرة فيضحك قائلًا: «حمدًا لله أنه تم إيقافي في اليونان!»، ويضم زوجته إليه.

بعد ذلك، قرّرنا كلّنا البقاء في كوجو، حتى مع ازدياد التهديدات من الخارج. وعندما رحل الأميركيّون بعد أشهر قليلة من انتخابات العام 2010 البرلمانيّة، استفحل صراع مدوٍّ بين مجموعات من أنحاء البلاد كلّها على السلطة. فراحت التفجيرات تقع كل يوم في العراق، فتقتل حجّاجًا شيعة أو أطفالًا في بغداد وتمزّق أي أمل قد يراودنا بإحلال السلام في عراق ما بعد الأميركيّين. وقد تعرّض الأيزيديّون الذين يملكون متاجر لبيع الخمر في بغداد إلى الاستهداف على يد المتطرّفين، فانغلقنا أكثر فأكثر في الأمان النسبي الذي توفّره لنا مدننا وقرانا الأيزيديّة.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تمتدّ الاحتجاجات ضد الحكومة التي بدأت في تونس إلى سوريا، حيث عمد الرئيس بشّار الأسد إلى قمعها بسرعة وعنف. وبحلول العام 2012، كانت سوريا قد غرقت في مستنقع الحرب الأهليّة، وفي العام 2013، أبصرت النور مجموعة جديدة متطرّفة تطلق على نفسها اسم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، وقد لقيت سابقًا الزخم في عراق ما بعد الحرب، فبدأت قوّتها تتنامى في فوضى الحرب السوريّة. وسرعان ما سيطرت على أجزاء كبيرة من سوريا، وأعدّت العدّة لاجتياز الحدود إلى الداخل العراقي، حيث ينتظرها مناصرون لها في المناطق السنّية. بعد سنتين، كان تنظيم الدولة الإسلاميّة قد قضى بالكامل في الشمال على الجيش العراقي الذي تخلّى عن مواقعه لعدوّ خاله أضعف بكثير ممّا توقّعه. وفي يونيو 2014، وقبل أن ندري، كان تنظيم الدولة الإسلاميّة قد وضع يده على الموصل، ثاني أكبر المدن العراقيّة، وتبعد نحو مائة وثلاثين كيلومترًا عن شرق كوجو.

بعد سقوط الموصل، أرسلت حكومة كردستان الإقليميّة قوات إضافيّة من البيشمركة إلى سنجار لحماية البلدات الأيزيديّة. وصل الجنود في شاحنات مؤلّلة يطمئنوننا أنّهم سيحافظون على أمننا. أراد البعض منّا، وقد تملّكه الذعر من داعش وأحسّ بأن كردستان العراق أكثر أمنًا، أن يغادر سنجار إلى المخيّمات الكرديّة التي باتت تعجّ بالنازحين من المسيحيّين والشيعة والسنّة، إضافة إلى اللاجئين السوريّين. لكنّ السلطات الكرديّة حثّتنا على عدم القيام بذلك. فقام الأكراد الرابضون عند نقاط تفتيش حول القرى بردع الأيزيديّين الذين حاولوا مغادرة سنجار إلى كردستان العراق، وقالوا لهم إن لا داعيَ للقلق.

لكن بعض العائلات رأت في البقاء في كوجو انتحارًا. «نحن محاطون من جوانب ثلاثة من داعش!»، راحوا يصرخون معترضين، ومستخدمين اللفظة العربيّة السائدة للتنظيم، وقد كانوا على صواب: فوحدها طريق تربطنا بسوريا لا تؤدّي مباشرة إلى العدو. لكن كوجو قرية فخورة تعتدّ بنفسها. فنحن لم نرد أن نتخلّى عن كلّ ما عملنا لأجله: منازل الإسمنت التي قضت عائلات حياتها كاملة تدّخر من أجلها، والمدارس ومواشي الأغنام والغرف التي ولد فيها أطفالنا. وبينما راح عراقيّون آخرون يشكّكون بمطالبة الأيزيديّين بسنجار، كنّا نخال مغادرتنا إثباتًا لصوابيّة ادعاءاتهم؛ فإن لم نكن مستعدّين للبقاء في سنجار، لربّما هذا يعني أنّنا لا نحبّها بالقدر الذي ندّعيه. لذا دعا أحمد جاسو إلى اجتماع في الجيفات وهكذا كان. «نبقى كقرية»، قالها وكلّه إيمان بأن علاقاتنا مع القرى العربيّة السنيّة على ما يكفي من المتانة لتبقينا آمنين. فبقينا.

حاولت أمّي أن تحافظ على نبض الحياة في المنزل قدر ما استطاعت، ومع ذلك، كنّا متهيّبين لأي زائرين أغراب أو أصوات مهدّدة. وفي إحدى الليالي في شهر يوليو، عند الساعة الحادية عشرة تقريبًا، كنّا نقطع أنا وأدكي وكاثرين وخيري وحزني المسافة القصيرة التي تفصلنا عن مزرعتنا لنطحن القش للحيوانات. ففي فصل الصيف، كانت حرارة الطقس تحول دون تمكّننا من قضاء يومنا في المزرعة، لذلك، كنّا نذهب عادة بعد العشاء، عندما يكون القمر بدرًا فيضيء مهامّنا ويكون الجو أكثر تلطّفًا. كنّا نمشي بتباطؤ. فطحن القش مهمّة شاقة ومثيرة للفوضى، ولم يكن أيّ منّا يتطلّع للقيام بها. فمهما بلغنا من عناية وحذر، كنّا نعود إلى المنزل وغبار القش متغلغل في

شعرنا وتحت ملابسنا، يصيبنا بالحكّة ويقرصنا قرصًا، بينما تتقرّح أذرعنا جرّاء احتضان القش ورميه داخل المطحنة.

كان قد مضى على بدء عملنا وقتٌ قليل، وكنت أنا وكاثرين نأخذ القش الذي يرفعه لنا الباقون عن الأرض ونقوم بتكديسه داخل الآلة. وكنا نتكلّم ونضحك، لكن الحديث كان أكثر توتّرًا ممّا اعتدنا عليه. ففي الحقل المفتوح، كان بإمكاننا أن نرى الأرض الواقعة ما وراء كوجو، فلم يسعنا إلّا أن نتساءل ونقلق لما يجري هناك في الظلام الدامس. فجأة، اشتعلت الطريق التي تربطنا بالجنوب بأضواء السيّارات، فتوقّفنا عمّا كنّا نقوم به لمشاهدة الأضواء الأماميّة تزداد لمعانًا وأطياف السيّارات تقترب أكثر فأكثر. كان رتلًا من شاحنات مدرّعة كبيرة، تلك التي قد يستخدمها العسكر.

تمتمت كاثرين: «علينا المغادرة». كنّا أنا وهي خائفتَين. لكن أدكي رفضت الهرب: «علينا أن نكمل العمل»، قالت وهي تدفع بما تحمله من قش بين ذراعيها إلى فوهة المطحنة. «لا يمكننا أن نبقى جزعين طوال الوقت».

كان خيري في المنزل يقضي عطلة من عمله كحارس حدود وقد مضى على عمله فيه تسع سنوات، وكان يدرك أكثر منّا جميعًا ما يجري خارج كوجو. فكانت عينه ثاقبة يفقه جيّدًا هذا النوع من الأحداث. راح ينظر إلى أنوار السيّارات، ثم وضع أرضًا القش الذي كان يحمله بين ذراعيه واستخدم يديه كقناع يحميه من المصابيح الأماميّة. ثم قال: «هذه مواكب الدولة الإسلاميّة. يبدو وكأنّها تتّجه إلى الحدود نحو سوريا». وأضاف أن ليس من المعتاد أن يكونوا على هذه المسافة القريبة منّا.

الفصل السادس

وصل تنظيم الدولة الإسلاميّة إلى تخوم كوجو صبيحة الثالث من أغسطس 2014، قبل طلوع الشمس. كنتُ أتمدّد على فرشة بين أدكي وديمال على سطحنا، عندما دخلت أولى طلائع الشاحنات. وكان هواء الصيف العراقي حارًّا دبقًا بالغبار، لكنّني مع ذلك، كنتُ أفضّل النوم خارجًا، تمامًا كما أفضّل الجلوس على ظهر الشاحنة بدل أن أجد نفسي عالقة في الداخل. اجتزأنا أقسامًا من السطح لمنح المتزوّجين منّا وعائلاتهم بعض الخصوصيّة، لكن كان بوسعنا أن نهمس عبر القواطع ونتكلّم عبر السطوح. كنتُ عادة أنام بسهولة على صوت جيراننا يناقشون أيّامهم أو يصلّون بهدوء، لكن مؤخّرًا ومع اجتياح موجة من العنف العراق، بات البقاء على السطوح حيث نستطيع أن نرى من الآتي يشعِرنا بأنّنا أقل هشاشة.

لم ينم أحد في تلك الليلة. فقبل ساعات قليلة، أطلق تنظيم الدولة الإسلاميّة هجمات مفاجئة على عدد من القرى المجاورة، فقاد آلاف الأيزيديّين خارج منازلهم نحو جبل سنجار في حشود مترنّحة مذعورة سرعان ما تضاءلت حتّى باتت خيطًا رفيعًا. وراءهم، كان المسلّحون يقتلون كلّ من يرفض اعتناق الإسلام أو كل من كان على قدر من

التعنّت أو الإرباك أو يحاول الهرب، فأخذوا يلاحقون أولئك الذين مشوا ببطء وأطلقوا النار عليهم أو نحَروهم. وقد بدت الشاحنات عندما اقتربت من كوجو وكأنّها قذائف تشقّ الصمت الريفي. رحنا نرتعد خوفًا ونلتصق أكثر فأكثر ببعضنا البعض.

احتلّت داعش سنجار بسهولة، إذ لم تلقَ إلّا مقاومة بضع مئات من الرجال الأيزيديّين الذين قاتلوا للدفاع عن قراهم بأسلحتهم الخاصّة، لكنّهم سرعان ما نفدت الذخيرة منهم. وقد بلغَنا أن عددًا كبيرًا من جيراننا العرب السنّة قد رحّبوا بالمقاتلين، وحتّى التحقوا بهم، قاطعين الطرق لمنع الأيزيديّين من بلوغ مناطق آمنة، وسامحين للإرهابيّين بإلقاء القبض على غير السنّة الذين فشلوا في الهرب من القرى الأقرب إلى كوجو، ثم نهبوا القرى الأيزيديّة التي فرغت من سكّانها. لكنّ أكثر ما أصابنا بالصدمة كان الأكراد الذين أقسموا على حمايتنا. ففي وقت متأخّر من الليل، ومن دون أي تحذير، وبعد أشهر من طمأنتنا أنّهم سيقاتلون من أجلنا حتّى آخر رمق، خرج البيشمركة من سنجار، مستقلّين شاحناتهم متوجّهين إلى مناطق آمنة قبل أن يصل إليهم مقاتلو تنظيم الدولة الإسلاميّة.

كان، بحسب ما أعلنت الحكومة الكرديّة لاحقًا: «انسحابًا تكتيكيًّا». فقد قالوا إن عديد الجنود لم يكن كافيًا للدفاع عن المنطقة، فرأت قياداتهم أن البقاء انتحار؛ لذلك، فإن قتالهم في أماكن أخرى من العراق أجدى نفعًا، حيث قد يحقّقون النتيجة المرجوّة. حاولنا أن نصبّ غضبنا على القادة في كردستان الذين اتّخذوا القرار، بدل الجنود الأفراد. لكن ما لم يكن بوسعنا فهمه، كان لماذا تركونا من دون أن يحذّرونا أو يأخذونا معهم أو يساعدونا على بلوغ أماكن آمنة. لو علمنا

أنّهم راحلون، لكنّا توجّهنا إلى كردستان. أنا شبه أكيدة أنّ كوجو كانت لتكون خالية بوصول داعش إليها.

اعتبر أهل القرية ذلك التصرّف خيانة. فأولئك الذين تقع منازلهم أمام مواقع البيشمركة، رأوهم يغادرون ورجوهم أن يتركوا أسلحتهم لأهل القرية على الأقل، لكن من دون فائدة. وسرعان ما انتشر الخبر مثل النار في الهشيم في القرية، لكنّ استيعاب الخبر لزمه بعض الوقت. فالبيشمركة كانوا يحظون بفائق الاحترام، وكان أكثرنا واثقًا أنّهم سيعودون لإتمام واجبهم تجاهنا، حتّى إن بعض النساء همس الواحدة منهنّ للأخرى عندما سمعنا أولى طلقات داعش الناريّة: «ربّما عاد البيشمركة لإنقاذنا».

مع مغادرة قوّات البيشمركة، احتلّ المقاتلون سريعًا المراكز ونقاط التفتيش العسكرية الشاغرة، ممّا جعلنا نعلق في قريتنا. لم نكن قد أعددنا أيّ خطّة للهروب، وقطعت داعش سريعًا الطريق الذي يربط قرى سنجار الجنوبيّة، مثل كوجو، بالجبل الذي كان قد بدأ يمتلئ بعائلات تحاول الاختباء. كما ألقي القبض على العائلات القليلة التي حاولت الهرب فقُتِلت أو اختُطفت. وعندما حاول نسيب أمي أن يهرب مع عائلته، أوقفهم تنظيم الدولة الإسلاميّة في سيّارتهم، فقتلوا الرجال على الفور. وأخبرتنا أمّي بعد أن تلقّت المكالمة الهاتفيّة» «لا أدري ماذا حصل للنساء؟». تاركة لمخيّلتنا أن تتصوّر ما هو أسوأ. وهكذا بدأت روايات مشابهة تملأ منازلنا بالرعب.

كان كلّ من حزني وسعود يعملان خارج كوجو عندما دخل تنظيم الدولة إليها - إذ كان حزني في مدينة سنجار بينما كان سعود في كردستان - فأخذا يتّصلان بنا طوال الليل، يتفجّعان لوجودهما آمنين

بعيدًا عنّا. وراحا يخبراننا ما أمكنهما حول ما كان يجري في سنجار. فقد مشى الأيزيديّون الفارّون، بعشرات الآلاف، مع ماشيتهم، سيرًا نحو الجبل. وقد نجح الأوفر حظًّا بينهم في حشر أنفسهم في سيّارات، أو تدلّوا من جوانب شاحنات انطلقت بأسرع ما يمكنها عبر الحشود. والبعض الآخر كان يدفع بالكبار في السن على عربات اليد، ومنهم مَن كانوا يحملون المرضى على ظهورهم، محدودبين تحت ثقلهم. وكانت شمس الظهيرة على درجة من الخطورة، فتوفّي عدد من كبار السن أو المرضى إلى جانب الطريق، لتتداعى أجسادهم النحيلة على التراب كما الأغصان المتساقطة. وكان العابرون من المارّة يكملون السير وكأنّهم بالكاد قد لاحظوا وجودهم. حتى لا يتأخروا عن بلوغ الجبل، أو مخافة أن يسقطوا بين أيدي الإرهابيّين. فعلوا ذلك بسبب رعبهم مما سمعوا أو رأوا.

وبينما كان الأيزيديّون يسيرون نحو الجبل، راحوا يتخلّون عن معظم ما حملوه معهم. من عربة طفل، إلى معطف، أو غطاء، أو وعاء طبخ - إذ عندما قرّروا الهرب من منازلهم، بدا لهم من المستحيل أن يتركوا هذه الأشياء وراءهم. فكيف عساهم يأكلون من دون وعاء يطبخون فيه؟ ماذا سيحصل عندما تؤلمهم ذراعهم من حمل طفلهم؟ هل سيعودون أدراجهم قبل الشتاء؟ لكن، عندما تحوّلت المسيرة شاقّة وبدت المسافة إلى الجبل تطول أكثر فأكثر مع كل خطوة يخطونها إلى الأمام، أصبحت أمتعتهم كلّها حملًا إضافيًّا، وتحوّلت خردة إلى جانب الطريق. كان الأطفال يسحبون سيقانهم سحبًا حتّى اهترأت الأحذية. وعندما بلغوا الجبل، اندفع بعضهم إلى الجهات المنحدرة بينما اختبأ آخرون في المغاور أو المعابد أو قرى الجبل. أمّا السيارات فراحت

تسرع على طول الطرق الملتوية، رامية بالبعض إلى جانبَي الطريق عندما كان السائقون يفقدون السيطرة نتيجة السرعة الفائقة. وأصبحت سفوح الجبل مكتظّة بالنازحين.

لكنّ الوصول إلى أعلى الجبل بالكاد يعني بلوغ الراحة. فقد كان على الأيزيديّين الذين تكاثر عددهم البحث عن مصدر للطعام أو المياه. أو راحوا يفتّشون عن أقارب لهم قد فقدوهم، أو يستجدون عطف أولئك الذين يعيشون في تلك القرى. أمّا آخرون، فقد ألقوا برحالهم أينما وصلوا من شدة الإرهاق. أو لربّما في لحظة الهدوء الأولى التي تلت قدوم تنظيم الدولة إلى سنجار، وفي ظل الأمان النسبي الذي بلغوه، بدأوا يفكّرون بما حدث لهم. فقد احتُلّت قراهم، وكلّ ما لديهم بات ملكًا لآخرين. ففي معرض اجتياحهم للمنطقة، راح مقاتلو التنظيم يدمّرون المعابد الصغيرة التي كانت عند أسفل الجبل. وإحدى المقابر القريبة من الجبل وقد كانت مخصّصة للأطفال، باتت تكتظ الآن بجثث من شتّى الأعمار، أشخاص قتلهم تنظيم الدولة الإسلاميّة أو توفّوا خلال رحلتهم صعودًا إلى الجبل. كما ذُبح مئات الرجال. في المقابل، اختُطف الصبية والفتيات الشابات واقتيدوا لاحقًا إلى الموصل أو سوريا. أما النساء المتقدّمات في السن، نساء في سن أمي، فقد تم تجميعهن وإعدامهن، في مقابر جماعيّة.

راح الأيزيديّون الذين صاروا في أعلى الجبل يفكّرون بالقرارات التي اتّخذوها وهم يفرّون. لربّما اجتازوا سّيارة أخرى كانت متوجّهة إلى الجبل حتى يصلوا أوّلًا، أو لربما لم يتوقّفوا لاصطحاب أحد المشاة. هل كان بإمكانهم أن يأخذوا حيواناتهم معهم، أو أن ينتظروا قليلًا كي ينقذوا شخصًا آخر؟ وُلد ابن خالي بعاهة تعيق مشيه، وعندما

جاءت داعش، أصرّ أن يسبقه أحبّاؤه إلى الجبل، إدراكًا منه أنّه لن يستطيع الوصول سيرًا على الأقدام. هل كان لينجو؟ لقد وجد الناجون أنفسهم الآن عالقين في قيظ الجبال الذي لا يُحتمل، بينما تنظيم الدولة الإسلاميّة يحشد قواه في الأسفل ولا يترك أي سبيل للنجاة.

تلقّينا تلك الأخبار، وكأنّنا نستمع لما سيؤول إليه مستقبلنا، فرُحنا نصلّي. وأخذنا نتّصل بكل من نعرفهم في القرى العربيّة السنيّة وفي كردستان، لكنَّ أيًّا منهم لم يجد ما يقوله لنا ويطمئننا. لم يقم تنظيم الدولة بمهاجمة كوجو في تلك الليلة أو في ذاك الصباح، لكنّهم أوضحوا جيّدًا أنّنا لو حاولنا الهرب، فسيقتلوننا جميعًا. وراح أولئك الذين يعيشون في طرف القرية يخبروننا كيف يبدو أولئك المقاتلون. كان بعضهم يضع أوشحة سحبوها إلى العينين. ومعظمهم ملتحٍ. كانوا يحملون أسلحة أميركيّة الصنع، قد أعطيت للجيش العراقيّ عندما غادر الأميركيّون، ثم أُخِذت من المواقع التي أخلاها الجيش. وكان المقاتلون تمامًا كما يبدون على التلفاز وفي الأفلام الدعائيّة الإعلانيّة على شبكة الانترنت. لم أستطع أن أنظر إليهم كبشر. فهؤلاء الرجال أنفسهم كانوا أسلحة بالنسبة لي، كما البنادق التي يحملونها والدبّابات التي يقودونها، وكانوا يستهدفون قريتي.

في اليوم الأول، وتحديدًا في الثالث من أغسطس، قدِمَ قائد من تنظيم الدولة الإسلاميّة إلى كوجو، فدعا أحمد جاسو الرجال إلى الديوان. وبما أن الياس كان الأكبر سنًّا، ذهب ليطّلع على ما يجري. فانتظرناه في الفناء الخارجي، جالسين في رقع الفيء القليلة التي كنا نجدها إلى جانب أغنامنا، التي نقلناها إلى هنا للحفاظ عليها بأمان. كانت الأغنام تثغو بهدوء، غير مبالية بما يجري من حولها.

كانت كاثرين تجلس بالقرب منّي، فتبدو هشّة خائفة. ومع أن فارق السن بيننا لم يكن يتعدّى بضع سنوات قليلة، كنّا في الصف نفسه في المدرسة، وكان يستحيل إبعادنا الواحدة عن الأخرى. وقد أصبحنا في مرحلة صبانا مهووستَيْن بالتبرّج وتصفيف الشعر، فكنّا نمارس هوايتنا على بعضنا البعض، فننطلق بأول الموديلات والتقنيّات في حفلات الزفاف في القرية. وكانت العرائس يشكّلن مصدر إلهام لنا؛ فذاك اليوم، هو أكثر يوم ينفقن فيه مالًا ويقضين وقتًا في التحضير لهيأتهنّ، وكنّ كلّهن يبدون كما الصور في المجلّات. وكنتُ أراقبهنّ عن كثب. كيف صفّفت شعرها هكذا؟ أي لون أحمر شفاه تضع؟ ثم أطلب من العروس أن ألتقط صورة لها، أضيفها إلى المجموعة التي كنتُ أحتفظ بها في الألبوم الأخضر الكبير. كنتُ أخالني عندما أفتتح صالوني الخاص للتجميل، ستأتي النساء ويقلّبن صور هذا الألبوم، بحثًا عن تصفيفة الشعر التي تعجبهنّ. وعندما وصلت داعش، كنتُ قد جمّعتُ أكثر من مئتي صورة. وأفضلها بالنسبة لي، كانت صورة شابة سمراء، قد رُفع شعرها المجعّد برخاء إلى أعلى رأسها وتزيّن بورود بيض صغيرة.

كنّا نعمل عادة أنا وكاثرين على شعرنا الطويل، فنعالجه بزيت الزيتون ونلوّنه بالحناء، لكن في ذلك اليوم، لم نكلّف نفسَينا حتّى عناء تمشيطه. كانت ابنة أخي شاحبة اللون صامتة، فشعرتُ فجأة بأنّني أكبرها بأعوام كثيرة. أردتُ أن تتحسّن حالها، فقلتُ لها وأنا آخذ بيدها: «لا تقلقي. سيكون كل شيء على خير ما يرام». كان هذا ما تقوله لي أمي، ومع أنّني لم أصدّقها، إلّا أنّه كان من واجبها أن تتحلّى بالصبر وتتسلّح بالأمل أمام أولادها، كما أفعل أنا الآن مع كاثرين.

عاد الياس إلى الفناء، فجلس الجميع من حوله. كان نفَسه سريعًا

متقطّعًا، كما لو أنّه ركض المسافة الفاصلة بين الديوان والمنزل، وحاول أن يهدّئ من روع نفسه قبل أن يبدأ الكلام. قال أخيرًا: «داعش تحيط بكوجو. يستحيل أن نغادر».

لقد حذّر قائد الدولة الإسلاميّة الرجال في الديوان من أنّهم لو حاولوا الهرب، فسيلقون عقابًا. وأضاف الياس قائلًا: «قال إن أربع عائلات قد جرّبت الهرب. فأوقفوهم. رفض الرجال اعتناق الإسلام. فقتلوهم. تمسّكت النساء بأطفالهنّ. ففصلوهم. أخذوا سيّاراتهم وبناتهم».

همست أمي من حيث كانت تجلس: «سيعود البيشمركة بكل تأكيد. إلينا بالدعاء. الله منقذنا».

في المقابل، أردف مسعود: «سيأتي أحدهم لنجدتنا». وكان غاضبًا. «لا يسعهم أن يتركونا هنا».

ثم أضاف الياس: «قال القائد إنّه علينا أن نتّصل بأقربائنا في جبل سنجار ونخبرهم بضرورة العودة وتسليم أنفسهم. طلبوا منّا أن نخبرهم أنّهم لو تركوا الجبل وعادوا، سيعفون عنهم».

جلسنا صامتين نمتصّ الخبر. على الرغم من المشقّات أعلى الجبل، إنما أقلّه كان الأيزيدّيون الذين تمكّنوا من الوصول إلى هناك بمنأى عن داعش. كنّا على ثقة بأن الجبل يحمينا من الاضطهاد. فعلى مر الأجيال، كان الأيزيديّون يحتمون في كهوفه، ويشربون من ينابيعه، ويعيشون من حبوب التين والرمّان التي يقطفونها من أشجاره. ومعابدنا وشيوخنا يحيطون بالجبل، وكنّا نؤمن بأن الله يرعاه عن كثب. كان حزني قد نجح في الانتقال من مدينة سنجار إلى الجبل، وعندما كان

يتّصل، كان يؤنّبنا على خوفنا عليه. «أنتم تبكون علينا! بل نحن الذين نبكي عليكم»، كان يقول. «فنحن قد نجَوْنا بأنفسنا».

فعلنا ما طلبه منّا المسلّحون. وعندما جاؤوا إلينا لجمع أسلحة أهل القرية، أعطيناهم ما نملك إلا بندقيّة واحدة، نجحنا في طمرها في مزرعتنا في إحدى الليالي عندما خلناهم غير قادرين على رؤيتنا. ولم نحاول الهرب. في كلّ يوم، كان الياس أو أخ آخر يذهب إلى الديوان لأخذ الأوامر من قائد التنظيم، ثم يعود إلى المنزل لإطلاعنا على آخر الأخبار. وكنّا نبقى في الداخل نلتزم الهدوء والصمت. أمّا تلك البندقيّة المطمورة، فبقيت في نهاية المطاف مطمورة. لكن أيًّا كانت الوعود التي قطعها تنظيم الدولة الإسلاميّة، كنّا نفضّل الموت على الطلب من حزني أو أي شخص آخر أن يغادر جبل سنجار. فجميعنا يعلم ما سيحصل للأيزيديّين لو عادوا من الجبل.

الفصل السابع

استمر حصار كوجو قرابة الأسبوعين. وقد مرّ بعض الأيّام بلمح البرق، فتوالت اللحظات الواحدة تلو الأخرى، بينما شعرتُ في أيّام أخرى وكأن كل ثانية دهر. في الصباح الباكر، كان أذان الفجر يصدح من مواقع الدولة الإسلاميّة، وهو صوت، على غرابته في كوجو، إلّا أنّني كنتُ أعرفه جيّدًا بعد أن درستُ الإسلام في المدرسة وسافرتُ مرارًا إلى مدينة سنجار. هناك، كان كبار الأيزيديّين يشتكون من سماعهم الدعوة للصلاة. فيتنهّدون قائلين: «لم تعد سنجار مدينة أيزيديّة»، وكلّهم قناعة بأنّنا سنضطر قريبًا إلى الانزواء في قرانا وبلداتنا الصغيرة، بينما تُترك الأجزاء الأفضل من المناطق الأيزيديّة إلى العرب والأكراد الأثرياء وأصحاب النفوذ. ومع ذلك، لم يزعجني الأذان يومًا إلى أن وصل تنظيم الدولة إلى سنجار. فقد بدا الصوت مصدر تهديد، بعدما بات يحيط بنا من كل حدب وصوب. شيئًا فشيئًا، بدأ الأقرباء يتدفّقون إلى منزلنا. فتركت جيلان، زوجة حزني، منزلها الذي شارف على الانتهاء خارج البلدة وانضمّت إلينا، بينما قدِمَ أنسباء وأشقّاء من شتّى أنحاء البلدة، حاملين أمتعة صغيرة أو طعامًا أو حليب أطفال للرضّع. وكانت شيرين، زوجة سعود قد ولدت طفلها للتو، وعندما أحضرت إلينا ذلك

المخلوق الزهريّ الصغير، أحاطت النسوة بالرضيع، كما لو كان الأمل المرتجى. وسرعان ما امتلأت الغرف القليلة التي يتألّف منها منزلنا بالملابس والبطانيّات والصور والأغراض الثمينة، وكل ما أمكنهم حمله. خلال النهار، كنّا نتجمّع حول التلفزيون، نشاهد تقارير حول مجازر الأيزيديّين في سنجار. وكأنّه كابوس حيّ. لم يكن باستطاعة الطائرات التحليق على علو منخفض لتوزيع المساعدات، فبدا وكأن الجبل الضخم بات يبتلع حزم الطعام والمياه كلّما تساقطت من الجو.

حاول الأيزيديّون بكل ما أوتوا به من قوّة وإصرار أن يصعدوا على متن طائرات الجيش العراقي النفّاثة التي كانت تحطّ على الطرقات الجبليّة، فراحوا يدفعون بالأطفال والعجّز للصعود بينما يدفعهم الجنود خارجًا متذرّعين أن لا مكان. فيصرخون بوجوههم: «لا تستطيع الطائرة الإقلاع بهذا العدد من الناس!». لكن ذلك المنطق لم يكن ليبلغ آذان الشعب المحموم أعلى الجبل. وقد سمعنا أن امرأة قد أصرّت على المغادرة بواسطة إحدى الطائرات حتى تدلّت لفترة من زلاجة الهبوط بينما كانت الطائرة ترتفع، قبل أن تفلت قبضتها وتقع. ويقول أحدهم إنّه عندما ارتطم جسدها بالصخور في الأدنى، كانت أشبه ببطّيخة قد انفجرت فتطايرت أجزاؤها في كل اتّجاه.

كان حزني بالكاد قد وصل إلى الجبل قبل أن يسيطر تنظيم الدولة الإسلاميّة على مدينة سنجار. فبعد إخلاء مركز الشرطة حيث كان يعمل، انطلق سيرًا على الأقدام مع شرطي آخر نحو الجبل. وقد غادر كلّ الرجال في وحدته المركز محمّلين ببندقيّة ومسدّسات خبأوها في سراويلهم، إذ لم يريدوا أن يتركوا أي سلاح وراءهم للإرهابيّين المتوجّهين إلى المدينة. كانت الدرب حارّة ومغبرة، وكانا خائفَيْن،

غير أكيدَيْن أين قد يختبئ المسلّحون أو من أين قد يخرجون. وعلى بعد ثمانمئة متر خارج مرقد السيدة زينب في سنجار، شاهدوا شاحنة تابعة للدولة الإسلاميّة تمر نحو مسجد البلدة الشيعيّة، قبل أن يتداعى المسجد تحت وطأة التفجير. وعندما بدّلوا الاتجاه على الطريق السريع، كانوا على وشك أن يفتضح أمرهم عندما مرّت ثلاث شاحنات على متنها مسلّحون للتنظيم، قاموا بعد دقائق قليلة بإعدام الرجال الذين كانوا وراء حزني ورفيقه. «لقد نجوتُ بأعجوبة»، أخبرني أخي لاحقًا.

أعلى الجبل، كانت النهارات قائظة والليالي قارصة. بات من هناك يفتقدون للطعام ويموتون من الجفاف. في اليوم الأوّل، ذبح النازحون الأيزيديّون الغنمة التي أحضروها معهم إلى الجبل، فأكل الجميع كمّية قليلة من اللحم. وفي اليوم الثاني، تسلّل حزني وآخرون إلى الجانب الشرقي من الجبل سيرًا على الأقدام، وتوجّهوا إلى قرية صغيرة لم تكن الدولة الإسلاميّة قد وصلتها بعد. هناك، ملأوا جرارًا بالقمح النيء الذي قاموا بسلقه أعلى الجبل، وأعطوا كل شخص كوبًا كفيلًا بأن يملأ بطنه. وفي أحد الأيام، أحضر بعض المسلّحين من وحدات حماية الشعب الكرديّة - وهي الذراع السوريّة لحزب العمال الكردستاني، وهو حزب كردي في تركيا - الخبز والطعام من سوريا.

في نهاية المطاف، شقّت وحدات حماية الشعب الكرديّة، تساعدها الضربات الجوية الأميركيّة، طريقًا آمنًا أمام الأيزيديّين من سنجار إلى داخل الأجزاء الكرديّة في سوريا، التي بقيت آمنة نسبيًّا منذ بدء الحرب الأهليّة السوريّة. فهناك، كان الأكراد المنتمون إلى حزب العمال الكردستاني يسعون لإنشاء منطقة تتمتّع بحكم ذاتي. ومع أن التنظيم أطلق النار على الأيزيديّين بينما كانوا يفرّون، إلّا أن عشرات الآلاف

تمكّنوا من مغادرة الجبل. هرب حزني من الجبل إلى منزل عمّتنا بالقرب من زاخو. وبينما عبر الأيزيديّون في الجزء الكردي من سوريا إلى كردستان العراق، سارع الأكراد الذين يعيشون هناك، وأغلبيّتهم من السنّة، إلى ملاقاتهم وتقديم الطعام والماء والملبس. في المقابل، فتح آخرون منازلهم ومتاجرهم ومدارسهم أمام الأيزيديّين الفارّين. وكانت تلك التفاتة تعاطف لا تزال تؤثّر بنا حتى يومنا هذا.

قبل المجازر، لم أُوْلِ حزب العمّال الكردستاني أي تفكير. فلم يكن لديهم حضور يُذكر في سنجار، ومع أنّني كنت أرى صورًا لهم أحيانًا على التلفزيون الكردي - رجال ونساء ببزّات رماديّة اللون فضفاضة يجثون أمام أسلحة الكلاشنيكوف في مكان ما في جبال قنديل، على الحدود مع إيران - إلّا أنني لم أربط يومًا بينهم وبيني، ولا عنى لي قتالهم ضد الحكومة التركيّة شيئًا. لكن بعد أن خلّصوا الأيزيديّين العالقين في الجبل، باتوا بمثابة أبطال في سنجار، مستبدلين البيشمركة في أذهان الكثيرين، ومتحوّلين إلى حماة للأيزيديّين. غير أن تدخّلهم قد خلص إلى إشعال فتيل التوتّر بينهم وبين حزب البرزاني الذي كان لا يزال يريد بسط سلطانه في سنجار، معرّضًا منازلنا لنوع آخر من الحروب، تلك الحروب التي بدأت تتكشّف في السنوات القليلة التاليّة. لكن في ذلك الوقت، كنّا ممتنّين لحزب العمّال الكردستاني لمساعدته الأيزيديّين على مغادرة الجبل ولإرساله مئات الجنود للقتال في الخطوط الأماميّة ضد داعش في سنجار.

غير أننا لم نلتمس أي إشارة مساعدة آتية إلى كوجو. كان أحد إخوتي يتوجّه كل يوم إلى الديوان ويعود أدراجه محمَّلًا بالأخبار، من غير أن يكون أي منها مفرحًا. كان رجال كوجو يسعون لوضع خطّة ما، لكن لا

أحد من خارج القرية كان مستعدًّا للمساعدة. أمّا أمي، فما كانت تنفك تقول: «ربّما يستخدم الأميركيّون طائراتهم لتحريرنا، كما فعلوا في الجبل. أو لربّما يأتي حزب العمال الكردستاني إلى هنا تاليًا». والمرّة الوحيدة التي بدا فيها أن المقاتلين الذين حاصروا كوجو كانوا خائفين، كان عندما سمعوا أصوات طائرات نفّاثة. لكن إخوتي الذين كانوا على اتّصال مع مترجمين أيزيديّين عملوا مع الجيش الأميركي، وأصبحوا الآن في أميركا، فقدوا الأمل سريعًا من احتمال حدوث أيّ شيء من هذا القبيل.

كانت الطائرات الحربيّة والطائرات النفّاثة تعبر فوقنا، متّجهة إلى الجبل، وليس إلى كوجو، وكنّا ندرك جيّدًا أن حزب العمّال الكردستاني لن يصل إلينا. فمقاتلو الحزب شجعان وقد تدرّبوا لوقت طويل - إذ مضى على قتالهم الجيش التركي حوالى النصف قرن - لكنّهم يجيدون القتال في الجبال ولن يتمكّنوا من التغلب على داعش في الأراضي المسطّحة التي تمتد أسفل جبل سنجار. بالإضافة إلى ذلك، باتت كوجو الآن أرض أعداء، تقع على مسافة لا يمكن الوصول إليها في الجنوب. لقد بتنا في اللامكان.

لكنّنا بقينا متشبّثين ببصيص الأمل لفترة طويلة، ننتظر أن يكسر الأميركيّون حصار كوجو. كان لأخي جلو الذي كان متمركزًا في مطار تلّعفر بعد الاجتياح الأميركي، صديق في الولايات المتّحدة اسمه حيدر الياس، وهو أيزيدي حصل على اللجوء في هيوستن لأنه عمل مترجمًا لدى الأميركيّين. كانا يتكلّمان مع بعضهما البعض كل يوم تقريبًا وأكثر من مرّة، على الرغم من أن حيدر حذّر جلو من الاتصال به - إذ كان يخشى إن فتّش تنظيم الدولة هاتف جلو ورأوا رقمًا أميركيًا أن يقتلوه على الفور.

كان حيدر ومجموعة من المغتربين الأيزيديّين يتخبّطون لمساعدة

الأيزيديّين في العراق. فأعدّوا عريضة قدّموها للحكومات في واشنطن وإربيل وبغداد من غرفة فندق استأجروها في العاصمة واشنطن، من غير أن يحرزوا أي تقدم في شأن كوجو. وكان جلو يجيب على كل اتصال هاتفي يرده من حيدر على الفور، لكن أمله سرعان ما تلاشى ليُستبدل باليأس. فقد كان أخي مع الأميركيّين عندما أغاروا على منازل بحثًا عن متمرّدين، وهو يعلم جيّدًا ما يستطيعون فعله عندما يكونون على الأرض. وكان جلو واثقًا من أنه لو أرسلت الولايات المتّحدة جنودًا لمهاجمة نقاط تفتيش تنظيم الدولة الإسلاميّة المحيطة بكوجو، فتستطيع حينئذ كسر الحصار. وكان أعضاء تنظيم الدولة يشتكون أحيانًا في الديوان من العمليّات الأميركيّة في سنجار لإنقاذ الأيزيديّين، مطلقين على أوباما اسم «الصليبي». وعندما كان يحصل ذلك، كان جلو يقول لحيدر، «أعتقد بأنّهم يخسرون سيطرتهم. لربما سيدَعوننا وشأننا». وقبل ذلك بأيام قليلة، أخذ مقاتلو تنظيم الدولة الإسلاميّة أحمد جاسو الذي كان عليلًا إلى بلدة مجاورة لتلقّي العلاج. فتساءل جلو: «لمَ يفعلون ذلك إن كانوا لا ينوون تركنا أحياء؟».

كان جلو يحب أميركا. قبل الحصار، كان يتّصل بحيدر في تكساس ليسأله عن حياته الجديدة خارج العراق. وكان يشعر بالغيرة من حيدر الذي يرتاد جامعة في أميركا بينما جلو لم يتمكّن حتى من الدراسة في الثانوية. فيمازحه قائلًا: «ابحث لي عن زوجة أميركيّة! امرأة قبيحة عجوز تقبل أن تتزوج بي أيًا كان وضعي».

غير أن حيدر لم يكن يعتقد بأن الأميركيّين سيأتون لنجدة كوجو. وراح يفكّر بأن تنظيم الدولة الإسلاميّة قد ينتقم من كوجو على الضربات الجويّة. فقال لجلو: «كونوا حذرين. قد يعمدون إلى ممارسة

نوع من الخداع عبر إيهامكم أنّهم ضعفاء. لن يتركوكم وشأنكم». كان الجميع مربكًا جرّاء ما يجري في العراق. فوسائل الإعلام لم تكن تنقل أي خبر يتناول حصار كوجو. وقد علّق إلياس قائلًا: «إنهم يغيّرون رئيس الوزراء في بغداد. لا وقت للتفكير بنا».

لذا جلسنا ننتظر. كانت القرية هادئة والشوارع خالية، فالجميع آثر البقاء في الداخل. انقطعنا عن الأكل، ورحت أراقب إخوتي يزدادون نحولًا وشحوبًا. وكنتُ أفترض أن الأمر نفسه يحصل لي، لكنّني لم أرد أن أنظر إلى المرآة لأتحقّق من الأمر. لم نكن نستحم، وسرعان ما بدأت روائح أجسادنا النتنة تعبق في أرجاء المنزل. كنّا كل ليلة نصعد إلى السطح - بعد هبوط الظلام حتى لا يرانا المسلحّون - حيث ننام كتفًا إلى كتف. وكنّا ننحني مطأطئين أجسادنا ونحن في الأعلى، نحاول أن نختبئ خلف جدار السطح المنخفض، فنهمس بهدوء لبعضنا البعض حتى لا يسمعنا أحد. وكم انكمشت أجسادنا توتّرًا عندما بدأ طفل شيرين بالبكاء، وهو غير مدرك لما يجري. في كل الأحوال، لا شك في أن تنظيم الدولة الإسلاميّة كان يعلم أنّنا هنا. وهذا هو بيت القصيد.

لقد جعلنا تنظيم الدولة الإسلاميّة سجناء داخل منازلنا، بينما واصل ارتكابه المجازر في أماكن أخرى في سنجار. فلم تكن قد سنحت لهم الفرصة بعد للتفرّغ لنا. بل كانوا منهمكين بمصادرة المنازل الأيزيديّة وملء الأكياس بما استطاعوا نهبه من مجوهرات ومفاتيح سيّارات وهواتف خلويّة؛ وكانوا مشغولين بإدارة أبقار الأيزيديّين وأغنامهم وامتلاكها. وكانوا يوزّعون النساء الشابّات على المقاتلين في العراق وسوريا كي يستخدموهم سبايا، ويقتلون الرجال الذين قد يبلغون سنًّا يجعلهم قادرين على الدفاع عن أنفسهم. وقد قتل آلاف الأيزيديّين،

وألقيَ بجثثهم في مقابر جماعية سعى تنظيم الدولة - وفشل - إلى إبقائها سرّية.

كان أملنا الأخير، من خارج كوجو، يكمن في الحصول على مساعدة القرى المجاورة، حيث يعيش أصدقاؤنا والكريف من العرب السنة. فقد سمعنا روايات عن عرب يأوون أيزيديّين أو يقودونهم إلى بر الأمان. لكنّنا سمعنا أيضاً العديد العديد من الروايات عن أولئك الذين أداروا ظهرهم للأيزيديّين، لا بل سلّموهم إلى داعش قبل أن يلتحقوا بأنفسهم بالمقاتلين. وإن كان بعضها مجرد شائعات، إلا أن مصادر البعض الآخر كانوا أشخاصًا مقرّبين منّا نثق بهم ثقة مطلقة، لذا، كنّا أكيدين أنّها روايات صحيحة. في صبيحة أحد الأيام، اصطحب ابن عمّي عائلته إلى منزل الكريف الخاص به، سائلًا العون. فرحّبت بهم العائلة وجعلتهم يشعرون بالأمان. وقالوا لهم: «يمكنكم البقاء هنا. سنساعدكم». ثم بلّغوا عن قريبي لقائد الدولة الإسلاميّة الذي أرسل مقاتليه لإلقاء القبض عليه وعلى عائلته.

أخذ إخوتي يتّصلون بكل من يخطر ببالهم في هذه القرى، فيصعدون إلى السطح لالتقاط الإرسال. وقد بدا غالبيّة الناس الذين حاولوا الاتّصال بهم صادقين في قلقهم علينا. إلا أن أيًّا منهم لم يكن يملك إجابة أو طريقة للمساعدة. بل طلبوا منا أن نبقى حيث نحن، قائلين: «تحلّوا بالصبر». وقد جاء بعض الجيران المسلمين لزيارتنا بينما كنّا تحت الحصار، فجلبوا الطعام للقرية وأخبرونا أن مصابنا مصابهم. وضربوا على صدورهم بأكفّهم واعدين: «لن نتخلّى عنكم». لكن يومًا بعد يوم، تخلّوا عنا.

كان بإمكان جيراننا السنّة أن يأتوا إلينا ويساعدونا. ولو عرفوا ما كان

سيحلّ بالنساء، لكان بإمكانهم أن يجعلونا نرتدي الأسود ويأخذونا معهم. كان يكفي أن يأتوا ويقولوا لنا بكل واقعيّة: «هذا ما سيحدث لكم»، حتى نتوقّف عن إيهام أنفسنا بإمكان نجاتنا. لكنّهم لم يفعلوا. بل اتّخذوا قرار عدم الإتيان بأي حركة، وجاءت خيانتهم بمثابة رصاصة اخترقت صدورنا قبل الرصاص الفعلي.

ذهبتُ في أحد الأيّام مع ديمال وخيري والياس وخالد - وهو أخي غير الشقيق - إلى مزرعتنا لنأخذ خروفًا نذبحه لإعداد العشاء. فعلى عكس البالغين الذين انقطعت شهيّتهم، كان الأطفال يبكون طالبين أن يأكلوا، ومن دون أي طعام يدخل إلى كوجو، كان لا بد من التضحية بأحد أغنامنا.

كانت إشارة الهاتف الخلوي جيّدة في المزرعة، فأحضر الياس هاتفه معه حتى يواصل الرجال اتّصالاتهم للحصول على مساعدة بينما نحضر الخروف. وقد سمعنا للتو أن باسو، ابنة أخي، قد وقعت بين أيدي التنظيم وهي تحاول الفرار إلى الجبل من تل قصب، حيث كانت تزور قريبة مريضة، فأُخِذت إلى مدرسة في تلّعفر. وأُخبرنا أن المدرسة قد طليت باللون الأحمر وكانت تعج بالفتيات والنساء الأيزيديّات. فتذكّرت أن أحد أساتذتي، وهو رجل سنّي اسمه الأستاذ محمّد، كان من تلّعفر، ففكّرت في احتمال أن يساعدنا على إيجاد باسو.

كان عدد كبير من معلّمينا من العرب السنّة من خارج كوجو، ومعظمهم من منطقة الموصل. وكنّا نعاملهم باحترام ونعتبرهم جزءًا من القرية. وبعدما بلغ تنظيم الدولة الإسلاميّة قراهم وبلداتهم، رحتُ أفكّر كيف يعيشون. لم يتّصل أي منهم بنا ليسأل عمّا يجري في كوجو. وقد أقلقني الأمر بادئ ذي بدء. فلم يسعني أن أتخيّل الوضع

بالنسبة إليهم، بعد أن اضطرّوا للهروب من داعش، أو أسوأ من ذلك، العيش تحت حكمهم. لكن مع تواصل الحصار، بدأت أتساءل إن كان الأساتذة صامتين ليس لأنّهم يعيشون في الخوف، بل لأنّهم سعداء بوجود داعش. لربّما كانوا يعتبرون طلّابهم كفّارًا. كان مجرّد التفكير بالأمر يصيبني بالغثيان.

كنتُ قد كتبتُ أرقام هواتف أساتذتي كلّهم في خلفيّة أحد دفاتري، فاستخدمت هاتف الياس للاتّصال بالأستاذ محمّد. بعد أن رنّ رنّات معدودة، أجاب على الاتّصال.

«مرحبا، أستاذ محمد»، قلت باحترام بالعربيّة. ورحتُ أفكّر بالأيّام التي قضيتها في صف الأستاذ محمد، أحاول التركيز على دروسه، وأنا أدرك أنّني لو نجحت، فسأنتقل إلى الصف الأعلى وأقترب من التخرّج ومن مرحلة جديدة في حياتي. كنتُ أثق به.

«من المتّصل؟». بدا صوت أستاذي طبيعيًّا، وجعل هدوؤه ضربات قلبي تتسارع.

أجبته: «نادية، أستاذي، نادية من كوجو».

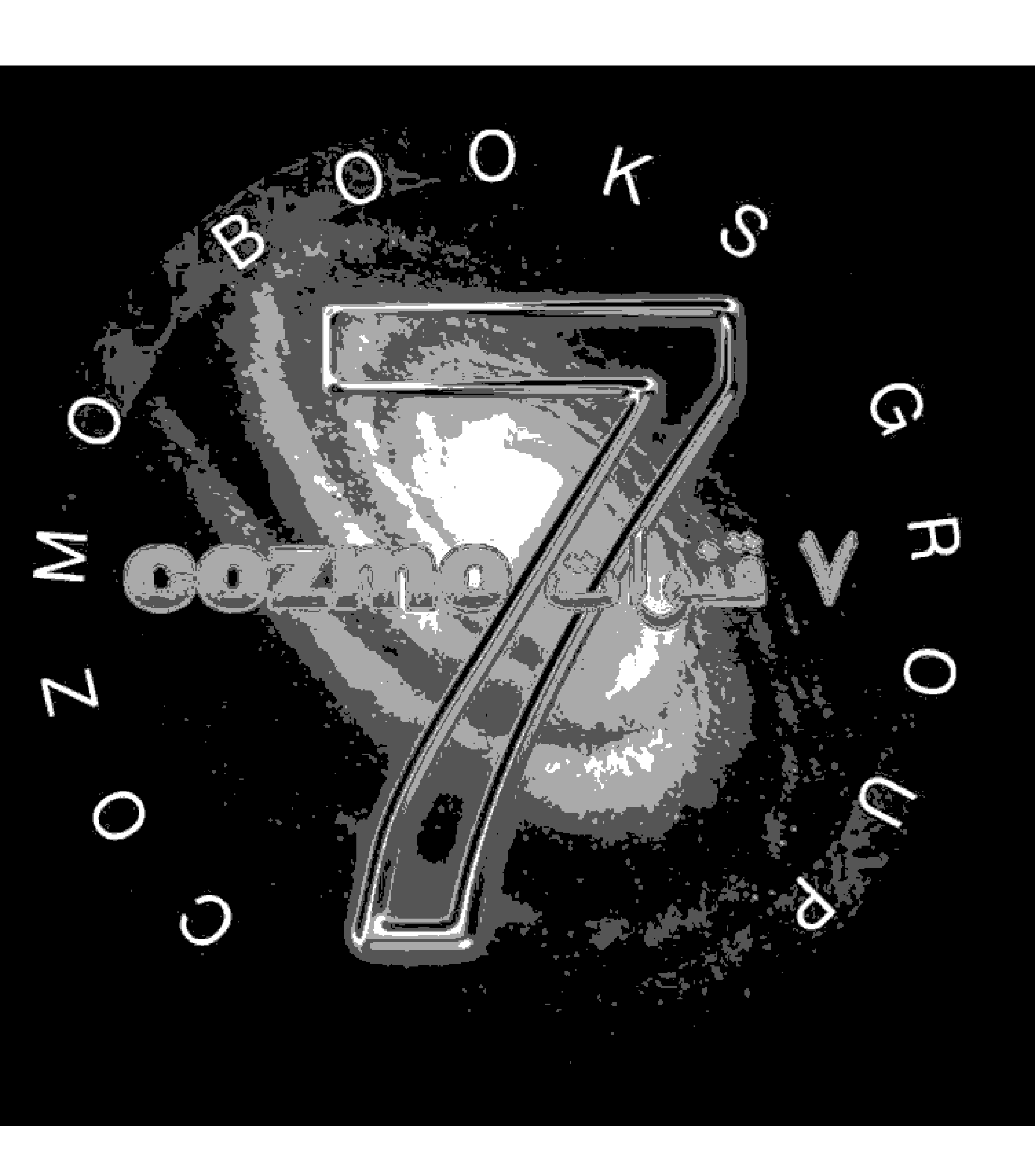
فسألني: «نادية، ما الأمر؟». وبدا صوته وكأنه يتسارع قليلًا. ثم تحوّل باردًا ملحًّا.

فرحت أشرح له أن باسو قد وقعت بين يدي تنظيم الدولة واقتيدت إلى تلّعفر. وأخبرته: «يقولون إن المدرسة مطليّة باللون الأحمر. هذا كل ما نعرفه. لا نستطيع مغادرة كوجو، فداعش تحيط بالقرية، وقد أخبرونا أنّهم سيقتلون كل من يحاول المغادرة. هل تستطيع مساعدتنا على التحدث إلى باسو؟ هل تعلم أين تقع المدرسة؟». التزم أستاذي

الصمت للحظة. لربما لم يستطع سماعي. لربما قطعت داعش الإرسال، أو انتهى رصيد الياس. عندما نطق الأستاذ محمّد أخيرًا، بدا شخصًا غير ذاك الرجل الذي علّمني قبل أشهر قليلة. كان صوته بعيدًا وباردًا: «لا أستطيع أن أكلّمك، نادية»، قالها همسًا. «لا تقلقي بشأن ابنة أخيك. سيطلبون منها اعتناق الإسلام، وسيتزوّجها أحدهم». ثم أقفل الخط قبل أن أتمكّن من الرد عليه. نظرتُ إلى الهاتف في يدي، قطعة بلاستيكيّة رخيصة لا فائدة منها.

«يا ابن العاهرة»، صرخ الياس وهو يسحب الخروف من عنقه ويتجه به نحو المنزل. «نحن نتّصل ونتّصل، وما من مجيب».

في تلك اللحظة، شيء ما في داخلي قد تغيّر، لربّما إلى الأبد. فقد فقدت الأمل بأن يساعدنا أي كان. لربما كان أستاذي مثلنا: خائفًا على حياته وعلى عائلته ويقوم بما يلزم كي يبقى على قيد الحياة. أو لربّما قد رحّب بداعش وبفرصة العيش في العالم الذي يتخيّلونه، عالم يحكمه تفسيرهم العنيف للإسلام - عالم من دون الأيزيديّين، أو من دون كل من لا يؤمن بما يؤمنون به. لا أدري. لكن في تلك اللحظة تحديدًا، بتّ على يقين أنّني أكرهه.


COZMO BOOKS GROUP
cozmo
V

الفصل الثامن

المرّة الأولى التي رأيت فيها مقاتلًا من تنظيم الدولة الإسلاميّة عن قرب كانت في اليوم السادس من الحصار. كنّا قد انقطعنا من الطحين ومياه الشرب، فذهبتُ مع أدكي واثنين من أولاد إخوتي، روجيان ونسرين إلى منزل جلو بحثًا عن القليل من المؤونة. كان منزل جلو يبعد دقائق قليلة سيرًا على الأقدام عن منزلنا، نصل إليه عبر ممر ضيّق، ولم يكن من المعتاد أن نرى أعضاء من تنظيم الدولة في طرق القرية. فكانوا يبقون عند تخوم البلدة، يراقبون من حواجزهم، كي يتأكّدوا إن كان أيٌّ منّا يحاول الهرب.

ومع ذلك، كانت فرائصنا ترتعد إذا ما توجّب علينا مغادرة المنزل. فأن تطأ قدمك خارج عتبة الباب الأمامي، كما لو أنّك تسير على كوكب آخر. لم يعد في كوجو ما يبدو مألوفًا أو مريحًا. كانت الأزقة تعجّ في الأيّام الطبيعيّة بالناس، من الأطفال الذين يلهون، إلى أهلهم الذين يتسوّقون في المتاجر الصغيرة، أو في الصيدليّة، لكن القرية أصبحت اليوم فارغة هادئة. همستُ في أذن أدكي التي كانت تسير أمامي، وتبدي شجاعة تطيح بنا كلّنا: «إبقي قريبة منّي». ثم تحرّكنا سريعًا، نتعرّج عبر الأزقّة الملتوية. كنتُ قد بلغتُ من الخوف ما جعلني في حال من شبه الهلوسة. فما كان منّا إلا أن ركضنا هربًا من أطيافنا التي تلاحقنا.

كانت أمّي هي من طلب منا أن نذهب، قائلة: «السنّ بحاجة للرجال»، ووافقناها الرأي. فقد كنّا نجلس في المنزل لا نقوم بأي عمل سوى مشاهدة التلفاز والبكاء، فنتحوّل مع مرور الأيّام من نحيلات إلى أكثر نحولًا ووهَنًا. أما إخوتي الشباب، فكانوا على الأقل يتوجّهون إلى الديوان وعندما يعودون إلى المنزل، يخبروننا بما قاله المختار أو قائد التنظيم، ويحاولون إجراء عدد من الاتّصالات على هواتفهم الخلويّة، في مسعى لإيجاد من قد يساعدنا، إلى أن ينهاروا من الجوع والتعب. كان إخوتي محاربين، شأنهم شأن أبي، ولم أرهم يومًا على هذه الدرجة من اليأس والقنوط. لذلك، كان لا بد لي من القيام بشيء ما لتقديم يد العون.

لم تكن هندسة كوجو عظيمة، إذ كانت تفتقد لأي تنظيم مَدَني يجعل المنازل والشوارع تتّبع تخطيطًا واضحًا منذ إنشاء البلدة. فإن كنتَ تملك أرضًا، يمكنك بناء ما شئتَ عليها، أينما أردت، لذلك تحوّلت القرية إلى عشوائية حتى ليصيبك الدوار عندما تقرر المشي فيها. وهكذا، أخذت المنازل تتوسع توسّعًا غير متوقّع لتبدو وكأنها كائنات حيّة، بينما تتعرّج الأزقة حول هذه المنازل في متاهة قد تبتلع كل من فشل في حفظ خارطة القرية. وحفظ تلك الخارطة، يتطلّب أن تمشي طوال حياتك من منزل إلى آخر.

كان منزل جلو يقع عند طرف القرية، وجل ما يفصله عن العالم خارج كوجو كان جدارًا من الطوب. وراءه تمتد صحراء سنجار وصولًا إلى الموصل، التي أصبحت الآن عاصمة الدولة الإسلاميّة في العراق. دفعنا بالبوّابة المعدنيّة ومشينا نحو المطبخ. كان المنزل فارغًا ونظيفًا، ولا يوحي أن جلو وعائلته قد تركوه وهم على عجلة من أمرهم، لكنّني شعرتُ بالخوف في الداخل. فالمنزل يبدو مسكونًا بغيابهم. وجدنا

بعض الطحين والماء وعلبة من حليب الأطفال، فوضعنا الأغراض في أكياس بأسرع ما أمكننا من دون أن ننبس ببنت شفة.

بينما كنّا خارجات، أشارت روجيان إلى جدار الحديقة، حيث كانت إحدى قطع القرميد قد سقطت، فخلّفت فجوة عند مستوى خصرنا تقريبًا. لم تكن إحدانا تملك الجرأة للاقتراب والنظر مطوّلًا إلى المقاتلين الذين كنّا نراهم من على سطحنا، إذ كنّا نشعر أنّنا مكشوفات. لكن هذا الجدار كان يمنح بعض الغطاء، ومن خلال تلك الفجوة، كان بإمكاننا أن نرى أحد أول الحواجز التي تقود إلى كوجو. تساءلت روجيان وهي تمشي في الحديقة وتجلس القرفصاء وراء الجدار: «هل تعتقدن بأن الدواعش هناك؟». نظرنا نحن الثلاثة إلى بعضنا البعض، ثم أسقطنا ما بين أيدينا ولحقنا بها، واضعات جبيننا على الجدار كي نتمكّن من رؤية العالم الخارجي.

على بعد نحو مئتي متر، كان قلة من المسلّحين يحرسون نقطة تفتيش كانت تعود في السابق لقوّات البيشمركة، والجيش العراقي قبلهم. كانوا يرتدون سراويل سودًا فضفاضة وقمصانًا سودًا، بينما تتدلّى أسلحتهم على جانبيهم. رحنا نراقب حركاتهم كما لو كنّا نفكّ شيفرتهم - إذ يطرقون بأقدامهم الأرض الترابيّة، بينما تتحرّك أيديهم في الوقت الذي يتكلّمون فيه مع بعضهم البعض - وكل من هذه الحركات تبعث فينا الذعر.

قبل دقائق قليلة، كان قد تملّكنا خوف مبين من احتمال أن نصادف مقاتلًا في طريقنا، لكن ها نحن الآن نعجز عن انتزاع أنفسنا من موقعنا نراقبهم. تمنيّتُ لو أمكننا سماع ما يقولون. لربّما كانوا يخطّطون لشيء ما، فنستطيع أن نفهم بشكل أفضل ما ينتظرنا، ونعود ببعض الأخبار التي تساعد إخوتنا في المواجهة. ولربّما كانوا متحمّسين للسيطرة على

سنجار؛ فلو سمعنا ذلك، لكنّا استشطنا غضبًا وعقدنا العزم على قتالهم.

همست روجيان قائلة: «عمّ يتكلّمون برأيكنّ؟».

فأجابتها أدكي: «ليس خيرًا»، معيدة الجميع إلى أرض الواقع. «هيّا، لنذهب. وعَدْنا أمّي بأن نجلب الأغراض سريعًا».

مشينا إلى المنزل في حال من الصدمة. كسرت نسرين حاجز الصمت قائلة: «إنّهم الأشخاص أنفسهم الذين يحتجزون باسو. لا بد من أنها خائفة».

بدا الزقاق أكثر ضيقًا، فرحنا نحث الخطى قدر ما استطعنا، محاولات الحفاظ على رباطة جأشنا. لكن عندما وصلنا إلى المنزل وأخبرنا أمي ما رأينا - وكم هم على مقربة من المنزل حيث كان أطفال جلو ينامون قبل ليالٍ معدودة - لم يسعنا أنا ونسرين أن نتمالك أنفسنا فأجهشنا بالبكاء. أردتُ أن أكون متفائلة وقويّة، لكنّني كنت بحاجة إلى أن أفهِم أمّي كم كنتُ خائفة حتى تستطيع التخفيف من روعي.

«إنّهم قريبون جدًّا»، قلت لها. «نحن بين أيديهم. لو أرادوا أذيّتنا، فباستطاعتهم القيام بذلك».

فأجابتني أمي: «علينا الانتظار والصلاة. لربّما سيتم إنقاذنا. لربّما لن يؤذونا. لربّما سنجد خلاصنا بطريقة ما». لم يمرّ يوم لم تقُلْ فيه شيئًا مماثلًا.

تحوّلت ملابسنا رماديّة من الغبار والعرق، لكنّنا لم نفكّر بتغييرها. بل انقطعنا عن الأكل والشرب إلا لمامًا، فتجرّعنا كميات قليلة من مياه فاترة معبّأة في زجاجات بلاستيكيّة ومتروكة تحت أشعة الشمس. انقطع التيار الكهربائي واستمر الوضع على هذا النحو حتى نهاية

الحصار. فكنّا نشغّل المولّد ما يكفي لشحن الهواتف الخلويّة ومشاهدة التلفاز عندما كانت الأخبار تعرض تقارير عن الحرب مع داعش، وما كانت تفعل سوى ذلك. لكن عناوين الأخبار كانت تُغرِقُنا في حال من اليأس؛ فقد توفّي ما يقارب الأربعين طفلًا أعلى جبل سنجار من الجوع والجفاف، بينما لقي آخرون كثر حتفهم خلال رحلة الهرب. من جهة أخرى، احتلّت الدولة الإسلاميّة بعشيقة وبحزاني، وهما قريتان أيزيديّتان كبيرتان على مقربة من الموصل، لكن لحسن الحظ تمكّن معظم الناس هناك من الهرب إلى كردستان العراق. غير أن آلاف النساء والفتيات الأيزيديّات من سنجار قد اعتُقلن؛ وسمعنا أن داعش تجعل منهنّ جاريات وسبايا.

قرقوش، وهي بلدة مسيحيّة كبرى في نينوى سقطت أيضًا، لكن كل سكانها تقريبًا هربوا إلى كردستان العراق، حيث يعيشون كلاجئين في مجمّعات نصف مبنيّة وفي خيم نُصبت في حدائق الكنائس. أما التركمان الشيعة في تلّعفر فيقاتلون لكسر الحصار عنهم. وقد بلغت داعش تقريبًا إربيل، لكن الأميركيّين أوقفوهم - لحماية قنصليّتهم - ، بحسب ما قالوا، ولتأمين الغطاء للأيزيديّين العالقين في جبل سنجار عبر الضربات الجوّية. أمّا بغداد، ففي حال من الفوضى. وقد اعتبر الرئيس الأميركي باراك أوباما ما يجري مع الأيزيديّين فعل «إبادة جماعيّة محتملة». لكن أحدًا لم يتكلّم عن حصار كوجو.

كنّا نعيش في عالم جديد. فقد توقّفت الحياة في كوجو مع التزام الجميع منازلهم خشية أن يراهم المسلّحون. كم كان غريبًا أن ننسلخ عن العائلات الأخرى في البلدة. فكنّا معتادين على استقبال الزوّار حتّى وقت متأخر من الليل، وعلى قضاء أوقات الغداء مع الأصدقاء،

وعلى التكلّم عبر الأسطح قبل الخلود للنوم. لكن بعد الحصار الذي فرضه تنظيم الدولة على كوجو، بات الهمس للشخص القابع إلى جانبك في الليل خطرًا. حاولنا ألّا نظهر إلى العلن، وكأنّنا بذلك نحمل داعش على نسيان أمرنا. حتى إن فقدان الوزن والنحول كان شكلًا من أشكال الحماية، كما لو أنّنا إذا ما توقّفنا عن الأكل، فسنصبح لا مرئيين. ولم يكن الناس يغامرون خارج منازلهم إلا للاطمئنان على أقاربهم، أو للحصول على المزيد من المؤن أو لتقديم يد العون إن أصاب أحدهم مكروهًا. وفي تلك الحالات، كانوا يمشون سريعًا باتجاه أي مخبأ، كما الحشرات التي تهرب من مكنسة.

ومع ذلك، في إحدى الليالي، وعلى الرغم من تواجد داعش، اجتمعنا كلّنا للاحتفال بعيد باتزمي الذي تحتفل به معظم العائلات الأيزيديّة المتحدّرة في الأصل من تركيا. كان الاحتفال يتم عادة في شهر ديسمبر، لكنّ قرويًّا يدعى خلف، تحتفل عائلته بالعيد، فكّر أنّنا بحاجة للاحتفال الآن، لأن الخوف يحول دون لقاء واحدنا بالآخر، ولأننا على وشك أن نفقد الأمل. فباتزمي مناسبة للصلاة والتضرّع للطاووس ملك، لكن الأهم من ذلك بالنسبة إلينا خلال الحصار، كان مناسبة لتذكّر الأيزيديّين الذين أجبروا على مغادرة أرضهم. الأيزيديّون مثل أجداد خلف، الذين عاشوا في ما مضى في تركيا، قبل أن يطردهم العثمانيون.

دعيت كوجو كلّها إلى منزل خلف، حيث كان أربعة رجال يفترض أنهم يتمتّعون بروح طاهرة لأنّهم غير متزوّجين سيخبزون خبز باتزمي المقدّس. انتظرنا حتى مغيب الشمس، ثم بدأ الناس يخرجون من منازلهم باتجاه منزل خلف. وكنّا نهمس لبعضنا البعض في شوارع البلدة، «لا تحدِثوا أي صوت». كنت أمشي مع أدكي، وكنّا مذعورَتَيْن.

فكنت أدرك جيّدًا أن لو اكتشفت داعش أمرنا، سيعاقَب خلف للتآمر والقيام بطقوس كافرة، لكنّني لم أكن أدري ما يمكن للمقاتلين أن يفعلوه أيضًا. وكنتُ آمل ألّا يكون الوقت قد فات لرفع قضيّتنا أمام الله.

كانت الأنوار مضاءة داخل منزل خلف، فتجمّع الناس حول الخبز، الذي تُرك ليرفخ على قبّة خاصّة قبل أن يباركه رب المنزل. فلو بقي الخبز كاملًا، يجلب الحظ. ولو انكسر، قد يحدث سوء للعائلة. وكان الخبز بلا أي مكوّنات إضافيّة لأنّنا كنّا تحت الحصار (إذ يتم حشوه عادة بالمكسّرات والزبيب). وظل الخبز متماسكًا مستديرًا لم تبدُ عليه أي إشارات تكسّر.

باستثناء صوت البكاء الناعم وطقطقة الخشب في الفرن بين الفينة والأخرى، كان منزل خلف هادئًا. وانسحبت رائحة الدخان المألوفة عليّ كما الغطاء الدافئ. لم أنظر من حولي لأرى إن كانت ولاء أو أي صديقة أخرى من المدرسة، لم أرها منذ بدء الحصار، هنا. بل أردت أن أركّز على الطقوس. بدأ خلف الصلاة، فقال: «فليأخذ إله هذا الخبز المقدّس روحي قربانًا عن القرية بأكملها»، فارتفع النحيب. وحاول بعض الرجال التهدئة من روع نسوتهم، لكنّني رحتُ أفكّر بأن البكاء في منزل خلف هو فعل شجاعة وليس فعل جبنٍ، إذ قد يصل الصوت بسهولة إلى نقاط التفتيش.

بعد ذلك، عدنا أنا وأدكي إلى المنزل بصمت، سائرتَيْن الخطوات نفسها إلى الباب الأمامي ثم السطح، حيث كان أولئك الذين اضطرّوا للبقاء في المنزل لحراسته يجلسون على فرشهم، وقد ارتاحوا لعودتنا بأمان. كانت النسوة كلّهنّ قد افترشن جانبًا من السطح ينمن عليه، بينما احتل الرجال الجانب الآخر. وكان إخوتي معلّقين طوال الوقت

بهواتفهم، لذا، أردنا أن نعفيهم من بكائنا، الذي ما كان إلّا ليشعرهم بمزيد من السوء. في تلك الليلة، نجحت في النوم قليلًا، إلى ما قبل انبلاج الفجر بقليل، عندما جاءت أمّي تحثّنا على النهوض من فرشنا. همست قائلة: «حان الوقت للنزول إلى الأسفل»، فنزلت على رؤوس أصابعي على السلّم إلى الفناء المظلم، وأنا أرجو الله ألّا يرانا أحد.

في عائلتي، كان حجّي، وهو أحد إخوتي غير الأشقاء، يتكلّم أكثر من غيره عن انتفاض أهل القرية ضد داعش. وكان المسلّحون لا يزالون يخبرون الرجال في الديوان أنّه إن لم نعتنق الإسلام، فسيأخذوننا إلى جبل سنجار، لكن حجّي كان أكيدًا أنّهم يكذبون. فكان يصرّ قائلًا: «يريدون أن نبقى هادئين، ليس إلّا. يريدون أن يضمنوا أنّنا لن نقاتلهم».

كان حجّي يتهامس بين الفينة والأخرى عبر جدار الحديقة مع جيراننا، ويبدو وكأنّهم كانوا يخطّطون لأمر ما. كانوا يراقبون عن كثب مرور مواكب تنظيم الدولة الإسلاميّة في القرية. فيقول حجّي: «ها هم عائدون للتو من مجزرة»، ويشيح برأسه عندما يعبرون سريعًا أمامنا. وكان أحيانًا يبقى مستيقظًا طوال الليل يشاهد التلفاز، والغضب يتآكله حتى طلوع الشمس في اليوم التالي.

لكن حجّي لم يكن الشخص الوحيد في القرية الذي كان يفكّر في طريقة للانتفاض. فكثير من العائلات، مثلنا، كانت تخبّئ الأسلحة عن داعش، وكانت تناقش سبل النفاذ إليها ومهاجمة نقاط التفتيش. فالرجال قد تلقّوا تدريبًا على القتال وأرادوا أن يثبتوا أنفسهم، لكنّهم كانوا يدركون جيّدًا، أنه أيًا كان عدد رجال التنظيم الذين سينجحون في قتلهم، بواسطة سكاكينهم المدفونة أو أسلحة الكلاشنيكوف المطمورة، فستخرج أعداد أكبر على طول الطرق. ومهما فعلوا فإن ذلك سيؤدي

في نهاية المطاف إلى استشهاد العديد من أبناء القرية، إن هم حاولوا القتال. وحتى لو اجتمعنا كلّنا واستطعنا قتل كل المسلّحين المتمركزين حول القرية، فلن نجد مكانًا نذهب إليه. فقد كانوا يُحكِمون السيطرة على كل طريق خارج كوجو ولديهم سيّارات وشاحنات وجميع الأسلحة التي صادروها منّا ومن الجيش العراقي. لذلك، فالانتفاضة ليست بالخطّة الناجحة؛ بل هي أضغاث أحلام. لكن بالنسبة للرجال مثل حجّي، فإن فكرة القتال والدفاع عن النفس هي ما كانت تبقيهم بكامل وعيهم بينما نحن في حالة انتظار.

كل يوم، كان رجال من القرية يجتمعون في الديوان لمحاولة التفكير بخطة. إن لم نتمكّن من الهرب، أو القتال أو الاختباء، فهل يمكننا على الأقل أن نخدع المسلّحين؟ لربّما لو قلنا لهم إنّنا سنعتنق الإسلام، سيمنحوننا المزيد من الوقت. فتَقرّر عندئذ أنّه لو هدّد أحد المسلّحين إحدى نساء كوجو أو فتياتها أو لمس شعرة منهن، فسنرد حينئذ، حينئذ ليس إلا، بادّعاء اعتناق الإسلام. لكن هذه الخطّة لم تبصر النور يومًا.

في المقابل، عندما أخذت النسوة يخطّطن، كانت محاولة لتصوّر طرق نخبّئ فيها الرجال إن قدم الدواعش لقتلهم. ففي كوجو أماكن كثيرة لن يفلح المسلّحون في اكتشافها – من آبار عميقة جافّة إلى طوابق سفلى بمداخل مخفيّة. حتى إن أكوام القش وعلف الحيوانات قد تبقي الرجال بأمان وتجنّبهم خطر القتل. لكنّهم رفضوا التفكير في الاختباء، قائلين بصوت واحد: «نفضّل أن يتم ذبحنا على أن نترككن وحدكن مع الدواعش». وهكذا، بينما جلسنا ننتظر مصيرنا على يد تنظيم الدولة الإسلاميّة، فاقدين أي أمل بقدوم أحد لإنقاذنا، حاولتُ أن أتصوّر كل احتمال لما قد يحصل لي ولعائلتي. وبدأتُ أفكر بالموت.

قبل قدوم داعش، لم نكن معتادين على وفاة الشباب، ولم أكن أستسيغ الكلام عن الموت. فمجرّد التفكير بالأمر كان يخيفني. لكن في بداية العام 2014، توفّي شابّان من كوجو بشكل فجائي: فقد قتل أوّلًا شرطي حدود اسمه اسماعيل في هجوم إرهابي بينما كان يعمل جنوب كوجو في مناطق خاضعة لتأثير القاعدة، حيث كانت داعش قد بدأت تتجذّر. كان اسماعيل من سن حزني تقريبًا، هادئًا ووَرِعًا. وكانت تلك المرّة الأولى التي يلقى أحد من كوجو حتفه على يد داعش، فساور القلق الجميع حول أفراد عائلاتهم الذين يعملون مع الحكومة.

كان حزني في مركز الشرطة في سنجار عندما أحضروا جثمان اسماعيل، لذلك علمنا بوفاته قبل الكثيرين من أهل القرية، وحتّى قبل أن يصل الخبر إلى زوجته وعائلته. كانوا فقراء، شأنهم شأننا، وقد التحق اسماعيل بالمؤسّسة العسكريّة، كما فعل إخوتي، لأنّهم كانوا بحاجة إلى المال. ذاك الصباح، سرتُ الطريق الطويل إلى المدرسة، متفادية منزله. فلم أحتمل المرور، وأنا أعلم أنّه ميت، بينما عائلته في الداخل تجهل ذلك. وما إن انتشر الخبر في القرية، حتى بدأ الرجال يطلقون الأعيرة الناريّة في الهواء حدادًا على الفقيد، وراحت الفتيات في الصف يصرخن عند سماع وقع الرصاص.

يعتبر الأيزيديّون تحضير الميت لدفنه أمرًا محمودًا وإكرامًا له، فيجلسون أحيانًا معه ساعات طويلة حتى طلوع الشمس. حضّر أخي حزني اسماعيل. فغسل جثمانه وجدّل شعره وألبسه الأبيض، وعندما أحضرت زوجته الغطاء الذي ناما عليه ليلتهما الأولى كزوج وزوجة، غلّف حزني زوجها به. ومشى صف طويل من أهل القرية وراء الجثمان إلى طرف البلدة، قبل أن يوضع في شاحنة أوصلته إلى المقبرة.

بعد تلك الحادثة بأشهر قليلة، أصيبت صديقتي شيرين عن طريق الخطأ بطلق ناري أطلقه عليها ابن أخيها بينما كان يلهو ببندقية صيد في مزرعتهما. كنتُ قد قضيت الليلة التي سبقت مع شيرين. وتكلّمنا عن الامتحانات وعن أخويها المشاغبَيْن اللذَين تم توقيفهما لمشاركتهما في القتال. وذكرَت شيرين اسماعيل. أخبرتني أنها حلمت به الليلة التي سبقت مقتله، فقالت: «في الحلم، حدث شيء كبير جدًّا في كوجو. وكان الجميع يبكي». ثم أقرّت وفي صوتها بعض من الذنب: «أعتقد بأن الحلم كان يعني وفاة اسماعيل». أنا على يقين الآن بأن الحلم كان يتمحور حول مقتلها هي أيضًا أو حول ابن أخيها، الذي رفض مغادرة المنزل بعد الحادث، أو حتّى عندما أتى تنظيم الدولة إلى كوجو.

أعدّت أمي جثمان شيرين. كانت يدا صديقتي مطليّتين بالحنّاء الحمراء البنيّة ومشدودتي الوثاق بوشاح أبيض. ولأنّها غير متزوّجة، صفّف شعرها بضفيرة واحدة طويلة. وإن كانت تملك أي ذهب، فقد دُفن معها. إذ يقول الأيزيديّون: «إن كان من الممكن دفن الإنسان، فيمكن دفن الذهب أيضًا. وكما اسماعيل، تم غسل شيرين ولفّها بالأبيض، وسار جثمانها أمام حشد كئيب طويل، قبل أن يوضع في شاحنة أوصلته إلى مثواه الأخير.

ترتدي تلك الطقوس أهمّية بالغة، لأن الحياة ما بعد الموت، بحسب الأيزيديّة، مكان متطلّب، حيث قد يعاني الأموات كما البشر. لذلك، هم يتّكلون علينا للاهتمام بهم، فيخبروننا بما يحتاجون إليه عبر أحلامنا. وغالبًا ما يرى أحدهم شخصًا عزيزًا في حلم يخبره أنّه جائع أو يلاحظ أنه يرتدي ملابس رثّة. وعندما يستيقظ، يقدّم الطعام أو الملابس للفقراء، وفي المقابل، يعطي الله موتاه الطعام والملابس

في الحياة الآخرة. وتشكّل هذه الأفعال الصالحة بالنسبة إلينا طقوسًا أساسيّة لأي أيزيدي ملتزم لأنّنا نؤمن بتناسخ الأرواح ووجود حياة بعد الموت. فلو كنتَ رجلًا صالحًا وأيزيديًّا مؤمنًا في الحياة الدنيا، ستولد روحك من جديد وستلتحق بجماعتك التي تحدّ عليك. لكن قبل أن يحصل ذلك، عليك أن تثبت لله وملائكته أنّك تستحق العودة إلى الأرض، إلى حياة قد تكون أفضل من تلك التي تركتها.

وبينما تسافر أرواحنا إلى الحياة الآخرة، بانتظار أن تتقمّص من جديد، ما يحصل لأجسادنا ولحمنا بعد أن تتخلّى روحنا عنه أبسط من ذلك بكثير. إذ يتم غسلنا ودفننا بعد تغليفنا بالملابس، ويشار إلى القبر بحلقة من الأحجار. لكن ما يفصل بيننا وبين التراب طبقة رقيقة جدًّا، حتى نتمكّن من ردّ أجسادنا بسهولة، نظيفة كاملة، إلى الأرض التي جئنا منها. لذلك، من الضروري أن يتم دفن الأيزيديّين والصلاة عليهم بطريقة مناسبة. فمن دون هذه الطقوس، قد لا تولد أرواحنا مجدّدًا. وقد لا تعود أجسادنا إلى حيث تنتمي.

الفصل التاسع

في 12 أغسطس، زار قائد من تنظيم الدولة الديوان حاملًا معه تحذيرًا: إمّا نعتنق الإسلام ونصبح جزءًا من الخلافة، أو نعاني تبعات عدم الانصياع لهذا الأمر. وأخبرنا الياس وهو يقف في فناء منزلنا وعيناه تقدحان غيظًا، «لدينا ثلاثة أيّام لنقرّر. قالوا إنه يتعيّن علينا أولًا، إن لم نعتنق الإسلام، أن ندفع جزية».

كنتُ في الحمّام عندما عاد الياس بهذه الأنباء، فتمكّنت عبر صدع في الباب من رؤيته وهو يتكلّم مع أمّنا. وبدأ الاثنان يبكيان. من دون أن أغسل الصابون عن شعري أخذت أوّل فستان تحت يدي، وكان فستانًا لأمّي هوى فوق جسدي النحيل كما الخيمة، وأسرعت ألتحق بعائلتي في الفناء.

سألت أمّي: «ماذا يحصل إن لم ندفع الجزية؟». فرد الياس: «الآن لا يزالون يقولون إنهم سيأخذوننا إلى الجبل ويعيشون هم في كوجو. كان قميصه الأبيض، اليدوي الصنع الذي يرتديه رجال كوجو الوقورين، قد تحوّل رماديًا بفعل الأوساخ. وكان صوته ثابتًا، وقد توقّف عن البكاء، لكن أستطيع الجزم أنّه كان مذعورًا. فما من أيزيدي في سنجار قد أعطي خيار دفع جزية بدل اعتناق الإسلام، كما حصل مع المسيحيّين العراقيّين. كان الياس أكيدًا أن المقاتلين يكذبون عندما كانوا يقولون

إنهم سيخيّروننا. لربّما قالوا ذلك لمجرّد الاستهزاء بنا. أخذ يتنفّس ببطء؛ لا بدّ أنه كان يسر في قرارة نفسه أن عليه التزام الهدوء أمامنا، وقد تمرّن على ما سيقوله لنا في طريق عودته من الديوان. كان أخًا صالحًا حنونًا. لكنّه لم يستطع تمالك نفسه عندما أضاف أمام الجميع: «لن نجني أي خير من هذا»، وكرَّر: «لن نجني أي خير».

تدخّلت أمي للتحرّك سريعًا. فبدأت تصدر الأوامر وهي تركض بنفسها نحو المنزل: «جميعكم، كلّ منكم يوضّب حقيبة». رحنا نجمع معًا ما خلنا أننا قد نحتاجه - ملابس بديلة، وحفاضات، وحليب أطفال، وبطاقات هويّتنا العراقيّة، تلك التي تذكر صراحة أننا أيزيديّون. ووضعنا كل ما نملك من أغراض ثمينة، مع أنّنا لم نكن نملك الكثير. ووضعت أمّي بطاقة التموين الرسميّة التي حصلت عليها من الدولة عندما توفّي والدي، ووضع إخوتي المزيد من بطاريّات الهواتف الخلويّة والشواحن في حقائبهم. أمّا جيلان، التي اشتاقت لحزني، فوضعت أحد قمصانه - وهو قميص أسود بأزرار لم تتركه طوال فترة الحصار.

فتحتُ الجارور في غرفة النوم التي أتشاركها مع أخواتي ومع كاثرين، وأخرجت أهم ما أملك - قلادة فضّة طويلة مطعّمة بأحجار زيركون وسوار مطابق. كانت أمّي قد اشترتهما لي من مدينة سنجار في العام 2013، بعد أن سقط كابل علق في جرارنا بينما كنت أضع القش في المقصورة في الخلف. ضربني الكابل بقوّة ركلة حصان، وكاد يقتلني، وبينما كنتُ ممدّدة في المستشفى وأنا فاقدة الوعي، سارعت أمي إلى البازار واشترت لي المجوهرات. وعادت تقول لي همسًا وهي تشدّ على يدي: «عندما تخرجين من هنا، سأشتري لك الأقراط المكمّلة أيضًا». تلك كانت طريقتها في المراهنة على نجاتي.

خبّأت القلادة والسوار داخل فوَط صحّية فتحتها عند طرفها وحشوتها بالمجوهرات قبل أن أعيدها إلى غلافها. ثم وضعتها فوق الملابس الإضافية في حقيبة سوداء صغيرة وأغلقتها بإحكام. ثم رأيت أمّي تنتزع الصور عن الجدران. كان منزلنا يمتلئ بالصور العائلية - حزني وجيلان يوم زفافهما؛ وجلو وديمال وأدكي يجلسون في حقل خارج كوجو؛ وجبل سنجار في الربيع، بألوان زاهية قد تخالها اصطناعيّة. تلك الصور شاهد حي على تاريخ عائلتنا، مذ كنّا في حالة فقر مدقع، نعيش مكوّمين فوق بعضنا البعض في منزل صغير وراء منزل أبي، إلى سنوات النضال، وصولًا إلى الفترات الأخيرة السعيدة التي عشناها. الآن، كل ما تبقّى كان إطارات مستطيلة باهتة على الجدران حيث كانت الصور. ثم قالت لي أمّي وقد وجدتني أقف هنا، «ابحثي عن الألبومات يا نادية. أحضري كل شيء إلى الفناء، إلى التنّور».

قمتُ بما طلبته أمّي مني، وتوجّهت إلى الفناء وذراعاي محمّلتان بألبومات الصور، حيث وجدت أمّي تجثو أمام فرننا، تفتح يديها لتأخذ الصور التي يخرجها أقربائي من إطاراتها، ثم ترميها الواحدة تلو الأخرى في فم التنّور. كان الفرن الضخم محور منزلنا، وكل خبزنا -وليس فقط خبز العيد الذي نعدّه لمناسبة باتزمي - هو خبز مقدّس بالنسبة للأيزيديّين. كانت أمّي تعد خبزًا إضافيًّا تعطيه للفقراء في كوجو، وتعتبر ذلك بمثابة تبريك لعائلتنا. فعندما كنّا فقراء، كان خبز هذا التنّور ما يبقينا على قيد الحياة، وكل وجبة أتذكرّها كانت تحوي كدسة من الأرغفة المستديرة المنتفخة.

الآن، وقد تحوّلت الصور رمادًا، بدأ التنّور يصدر دخانًا كيماويًّا أسود. كانت إحدى الصور لكاثرين وهي صغيرة في لالش، تتلقّى

عمادتها في النبع الأبيض الذي يبدأ في سهل لالش ويسري تحت المعبد الحجري القديم. وصورة أخرى عن اليوم الأوّل لي في المدرسة، عندما بكيتُ لفكرة انفصالي عن أمّي. وصورة لزفاف خيري بمنى، وشعر العروس مزيّن بالورود. ماضينا قد أضحى رمادًا، رحتُ أفكّر. أخذت تلك الصور تختفي الواحدة تلو الأخرى تتآكلها ألسنة النار، وعندما تلاشت كلّها، تناولت أمّي كومة من ملابسها البيض، كلّها إلا ما كانت تلبسه، ولقّمتها للنيران المشتعلة. ثم قالت وهي تراقب الأبيض الناصع يتكوّر حول نفسه ويتحوّل أسود: «لن أدعهم يرون من كنّا. الآن، لا يسعهم وضع يدهم على أغراضنا».

لم أستطع أن أشاهد هذه الصور تحترق. فعدتُ إلى الداخل، إلى الغرفة الصغيرة التي كنتُ أتشاركها مع الفتيات الأخريات، وفتحت الخزانة الكبيرة. تأكّدتُ أولًا من أنّني بمفردي ثم سحبت الألبوم الأخضر الضخم وفتحته ببطء، أتأمل العرائس واحدة واحدة. النساء في كوجو يتحضّرن لأيّام قبل زفافهن، ويظهر ذلك بوضوح في الصور. من ضفائر معقّدة، إلى شعر مصبوغ بالأشقر أو بالحنّاء الحمراء، وكلّها مصفّفة عاليًا فوق رأس العروس، وعيناها مكحّلتان خطوطًا سميكة تعلوها ظلال زرقاء فاتحة أو زهرية. أحيانًا، كانت العرائس يضفن بعض الخرز إلى شعرهن، أو يرفعن فوقه تاجًا لمّاعًا.

عندما تصبح العروس جاهزة، كانت تمر أمام أهل القرية الذين يبدأون بتمني حياة سعيدة له، ثم يبدأ الجميع بالرقص وتناول الوجبات التقليدية حتى طلوع الفجر، فيتنبّهون إلى أن العروس والعريس، كما يفترض بهما فعله، قد غادرا الليلة الدخلة. وتسارع صديقات العروس إلى زيارتها في أقرب وقت للاستماع إلى رواية الليلة الأولى كاملة. فيقهقهن،

ويتحقّقن من ملاءة السرير المبقّعة بقطرات الدم القليلة. بالنسبة إليّ، كانت حفلات الزفاف هي ما يحدّد كوجو. وكانت النساء يتبرّجن بعناية بينما يسقي الرجال التربة حتى لا تكون الأرض مغبرة في اليوم التالي عندما يرقصون. وكنّا معروفين في سنجار بقيامنا بحفلات مترَفة، ويقول البعض أيضًا إنّنا معروفون أيضًا بنسائنا الجميلات، وكنت أفكّر أن كل عروس في ألبوم الصور خاصّتي تبدو وكأنّها تحفة فنّية. عندما أفتح صالوني الخاص، سيكون هذا الألبوم أول غرض أضعه فيه.

كنت أتفهّم لمَ طلبت منّا أمي أن نحرق صور العائلة. فمجرّد أن أفكّر بالمسلّحين ينظرون إليها أو يلمسونها يصيبني بالغثيان أيضًا. ورحت أتخيّل أنهم يهزأون بنا، نحن العائلة الأيزيديّة الفقيرة التي ظنّت أنّها تستحق أن تكون سعيدة في العراق، واعتقدَت أنّه بإمكانها الذهاب إلى المدرسة والزواج والعيش في هذه البلاد التي ولدت فيها إلى ما لا نهاية. كانت تلك الفكرة تثير حفيظتي. لكن بدل أن آخذ الألبوم الأخضر إلى الفناء لأحرقه، وضعته في الخزانة مجدّدًا، ثم أغلقت الأبواب، وأحكمت إقفالها بالقفل بعد حين.

لو علمت أمي أنّني أخفي الألبوم، لكانت قالت لي إنّه لا يصح أن نحرق صورنا الخاصة لنحول دون أن يجدها الدواعش ونترك صور الآخرين، وأعلم أنها كانت لتكون على حق. فالخزانة ليست بالمكان الآمن لإخفاء الألبوم؛ إذ يستطيع المسلحون بسهولة خلعها، وما إن يفتحوها حتى يظهر أمامهم على الفور الألبوم الأخضر. ولو علمت أمي بأمر الألبوم وسألتني لمَ أنقذتُ الصور، فلم أكن أدري بمَ أجيبها. ولا أزال لا أعلم تحديدًا لمَ تعني لي هذه الصور الكثير. لكنّني لم أحتمل فكرة تلفها، لمجرّد أنّنا خائفون من الإرهابيّين.

في تلك الليلة، بعد أن صعدنا إلى السطح، تلقّى خيري اتّصالًا هاتفيًّا. كان المتّصل صديقًا أيزيديًّا بقي في الجبل حتى بعد أن وفّر حزب العمّال الكردستاني ممرًّا آمنًا إلى سوريا. فقد قرّر عدد كبير من الأيزيديّين البقاء في الجبل، مع أن الحياة هناك شاقة. لكنّهم بقوا لأنّهم شعروا بأنّهم أكثر أمانًا في الأعالي، حيث يفصلهم منحدر صخري حاد عن الدولة الإسلاميّة أو لأن التزامهم الديني يعني أنّهم يفضّلون الموت على مغادرة سنجار. في النهاية، بنوا مخيّمًا كبيرًا للاجئين يمتد من الشرق إلى الغرب على سفح الجبل، يحرسه جنود تابعون لحزب العمّال الكردستاني، إضافة إلى عدد من الرجال الأيزيديّين الشجعان الذين دافعوا عن سنجار قدر استطاعتهم.

قال صديق خيري لأخي: «انظروا إلى القمر». يؤمن الأيزيديّون بأن الشمس والقمر مقدّسان، اثنان من ملائكة الله السبعة. وكان القمر في تلك الليلة بدرًا متوهّجًا، ذاك الذي كان يضيء مزرعتنا عندما كنّا نعمل، ويحول دون تعثّر خطانا في طريقنا إلى المنزل. «كلّنا يصلّي للقمر الآن. اطلب من الناس في كوجو أن ينضموا إلينا».

أخذ خيري يوقظ من كان منّا نائمًا الواحد تلو الآخر، قائلًا: «انظروا إلى القمر». وبدل أن نجثو في وضعيّة منخفضة حتى لا يرانا الدواعش على السطح، طلب منا هذه المرّة أن نصلّي وقوفًا جريًا على عادتنا. «من يأبه إن رأونا؟ فلنا ربّ يحمينا».

«قلّة قليلة معًا»، نبّهت أمّي. فوقفنا في مجموعات صغيرة. أنار القمر وجوهنا وجعل ثوب أمّي الأبيض يبرق برقًا. رحتُ أدعو مع زوجة أخي، التي كانت ممدّدة على الفرشة بالقرب مني. ثم قبّلت السوار

الأحمر والأبيض الصغير الذي كنتُ لا أزال أضعه حول معصمي، وهمستُ بكل بساطة: «لا تتركنا بين أيديهم»، قبل أن أستلقي بهدوء تحت نور القمر البدر.

في اليوم التالي، دعا أحمد جاسو، في محاولة منه لمواصلة مساعيه الديبلوماسيّة، خمسة من قادة قبيلة سنّية مجاورة - القبيلة نفسها التي اختطف أعضاؤها ديشان - إلى الديوان لتناول الغداء. فأعدّت نساء القرية غداء مميّزًا للقادة القبليّين، فسلقن الأرز وقطّعن الخضار وملأن الأقداح الزجاجيّة بمقدار وفير من السكّر تحضيرًا للشاي الحلو الذي سيرتشفونه بعد الطعام. وذبح الرجال ثلاث أغنام تكريمًا للضيوف، في ما اعتُبر شرفًا كبيرًا للقادة الزائرين.

خلال العشاء، حاول مختارنا إقناع القادة السنّة بمساعدتنا. فمن بين جيراننا كلّهم، كانت هذه القبيلة الأكثر محافظة دينيًّا، وعلى الأرجح الأكثر تأثيرًا على داعش. فقال أحمد جاسو: «بالطبع، ثمّة ما يمكنكم قوله لهم. أخبروهم من نحن، وأنّنا لا نضمر الأذيّة لأيٍّ كان».

لكن القادة أخذوا يهزّون رؤوسهم، قائلين لأحمد جاسو: «نحن نريد مساعدتكم، لكن ليس هناك ما بوسعنا فعله. فالتنظيم لا يستمع لأحد، ولا حتّى إلينا».

بعد أن غادر القادة القبليّون، خيّمت غمامة سوداء فوق مختارنا. اتّصل شقيق أحمد، نايف جاسو من اسطنبول، حيث كان قد أخذ زوجته العليلة إلى المستشفى. وأخبر شقيقه: «يوم الجمعة، سيقتلونكم».

لكن مختارنا أصر قائلًا: «كلا، كلا. قالوا إنّهم سيأخذوننا إلى الجبل، وسيفعلون». كان لا يزال عنده الأمل في أن يجد حلًّا ما، مع أنه ما من

أحدٍ من بغداد أو إربيل كان مستعدًّا للتدخّل، وقد أخبرت السلطات في واشنطن حيدر، صديق جلو، أنهم لم يستطيعوا القيام بأي ضربات جوّية على كوجو لأن احتمال وقوع ضحايا من المدنيّين كبير جدًّا. فكانوا يعتقدون بأنّهم لو قصفوا حول كوجو، فسنموت جميعًا مع داعش.

بعد يومين، سار مسلّحو الدولة الإسلاميّة في كوجو، مقدّمين الثلج. وقد لقيَ الأمر ترحيبًا ملحوظًا في هذه الأيّام الحارّة من شهر أغسطس، بعد نحو أسبوعين على تناول مياه شرب، كانت تغلي في الشمس. اتّصل أحمد جاسو بأخيه نايف ليخبره ما يحصل. «يقسمون أن لا سوء سيحلّ بنا طالما نقوم بما يأمروننا به». هكذا راح يخبر أخاه. «لماذا يعطوننا الثلج إن كانوا يخطّطون لقتلنا؟».

لكن نايف لم يقتنع. بل راح يذرع غرفة المستشفى في اسطنبول بخطاه بانتظار أن يرن هاتفه ليتلقّى آخر المستجدّات. بعد خمس وأربعين دقيقة، اتّصل أحمد بنايف مجدّدًا. وقال له: «طلبوا منا أن نجتمع في المدرسة الابتدائية. من هناك، سيأخذوننا إلى الجبل».

ردّ نايف على أخيه: «لن يفعلوا. سيقتلونكم جميعًا». لكن أحمد جاسو أصرَّ قائلًا: «أعدادنا كبيرة ولا يسعهم قتلنا دفعة واحدة! مستحيل». ثم قام، مثلنا كلّنا، بما أمرنا به الدواعش، وبدأ يمشي نحو المدرسة.

كنّا نعد الطعام عندما سمعنا النبأ. فقد كان الأولاد يبكون طالبين الحصول على وجبة، وهم غير عابئين بما يتعدّى جوعهم، فقمنا في الصباح الباكر بذبح عدد من دجاجاتنا الصغيرة وسلقناها. في الأوقات الطبيعيّة، كنا نترك الدجاجات حتى تكبر وتعطي بيضًا قبل أن نأكلها، لكن لم يتبقَّ لدينا ما نطهوه لنطعم الأولاد.

كانت الدجاجات لا تزال على النار عندما طلبت منا أمّي أن نستعد للذهاب إلى المدرسة. فقالت، «ارتدوا من الملابس ما استطعتم إليه سبيلًا. فقد يأخذون منّا حقائبنا». أطفأنا النار تحت القِدر الذي كان يغلي بالمرق وقمنا بما طلبته منّا. ارتديت أربعة سراويل الواحد فوق الآخر، وفستانًا وقميصين وسترة زهريّة - قدر ما استطعت أن أتحمّل من ملابس في هذا الطقس الحارّ. فبدأت خيوط العرق تسيل فورًا على ظهري. وأضافت أمّي: «لا ترتديْنَّ أي قطعة ضيّقة ولا تُظهرن بشرتكن. تأكّدن أن مظهركنَّ يدل على أنكنَّ فتيات شريفات».

ثم أضفت وشاحًا أبيض إلى الحقيبة مع فستانين - واحدًا من فساتين كاثرين القطنيّة وفستانًا أصفر كانت ديمال قد ساعدت في خياطته بواسطة قماش من مدينة سنجار، لكنها بالكاد ارتدته. عندما كنتُ صغيرة، كنّا نرتدي ملابسنا حتى تهترئ. أمّا الآن وقد بات بإمكاننا تحمّل كلفة فستان جديد كل سنة، فلم أحتمل فكرة ترك فساتيننا الجديدة. ثم من دون أن أفكّر، وضعت مجموعة الماكياج في الخزانة مع ألبوم صور العرائس، وأعدت إقفال الخزانة بإحكام.

كانت مجموعة من الناس قد بدأت تسير باتجاه المدرسة. كان باستطاعتي أن أراهم من النافذة، يحملون حقائبهم. وكان الأطفال الرضّع يدلون برؤوسهم من بين أذرع أمهاتهم، بينما الصغار منهم يسحبون أقدامهم سحباً متعَبين. وكان لا بد من دفع البعض على عربات اليد؛ وهم على هيئة أموات أكثر منهم بشرًا. كان الطقس قيظًا. راح العرق يخلّف بقعًا على قمصان الرجال، بينما التصقت الفساتين بظهور النساء. كانت وجوه أهل القرية شاحبة، وقد خسر أصحابها الكثير من وزنهم. سمعتهم يهمهمون، لكنّني لم أستطع فهم أي كلمة.

اتّصل حزني من منزل عمّتنا. على ما بدَوْنا عليه من أسى، بدا هو كالحيوان الثائر، يزمجر بنا مؤكّدًا أنّه سيعود إلى كوجو. «إن حصل لكم أي مكروه، فعليَّ أن أكون أنا أيضًا معكم».

كانت جيلان ترتجف بينما تكلّمه على الهاتف، وتحاول أن تهدّئ من روعه. فقد قرّرا أخيرًا أن ينجبا أطفالًا، وكانا يتوقّعان أن يكوّنا يومًا ما تلك العائلة الكبيرة التي حلما بها معًا. وعندما قدمت داعش إلى سنجار، كانا قد أنهيا للتو وضع السقف على منزلهما الاسمنتي الجديد. طلبت منّا أمّي أن نحفظ أرقام هاتفَيْ حزني وسعود، قائلة: «قد تحتاجون للاتصال بهما». وما زلت حتى اليوم أستطيع ذكر أرقامهما عن ظهر قلب.

سرت في المنزل متوجّهة إلى الباب الجانبي. بدت كل غرفة وكأنّها تزخر بالذكريات، أكثر من أي وقت مضى. مررتُ بغرفة المعيشة، حيث كان إخوتي يجلسون في الأمسيات الصيفيّة الطويلة فيشربون الشاي الحلو الحاد مع رجال القرية؛ والمطبخ، حيث كانت أخواتي يدلّلنني عبر طهو طبقي المفضل، البامية والبندورة؛ وغرفة نومي، حيث كنت أنا وكاثرين نعتني بشعرنا بزيت الزيتون، وننام ورأسانا مغلّفان لنستيقظ ورائحة الزيت الدافئ تعبق في أنوفنا. رحت أفكّر بالوجبات التي كنّا نتناولها في الفناء، بينما تفترش العائلة الأرض فنضع القليل من الأرز بالزبدة بين قطعتين من الخبز الطازج. كان منزلًا بسيطًا غالبًا ما يعجّ بقاطنيه. وكان الياس يهدّد دائمًا بأنه سيغادر مع عائلته لمنحنا مساحة إضافيّة، لكنه لم يفعل يومًا.

كان باستطاعتي أن أسمع ثغاء الغنم المتجمّع في الفناء. سينمو فروها بينما تضمر بنيتها جوعًا. لم أستطع تحمّل فكرة أن تموت الأغنام أو

يذبحها المسلّحون كي يأكلوها. فهي كل ما نملك. يا ليتني حفظت كلًا من هذه التفاصيل في منزلي - ألوان الوسائد الزاهية في غرفة المعيشة، والبهارات التي يعبق المطبخ برائحتها، حتى صوت المياه التي تقطر تقطيرًا في حوض الاستحمام - لكنّني لم أكن أدري أنّني أغادر منزلي إلى غير رجعة. توقّفت قليلًا في المطبخ أمام كدسة أرغفة خبز. كنّا قد أعددناها كي يأكلها الأطفال مع الدجاج، لكن لم يمسّها أحد. فتناولت عددًا من الأرغفة التي تحوّلت باردة متصلّبة بعض الشيء، ووضعتها في كيس بلاستيكي وأخذتها معي. بدا لي الفعل الصائب. لربّما سنجوع ونحن ننتظر ما هو آت، أو لربّما سيحمينا الخبز المقدّس من داعش. همست وأنا ألحق بالياس في الشارع: «فليساعدنا الرب الذي خلق هذا الخبز».

الفصل العاشر

للمرّة الأولى منذ 3 أغسطس، امتلأت شوارع كوجو وأزقّتها بالناس، لكنّهم كانوا أشبه بالأشباح. فلم يلقِ أحد التحيّة ولا قبّلوا بعضهم بعضًا على الخدّين، أو على أعلى الرأس جريًا على عادتهم. ولم تفترّ أفواه أيّ منهم بابتسامة ولو خجولة. كانت روائح أجسادنا كلّها، غير المغتسلة والمتعرّقة، تسدّ خياشيمي. والصوت الوحيد الذي كان يصدر عن الجموع كان تأفّفهم من أشعة الشمس، وصراخ مسلّحي الدولة الإسلاميّة الذين اتخذوا مواقع لهم على طول الطريق وعلى الأسطح، يراقبوننا ويدفعون بنا باتّجاه المدرسة. كانت وجوههم مغطّاة حتى أعينهم، التي كانت تلاحقنا في مسارنا البطيء الشاق.

مشيتُ مع ديمال والياس. لم أستند إليهما، لكن وجودهما على مقربة مني كان يجعلني أشعر بوحشة أقل. فأنا مع عائلتي وكلّنا ذاهبون إلى المكان نفسه. كنتُ أدرك أن كلّنا سيلقى على الأقل المصير نفسه، أيًّا كان هذا المصير. ومع ذلك، فإن مغادرة منزلي، من دون أي سبب وجيه غير الخوف، كان أصعب خطوة قمتُ بها في حياتي.

بينما كنا نمشي، لم نتفوّه بكلمة لبعضنا البعض. في الزقاق بالقرب من منزلنا، ركض عمرو، وهو أحد أصدقاء الياس باتّجاهنا. كان أبًا

حديث العهد، وكان مذعورًا. راح يصرخ: «نسيت علبة حليب الأطفال. عليّ أن أعود إلى المنزل!». كان يقفز في مكانه مستعدًّا للركض بأسرع ما يمكنه عكس التيار.

وضع الياس يده على ذراع عمرو قائلًا له: «مستحيل. منزلك بعيد جدًّا. اذهب إلى المدرسة، هناك ستجد من لديه حليب أطفال». فأومأ عمرو موافقًا وانضمَّ إلى قافلة المشاة الذين يسيرون باتجاه المدرسة.

رأينا عددًا أكبر من المسلّحين في الأزقّة التي كانت تفرغ من مُشاتها. كانوا يراقبوننا مصوّبين تجاهنا أسلحتهم. كان مجرّد النظر إليهم يدب الرعب في نفوسنا. كانت النساء يضعن وشاحًا على رؤوسهن، كما لو أن تلك الأوشحة ستحميهن من نظرات المقاتلين، فرحن يطئطئن بصرهن إلى الأسفل بينما يمشين. يشاهدن الغبار المتناثر تحت أقدامهن مع كل خطوة يخطونها. انتقلتُ سريعًا إلى الجانب الآخر من الياس، واضعة أخي الأكبر بيني وبين داعش. كان الناس يمشون وكأنّهم قد فقدوا السيطرة على حركاتهم أو على اتّجاههم. فقد بدوا أجسادًا بلا أرواح.

كل منزل في هذا المسار كان مألوفًا لي. كانت ابنة طبيب البلدة تعيش على هذا المسار، كما فتاتان من صفّي في المدرسة. اختُطفت إحداهما في 3 أغسطس، عندما دخل تنظيم الدولة الإسلاميّة للمرّة الأولى إلى سنجار وحاولت عائلتها الهرب. رحتُ أتساءل ما الذي حلّ بها.

كان بعض المنازل ممتدًّا بالطول ومصنوعًا من الطوب، مثل منزلنا، بينما المنازل الأخرى من الاسمنت، كما منزل حزني. لكن غالبيّتها مطليّة باللون الأبيض، أو تُركت رماديّة اللون، بينما دُهن بعضها بألوان زاهية أو زُيّن بأحجار مزخرفة. لقد تطلّبت هذه المنازل جيلًا كاملًا وأحيانًا جيلين لتسديد ثمن تشييدها، وقد توقّع مالكوها أن يعيش فيها

أولادهم وأحفادهم قبل أن يتوفاهم الله، ثم يورِّثون المنزل بدورهم إلى أطفالهم وأحفادهم. فمنازل كوجو لطالما كانت تعج بالناس، وبالجلبة، وبالفرح. أما الآن، فقد أصبحت فارغة حزينة، تنظر إلينا بينما نسير دربنا. كانت الماشية ترعى في الباحات الخارجيّة غير عابئة بما يجري، بينما كلاب الحراسة تنبح من وراء القضبان.

كان زوجان عجوزان بالقرب منا يصارعان للمشي، فيتوقّفان بين حين وآخر عند جانب الطريق للراحة. لكنَّ مسلّحًا صرخ في وجهَيهما على الفور: «أكملا! لا تَوقّف!». غير أن الرجل بدا متعبًا لا يقوى على الإصغاء. فهوى أرضًا وراء شجرة، ليحتل جسده الهش النحيل بقعة الظل الصغيرة. قال لزوجته التي راحت تتوسّله أن يقف: «لن أنجح في الوصول إلى الجبل، اتركيني هنا تحت هذا الظل. أريد أن أموت هنا».

حاولت زوجته أن تحمله من تحت إبطيه قائلة: «كلا، عليك أن تكمل المسير»، فاستند إليها وأكملا سيرهما، وجسدها عكّاز له. «كدنا نصل».

أخذت أجيش من الحَنَق وأنا أنظر إلى مشهد هذين الزوجين العجوزين يسيران ببطء شديد نحو المدرسة، فأحسست فجأة وكأن كل ما أشعر به من خوف قد تلاشى. خرجت عن الحشد وركضت باتجاه منزل كان مسلّح يقف على سطحه يؤمّن الحراسة، وأرجعت رأسي إلى الوراء وبصقت بوجهه بكل ما أوتيت به من قوّة. في الثقافة الأيزيديّة، لا يصلح البصق، وفي عائلتي، تلك كانت من أكثر الأفعال المشينة التي يمكن أن يقوم بها أحد. ومع أنني كنت بعيدة جدًّا عن المسلّح كي تصله بصقتي، إلا أنني أردت أن أظهر له كم أكرهه.

«عاهرة!». وقف المسلّح على رجليه وبدأ يصرخ في وجهي. بدا وكأنه يريد أن يقفز من فوق السطح ويلتقطني. «نحن هنا لنساعدكم».

شعرت بيد الياس على كتفي تدفعني نحو الحشد. «واصلي السير». قالت لي ديمال بهمس عالٍ مذعور. «لمَ قمتِ بذلك؟ سيقتلوننا». كان أخي وأختي غاضبَيْن، فشدّني الياس بقوّة نحوه، محاولًا أن يحجبني عن ناظرَي المسلّح الذي استمرّ يصرخ في وجوهنا.

فهمست: «أنا آسفة»، لكنني كنتُ أكذب. فالأمر الوحيد الذي كنت نادمة عليه هو أن المسلّح كان بعيدًا ولم أتمكّن من أن أبصق مباشرة في وجهه.

من بعيد، كان بإمكاننا أن نرى الجبل. كان يمتد بطوله وضيقه وجفافه صيفًا ليشكّل مصدر أملنا الوحيد. كنت أخال مجرّد مثول جبل سنجار أمامي بمثابة رغبة إلهيّة. فكل سنجار مسطّحة، وهي عمليًّا صحراء قاحلة في معظم أشهر السنة، إلّا جبل سنجار الذي يقف في الوسط بسهوبه الخضر التي صنعها الإنسان فزرعها تبغًا، وهضابه التي تصلح للنزهة، وقممه التي تبلغ من العلو ما يصلها بالغيوم فتتكلّل بالثلوج في الشتاء. وعند رأس الجبل، شامخًا على طرف منحدر رهيب، معبد أبيض صغير يخرج من عباب الغيم. لو أمكننا الوصول إلى هناك، فستتعبّد عند هذا الهيكل، ونختبئ في قرى الجبل، ولربّما سنحضر أغنامنا لترعى من عشبه. على الرغم من خوفي، كنتُ لا أزال أتوقّع أنه سينتهي بنا الأمر في جبل سنجار. فقد بدا وكأن هذا الجبل موجود في العراق لمساعدة الأيزيديّين ليس إلّا. لم أستطع أن أفكّر بسبب آخر لوجوده.

لكنّني كنتُ أجهل الكثير الكثير في رحلة سيري مع أهل قريتي إلى المدرسة. فلم أكن أعلم أنه تم إخلاء لالش من كل سكّانها إلا رهبانها، وكان يحرسها خدم المعبد، رجال وفتيان ذهبوا إلى هناك لينظّفوا الأرض ويضيئوا قناديل الزيت. باتوا الآن يدافعون عن المعبد مستخدمين كل ما أمكنهم إيجاده من أسلحة. لم أكن أعلم أنه في

اسطنبول، كان نايف جاسو يتّصل كالمجنون بأصدقائه العرب ليعرف ما يجري. وأنّه في أميركا، كان الأيزيديّون يتضرّعون أمام القادة في واشنطن وبغداد. كان العالم أجمع يحاول أن يساعدنا، لكن محاولاته كلّها كانت تبوء بفشل ذريع.

لم أكن أعلم بعد أنّه على بعد نحو مئتي متر في زاخو، كان يتناهى إلى مسامع حزني ما يجري في كوجو، فيجنّ جنونه، ويهرع من منزل عمتنا نحو بئر ليلحق به أفراد عائلتنا ويمنعوه من الانتحار. راح أخي يتّصل بهاتف الياس ليومين متتالين بلا انقطاع، فيدعه يرن ويرن، إلى أن ينقطع الخط في نهاية المطاف.

لم أكن أعلم كم يكرهنا الدواعش وما هم قادرون على فعله. على الرغم من الخوف الذي كان يدبّ بين فرائصنا، إلا أنّني لا أعتقد بأن أيًا منّا في هذه الرحلة قد توقّع حجم الشر الذي يضمرونه لنا. لكن بينما كنّا نسير، كانوا قد بدأوا مذبحتهم الجماعيّة. فخارج إحدى القرى شمال سنجار، كانت امرأة أيزيديّة تعيش في بيت طيني صغير على مقربة من الطريق العريض. لم تكن طاعنة في السن، لكنّها بدت وكأنّها عاشت مئات الأعوام لأنّها قضت معظم سنوات شبابها في حالة حِداد. وكانت بشرتها قد باتت شفافة هشّة، لأنّها نادرًا ما تذهب إلى الخارج، بينما تحيط بعينيها هالات سود، خلاصة سنوات من النحيب.

قبل سنوات، قتل أبناؤها كلّهم وزوجها في الحرب العراقيّة - الإيرانيّة، فلم تجد بعد ذلك أي سبب يحملها على مواصلة العيش. فانتقلت من منزلها إلى الملجأ الطيني ولم تترك لأحد المجال ليزورها. كل يوم، كان واحد من أبناء البلدة يتوقّف ليترك لها الطعام أو الملبس. لم يستطع أحد الاقتراب منها، لكن لا بدّ من أنّها كانت تأكل الطعام لأنّها

بقيت على قيد الحياة، واختفت الملابس أيضًا. كانت تعيش بمفردها، وحيدة، تفكّر في كل لحظة بالعائلة التي خسرتها، لكنّها كانت على الأقل حيّة ترزق. عندما قدم الدواعش إلى سنجار ووجدوها خارج البلدة وترفض أن تخرج، ذهبوا إلى غرفتها وأضرموا النار فيها.



الفتاة الأخيرة
BOOKS GROUP
مذكرات شجاعة
الفائزة بجائزة نوبل للسلام
الفتاة الأخيرة
قصّتي مع الأسر ومعركتي ضد تنظيم داعش
نادية مراد
تقديم أمل كلوني
ترجمة نادين نصر الله
التنوير
قناة كتوبيا النخبة

الجزء الثاني

الفصل الأول

لم أكن أدرك كم قريتي صغيرة إلى أن رأيت كوجو كلّها تجتمع في فناء المدرسة. تجمّعنا على العشب اليابس. كان بعضنا يهمس للبعض الآخر همسًا، ويتساءل ماذا يجري، بينما يلتزم البعض الآخر الصمت، في حال من الذهول. لم يكن أيّ منّا يملك أدنى فكرة عمّا يجري. ومذ تلك اللحظة، وأنا أناجي الله في كل فكرة تراودني وكل خطوة أخطوها. صوّب المسلحون أسلحتهم نحونا وصرخوا: «النساء والأطفال، إلى الطابق الثاني. الرجال، ابقوا هنا».

كانوا لا يزالون يحاولون أن يضبطونا ويجبرونا على التزام الهدوء. «إن لم ترغبوا في اعتناق الإسلام، فسندعكم تذهبون إلى الجبل»، قالوا لنا. وهكذا، توجّهنا إلى الطابق الثاني، كما أمرونا، وبالكاد أمكننا إلقاء تحيّة الوداع على الرجال الذين تركناهم في الفناء. أعتقد بأنّنا لو كنا على دراية بما كان سيحصل مع الرجال، ما كانت أي أم لتترك ابنها أو زوجها يرحل.

في الطابق العلوي، تكدّست النساء في مجموعات في الغرفة المشتركة. بدت لي المدرسة التي قضيت فيها سنوات أتعلّم وأنسج صداقات مكانًا مختلفًا كل الاختلاف. أخذ نواح النساء يصدح في

أرجاء الغرفة، وإن تكلمت إحداهن أو طلبت أن تفهم ما يجري، يصرخ مسلح داعشي في وجهها آمرًا بالسكوت، فتغرق الغرفة مجدّدًا في صمت مهيب. كان الجميع يقف، باستثناء الطاعنات في السن أو الصغيرات منهن. وكان الطقس من الحرارة والقيظ بحيث يعيق التنفس.

كانت النوافذ المدعومة بقضبان من حديد مفتوحة لتسمح بتسلل شيء من نسيم، ومن خلالها، كان بإمكاننا أن نرى ما يجري خلف أسوار المدرسة. لذلك، أسرعنا باتجاه النوافذ نحاول أن نشاهد ما يدور خارجًا؛ فبذلت جهدي كي أسترق النظر من خلف حشد من النساء. لم يكن أحد ينظر باتجاه البلدة؛ بل كانت العيون كلّها شاخصة تبحث عن أبناء أو إخوة أو أزواج بين الحشد المتجمهر في الأسفل لترى ما سيجري لهم. كان بعض الرجال يجلس في الحديقة وعلامات اليأس والقنوط بادية على محيّاهم، فأخذنا نشفق عليهم. عندما وصلت قافلة من الحافلات وتوقّفت أمام البوّابة الأماميّة للمدرسة، متجمّعة بشكل عشوائي من غير أن تطفئ محرّكاتها، أصابنا الذعر. لكنّ المسلّحين طلبوا منّا أن نلتزم الصمت، لذا لم يكن بإمكاننا أن ننادي الرجال بأسمائهم أو نصرخ كما كنا نرغب.

بدأ عدد من المسلّحين يدورون في أرجاء الغرفة حاملين أكياسًا ضخمة وطالبين منا أن نسلّمهم هواتفنا الخلويّة ومجوهراتنا وأموالنا. فبدأت النساء يفتّشن في الحقائب التي وضّبنها قبل مغادرة المنزل، ويلقين بأغراضهن في الأكياس الكبيرة وقد تملّكهنّ الذعر. حاولنا أن نخبّئ ما استطعنا إليه سبيلًا. فرأيت نساء يخرجن بطاقات هوية من حقائبهن وينزعن الأقراط من أذنيهن ثم يخبّئنها تحت فساتينهن أو داخل حمالات صدورهن. في المقابل، وبينما كان المسلّحون

ينظرون في الاتجاه المعاكس، راحت أخريات يدفعن بها إلى عمق أعماق حقائبهن. كنا خائفات، لكنّنا بعيدات البعد كلّه عن الاستسلام. فحتّى لو أخذونا إلى الجبل، كنّا نشك في أنّهم سيسلبوننا أغراضنا أوّلًا، وثمة أشياء كنّا نرفض التخلّي عنها.

ومع ذلك، تمكّن المسلّحون من ملء ثلاثة أكياس كبيرة بمالنا وهواتفنا الخلويّة، وخواتم الزواج والساعات وبطاقات الهوية الرسميّة والبطاقات التموينيّة. حتّى إن الصغار من الأطفال خضعوا للتفتيش بحثًا عن أشياء ثمينة. وإذا بأحد المسلّحين يصوّب مسدّسه نحو فتاة صغيرة تضع قراطين في أذنيها آمرًا: «انزعيهما وضعيهما في الكيس». وعندما لم تحرّك ساكنًا، همست أمّها في أذنها: «أعطهما للرجل حتّى نستطيع الذهاب إلى الجبل»، فنزعت الفتاة القرطين من أذنَيها ووضعتهما في الكيس المفتوح. أمّا أمّي، فقد تخلّت عن خاتم زواجها، أغلى ما تملك.

تمكّنتُ من خلال النافذة، من رؤية رجل ثلاثيني يجلس على التراب الجاف يستند إلى جدار الحديقة بالقرب من شجرة ضعيفة هشّة. بالطبع تعرّفت عليه واحدًا من أبناء البلدة - وكنتُ قد تعرّفت عليهم جميعهم - وكنتُ على يقين بأنه كسائر الرجال الأيزيديّين، يفاخر بشجاعته ويعتبر نفسه مقاتلًا. ولم يبدُ كمن يستسلم سريعًا. لكن عندما اقترب منه مسلّح وأشار إلى معصمه، لم ينبس الرجل ببنت شفة ولا قام بأي حركة ليقاوم. لا بل مدّ يده وأشاح بنظره بينما راح المسلّح ينتزع من يده ساعته ويرميها في كيسه، قبل أن يترك يد الرجل تتهاوى إلى جانبه. في تلك اللحظة، أدركت مدى خطورة داعش. لقد أوصلوا رجالنا حد اليأس.

«أعطهم حلاكِ يا نادية»، أمرتني أمي بهدوء. وجدتها في زاوية تقف مع بعض أقربائنا، وكلّهنّ قد تعلّقنّ ببعضهن البعض مذعورات. «إن بحثوا ووجدوها فسيقتلونك بالتأكيد».

همست لها مجيبة: «لا أستطيع». وأمسكت بحقيبتي حيث خبّأت أشيائي الثمينة داخل الفوَط الصحّية، أشدُّ عليها. كنتُ قد دفعت أيضًا بالخبز إلى الأسفل، خشية أن يجبرني المسلّحون على التخلي عنه.

صرخت أمي: «نادية»، وهي تحاول أن تجادلني، لكن لثانية واحدة ليس إلّا. فلم تكن ترغب في لفت الانتباه إلينا.

في الأسفل، كان أحمد جاسو يتكلّم على الهاتف مع أخيه نايف، الذي كان لا يزال في المستشفى في اسطنبول مع زوجته. أخبرنا لاحقًا حزني بمضمون هذه الاتّصالات الرهيبة كلّها. قال أحمد لأخيه: «يأخذون أغراضنا القيّمة. ثم يقولون إنّهم سيأخذوننا إلى الجبل. ثمّة حافلات تنتظر خارج البوّابة الأماميّة».

فأجابه نايف: «ربّما يا أحمد، ربما». وراح يفكّر في قرارة نفسه، لو كان هذا آخر اتصال هاتفي بيننا، فليكن الأقل توترًا ويحمل لأخيه الأمل. لكنّه بعد أن تكلّم إلى أحمد، اتّصل بصديق عربي في قرية مجاورة وطلب من الرجل: «اتّصل بي عندما تسمع صوت إطلاق نار»، ثم أقفل الهاتف وجلس ينتظر.

أخيرًا، طلب المسلّحون من مختارنا أن يعطيهم هاتفه. ثم سألوه: «أنت تمثّل القرية. ماذا قرّرتم؟ هل تعتنقون الإسلام؟».

لقد قضى أحمد جاسو حياته كلّها في خدمة كوجو. وعندما كان يندلع أي نزاع بين أبناء القرية، كان يدعو الرجال إلى الديوان ليحاول حل المسألة. وعندما يشتدّ التوتّر بيننا وبين قرية مجاورة، كان أحمد جاسو هو من يحاول التخفيف من حدّة الأمور. كانت عائلته تجعل كوجو فخورة أبيّة، وكنّا نثق به. والآن، هناك من يطلب منه أن يقرّر قَدَر قرية بكاملها.

«خذونا إلى الجبل»، ردّ المختار على المسلّح.

علت جلَبة من النوافذ المفتوحة، فاضطررت للعودة إلى إحداها. في الخارج، كان المسلّحون قد أمروا الرجال بالصعود إلى الحافلات المصطفّة خارج المدرسة، فراحوا يدفعون بهم في صفوف تصل إلى الآليات، يكدّسون أكبر عدد منهم في كل واحدة. كانت النساء يتهامسن في ما بينهن بينما يراقبن ما يحدث، وقد انتابهن خوف من أنّهن لو رفعن أصواتهن، فسيغلق المسلّح النافذة، ويعيق عليهن مشاهداتهن. كان يدفع بالصبية، وبعضهم لم يتخطَّ الثالثة عشرة من عمره، إلى الشاحنات مع الرجال، وكانت علامات اليأس تخيّم على الوجوه كلّها.

رحتُ أمسح بنظري الشاحنات والحديقة، بحثًا عن إخوتي. رأيت مسعودًا يقف في الشاحنة الثانية، يثبت نظره إلى الأمام مع الرجال الآخرين، متفاديًا الالتفات إلى النافذة المكتظة بالنساء أو إلى القرية. بالكاد نطق كلمات عشر خلال فترة الحصار، مذ غادر توأمه سعود وأصبح في أمان كردستان. لطالما كان أكثر إخوتي رزانة. فكان يحب الهدوء والوحدة، لذا ناسبه عمله كميكانيكي سيّارات. وقد قُتل أحد أقرب أصدقاء مسعود عندما حاول مع عائلته الفرار من كوجو والذهاب إلى الجبل، لكن مسعودًا لم ينبس ببنت شفة حوله، أو حول سعود، أو حول أيٍّ من الآخرين. بل أمضى فترة الحصار يشاهد تقارير عن جبل سنجار على التلفزيون، كما كنّا كلّنا نفعل، ويصعد ليلًا إلى السطح لينام. لم يأكل ولم يتكلّم، وبعكس حزني وخيري، اللذين كانا دائمًا أكثر انفعالًا، لم يبكِ يومًا.

ثم رأيت الياس، يمشي ببطء في الصف نحو القافلة نفسها. الرجل الذي كان والدًا لنا جميعًا بعد وفاة والدنا، بدا مهزومًا يائسًا. طرفتُ

بعينيَّ إلى النساء من حولي، وشعرت بالراحة عندما وجدت كاثرين بعيدة عن النافذة؛ فلم أكن أريدها أن ترى والدها هكذا. لكنّني لم أستطع أن أدير وجهي. كل ما حولي بدأ يتلاشى: من ضجيج النساء المنتحبات إلى وقع خطوات المسلّحين، وشمس الظهيرة الحادة، حتى إن قيظ الصيف بدا وكأنّه يضمحلّ بينما أراقب إخوتي يتم تحميلهم على متون الشاحنات، مسعود في الزاوية، والياس في المؤخّرة. ثم أقفلت الأبواب، وانطلقت الشاحنات إلى ما وراء المدرسة. وما هي إلا لحظات حتى سمعنا صوت طلقات نارية.

سقطت أرضًا بعيدًا عن النافذة بينما ملأ العويل الغرفة. فراحت النساء يصرخن: «قتلوهم!»، بينما يشتمنا المسلّحون آمرين أن نلتزم الهدوء. جلست أمّي أرضًا بلا حركة في سكون مطبق، فهرعتُ إليها. كنتُ طوال حياتي كلّما شعرت بالخوف، أذهب إلى أمّي، أجد ملاذي وراحتي عندها. فتقول لي: «لا بأس يا نادية»، وتداعب شعري بعد كابوس أيقظني ليلًا، أو إن كنت منزعجة من عراك مع أحد أقربائي. تقول: «ستجري الأمور على أحسن ما يرام». وكنتُ دائمًا أصدّقها. لقد عاشت أمّي الكثير ولم تشتكِ يومًا.

والآن ها هي تجلس على الأرض واضعةً رأسها بين يديها. راحت تنتحب: «قتلوا أبنائي، قتلوهم».

أمر عسكريٌّ وهو يتنقّل في الغرفة المكتظّة: «توقفوا عن الصراخ. إن سمعنا صوتًا آخر، فسنقتلكنّ». فتحوّل النحيب أصواتًا مخنوقة، بينما تحاول النساء بذل قصارى جهدهن كي يقلعن عن البكاء. أمّا أنا، فرحت أدعو ألّا تكون أمّي قد رأت أبناءها يُحمَّلون في الشاحنات، كما رأيتهم أنا.

العربي، صديق نايف، اتصل من قريته وقال: «سمعت إطلاق النار». كان يبكي. بعد لحظات، رأى في البعيد هيئة رجل. «أحدهم يركض باتجاه قريتنا»، أخبر شقيق مختارنا. «إنّه قريبك».

عندما وصل قريب نايف إلى البلدة، وقع أرضًا وهو يلهث. وراح يقول بينما يحاول التقاط أنفاسه: «قتلوا الجميع. صفّونا صفًّا واحدًا وجعلونا نقف قبالة الخنادق» - قنوات ضحلة تحتفظ، في الأشهر الماطرة، بمياه الأمطار للري - «جعلوا كل واحد من الصغار يرفع إبطه ليتحقّقوا من الذين بلغوا سن الرشد ونبت شعرهم، فإن لم يجدوا زغبًا، أعادوهم إلى الشاحنات. ثم أطلقوا النار علينا كلنا».

قُتل الرجال كلّهم تقريبًا هناك، تهاوت أجسادهم الواحد تلو الآخر كما الأشجار التي ضربتها صاعقة على حين غرّة.

ذاك اليوم، تم سَوْق مئات الرجال وراء المدرسة، ولم ينجُ من حفلة الإعدام تلك إلا عدد ضئيل منهم. أصيب أخي سعيد في رِجله وكتفه، وبعد أن سقط، أغمض عينيه محاولًا أن يخفّف من تسارع ضربات قلبه ويضبط إيقاع تنفسه. ثم هوى جسد عليه. كان جسد رجل ضخم بات أكثر ثقلًا الآن بعد أن قُتل، فعض سعيد على لسانه كي يمنع نفسه من الأنين تحت الثقل الساحق. وراح يفكّر، على الأقل هذا الجسد سيحميني من المسلّحين، ثم أغمض عينيه. كان الخندق يعبق برائحة الدماء. إلى جانبه رجل آخر لم يكن قد قُتل بعد، أخذ يئن ويصرخ من الوجع، طالبًا المساعدة. سمع سعيد وقع خطوات المسلّحين بينما أخذوا يسيرون باتّجاهه. فقال أحدهم: «هذا الكلب لا يزال على قيد الحياة»، قبل أن يطلق سيلًا آخر من وابل رصاصه العشوائي.

أصابت إحدى الطلقات سعيدًا في عنقه، فبذل كل ما أوتي به من

قوّة كي لا يصرخ بملء جوارحه. ولم يجرؤ على تحريك يده إلا عندما أحسّ بأن المسلّحين قد ابتعدوا – يتنقلّون عبر صف من مئات الرجال – فوضع يده على عنقه يحاول وقف النزيف. بالقرب منه، كان أستاذ اسمه علي قد أصيب أيضًا لكنه كان لا يزال على قيد الحياة. فهمس لسعيد: «ثمة كوخ في مزرعة بالقرب من هنا. أعتقد بأنّهم أصبحوا على مسافة بعيدة فنستطيع بلوغ الكوخ من دون أن يرونا». أوماً أخي برأسه وهو يئن من الوجع.

بعد دقائق قليلة، دفع سعيد وعلي بجثث جيرانهما عنهما وزحفا ببطء خارج الخندق، ينظران في كلا الاتجاهين ليتأكّدا من أن ما من أحد من المسلحين على مقربة منهما. ثم مشيا نحو الكوخ بأسرع ما يمكنهما. كان أخي قد أصيب بست طلقات وأغلبها في رجليه؛ لكنه كان محظوظًا أن أيًا منها لم يخترق عظامه أو أعضاءه. أما علي، فقد أصيب في ظهره، وعلى الرغم من أنه كان بإمكانه المشي، إلا أن الخوف وخسارة الدم قد أدخلاه في حالة من الهذيان. فما انفكّ يردّد لسعيد: «لقد تركت نظارتي. لا أرى من دونها، عليّ أن أعود لأحضرها».

وكان سعيد يجيبه: «كلا يا صديقي، لا نستطيع العودة. سيقتلوننا إن قمنا بذلك».

فيرد علي وهو يزفر زفرة قويّة: «حسنًا»، ثم يتكئ على جدار الكوخ. وما هي إلّا لحظات حتى يستدير إلى سعيد مجدّدًا يرجوه قائلًا: «يا صديقي أنا لا أرى». وقد استمر الوضع على هذا النحو بينما ينتظران. علي يرجو سعيدًا أن يعودا ليحضر نظّاراته، وسعيد يجيبه بهدوء أنّهما لا يستطيعان ذلك.

أخذ أخي يحفر في تربة الكوخ فيحمل الرمل الرطب ويضغطه على

جراحهما محاولًا أن يوقف النزيف. كان يخشى أن يموتا نتيجة كمّية الدماء التي خسراها. وبينما بات رأسه مترنحًا ما بين الحقيقة والهذيان يرتجف خوفًا، كان ينصت للأصوات الآتية من المدرسة ومن الحقل ورائه، متسائلًا عمّا حلّ بالنساء وما إذا كان الدواعش قد بدأوا بدفن جثث الرجال. ثم مرّ صوت أشبه بصوت الجرافة من أمام الكوخ، فراح يفكّر أن ربّما يستخدمونها لردم الخندق بالتراب.

اقتيد خالد، أخي غير الشقيق، إلى الجهة المقابلة من البلدة، حيث تم تجميع الرجال أيضًا في صف واحد وأُطلقت عليهم النار. وكما سعيد، تمكّن خالد من النجاة عبر ادعاء الموت ثم الهرب. كانت يده تتدلى إلى جنبه بلا أي حركة، بعد أن مزّقتها رصاصة عند الكوع، لكن رجليه كانتا سليمتين، فركض بأسرع ما يمكنه. وبينما كان يبتعد عن المجموعة، وجد رجلًا ممدّدًا على مقربة منه يئن طالبًا المساعدة. فأخبر خالدًا: «سيارتي في البلدة. لقد أصبت ولا أستطيع الحراك. رجاءً جد سيارتي وعد لأخذي. يمكننا أن نذهب إلى الجبل. أرجوك».

توقّف خالد لبرهة وأخذ ينظر إلى الرجل. كانت رجلاه مسحوقتين بفعل الرصاص. لا مجال لتحريكه من دون جذب الانتباه إليهما، والرجل سيموت لا محالة إن لم يتم نقله إلى مستشفى. أراد خالد أن يقول له إنّه سيعود، لكنّه لم يجد الكلمات التي يكذب فيها. فحدّق في الرجل لفترة، ثم قال له: «أنا آسف»، وشرع يركض.

أطلق مسلّحو تنظيم الدولة الإسلاميّة النار على خالد من سطح مدرسة كوجو بينما كان يركض، ورأى خالد ثلاثة رجال من كوجو يخرجون من الخندق ويذهبون باتجاه الجبل، بينما تحاول شاحنة للدولة الإسلاميّة أن تلحق بهم. عندما بدأ المسلّحون من على ظهر الشاحنة بإطلاق النار،

رمى خالد بنفسه بين كومتين من الشعير مبعثرتين في مزرعة ولازم مكانه حتى مغيب الشمس، يرتجف ويفقد وعيه من الألم، راجيًا ربّه طوال الوقت ألّا تهب ريح قوية تطيح بالشعير وتجعله مكشوفًا. وعندما حل الظلام، مشى عبر المزارع إلى أن وصل إلى جبل سنجار.

بقي سعيد وعلي في مخبئهما حتّى غابت الشمس. وبينما كان سعيد ينتظر، راح يتأمّل المدرسة من نافذة صغيرة. هل تستطيع أن ترى ماذا يحصل للنساء والأطفال؟»، سأله علي من الزاوية التي كان يجلس فيها.

فأجابه أخي: «ليس بعد، لم يحصل شيء».

تساءل علي: «لو أرادوا قتلهم أيضًا، أما كانوا ليفعلوا ذلك قبل الآن؟».

التزم سعيد الصمت. لم يكن يدري ما سيجري لنا.

عندما حل الظلام، عادت الشاحنات إلى البلدة وركنت أمام مدخل المدرسة بينما راح النساء والأطفال يخرجون من المبنى، والمسلّحون يسوقونهم نحو الشاحنات. لوى سعيد بعنقه، محاولًا أن يجدنا بين الجموع. وعندما تعرّف إلى وشاح ديمال يتنقّل في خط واحد نحو الباصات، بدأ ينتحب.

سأله علي: «ماذا يجري؟».

لم يفهم سعيد ماذا يجري. قال: «يضعون النساء في شاحنات الآن. لا أعرف لماذا». وعندما امتلأت الشاحنات، توجّهت بعيدًا.

وفي قرارة نفسه، همس سعيد: «إن نجوت من هنا، أقسم بالله أنني سأصبح مقاتلًا وسأنقذ أخواتي وأمّي». وعندما تلاشت آخر خيوط الشمس، بدأ هو وعلي يسيران بأسرع ما تسمح لهما جراحهما باتجاه الجبل.

الفصل الثاني

في المدرسة، كان بإمكاننا سماع صوت الطلقات الناريّة التي قتلت الرجال. كانت تتردّد على دفعات قويّة دامت لنحو الساعة. وقد أفادت بعض النسوة اللواتي بقين أمام النوافذ أنهن يستطعن أن يرَين الغبار يتصاعد من وراء المدرسة. وعندما هدأت الأمور، أعاد المسلّحون انتباههم إلينا. كانت النساء والأطفال كل ما تبقّى من كوجو. كنّا مذعورين لكنّنا حاولنا ألّا نُصدِر أي جلبة، إذ لم نكن نريد أن نثير حفيظة المسلّحين الذين كانوا يراقبوننا. راحت أمّي تهمس من حيث تجلس: «منزل أبي ذهب أدراج الرياح». وهو قول مأثور لا نستخدمه سوى في لحظات اليأس المطلق، لنقصد القول إنّنا خسرنا كل شيء. بدت أمّي وكأنّها قد فقدت كل أمل. لربما رأت الياس ومسعود يصعدان إلى الشاحنة.

أمرنا أحد المسلّحين أن ننزل، فتبعناه إلى الطابق الأوّل. هناك، الرجال الوحيدون كانوا مسلّحي الدولة الإسلاميّة. كان صبي اسمه نوري يبلغ الثانية عشرة من العمر وهو طويل بعض الشيء على سنّه، قد اقتيد مع أخيه الأكبر أمين إلى الخندق. قُتل أمين مع الرجال، لكن نوري أعيد إلى المدرسة بعد أن طلب منه المسلّحون رفع ذراعيه، فاكتشفوا

أن ما من شعر تحت إبطيه. فأمر القائد: «إنّه لا يزال طفلًا - أعيدوه. في المدرسة، أحاطت السيّدات القلقات بالصبيّ.

رأيت كاثرين على الدرج تُخرج رزمة من الدولارات الأميركيّة - يبدو أنّها بضع مئات - ربما قد سقطت من أحد الأكياس. راحت تحدّق بها بين يديها. قلت لها: «احتفظي بها. خبّئيها. لقد أعطيناهم كل ما نملك». لكن كاثرين كانت على درجة من الذعر حالت دون أن تبقي المال لنفسها، ففكّرت أنّهم لو رأوا كم هي متعاونة، فسيشفقون عليها وعلى عائلتها. فقالت: «لربّما إن أعطيتهم المال لن يصيبونا بأي مكروه»، وقدّمت رزمة المال إلى أوّل مسلّح رأته، لكن الرجل أخذ المال من دون أن ينطق بكلمة.

عندما رأينا أن الشاحنات قد عادت إلى بوّابات المدرسة، توقّفنا عن البكاء على الرجال وبدأنا بالعويل على أنفسنا. بدأ المسلّحون يدفعون بنا في مجموعات، لكن الفوضى كانت تعمّ المكان. لم يكن أحد يريد الابتعاد عن أخت أو أم، وما فتئنا نطرح الأسئلة: «ماذا فعلتم برجالنا؟ أين تأخذوننا؟». لكن المسلّحين تجاهلونا، وأخذوا يدفعون بنا نحو الشاحنات.

حاولت أن أتشبّث بكاثرين، لكنهم فصلونا عن بعضنا البعض. تم تحميلنا أنا وديمال مع نحو ست عشرة أو سبع عشرة فتاة أخرى في الشاحنة الأولى، وكانت عبارة عن شاحنة حمراء صغيرة مفتوحة من الخلف مثل تلك التي كنت أحب أن أستقلّها. بطريقة ما، جلست فتيات أخريات بيني وبين أختي. وبينما بقيت أنا في الخلف، دُفعت ديمال إلى زاوية في الأمام، حيث جلست، كتفًا إلى كتف مع نساء وأطفال آخرين، يشخصون كلهم بعيونهم إلى الأرض. بدأنا نتحرك قبل أن أدرك ما حصل للآخرين.

ابتعد السائق عن كوجو، وهو يقود مسرعًا على الطريق الضيّق الوعر.

كان يقود الشاحنة وكأنه غاضب أو على عجلة من أمره، ومع كل حركة صادمة على الطريق كان يدفعنا إلى بعضنا البعض فنرتطم بقوّة بالحافّة المعدنية، حتّى لخلت ظهري سينقصف. بعد مرور ثلاثين دقيقة، تأوّهنا كلّنا بارتياح عندما أبطأ القيادة، وقد دخلنا أطراف مدينة سنجار.

لم يكن قد بقي في مدينة سنجار إلّا المسلمين السنّة، فذُهلت كيف أن الحياة تسير طبيعيّة كما المعتاد. كانت الزوجات يتسوّقن الطعام من الأسواق بينما يدخّن أزواجهنّ السجائر في مقاهي الشاي. أمّا سائقو سيّارات الأجرة، فيمسحون الأرصفة بأعينهم بحثًا عن ركّاب، بينما يقود المزارعون ماشيتهم إلى المراعي. وقد ملأت السيّارات المدنيّة الطريق أمامنا ووراءنا، وسائقوها بالكاد ينظرون إلى الشاحنات التي تكتظ بالنساء والأطفال. لا يمكن أن يكون مظهرنا قد بدا طبيعيًا ونحن مكدَّسون على ظهر الشاحنات، نبكي ونتشبّث ببعضنا البعض. إذًا، لمَ لا يساعدنا أحد؟

حاولت أن أحافظ على بعض من أمل. فالمدينة لا تزال تبدو مألوفة بالنسبة إليّ، وهذا ما أراحني. فقد تعرّفت إلى بعضٍ من شوارعها التي تكتظ فيها محال السمانة والمطاعم التي تبيع السندويشات اللذيذة، وأزقّة محلّات السيّارات التي يسيل زيت الآليّات على جوانبها، ومنصّات المنتوجات التي تتكدّس عليها الفاكهة الملوّنة. لربّما كنّا نذهب في النهاية إلى الجبل. لربّما لم يكن المسلّحون يكذبون وكل ما أرادوه هو أن يتخلّصوا منا ويرمونا عند سفح جبل سنجار، ويسمحوا لنا بالهرب منهم إلى الظروف المناخية القاتلة في الأعلى. فقد يرون في ذلك ما يعادل عقوبة الإعدام. كنت آمل أن يفكّروا على هذا النحو. لقد باتت منازلنا محتلّة ورجالنا قُتلوا على الأرجح، لكن على الأقل، في

أعلى الجبل، نكون مع أيزيديّين آخرين. يمكننا أن نجد حزني ونبدأ برثاء من خسرنا. وبعد فترة وجيزة، نبدأ بجمع شتات ما تبقّى من مجتمعنا.

كان بإمكاني أن أرى ملامح الجبل في الأفق، يقف شامخًا ومسطّحًا في أعلاه، فرجوت في قرارة نفسي السائق أن يواصل السير مستقيمًا. لكن الشاحنة استدارت نحو الشرق وبدأت تسير بعيدًا عن جبل سنجار. لم أقل شيئًا، مع أن الرياح كانت تعصف عصفًا عبر قضبان الشاحنة حتى لأمكنني الصراخ من دون أن يسمعني أحد.

عندما أصبح جليًّا أنّهم لا يأخذوننا إلى الجبل، بحثت في حقيبتي عن الخبز الذي جلبته معي من المنزل. كنت غاضبة. لمَ لم يساعدنا أحد؟ ماذا حصل لإخوتي؟ لقد أصبح الخبز الآن قاسيًا ناشفًا تغطّيه طبقة من الغبار والوسخ. كان يفترض به أن يحميني ويحمي عائلتي، ولم يفعل. وبينما كانت مدينة سنجار تبتعد في الأفق، انتزعت الخبز من الحقيبة ورميت به من فوق حافة الشاحنة، ورحت أتأمله بينما يسقط أرضًا ويتحوّل إلى قمامة.

وصلنا إلى صولاغ قبل المغيب بقليل فتوقّفت الشاحنة أمام معهد صولاغ، وهو مدرسة خارج البلدة. كان المبنى الكبير ساكنًا ومظلمًا. كنّا أنا وديمال من بين أولى اللواتي نزلن من الشاحنات، فجلسنا، مرهقتَين، في الفناء، نشاهد النساء والأطفال يتعثّرون خارج الشاحنات الأخرى. وبينما أُخرج أعضاء من عائلتنا من الشاحنات، راحوا يعبرون البوابات باتّجاهنا وهم في حالة ذهول. لم تتوقّف نسرين عن البكاء. فقلت لها: «انتظري، لا نعلم ماذا سيحصل لنا».

كانت صولاغ شهيرة في كوجو بمكانسها اليدويّة الصنع، وكانت أمّي أو أي شخص آخر من العائلة يسافر إليها مرة في السنة لشراء

مكنسة جديدة. وقد ذهبت مرة، قبل وقت قصير من قدوم داعش. في تلك الرحلة، وجدت المدينة جميلة، خضراء نضرة، وقد شعرت بتميّزي لقيامي بهذه الرحلة. الآن، تبدو وكأنّها منطقة أخرى.

كانت أمّي في إحدى الشاحنات الأخيرة التي وصلت. لن أنسى يوماً كيف بدت. كان الهواء قد دفع بوشاحها الأبيض إلى مؤخّرة رأسها. شعرها الأسود الذي يكون في العادة مسرّحًا بعناية ومفروقًا عند منتصف رأسها، بدا أشعث متطايرًا، ووشاحها لا يغطي إلّا فمها وأنفها. كانت ثيابها البيض مغبرّة وتعثّرت بينما دفع بها أحد المسلّحين إلى الأرض. «انهضي»، صرخ بها أحدهم وهو يدفع بها نحو الحديقة، ويسخر منها ومن نساء أخريات طاعنات في السن لم يتمكنّ من السير بسرعة. دخلتْ من البوابة ومشت نحونا تلقائيًا. ومن دون أن تنبس بكلمة، جلست ووضعت رأسها بين رجليّ. أمّي لا تتمدّد أبدًا أمام الرجال.

أخذ مسلّح يطرق باب المعهد المقفل حتى خلعه ففتح على مصراعيه ثم أمرنا بالدخول. وقال: «أولًا، انزعوا الأوشحة. اتركوها كلّها عند الباب».

فعلنا كما قال. وبعدما أصبح شعرنا مكشوفًا، أخذ المسلّحون ينظرون إلينا بتمعّن، ثم أرسلونا إلى الداخل. وبينما كانت النساء تصلن تباعًا إلى بوّابة المعهد - الأطفال الذين يتعلّقون بتنانير أمهاتهم، والزوجات الشابّات اللواتي تورّمت عيونهن من البكاء على أزواجهن الراحلين - بدأت كومة الأوشحة تكبر أكثر فأكثر، ليمتزج النسيج الأبيض التقليدي الشفّاف بالأوشحة الملوّنة التي تفضّلها الشابّات الأيزيديّات. وعندما شارفت الشمس على المغيب وتوقّفت الشاحنات عن الوصول، ضرب مسلّح كان شعره الطويل مغطّى جزئيًا بوشاح أبيض بعقب مسدسه على

كومة الأوشحة ضاحكًا: «سأبيعكم هذه لقاء مئتين وخمسين دينارًا»، قال لنا، وهو يعي جيّدًا أنّه مبلغ زهيد من المال - حوالى العشرين سنتًا أميركيًا - لكن أيًا منّا لم تكن تملك المال.

باتت الحرارة لا تُحتمل بعد أن تكدّسنا كلّنا في غرفة واحدة. رحت أتساءل إن كنت قد أصبت بالحمّى. أمّا النساء الحوامل، فأخذن يتأوّهن ويحاولن تمديد سيقانهنّ إلى الأمام، متكئات بظهرهن إلى الجدار ومغمضات أعينهن كما لو كن يحاولن نسيان تلك الغرفة التي يقبعن فيها. إلى ذلك، كان الصوت الوحيد الذي يُسمع في هذه الغرفة، هو صوت حفيف الملابس والبكاء المخنوق. فجأة، بدأت امرأة تصغر أمّي بقليل بالصراخ ملء جوارحها: «لقد قتلتم رجالنا!»، وراحت تعيد وتكرّر ليتنقل غضبها عبر الحشد كلّه. فبدأت نساء أخريات ينتحبن ويصرخن مطالبات بإجابات، أو يعولنَ ليس إلا، كما لو أن انفجار المرأة الأولى قد أطلق العنان لمآسيهن الشخصيّة.

لكن تلك الجلبة أغضبت المسلّحين. «توقفن عن البكاء وإلا أقتلكن هنا»، صرخ بنا أحدهم، مصوّبًا سلاحه إلى المرأة قبل أن يصفعها على جبينها. لكن كانت كما لو أصابها مسّ - فلم تستطع وضع حدٍ لصراخها. فاقتربت منها نسوة يحاولن التخفيف عنها، وقد مررن أمام المسلّح وسلاحه. وقالت لها إحداهن: «لا تفكّري بما جرى للرجال. علينا أن نساعد أنفسنا الآن».

أعطونا بعض الطعام - رقائق البطاطا والأرزّ وزجاجات مياه. ومع أن قلّة قليلة منّا قد تناولت أي طعام أو شراب مذ غادرنا منازلنا هذا الصباح، إلّا أنّنا لم نكن نملك أي شهيّة، وكنا مذعورين لا نقوى على تناول ما أعطونا إياه. لكنّهم رموا بالعلب بين أيدينا عندما تجاهلناهم.

«كلوا!»، أمرونا، وكأنهم شعروا بالمهانة من رفضنا. ثم أعطوا الصبية الأكبر سنًّا أكياسًا بلاستيكية وطلبوا منهم أن يدوروا في أرجاء الغرفة ويجمعوا القمامة.

كان الليل قد أرخى بظلاله وكنّا مرهقين. وكان رأس أمّي لا يزال في حضني. لم تقل كلمة منذ وصلت، بل أبقت عينيها شاخصتين ولم تنم البتّة. افترضتُ أنّنا سنقضي ليلتنا مكدّسين على بعضنا البعض في المعهد، فتساءلت إن كنت سأتمكّن من النوم. فكّرت أن أسأل أمّي بما تفكر، لكنّني وجدت صعوبة بالغة في الكلام. يا ليتني قلت شيئًا. بعد أن أكلنا، بدأ المسلحون يفرّقوننا في مجموعات صغيرة ويأمرون معظمنا بأن نخرج إلى الجهات المقابلة من الحديقة. «النساء المتزوّجات، من هنا مع أطفالكنّ، لكنْ الصغار ليس إلا»، راحوا يصرخون بنا مشيرين إلى طرف من الغرفة. «النساء الطاعنات في السن والفتيات، إلى الخارج».

بدأ الذعر يدب في فرائصنا، إذ كنّا نجهل تمام الجهل ما يعني ذلك. تشبّثت الأمّهات بأولادهن الأكبر سنًّا، رافضات أن يتركنهم. فبدأ المسلّحون يدورون حول الغرفة ينتزعون عنوة أفراد كل عائلة، فيدفعون بالفتيات الشابّات غير المتزوّجات نحو الباب. في الحديقة، تشبّثت أنا وكاثرين بأمّي، التي كانت جالسة مرّة أخرى على الأرض؛ وكانت كاثرين أكثر ذعرًا منّي لفكرة ترك أمّي، فدفنت رأسها بين ذراعي أمّي. إلى أن وصل مسلّح إلينا. وزمجر: «أنتِ!»، مشيرًا إلى أمّي أن تتوجّه إلى الجهة الجنوبيّة من الحديقة. «اذهبي إلى هناك».

هززت برأسي نفيًا، وأنا أقترب أكثر فأكثر من أمّي. فجثا المسلّح أرضًا وانتزعني من قميصي. «هيّا»، قال، لكنّني لم أحرّك ساكنًا. فشدّني

بقوّة أكبر فنظرت بعيدًا. ثم وضع يديه تحت إبطي ورفعني عن الأرض، فما كان منه إلّا أن فصلني بالقوة عن أمي ودفع بي إلى جدار الحديقة. صرخت. ثم فعل الأمر نفسه مع كاثرين، التي تشبّثت بيد أمّي كما لو أنّها كانت تلتصق بها، وراحت ترجوه ألا يفصلهما، قائلة: «دعني أبقى معها! هي ليست بخير». لكنّهم لم يكونوا يكترثون لما نقوله، بل حملوا كاثرين بعيدًا عن أمّي بينما أخذت أنا وابنة أخي نولول.

«لا أستطيع أن أتحرّك، أشعر بأنني سأموت»، سمعت أمّي تقول للمسلح.

فرد عليها وقد عيل صبره: «هيّا. سنأخذك إلى مكان مزوّد بالمكيف».

فجهدت أمي لترفع نفسها عن الأرض وتبعته ببطء، بعيدًا عنا.

شرعت بعض النساء الشابّات غير المتزوّجات، في مسعى منهن لإنقاذ أنفسهن، بالكذب، فأخبرن المسلّحين أنهن متزوّجات، أو حملن أطفالًا يعرفنهم وادّعين أنّهم أولادهن. لم نكن نعلم ما سيحلّ بنا، لكن أقلّه بدا المسلّحون وكأنّهم لا يكترثون كثيرًا بالأمهات والنساء المتزوّجات. انتزعت ديمال وأدكي اثنين من أنسبائنا وقرّبتاهما منهما. «هذان ولدانا»، قالتا للمسلّحين، الذين حدّقوا بهم لهنيهة من الزمن، ثم اجتازوهم. لم تكن ديمال قد رأت أولادها منذ طلاقها، لكنّها كانت تؤدّي دور الأم بطريقة مقنعة، وحتى أدكي التي لم تتزوّج يومًا وكانت أقل إيحاء بالأمومة، إلّا أنها أدّت دورها على أكمل وجه. كان قرارًا اتُّخذ في عشر من الثانية. مسألة حياة أو موت. لم يسمح لي الوقت بأن أودّع أختيَّ قبل أن تُنقلا إلى الأعلى والصبيّان الفتيّان يتعلّقان بهما.

استغرقت عمليّة فصل النساء حوالى الساعة. جلستُ في الخارج

مع كاثرين وروجيان ونسرين؛ رحنا ننتظر ونمسك ببعضنا البعض. مرّة أخرى، عرض علينا المسلّحون رقائق البطاطا والمياه، ومع أنّنا كنّا على درجة من الخوف تحول دون أن نأكل، شربت القليل من المياه، ثم شربت مرة أخرى. لم أكن أدرك كم أنا عطشى. أخذت أفكّر بأمّي وبأختيَّ في الأعلى وأتساءل إن كان الدواعش سيشفقون عليهنّ، وكيف ستُترجم هذه الشفقة. كانت أوجه الفتيات اللواتي يُحِطن بي حمرًا بفعل البكاء. شعرهن أشعث يخرج عن ضفائرهن، وأيديهن تتعلّق بأقرب شخص يجلس قربهن. كنت منهكة من التعب فشعرت وكأن رأسي يغرق في جسدي، وقد يتحوّل العالم في أي لحظة أسود حالكًا. لكنّني لم أفقد الأمل إلى أن رأيت ثلاثة باصات تصل إلى المدرسة. كانت باصات ضخمة، من تلك التي تنقل السيّاح والحجّاج حول العراق ومكّة، فعلمنا على الفور أنّها لنا.

راحت كاثرين تنتحب قائلة: «إلى أين يأخذوننا؟». لم تتلفّظ بالكلمات، لكنّنا كنا كلنا مذعورين من احتمال أن ينقلونا إلى سوريا. لقد بدا أي أمر ممكنًا، وكنت أكيدة أنّنا سنموت في سوريا.

حملت حقيبتي بين يديَّ وشددت عليها. كانت قد أصبحت أخف ثقلًا من دون الخبز، لكنّني شعرت الآن بالذنب لأنّني رميته. فهدر الخبز خطيئة. فالله لا يحكم على الأيزيديّين استنادًا إلى عدد الصلوات التي يؤدّونها أو زيارات الحج التي يقومون بها. ونحن لسنا ملزمين ببناء كاتدرائيّات فخمة أو الانتظار لسنوات من التعليم الديني حتى نصبح أيزيديّين صالحين. فالطقوس الدينيّة، مثل العمادة، لا تجري إلا عندما تمتلك العائلة ما يكفي من المال أو الوقت للقيام بتلك الرحلة.

إيماننا يتمثل بأفعالنا. نحن نستقبل الغرباء في منازلنا، ونقدّم المال

والطعام للمعوزين، ونجلس أمام جثمان محبوبنا قبل مواراته في الثرى. حتى أن يكون التلميذ مجتهدًا في دروسه، أو يكون الزوج رؤوفًا مع زوجته، فذاك يعادل فعل الصلاة. أما الأشياء التي تبقينا على قيد الحياة وتسمح للفقراء بمساعدة الآخرين، مثل الخبز، فهي مقدّسة.

لكن اقتراف الأخطاء جزء من الطبيعة البشريّة، لذلك نحن لدينا إخوة وأخوات من الحياة الآخرة، هم أعضاء مرتبة مشيخة الأيزيديّة نختارهم لتعليمنا ديننا ومساعدتنا في الحياة الآخرة. وكانت أختي في الحياة الآخرة تكبرني بقليل، جميلة ولديها اطّلاع واسع على الديانة الأيزيديّة. تزوّجت مرّة، ثم تطلّقت، وعندما عادت لتعيش مع عائلتها، كرّست نفسها لله وللدين. وتمكّنت من الهرب قبل أن يقترب الدواعش من منزلها، وهي تعيش الآن بأمان في ألمانيا. أهم وظيفة لدى هؤلاء الإخوة والأخوات هي الجلوس مع الله والطاووس ملك والدفاع عنّا حتى بعد مماتنا. فتقول أختك أو أخوك: «كنت أعرف هذا الشخص عندما كان على قيد الحياة. يستحق أن تعود روحه إلى الأرض. كانت تلك الفتاة صالحة».

عندما أموت، أنا أعلم أن أختي من الآخرة ستدافع عن بعض الخطايا التي ارتكبتها عندما كنت على قيد الحياة: عندما سرقت السكاكر من متجر في كوجو على سبيل المثال، أو عندما كنت كسولة لا أرغب بالذهاب إلى المزرعة مع أقربائي. لكن الآن، عليها أن تدافع عني لخطيئة أكبر، وكنت آمل أن تصفح عني أوّلًا - لأنني تحدّيت أمي وأنقذت صور العرائس، وفقدت إيماني ورميت بالخبز، والآن لصعودي إلى هذا الباص، وكل ما سيجري تاليًا.

الفصل الثالث

حُمّلت الفتيات أمثالي في باصَين. أمّا الصبية، بمن فيهم الفتيان مثل نوري وابن أخي مالك، الذين أنقذوا في كوجو لأنهم لم يبلغوا بعد، فصعدوا في الباص الثالث. كانوا مذعورين، شأنهم شأننا. كانت سيّارات جيب مدرّعة تكتظّ بمسلّحي الدولة الإسلاميّة تنتظر لمرافقة الباصّات كما لو كنّا ذاهبين إلى الحرب، وربّما نحن فعلًا ذاهبون إليها.

بينما كنت أنتظر مع الجموع، اقترب منّي مسلّح. كان المسلّح نفسه الذي راح قبل قليل يلكز بمسدّسه الأوشحة وكان لا يزال يحمل سلاحه بين يديه. سألني: «هل تعتنقين الإسلام؟». وكما ظهر عندما كان يلهو بأوشحتنا، بدا متهكّمًا ساخرًا.

أشحت برأسي نفيًا.

«إن اعتنقتِ الإسلام، يمكنك أن تبقي هنا»، قال وهو يشير إلى المعهد، حيث أمّي وأختاي. «يمكنك أن تكوني مع أمّك وأخواتك وتطلبي منهن أن يشهرن إسلامهن أيضًا».

هززت رأسي نفيًا مرّة أخرى. كنتُ على درجة من الذعر حالت دون أن أنطق بكلمة. «حسنًا». توقّف عن التهكّم وكشّر في وجهي. «إذًا، ستصعدين على متن هذا الباص مع الأخريات».

كان الباص ضخمًا، يقسم إلى صفوف كثيرة في كل صفّ ستّة مقاعد يفصل بينها ممر مضاء طويل، وفي الجانبين نوافذ أُسدلت الستائر فوقها. وبينما راحت المقاعد تمتلئ، تحوّل الهواء ثقيلًا يعيق التنفّس، لكن عندما حاولنا أن نفتح النوافذ، أو حتى الستائر لننظر إلى الخارج، صرخ بنا مسلّح طالبًا منا ألا نأتي بأي حركة. كنت قريبة من مقدمّة الباص وباستطاعتي أن أسمع السائق يتكلم على هاتفه. تساءلت إن كان سيفصح عن وجهتنا. لكنه كان يتكلّم لغة التركمان، لذا لم أتمكّن من فهمه. فرحت من مقعدي على الطرف أراقب السائق وأنظر إلى الطريق عبر الزجاج الأمامي الواسع. كان الظلام قد حل عندما خرجنا من المعهد، وكل ما استطعت رؤيته عندما أدار مصابيح الإنارة الأمامية كان بقعة صغيرة من الاسفلت الأسود وبضع أشجار متناثرة. لم يكن بإمكاني أن أرى ما وراءنا، لذلك، لم أتمكّن من رؤية معهد صولاغ يتلاشى في الخلفيّة مبتلعًا أمي وأختيَّ في داخله.

انطلقت الباصات مسرعة، الباصان المليئان بالفتيات في المقدّمة، وباص الصبية في الخلف، وسيّارات الجيب البيض أمام الموكب وخلفه. كان الباص الذي نستقلّه هادئًا هدوءًا مخيفًا. جل ما استطعت سماعه كان وقع أقدام مسلّح يذرع بخطاه الممر، وهدير الباص. بدأت أشعر بالغثيان فحاولت إغماض عينيّ. وعبق الباص برائحة العرق والأجساد النتنة. تقيّأت فتاة في الخلف بين يديها، بعنف في البداية، وعندما صرخ بها مسلّح طالبًا منها أن تتوقّف، راحت تستفرغ بأكثر ما يمكنها من هدوء. وقد انبعثت من قيئها رائحة انتشرت في أرجاء الباص وباتت لا تُحتمل، حتّى لحقتها بعض الفتيات وبدأن بالتقيؤ أيضًا. لم يكن ثمة من يريح الآخر. فكان ممنوع علينا أن نلمس بعضنا البعض، أو تُكلّم إحدانا الأخرى.

كان الرجل، الذي يذرع الممر بخطاه، رجلًا فارع الطول يبلغ من العمر نحو الخامسة والثلاثين واسمه أبو بطاط. وقد بدا وكأنه يستمتع بعمله، يتوقّف بين الفينة والأخرى عند بعض الصفوف يحدّق بالفتيات، ويشير إلى أولئك اللواتي أُصبن بالذعر أو ادّعين النوم. في النهاية، بدأ ينتشل بعض الفتيات من مقاعدهن ويرسلهن إلى مؤخرة الباص، حيث يجعلهن يقفن مقابل جانب الباص. «ابتسِمنَ!»، صرخ بهن قبل أن يلتقط لهن صورة على هاتفه الخلوي، وهو يضحك، كما لو أنه يغتبط للذعر الذي يثيره في كل فتاة يختارها. وعندما كنّ يخفضن رؤوسهن ذعرًا، كان يصرخ: «ارفعي رأسك!»، ليتحوّل مع كل فتاة إلى تصرّفات أكثر جرأة وفحشًا.

أغمضت عينيّ وحاولت أن أفصل نفسي عمّا يجري. وعلى الرغم من الرعب الذي كان يدب فيّ، إلا أن جسدي كان مرهَقًا فغفوت لوقتٍ قصير. لكنني لم أجد أي راحة، وكلّما أحسست بأنني سأغفو، كان رأسي ينتفض، فأفتح عينيّ مذهولة، لأجلس وأشخص ببصري عبر النافذة فأتذكّر بعد لحظة أين أنا.

لم يسعني أن أجزم، لكنّني أعتقد بأنّنا كنّا على الطريق باتّجاه الموصل، التي كانت بمثابة عاصمة الدولة الإسلاميّة في العراق. وقد شكّلت السيطرة على المدينة نصرًا مبينًا لداعش، حيث أظهرت لقطات الفيديو عبر شبكة الانترنت الاحتفالات بعد أن احتلّوا الشوارع ومباني البلديّة وقطعوا الطرقات من حول الموصل. في غضون ذلك، أقسمت القوّات الكرديّة والقوات العراقيّة المركزيّة أنّها ستستعيد المدينة من مسلّحي التنظيم، حتّى لو استغرق الأمر سنوات. لا نملك سنوات، رحت أفكّر في قرارة نفسي، قبل أن أغرق في سباتي.

فجأة، شعرت بيدٍ على كتفي اليسرى ففتحت عينيّ لأرى أبو بطاط يقف قبالتي، وعيناه الخضراوان تلمعان، وفمه يلتوي بابتسامة ماكرة. كان وجهي بمستوى مسدّسه الذي يعلّقه إلى خصره، فشعرت كما لو كنت صخرة تقبع هنا، عاجزة عن الحراك أو الكلام. أغمضت عينيّ مجددًا، أتضرّع لربّي أن يجعله يرحل عنّي، ثم شعرت بيده تنتقل ببطء عبر كتفي، فتلمس عنقي، ثم تنزل إلى مقدّمة فستاني حتى تتوقّف على نهدي الأيسر. كان إحساسي كما سهام من نار؛ لم يسبق أن لمسني أحد هكذا من قبل. فتحت عينيَّ لكنّني لم أنظر إليه، بل رحت أحدّق أمامي. وصل أبو بطاط إلى داخل فستاني والتقط نهدي، بعنف، كما لو أراد أذيّتي، ثم مشى بعيدًا.

كانت كل ثانية في حضرة داعش عبارة عن موت أليم بطيء - موت الجسد والروح - وتلك اللحظة في الباص مع أبو بطاط كانت اللحظة التي بدأت فيها رحلة الموت. كنت أتحدّر من قرية صغيرة وقد ترعرعت في كنف عائلة محافظة. وكلّما كنت أخرج من المنزل، أيًا تكن وجهتي، كانت أمّي تتفحّصني قبل أن تقول: «أغلقي أزرار قميصك يا نادية. كوني فتاة صالحة».

الآن، هذا الغريب يلمسني بوحشيّة، وليس ثمّة ما أستطيع القيام به. واصل أبو بطاط سيره في الباص من أوّله حتى آخره، يتلمّس الفتيات الجالسات على الطرف، فيمرّر يده علينا كما لو لم نكن بشرًا، كما لو أنّه لا يخشى من احتمال أن نتحرّك أو نغضب. عندما عاد إليّ مجدّدًا، التقطت يده، محاولة أن أثنيه عن وضعها تحت فستاني. كنت مذعورة لا أقوى على الكلام. بدأت أبكي، ودموعي تنهمر على يده، ومع ذلك لم يتوقّف. فرحت أفكر، هذه هي الأشياء التي تحصل بين حبيبين عندما

يتزوجان. تلك كانت نظرتي عن العالم، وعن الحب، طوال حياتي، مذ أصبحت بعمر يسمح لي بأن أفهم ما هو الزواج. من كل المغامرات والاحتفالات في كوجو، وصولًا إلى اللحظة التي تحرّش بي فيها أبو بطاط وبدّد تلك الفكرة.

همست لي الفتاة الجالسة في المقعد الأوسط: «إنّه يقوم بذلك مع كل الفتيات الجالسات على الطرف. إنّه يلمسهن كلّهن».

رجوتها: «أرجوك بدّلي مقعدك معي. لا أريده أن يلمسني مجددًا».

فردّت عليّ: «لا أستطيع. أنا خائفة جدًا».

واصل أبو بطاط سيره صعودًا ونزولًا في الباص، يتوقّف عند الفتيات اللواتي يفضّلهنّ. عندما أغمضت عينيّ، كان بوسعي أن أسمع حفيف سرواله الأبيض الفضفاض ووقع طرقات حذائه. وبين الفينة والأخرى، يتناهى إلى مسامعي من جهاز الراديو الذي يحمله بيد واحدة صوت بالعربيّة، لكنّ ما أمكنني أن أفهم كلمة واحدة ممّا يبث.

وكلّما وصل إليّ، كان يمرر يده على كتفي وفوق نهدي الأيسر، ثم يذهب بعيدًا. كنت أتعرّق بكثافة حتى لخلتني أقف تحت مياه الحمّام. لاحظت أنّه كان يتفادى الفتيات اللواتي تقيّأن سابقًا، فوضعت يدي في فمي محاولة أن أجبر نفسي على التقيّؤ، آملة أن أتمكّن من إغراق فستاني كلّه بالقيء حتى أُبقي يده بعيدة عنّي، لكن بلا جدوى. بذلت قصارى جهدي وتألّمت، لكن لم يخرج أي قيء.

توقّف الباص في تلّعفر، وهي مدينة ذات أغلبيّة تركمانيّة تبعد حوالى الخمسين كيلومترًا عن مدينة سنجار، فبدأ المسلّحون يتكلّمون عبر هواتفهم الخلويّة وأجهزة الراديو، محاولين أن يحدّدوا ما يريده

منهم قادتهم. قال السائق لأبو بطاط: «طلبوا أن نترك الصَّبية هنا»، وغادر كلاهما الباص. رأيت من خلال النافذة الأماميّة أبو بطاط يتكلّم مع المسلحين الآخرين، فتساءلت عمّا يدور بينهم. كان ثلاثة أرباع المقيمين في تلعفر من التركمان السنّة، وقبل أشهر من قدوم داعش إلى سنجار، هرب شيعة المدينة منها، فتركوها أرضًا مفتوحة أمام المسلّحين.

كان الجانب الأيسر من جسدي حيث مسّني أبو بطاط يؤلمني. رحت أدعو ألّا يعود إلى الباص، لكنّه عاد بعد دقائق معدودة وبدأنا نتحرك مجدّدًا. وبينما كان الباص ينطلق، استطعت أن أرى من خلال النافذة الأماميّة أننا تركنا أحد الباصات هنا وراءنا. لاحقًا علمت أنه الباص المليء بالصبية، بمن فيهم مالك، الذي حاولت داعش غسل دماغه وجعله يحارب في مجموعاتها الإرهابية. ومع مرور السنوات وتواصل الحرب، كانوا يستخدمون الصبية دروعًا بشريّة وانتحاريين.

ما إن عاد إلى الباص، حتى استعاد أبو بطاط فعل تحرّشه بنا. اختار الفتيات المفضّلات لديه، وبدأ يزورنا أكثر فأكثر، واضعًا يده لفترة أطول علينا، ولاقطًا أعضاءنا بقوة ووحشيّة، حتى لبدا وكأنّه يريد أن يمزّق أجسادنا. بعد حوالى العشر دقائق من مغادرتنا تلعفر، لم أعد أستطيع تحمّل الأمر. وعندما شعرت بيده على كتفي مجدّدًا، بدأت أصرخ. فاخترق صوتي صمت الباص. لحقتني فتيات أخريات بدأن بالصراخ حتى تحوّل داخل الباص إلى أشبه بساحة مجزرة. تجمّد أبو بطاط. «اخرسي، اخرسن كلّكن!»، راح يصرخ بنا، لكنّنا لم نفعل. وكنت أفكّر، لا يهمّني إن قتلني. أريد أن أموت. نحا السائق التركماني جانبًا، فتوقّف الباص فجأة باندفاعة جعلتني أنتفض من مقعدي. صرخ

السائق شيئًا على هاتفه. بعد لحظة توقّفت أيضًا إحدى سيارات الجيب البيض التي كانت تسير أمامنا، وخرج من المقعد الأمامي رجل وبدأ يسير نحو الباص.

تعرّفت على المسلح، وهو قائد اسمه نفاع من صولاغ. في المعهد، كان قد أبدى وحشيّة وقسوة تفوّق بها على أقرانه، صارخًا بنا بلا أي إنسانيّة. حتى بدا لي أشبه بآلة ليس إلّا. فتح السائق الباب أمام القائد، اندفع نفاع إلى داخل الباص غاضبًا. سأل أبو بطاط: «من بدأ هذا؟»، فأشار معذّبي إليّ: «هي فعلت». فسار نفاع إلى حيث أجلس.

قبل أن يتمكّن من الاتيان بأي فعل، بدأت أتكلّم. كان نفّاع إرهابيًا، لكن ألا تملك داعش قوانين حول كيفيّة التعامل مع النساء؟ إن كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين صالحين، فسيعترضون على الطريقة التي يستغلّنا بها أبو بطاط. «لقد أحضرتمونا إلى هنا، على هذا الباص. جعلتمونا نأتي، لم نملك أي خيار، وهذا الرجل - وأشرت إلى أبو بطاط، ويدي ترتجف خوفًا - «لم يتوقّف عن وضع يده على نهودنا طوال الوقت. كان يلتقطنا ولا يدعنا وشأننا».

التزم نفّاع الهدوء بعد أن انتهيت من مداخلتي. للحظة خلته سيعاقب أبو بطاط، لكن هذا الأمل تلاشى عندما بدأ أبو بطاط يتكلّم. قال لي ونبرة صوته على درجة من الارتفاع كفيلة بأن تجعل جميع من في الباص يسمعه: «لمَ تعتقدين أنّك هنا؟ صدقًا، ألا تعلمين؟».

ومشى أبو بطاط إلى حيث كان نفّاع واقفًا والتقطني من عنقي دافعًا برأسي إلى المقعد ومصوّبًا مسدّسه إلى جبيني. انقبضت الفتيات من حولي، لكنّني كنت مذعورة لا أقوى على أي حركة أو صوت. «إن أغمضت عينيك سأطلق النار عليك»، قال لي.

سار نفّاع نحو باب الباص. وقبل أن يغادر، استدار إلينا قائلًا: «لا أعلم ماذا تعتقدن أنّنا فاعلون بكنّ. لكن لا خيار أمامكن. أنتن هنا سبايا، وستفعلن ما نطلبه منكنّ تمامًا. وإن حاولت إحداكن الصراخ مجدّدًا، كنّ على ثقة، ستسوء الأمور كثيرًا بالنسبة إليكن». ثم غادر نفّاع الباص، وأبو بطاط لا يزال يصوّب مسدّسه نحوي.

كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع بها تلك الكلمة العربيّة تطبّق عليّ. فعندما سيطرت داعش على سنجار وبدأوا باختطاف الأيزيديّات، أطلقوا على غنائمهم البشريّة من النساء لفظة سبايا، في إشارة إلى ما سيفعلونه بهنّ وتحويلهن إلى جَوارٍ. كان ذلك جزءًا من مخطّطهم لنا، مستندين إلى تفسير للقرآن الكريم كان قد حُرّم منذ زمن من قبل المسلمين في العالم، لكنّه كُتب في فتاوى تنظيم الدولة وكتيّباته وجعلوه رسميًا قبل أن يهاجموا سنجار. فالفتيات الأيزيديّات يعتبَرنَ كافرات، وبحسب تفسير المسلّحين للقرآن، لا يعتبر اغتصاب جارية خطيئة. سيكون عملنا اجتذاب المنضمّين الجدد لصفوف المسلّحين وسيتم تناقلنا كهدايا لمن يُظهر الوفاء ويفعل ما يُطلب منه. كان قَدَر كل واحدة في هذا الباص ذاك المصير نفسه. لم نعد بشرًا – لقد أصبحنا سبايا.

ترك أبو بطاط عنقي وأزاح مسدّسه، لكن منذ تلك اللحظة وحتّى وصولنا إلى الموصل بعد نحو الساعة، كنت قد تحوّلت إلى هدفه الأساسي. كان لا يزال يتحرّش بالفتيات الأخريات، لكنّه ركّز عليّ، يتوقّف عند مقعدي أكثر ويدفع بيده على نهدي بقوة أكبر حتى بتّ على يقين أنني لن أخرج من الباص إلّا مكدّمة. كان الجانب الأيسر من جسدي قد أصبح خَدِرًا، وعلى الرغم من بقائي هادئة، ومن ثقتي بأن أبو بطاط سيقتلني إن أفلتّ العنان لغضبي ثانية، إلا أنني لم أتوقّف عن الصراخ في قرارة نفسي.

كانت ليلة صافية، وكان بإمكاني أن أرى عبر الزجاج الأمامي السماء التي تتزاحم فيها النجوم. كانت السماء تذكّرني بقصّة حب عربيّة قديمة كانت أمّي تخبرنا إيّاها واسمها «مجنون ليلى». في تلك الرواية، يقع قيس في هيام فتاة اسمها ليلى ويعبّر أمام الملأ عما يشعر به، فيكتب القصيدة تلو الأخرى عن عشقه لليلى، إلى أن اعتبره الناس من حوله مجنونًا. وعندما يذهب قيس ليطلب يد ليلى للزواج، يرفضه أبوها، على اعتبار أنه ليس سويًا ولا يسعه أن يزوّج ابنته من مجنون.

هي رواية حزينة. إذ تجبَر ليلى على الزواج برجل آخر فتموت إثر ذلك بقلب مكسور. ويغادر مجنون ليلى القرية يهيم في الصحراء وحيدًا، يكلّم نفسه ويكتب الأشعار على الرمل، إلى أن يجد يومًا قبر ليلى. فيبقى إلى جانبها حتى يموت هو أيضًا. لقد كنت أحب أن تخبرني أمّي هذه الرواية، مع أنّها كانت تجعلني أبكي مصير هذين العاشقَيْن. وقد تحوّلت السماء المظلمة التي غالبًا ما كانت تخيفني إلى سماء عاطفيّة. فبما أن اسم ليلى يشير إلى الليل، كانت أمّي تنهي روايتها بالإشارة إلى نجمتَين في السماء. وتخبرني قائلة: «بما أنّهما لم يتمكّنا من أن يعيشا حياتهما معًا، صلّيا وطلبا أن يكونا معًا بعد مماتهما. وهكذا حولّهما الله إلى نَجمَيْن».

على متن ذلك الباص، رحت أدعو أيضًا. «أرجوك يا إلهي، حوّلني إلى نجمة حتّى أكون في علياء السماء فوق هذا الباص»، همست همسًا. «إن فعلتها مرة، فلا شك في أنّك تستطيع فعلها ثانية». لكنّنا واصلنا المسير نحو الموصل.

الفصل الرابع

لم يكفّ أبو بطاط عن التحرّش بنا حتّى وصلنا إلى الموصل. كانت الساعة فوق الزجاج الأمامي تشير إلى الثانية فجرًاعندما توقّفنا أمام مبنى ضخم، كان على ما أعتقد منزل عائلة فاحشة الثراء. دخلَت سيّارات الجيب إلى مرآب لها، وتوقّفت الباصات أمام المنزل، وفُتحت الأبواب لنا. «هيا، اخرجن!»، راح أبو بطاط يصرخ بنا، فبدأنا نحاول رفع أجسادنا المرهقة عن مقاعدنا. قلّة قليلة منا نامت على متن الباص، وكنا كلّنا نشعر بآلام متفرّقة نتيجة جلوسنا لفترة طويلة. أمّا أنا، فكان جسمي يؤلمني حيث لمسني أبو بطاط، لكنني كنت مخطئة باعتقادي أنه مع توقّف الباص، سيتركني وشأني. وقفنا بانتظار الخروج، نتشبّث بما أمكننا إحضاره معنا، بينما وقف هو ينتظر أمام الباب المفتوح، يمد يديه للتحرش بالفتيات وهنّ يخرجن من الباص. مرّر يديه على جسدي من رأسي وحتّى قدميّ.

دخلنا عبر المرآب. لم يسبق لي أن رأيت منزلًا على هذا القدر من الجمال. كان ضخمًا، يحتوي على غرف جلوس فسيحة وغرف نوم، وما يكفي من أثاث، بحسب ما رحت أفكّر، لإيواء ربّما ست عائلات. لم يكن أحد في كوجو، ولا حتّى أحمد جاسو يعيش في منزل على هذا

المستوى من الفخامة. كانت الغرف لا تزال مزدانة بالساعات والسجّاد الذي افترضتُ أنه يعود للعائلة التي كانت تعيش هنا، ولاحظت أن أحد المسلّحين كان يشرب بكوب وضعت عليه صورة عائلية. أخذت أتساءل عمّا جرى لها.

كان مسلّحو تنظيم الدولة الإسلاميّة في كل مكان، يرتدون بزّات موحّدة ويحملون أجهزة راديو تزعق باستمرار. أخذوا يراقبوننا بينما تم إدخالنا إلى ثلاث غرف، يتألّف كل منها من مساحة صغيرة. من بحيث جلست أنا وكاثرين مع بضع فتيات آخريات، كان بإمكاني أن أرى الغرفتين المتبقّيتين، حيث كانت النساء والفتيات يتنقّلن بذهول، بحثًا عن فتيات يعرفنهن لكنّهن تفرّقن عند الباصات. كانت الغرفة مزدحمة، فجلسنا على الأرض، نتكئ على بعضنا البعض. وكان من شبه المستحيل ألا نغفو.

كانت النافذتان الصغيرتان في الغرفة مغلقتين والستائر مسدلة، لكن لحسن الحظ كان أحدهم قد أدار آلة تبريد - من النوع البخس الذي يشبه المكيّف بمفعوله والذي كان قد بات شائعًا في العراق - لطّفت الهواء وجعلت التنفّس أكثر سهولة. كانت الغرفة خالية من أي أثاث باستثناء بضع فرش مكدّسة عند أحد الجدران. وكانت تنبعث من الحمّام الرئيسي رائحة مقيتة. همست إحداهن: «كان لدى إحدى الفتيات هاتفًا خلويًا وعندما جاءوا ليفتشوها حاولت أن تسقطه في الحمام. سمعتهم يتكلّمون عن الأمر عندما وصلنا». كان بوسعي أن أرى عند مدخل الحمّام كومة من الأوشحة مثل تلك التي تركناها في صولاغ، مرميّة على البلاط كما بتلات الزهور.

بعد أن امتلأت الغرف، أشار مسلّح إلى حيث أجلس، فقال: «أنتِ، تعالي معي»، ثم استدار وسار نحو الباب.

فأحاطتني كاثرين بذراعيها الصغيرتين قائلة: «لا تذهبي»، في محاولة منها لثنيي عن الوقوف.

لم أكن أعلم ما يريد، لكنّني لم أفكّر في أن أقول له لا. فأجبتها: «إن لم أفعل، سيجبرونني بكل بساطة على ذلك»، وتبعت العسكري.

قادني إلى المرآب في الطابق الأول، حيث كان أبو بطاط ونفّاع ينتظران مع مسلّح آخر. كان المسلح الثالث يتكلّم الكرديّة، وقد أصبت بصدمة عندما تعرّفت إليه؛ كان شعيب، الذي يمتلك متجرًا في مدينة سنجار. كان الأيزيديّون يزورونه دائمًا وأنا على يقين بأن عددًا كبيرًا منهم كانوا يخالونه صديقًا.

نظر الرجال الثلاثة إليّ بحنق. هم لا يزالون يريدون معاقبتي على انفعالي في الباص. «ما اسمك؟»، سألني نفّاع، وعندما حاولت أن أتراجع قليلًا، شدني من شعري ودفعني إلى الجدار.

أجبته «نادية».

«متى ولدتِ؟». سأل فأجبته: «ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين».

ثم سأل: «هل أنت هنا مع أي من أفراد عائلتك؟».

توقّفت قليلًا. لم أكن أعلم إن كانوا يريدون معاقبة كاثرين والأخريات لمجرد أنّهن من عائلتي، فكذبت. «أنا هنا مع الفتيات الأخريات. لا أعلم ماذا جرى لعائلتي».

«لماذا صرختِ؟». راح نفّاع يحكم وثاقه على شعري. كنت مرعوبة. شعرت وكأن جسدي، الذي لطالما بدا نحيلًا هشًا، يضمحل عمليًا بين يديه. قلت لنفسي، فلأقل ما عليّ لهم حتى يسمحوا لي بالعودة إلى كاثرين. فأخبرته بصدق: «كنت خائفة. هذا الرجل أمامك»، وأشرت

إلى أبو بطاط: «راح يتحرّش بي. كان يتحرّش بي طوال الرحلة من صولاغ».

«ولِمَ تعتقدين أنّك هنا؟». أعاد نفاع ما قاله في الباص: «أنت كافرة، أنت سبيّة، وتعود ملكيّتك الآن للدولة الإسلاميّة، فاعتادي الأمر». ثم بصق في وجهي.

تناول أبو بطاط سيجارة، فأشعلها قبل أن يعطيها لنفّاع. تفاجأت؛ إذ خلت التدخين غير شرعي بموجب قانون الدولة الإسلاميّة. لكنّهم لم يكونوا ينوون تدخين السيجارة. رجاء لا تضعها على وجهي، أخذت أفكّر وكنت في ذلك الحين لا أزال أهتم بجمالي. دفع نفّاع بالسيجارة إلى كتفي، ضاغطًا على نسيج الفساتين والقمصان التي وضعت بعضها فوق البعض هذا الصباح، إلى أن وصلت إلى بشرتي وانطفأت. كانت رائحة النسيج المحروق والبشرة مريعة، لكنني حاولت ألّا أصرخ من الوجع. فالصراخ لا يجلب لك إلا المزيد من المتاعب.

عندما أشعل سيجارة أخرى ووضعها على بطني، لم أستطع تحمّل الأمر؛ فصرخت.

«إنّها تصرخ الآن، فهل ستصرخ في الغد؟»، سأل أبو بطاط الآخرين. أرادهما أن يكونا أكثر عنفًا معي. «عليها أن تفهم من هي وما الغاية من وجودها هنا».

«دعوني وشأني، لن أفعل ذلك مجدّدًا»، رجوتهم قائلة.

صفعني نفّاع على وجهي بقوّة، ثم صفعني مرّة ثانية، وبعدها تركني قائلًا: «اذهبي إلى السبايا الأخريات. وإيّاك أن تُصدري أي صوت مجدّدًا».

عندما عدت إلى الأعلى، وجدت الغرفة مظلمة مكتظّة. سحبت شعري إلى كتفي ووضعت يدي على بطني كي أخفي الحروق عن بنات إخوتي، ثم وجدت كاثرين، تجلس بالقرب من امرأة بدت وكأنّها في آخر العشرينات أو بداية الثلاثينات من عمرها. لم تكن المرأة من كوجو؛ لا بد أنّها وصلت إلى المركز قبلنا. كان برفقتها طفلان صغيران، أحدهما رضيع، وكانت حاملًا. كانت تحمل الرضيع بين ذراعيها تهدهده قليلًا كي تبقيه هادئًا، فسألتني عمّا حدث في الأسفل. هززت برأسي ليس إلا.

ثم سألتني المرأة: «هل تتألّمين؟».

مع أنني لم أكن أعرفها، إلا أنني استندت إليها. كنتُ أشعر بضعف كبير. أومأت برأسي إيجابًا.

ثم أخبرتها كل التفاصيل، منذ رحيلي من كوجو وانفصالي عن أمي وأخواتي، إلى رؤيتي إخوتي يُساقون بعيدًا. أخبرتها عن الباص وأبو بطاط. وأضفت: «ضربوني»، ثم كشفت لها عن حروق السيجارة على كتفي وعلى بطني، وكانت لا تزال حيّة موجعة.

«إليك بهذا»، قالت لي بعد أن راحت تبحث في حقيبتها عن مرهم أعطتني إياه. «هذا مرهم للأطفال، لكنّه قد يساعد على مداواة الحروق».

شكرتها وأخذت الأنبوب إلى الحمام، حيث فركت بعضًا من المرهم على كتفي وبطني. فخفّف من ألم الحروق قليلًا. ثم فركت القليل منه على أجزاء جسدي التي لمسني فيها أبو بطاط. لاحظت أن الدورة الشهريّة قد بدأت فسألت مسلّحًا عن بعض الفوط الصحّية، التي ناولني إياها من دون أن ينظر إلي.

عندما عدت إلى الغرفة، سألت المرأة: «ما الذي يجري هنا؟ ماذا فعلوا بك؟».

سألتني: «هل تودّين حقًا أن تعرفي؟». فأومأت برأسي. بدأت تقص حكايتها قائلة: «في اليوم الأول، في الثالث من أغسطس، أحضر نحو أربعمائة امرأة وطفل أيزيدي إلى هنا. إنه مركز تابع لتنظيم الدولة الإسلاميّة، حيث يعيش المسلّحون ويعملون. لهذا يكثرون هنا». توقّفت قليلًا وراحت تنظر إلي: «لكنه المكان الذي يتم فيه بيعنا أو تقديمنا هدايا».

سألتها: «ولماذا لم يتم بيعك؟».

«لأنّني متزوجة، سينتظرون أربعين يومًا قبل أن يعطوني لمسلّح كي أكون سبيّته. تلك إحدى قواعدهم. لا أعلم متى سيأتون إليك. إن لم يختاروك اليوم، فسيفعلون حتمًا في الغد. في كل مرّة يحضرون، يأخذون بعض النسوة. يغتصبونهن ثم يعيدونهن، أو أحيانًا يحتفظون بهن كما أعتقد. وأحيانًا يغتصبونهن هنا، في غرفة في المنزل، ويعيدونهن عندما ينتهون».

جلست بصمت. كان ألم الحروق يتزايد شيئًا فشيئًا، كما قِدر ماء وصل حد الغليان، فجفلت. «هل تريدين أن تأخذي مسكّنًا للألم؟»، سألتني، لكنّني رفضت وأجبتها: «أنا لا أحب أن آخذ المسكّنات».

ردت عليّ: «اشربي القليل إذًا»، وأخذت منها ممتنّة، الزجاجة؛ فشربت جرعات قليلة من المياه الدافئة. كان ابنها قد هدأ وأوشك على النوم.

وأكملت بصوت رقيق: «لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. سيأتون وسيأخذونك وسيغتصبونك. بعض الفتيات يعمدن إلى فرك وجوههن

بالرماد أو حتّى الوحل، أو ينفشن شعورهن، لكن الأمر لا يهم لأنهم يجبرونهن على الاستحمام والتبرّج لهم. وقد انتحرت فتيات أو حاولن ذلك، بقطع الوريد في معصمهن هناك»، وأشارت إلى الحمام. «يمكنك أن ترَي آثار الدماء على الجدران حيث لم يتنبّه إليها من تولّى عمليّة التنظيف». لم تطلب مني ألّا أخاف ولا قالت لي إن الأمور ستكون على خير ما يرام. وعندما توقّفت عن الكلام، ملت برأسي على كتفها، حيث كان طفلها قد غفا للتو.

في تلك الليلة، عندما أغمضت عينيَّ، لم يدم الأمر إلّا برهة من الزمن. كنت مرهقة وفي الوقت عينه مذعورة لا أجرؤ على النوم. كنّا في فصل الصيف، فانبلج الفجر باكرًا، وعندما طلعت الشمس - خجولة خافتة عبر الستائر الثقيلة - رأيت أن معظم الفتيات قد قضين ليلتهن يقظات مثلي. كنّ مترنّحات يفركن عيونهن ويتثاءبن في أكمام فساتينهن. جاء المسلّحون حاملين بعض الأرز وشوربة البندورة للفطور، في أكياس بلاستيكية يرمونها لاحقًا، وكنت أتضوّر جوعًا، فأكلت بعضًا منها ما إن وضعوها أمامي.

فتيات كثيرات قضين الليل يبكين، وازداد عددهن في الصباح. جلست بالقرب منّي فتاة من كوجو كانت بعمر ديمال تقريبًا، لكنها لم تنجح مثلها في إقناع المسلّحين أنها امرأة متزوّجة. وسألتني: «أين نحن؟». لم تستطع أن تتعرّف إلى أي من المباني أو الطرقات التي سرنا فيها.

فأجبتها: «لا أعلم على وجه التحديد. في مكان ما في الموصل». فهمست: «الموصل». لقد كبرنا كلّنا على تماس مع المدينة، لكن قلّة قليلة منا قد زارتها يومًا.

دخل شيخ الغرفة فتوقّفنا عن الكلام. كان طاعنًا في السن شعره

أبيض، يرتدي سروالًا أسود فضفاضًا وصندلًا يتنعله غالبيّة المسلّحين في داعش، وعلى الرغم من أن سرواله كان أقصر من المعتاد لا يناسبه، إلا أنّه كان يدور في أرجاء الغرفة يحدّق بنا بغطرسة حملتني على التفكير أنه لا بد من شخصيّة رفيعة المقام. «كم عمرها؟». أشار إلى فتاة صغيرة من كوجو، كانت تتكوّر على نفسها مذعورة في إحدى الزوايا. كانت تبلغ حوالى الثالثة عشرة من عمرها. «صغيرة جدًا»، رد عليه المسلّح بفخر.

أمكنني التحديد من لهجة الشيخ أنه من الموصل.لا بد من أنّه ساعد الإرهابيّين في السيطرة على المدينة. لربّما كان رجل أعمال ثريًّا يستطيع أن يساعد داعش على النمو، أو لربّما كان شخصيّة دينيّة، أو كان مهمًّا في زمن صدّام وجلس يتحيّن الفرصة التي يستعيد فيها السلطة التي انتزعها منه الأميركيّون والشيعة. ولربما أيضًا، هو يؤمن فعلًا بتلك البروباغندا الدينية؛ فهذا ما قالوه كلّهم لنا، عندما سألناهم لماذا هم أعضاء في التنظيم، حتّى أولئك الذين لا يتكلّمون العربية ولا يعرفون كيف يصلّون. فأخبرونا أن الدواعش على حق وأن الله معهم.

كان الشيخ يشير إلينا، كما لو أنّه يملك كل فتاة في الغرفة، وبعد دقائق معدودة، كان قد اختار ثلاث فتيات، كلّهن من كوجو. بعد إعطاء المسلّح حفنة من الدولارات الأميركيّة، غادر الغرفة وتم سحب الفتيات الثلاث وراءه إلى الأسفل، إلى حيث يتم تسجيل مشترياته وتخليص المعاملات.

تبدّل الجو في الغرفة إلى ذعر مطلق. لقد أدركنا الآن ما تخطّطه لنا داعش، لكنّنا لم يكن لدينا أدنى فكرة متى يصل المزيد من المشترين وكيف سيعاملوننا. كان الانتظار عذابًا بحد ذاته. بعض الفتيات رحن

يهمسنَ حول محاولة الهرب، لكن ذلك بدا مستحيلًا. فحتّى لو نجحنا في الخروج من النافذة، إلّا أن المنزل، الذي بدا واضحًا أنه مركز لتنظيم الدولة الإسلاميّة، كان يعجّ بالمسلّحين. فلا مجال لتتسلّل إحداهن خارجًا من دون أن يلاحظها أحد. فضلًا عن ذلك، فالموصل مدينة مترامية الأطراف غير مألوفة بالنسبة إلينا. ولو تمكّنا من اجتياز حشود المسلّحين في الأسفل، لا مجال لأن نفقه أي اتجاه نسلك لنهرب. لقد قادونا إلى هنا في الليل، والنوافذ مغلقة. وسيفعلون ما بوسعهم ليضمنوا عدم خروجنا من هنا أحياء.

وسرعان ما انتقل الحديث إلى الانتحار. عليّ أن أقر، أن الفكرة خطرت على بالي في البداية. فأي شيء قد يكون أفضل ممّا وصفته لي المرأة الليلة الماضية. أجرينا أنا وكاثرين اتّفاقًا مع أخريات. فقرّرنا، «نفضّل أن نموت على أن يتم شراؤنا واستخدامنا من داعش». فقتل أنفسنا هو أشرف من الخضوع للمسلّحين، وقد يكون أسلوبنا لمحاربتهم. ومع ذلك، بدا من المستحيل أن نقف نتفرّج بينما تقوم إحدانا بقتل نفسها. فقد قامت إحدى الفتيات بوضع وشاح حول عنقها قائلة إنها ستخنق نفسها، لكن الأخريات سحبنه منها عنوة. وقالت واحدة: «لا يمكننا الهرب، لكن إن نجحنا في الوصول إلى السطح، فيمكننا أن نقفز». كنت أفكّر بأمي. بالنسبة إليها، ما من أمر مشين في الحياة يبرّر الانتحار. فكانت تقول لي كلّما وقع سوء، «عليك أن تؤمني بأن الله سيكون معك». بعد حادثتي في المزرعة، جلست بقربي في المستشفى تصلّي أن أبقى على قيد الحياة، وقد أنفقت الكثير من المال على الحلى التي قدّمتها لي عندما استفقت من غيبوبتي. كانت تريدني أن أعود إلى الحياة. لا أستطيع أن أنهي حياتي الآن.

عمدنا سريعًا إلى تعديل معاهدتنا. لن نقتل أنفسنا؛ بل سنساعد بعضنا البعض بقدر ما يمكننا ونهرب عندما تسنح أول فرصة للهرب. وبينما كنّا ننتظر في ذاك المنزل، بدا جليًّا لنا مدى اتّساع رقعة تجارة العبيد في الموصل الرازحة تحت سيطرة داعش. فقد انتُزعت آلاف الفتيات الأيزيديّات من منازلهن وتم شراؤهن والمتاجرة بهن أو تقديمهن كهدايا لمسلّحين رفيعي الشأن أو لشيوخ، كما تم نقلهن إلى مدن مختلفة في العراق وسوريا. ولن يُحدِث إقدام فتاة واحدة، أو حتّى مئة فتاة، على قتل نفسها أي فرق. فداعش لن تشعر بأي انزعاج جرّاء مقتلنا، ولا ستعمد إلى تغيير ما تقوم به. إلى ذلك، وبعد أن خسروا عددًا من جواريهم، بات المسلّحون يحرسوننا بعين يقظة ليتأكّدوا أننا حتّى لو قطعنا أوردتنا أو خنقنا أنفسنا بأوشحتنا، فلن نموت من جراحنا.

جاء مسلّح إلى الغرفة يطالبنا بتسليمه ما نملك من وثائق. «أي أوراق تشير إلى أنكن أيزيديات، سلّمننا إيّاها»، قال وهو يرميها في كيس. في الأسفل، قاموا بجمع الوثائق - من بطاقات هويّة، وبطاقات تموينيّة وشهادات ميلاد - وأحرقوها، تاركين الرماد يتكوّم مكانها. وكأنّهم بإتلاف وثائقنا، يستطيعون أن يمحوا وجود الأيزيديّين من العراق. سلّمتهم كل ما أملك، باستثناء بطاقة أمي التموينيّة، التي أبقيت عليها مخبّأة في حمّالة صدري. كانت البطاقة كل ما بقي لي منها.

داخل الحمام، غسلت وجهي وذراعيَّ بالماء. كان ثمّة مرآة معلّقة فوق المغسلة، لكنّني أبقيت ناظريَّ موجّهين نحو الأسفل. لم يكن باستطاعتي أن أنظر إلى نفسي. كنت أشك في احتمال ألّا أتعرّف على الفتاة التي تحدّق بي. على الجدار فوق حوض الاستحمام، رأيت بقع الدماء التي أخبرتني عنها المرأة الليلة الماضية. تلك البقع الحمر البنية

أعلى البلاط هي كل ما تبقّى من بعض الفتيات الأيزيديات اللواتي سبقنني إلى هنا.

بعد ذلك، تم تفريقنا مجدّدًا، وهذه المرّة في مجموعتين. تمكّنت من البقاء مع كاثرين، وقد تم إيقافنا في صف وتحميلنا مرة أخرى في الباصّات. بعض الفتيات الأخريات - كل اللواتي أعرفهن من كوجو - بقين في المركز. لم نتمكّن من توديعهن، وقد علمنا لاحقًا أن مجموعتهن قد أُخذت إلى الحدود مع الرقة، عاصمة الدولة الإسلاميّة في سوريا. أمّا أنا، فقد شعرت بارتياح كبير آنني بقيت في العراق. فمهما حدث، كنت أتصوَّر أنني أستطيع الصمود طالما آنني في بلادي.

انتقلت سريعًا إلى آخر الباص لأضمن جلوسي بالقرب من النافذة، حيث اعتقدت أنه من الصعب على أبو بطاط أو أيّ مسلّح آخر أن يصل إليّ. كان شعورًا غريبًا أن أخرج إلى الضوء تحت شمس الصيف الساطعة بعد أن قضيت الأيام القليلة الماضية في الداخل وراء الستائر المُسدلة، أو بعد أن انتقلت من مدينة إلى أخرى تحت جنح الظلام. أخذت أسترق النظر عبر الستائر بينما يتحرك الباص، أتفرّج على شوارع الموصل. في البداية، بدت طبيعيّة، تمامًا كما بدت مدينة سنجار، مع أناس يتسوّقون ويرافقون أولادهم إلى المدرسة. لكن على عكس سنجار، كانت الموصل تعج بمسلّحي تنظيم الدولة الإسلاميّة. فكان الرجال يتمركزون في حواجزهم، أو يجولون في الشوارع، أو يتجمّعون على ظهر الشاحنات، أو يعيشون حياتهم ليس إلّا في مدينة قد تغيّرت، فيشترون الخضار ويُجرون الحوارات مع جيرانهم. كانت النسوة كلّهن يرتدين العباءات السود والنقاب؛ فقد حرّمت داعش على المرأة مغادرة منزلها من دون حجاب أو بمفردها، فرحن يطفن الشوارع وكأنّهن كائنات خفيّة.

جلسنا صامتات، مذهولات، مرعوبات. شكرت ربي أنني كنت مع كاثرين ونسرين وجيلان وروجيان. فوجودهنّ قد منحني ذلك القدر القليل جدًا من الطاقة التي كانت تلزمني كي لا أفقد عقلي كليًا. ولم يكن الجميع محظوظًا مثلي. فقد تم تفريق إحداهن عن جميع من تعرف في كوجو، فبدأت تنتحب من غير أن تقوى على وقف دموعها. «كل واحدة منكن لديها قريبة أو صديقة، إلّا أنا»، راحت تقول وهي تضرب يديها الواحدة بالأخرى. أردنا أن نخفّف عنها، لكن لم تملك أي منا الجرأة لتحاول ذلك.

قرابة العاشرة صباحًا، توقّفنا أمام منزل أخضر يتألّف من طابقين، وأصغر بقليل من المنزل السابق. تم دفعنا إلى داخله. في الطابق الثاني، كان قد تم تفريغ إحدى الغرف من ممتلكات العائلة التي عاشت يومًا ما هنا، مع أن إنجيلًا على أحد الرفوف وصليبًا صغيرًا معلّقًا على الجدار شكّلا دليلًا قاطعًا على أن العائلة كانت مسيحيّة. كانت قد سبقتنا فتيات قليلات إلى المكان. وكنّ من تل عزير فجلسن بالقرب من بعضهن. إلى الجدار تكدّس عدد من الفرش الرقيقة بينما اتّشحت النوافذ بالسواد أو تمّت تغطيتها بأقمشة سميكة بالكاد تتسلّل منها أشعّة منتصف النهار فتتحوّل نورًا قاتمًا موحشًا. كانت المساحة كلّها تعبق برائحة أدوات التنظيف، تلك المادة الزرقاء المشعّة نفسها التي تستخدمها النسوة في كوجو لتعقيم المطابخ والحمّامات.

وبينما جلسنا ننتظر، جاء مسلّح إلى الغرفة للتأكّد من أن النوافذ مغطّاة بالكامل ولا يمكن لأحد أن يرى منها من الجهتين. وعندما لاحظ الإنجيل والصليب، راح يهمهم بصوت منخفض، ثم تناول صندوقًا بلاستيكيًا ورماهما فيه وأخذه خارج الغرفة.

لكنّه صرخ بنا وهو يهم خارجًا أن نذهب ونستحم. «أنتن أيّتها الأيزيديّات، هل أنتن نتنات طوال الوقت؟». راح يقول ونظرة الازدراء لا تفارق محيّاه. تذكّرت سعود، الذي كان عائدًا من كردستان فراح يخبرنا كيف أن الناس هناك يسخرون من الأيزيديّين مدّعين أن رائحتنا نتنة، وكم كان الأمر يغضبني. لكن مع داعش، كنت آمل أن تكون رائحتي نتنة. فالوسخ سلاحي الذي يحميني من أيدي الرجال من أمثال أبو بطاط. أردت أن يشعر المسلحون بالقرف منّا - بعد الجلوس لساعات في باصّات في درجة حرارة مرتفعة، وبعضنا قد تقيأ من الخوف - ما يحول دون لمسنا أو التحرّش بنا. عوضًا عن ذلك، ساقونا إلى الحمّام في مجموعات. وأمرونا قائلين: «انزعن هذه الأوساخ عنكن! لا نريد أن نشمَّ رائحة نتنة بعد الآن». فعلنا كما طُلب منّا، فرحنا نغسل ذراعينا ووجوهنا بالمياه من المغسلة من غير أن نخلع ملابسنا ونتعرّى ونحن على مقربة من الرجال.

بعد أن غادر المسلّح، همست بعض الفتيات لبعضهن البعض وأشرن إلى مكتب. هناك، رأيت حاسوبًا أسود مغلقًا. قالت إحداهن: «أتساءل إن كان صالحًا للاستخدام. لربّما كان موصولًا بشبكة الانترنت! يمكننا عندئذ التواصل عبر موقع الفايسبوك وإرسال رسائل إلى البعض لإخبارهم أنّنا في الموصل».

لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفيّة عمل ذاك الحاسوب المحمول أو أي حاسوب آخر - فتلك كانت المرة الأولى التي أرى فيها حاسوبًا - لذا رحت أراقب بينما اقتربت واحدة من الطاولة ببطء. كانت فكرة التواصل عبر الفايسبوك قد أعطت بعضنا شيئًا من الأمل، سرعان ما انتشر في أرجاء الغرفة. فتوقّفت بعض الفتيات عن البكاء. بينما وقفت

أخريات على أقدامهن للمرّة الأولى مذ غادرنا صولاغ. أمّا أنا، فقد تسارعت دقّات قلبي. لكم أردت أن تعمل هذه الآلة.

فتحت إحدى الفتيات الحاسوب فأضيئت الشاشة. شهقنا كلّنا وقد غلبتنا الحماسة، ورحنا نراقب الباب تحسّبًا لدخول المسلّحين. بدأت تنقر بعض المفاتيح ثم راحت تزيد من نقرها بحنق. وسرعان ما أغلقته واستدارت نحونا مطأطئة رأسها. «لا يعمل»، قالت وقد أوشكت على البكاء: «أنا آسفة».

أحاطت بها صديقاتها في محاولة للتخفيف عنها. كنا نشعر بخيبة أمل كبيرة. «لا بأس لقد بذلتِ ما في وسعك»، رحن يهمسن لها. «على كل، لو كان صالحًا، لما تركه الدواعش هنا».

نظرتُ إلى الجدار حيث جلست الفتيات من تل عزير. لم يحرّكن ساكنًا أو ينبسن بكلمة منذ وصلنا. بل كن يمسكن ببعضهن البعض، حتى ليصعب تحديد أين تبدأ الواحدة منهن وأين تنتهي. أما وجوههن عندما بادلنني النظرات، فكانت جامدة كما الحجر، مصنوعة من البؤس الخالص، فأدركت أنه لا بد أن مظهري مشابه.

الفصل الخامس

افتتح سوق النخاسة في الليل. كان بإمكاننا سماع الجلبة في الأسفل حيث كان المسلّحون يسجّلون الأسماء وينظّمون سير عمليّة البيع، وعندما دخل أوّل رجل الغرفة، بدأت الفتيات كلّهن بالصراخ. كان المكان أشبه بمسرح انفجار. بدأنا نئن كما لو أنّنا مصابات، ونتلوّى ونتقيّأ على الأرض، لكن أيًّا من ذلك لم يوقف المسلّحين. بل راحوا يذرعون الغرفة بخطواتهم، يحدّقون بنا، بينما نصرخ ونرجو. أولئك اللواتي كن يتقنّ العربيّة، بدأن بالرجاء بالعربيّة، والفتيات اللواتي لا يعرفن إلّا الكرديّة رحن يصرخن بملء جوارحهن، لكن الرجال ردّوا على ذعرنا كما لو كنا أطفالًا صغارًا، مزعجين إنما لا داعي للاكتراث لنحيبنا.

توجّهوا أولًا نحو الفتيات الأجمل، سائلين: «كم عمرك؟»، ومتفحّصين الشعر والفم. ثم أخذوا يسألون حارسًا: «هل هن عذارى؟». فأومأ برأسه إيجابًا، قائلًا: «بالطبع!»، كما لو أنه صاحب محل يفاخر ببضاعته. لقد أخبرتني فتيات أن طبيبًا قد فحصهن للتأكد من أنهن لا يكذبن حول عذريّتهن، بينما أخريات، مثلي، سُئلن وحسب. وقد أصر البعض منهن على أنهن لسن عذارى، وأنّهن مدنّسات، اعتقادًا

منهن بأن ذلك سيجعلهن أقل إثارة وغير مرغوبات، لكن المسلّحين استطاعوا الانتباه إلى أنهن يكذبن. فقالوا: «إنّهن صغيرات في السن، وهن أيزيديّات. ما من فتاة أيزيديّة تمارس الجنس قبل الزواج». الآن، بدأ المسلحون يلمسوننا أينما أرادوا، فيمرّرون أيديهم على نهدينا وساقينا، كما لو كنّا مجرّد حيوانات.

عمّت فوضى عارمة عندما دخل المسلّحون الغرفة، يمسحون بنظراتهم الفتيات ويطرحون الأسئلة بالعربيّة أو بالتركمانيّة. نفّاع، الذي وصل عندما افتُتح السوق، اختار فتاة صغيرة جدًّا، الأمر الذي أثار الضحك لدى المسلّحين الآخرين. فراحوا يسخرون منه قائلين: «كنّا نعلم أنه سيختارها. أعلمني عندما تنتهي منها، أعطها لي».

وواصل المسلّحون صراخهم بنا: «اصمتن! التزمن الهدوء!». لكن أوامرهم ما كانت إلّا لتزيدنا صراخًا. إلى أن ظهر عند الباب مسلّح طاعن في السن، رجل سمين ببطن منتفخ اسمه الحاج شاكر، تبيّن أنه أحد القادة في الموصل. كان برفقته فتاة ترتدي النقاب والعباءة التي ترتديها النساء في مدن الدولة الإسلاميّة. فقال وهو يدفع بها إلى داخل الغرفة، «هذه سبيّتي. ستخبركنّ كم هي سعيدة الآن وقد أصبحت مسلمة».

رفعت الفتاة نقابها. ومع أنّها كانت هزيلة هشّة، إلا أنها كانت على قدر لافت من الجمال، وبشرتها داكنة، ناعمة. وعندما فتحت فمها، لمع في الضوء سن ذهبيّ صغير. باعتقادي لم تكن تتخطّى السادسة عشرة من عمرها. أضاف الحاج شاكر: «هي سبيّتي منذ الثالث من أغسطس، عندما حرّرنا حردان من الكفّار. أخبريهن عن السلام الذي تشعرين به، أن تكوني معي ولا تعودي كافرة بعد اليوم»، وراح ينظر إلى الفتاة التي بقيت ساكنة: «أخبريهنّ!».

نظرَت إلى السجاد على الأرض لكنّها لم تنبس ببنت شفة. بدا وكأنّها لا تقوى جسديًّا على الكلام. وسرعان ما حلّت فوضى السوق مجدّدًا، وعندما نظرت إلى الباب بعد لحظة، كانت الفتاة قد اختفت. في غضون ذلك، اقترب الحاج شاكر من سبيّة أخرى، فتاة صغيرة كنت أعرفها من كوجو.

فقدتُ السيطرة. إن كان من المحتّم أن يأخذني عسكري، فلن أسهّل عليه الأمر. رحت أولول وأصرخ، فأضرب بيدي كل يد تقترب منّي لتتحرّش بي. وكانت فتيات أخريات يقمن بالأمر نفسه، فيكوّرن أجسادهن ككريات على الأرض، أو يرمين بأنفسهن على شقيقاتهن وأصدقائهن في محاولة لحمايتهن. لم نعد خائفات من تعرّضنا للضرب، وقد تساءل عدد منّا، بمن فيهنَّ أنا، إن كان بإمكاننا أن ندفعهم إلى قتلنا. وعندما صفعني مسلّح على وجهي وقال: «هذه هي التي تسبّبت بالمتاعب البارحة»، تفاجأت لقلّة تأثّري باليد التي صفعتني. لا بل كان الأمر أكثر إيلامًا عندما لمس نهدي لاحقًا. وبعد أن غادر، سقطت أرضًا، فحاولت كل من نسرين وكاثرين التخفيف عني.

بينما كنت مستلقية، توقّف أمامنا مسلّح آخر. كنت أحضن ركبتيَّ وأضع جبيني عليهما، وجل ما استطعت رؤيته بطّتي ساقيه، المنتفختين انتفاخ جذع شجرة، تكادان تقفزان قفزًا من حذائه. كان مسؤولًا رفيع المستوى اسمه سلوان وقد جاء مع فتاة أخرى، أيزيديّة شابّة من حردان، وكان يخطّط للتنازل عنها في المنزل بينما يتسوّق أخرى بديلة عنها. استرقت النظر إليه. كان أضخم رجل أراه في حياتي، كعملاق متدثّر في دشداشة بيضاء كبيرة كبر خيمة، متجهّم الوجه خلف لحية حمراء. حاولت نسرين وروجيان وكاثرين أن يخبّئنني بأجسادهن، لكنّه لم يحرّك ساكنًا».

بل قال،: «قفي». وعندما لم أفعل، ركلني: «أنت! الفتاة بالسترة الزهريّة! قلت قفي!».

رحنا نصرخ ونضم بعضنا البعض بقوّة أكبر، لكن ذلك أثار حفيظة سلوان أكثر فأكثر. فمال إلينا وحاول أن يفرّقنا، يشدّنا من أكتافنا وأذرعنا. ومع ذلك، كنّا نمسك ببعضنا البعض كما لو كنا شخصًا واحدًا. في النهاية، لفت الصراع نظر حارس جاء لمد يد العون، فراح يضرب أيدينا بعصا حتى تفوّق الوجع على طاقتنا وأجبرنا أن ننفصل الواحدة عن الأخرى. وبعد أن انفصلنا، استدار سلوان إليّ بوجهه الساخر، فرأيت وجهه بوضوح للمرة الأولى. كانت عيناه تغرقان في وجهه العريض، الذي بدا وكأن طبقة من الشعر تغطّيه بالكامل.

لم يكن يبدو آدميًا، بل كان وحشًا.

لم نستطع أن نقاوم أكثر. فقلت: «سأذهب معك. لكن عليك أن تأخذ أيضًا كاثرين وروجيان ونسرين».

جاء نفّاع ليرى ماذا يحدث. وعندما رآنا، استشاط وجهه غيظًا، فصرخ: «أنت مجدّدًا؟». ثم صفع كلًّا منا على وجوهنا. «لن أذهب من دونهن!»، صرخت مجدّدًا، فبدأ نفّاع يضربنا بسرعة وقوة أكبر حتى تحوّلت وجوهنا خدرة وبدأت روجيان تنزف من فمها.

ثم أمسكاني أنا وروجيان هو وسلوان وفصلانا عن كاثرين ونسرين وسحبانا إلى الأسفل. بدت خطوات سلوان ثقيلة على الدرج. لم أستطع أن أودّع كاثرين أو نسرين أو حتّى أنظر ورائي بينما يسحبانني.

لم يكن قرار الهجوم على سنجار وأخذ الفتيات سبايا قرارًا عفويًّا اتُّخذ في ساحة المعركة من قبل جندي جشع. بل قد خطّطت له داعش

جيّدًا: كيف يدخلون منازلنا، وما يجعل الفتاة أكثر أو أقل قيمة، وأي مسلّحين يستحقون سبيّة هديّة لهم ومن يتعيّن عليه أن يدفع المال. حتى إنّهم ناقشوا «السبيّة» في مجلّتهم الالكترونية دابق، في محاولة لجذب المزيد من المجنّدين. ومن مراكزهم في سوريا والخلايا النائمة في العراق، راحوا يعدّون خارطة تجارة الجواري لأشهر، محدّدين ما يرونه شرعيًّا وغير شرعي بموجب القانون الإسلامي، فدوّنوه حتى يتّبع كافّة أعضاء تنظيم الدولة الإسلاميّة القواعد العنيفة نفسها. ويستطيع أي كان قراءتها - إذ تم جمع تفاصيل خطة السبايا في كتيّب أصدرته هيئة الإفتاء والقضاء في داعش - . وهو أمر مقيت حقًا. هو مقيتٌ وبشعٌ بسبب ما يأتي على ذكره، وبسبب الطريقة التي تعتمدها داعش وتقدّمه كما لو أنّه أمر واقع، كقانون أي دولة، وكما لو أنهم على ثقة بأن ما يقومون به يجيزه القرآن.

وهكذا، يمكن تقديم السبايا هدايا أو بيعهن بحسب نزوة مَن يملكهن، «إذ السبية ما هي إلا ملكيّة»، بحسب ما يشير كتيّب تنظيم الدولة. ولا يجوز فصل النساء عن أطفالهن الصغار - لهذا السبب بقيت ديمال وأدكي في صولاغ - لكن الأطفال الكبار، مثل مالك، يمكن أخذهم من أمّهاتهم. وثمّة حكم في ما يجب فعله إن حملت إحدى السبايا (إذ لا يجوز بيعها) أو إن مات مالكها (يتم توزيعها «كجزء من ممتلكاته»). وبحسب الكتيّب، يجوز للمالك وطء الأمة التي لم تبلغ الحلم إن كانت صالحة للوطء، «أمّا إذا كانت غير صالحة للوطء، فيُكتفى بالاستمتاع بها دون الوطء».

ويدعمون معظم أقوالهم بآيات من القرآن والشريعة الإسلاميّة يختارونها انتقائيًّا ويتوقّعون من أتباعهم أن ينفّذوها بحرفيّتها. ولا شك

في أنّ هذا الكتيّب وثيقة رهيبة مذهلة. لكن تنظيم الدولة الإسلاميّة ليس على ذاك القدر من الابتكار الذي يخاله أعضاؤه. فلطالما استُخدم الاغتصاب سلاحاً في الحرب على مر التاريخ. ولم يخطر في بالي يومًا أن يكون ثمّة ما هو مشترك بيني وبين نساء رواندا - فقبل هذا كلّه، لم أكن حتّى أعلم بوجود دولة اسمها رواندا - والآن، بت أرتبط بهن بأسوأ طريقة ممكنة، كضحيّة جريمة حرب بلغت صعوبة التكلّم عنها حد عدم ملاحقة أي فرد منها دوليًا لارتكابه تلك الجريمة قبل ستة عشر عامًا من قدوم داعش إلى سنجار.

في الطابق الأرضي، كان مسلّح يسجل المعاملات في كتاب، فيدوّن أسماءنا وأسماء المسلّحين الذين يأخذوننا. وكان هذا الطابق هادئًا منتظمًا مقارنة بالطابق الأعلى. جلست على أريكة بالقرب من عدد من الفتيات الأخريات، لكنّنا كنّا أنا وروجيان خائفتين لا نقوى على التكلّم معهن. رحت أفكّر في سلوان الذي سيأخذني وبمدى قوّته وسهولة سحقي بيديه. فأيًا يكن ما سيفعله، وأيًا تكن مقاومتي، لن أتمكّن من مقارعته. كانت رائحته مزيجًا من البيض المعفّن والعطر.

كنت أنظر إلى الأرض، إلى أقدام المسلّحين والفتيات الذين يعبرون من أمامي. وفي خضم الحشد، رأيت صندلًا، وكاحلَين بدوَا نحيلَين شبه أنثويّين، وقبل أن أفكّر في ما أفعله، وجدتني أندفع نحو هذين القدمين. بدأت أرجوه قائلة: «أرجوك خذني معك. إفعل ما تريد، لكن لا يسعني أن أذهب مع هذا العملاق». ما زلت أذهل بالقرارات التي نتّخذها جميعًا، اعتقادًا منّا أن خيارًا قد يقودنا إلى العذاب، بينما يؤدّي آخر إلى إنقاذنا، غير مدركين أنّنا بتنا الآن في عالم تقود فيه الدروب كلّها إلى ذاك المكان الرهيب نفسه.

لا أدري لمَ وافق الرجل النحيل، لكنّه رماني بنظرة واحدة، ثم استدار إلى سلوان وقال: «إنّها لي». ولم يجادل سلوان. كان الرجل النحيل قاضيًا من الموصل، وليس ثمّة من يخالفه. رفعت رأسي ووجدتني على وشك أن أبتسم لسلوان، اعتقادًا منّي أنني ربحت، لكنّني شعرت به يلتقط شعري ويشد برأسي بعنف. قال لي سلوان: «يستطيع أن يحصل عليك الآن. لكن بعد أيام، ستكونين معي». ثم دفع رأسي إلى الأمام.

تبعت الرجل النحيل إلى المكتب. سألني: «ما اسمك؟». كان يتكلّم بهدوء إنّما بلا أي نبرة لطيفة. أجبته: «نادية»، فاستدار نحو مسؤول التسجيل. بدا الرجل وكأنّه تعرّف إلى المسلّح على الفور فبدأ يدوّن المعلومات. وقال أسماءنا بينما راح يدوّنها – «نادية، الحاج سلمان» – وعندما ذكر اسم آسري، خلتني أشعر بصوته يرتعش قليلًا، كما لو أنّه كان خائفًا، فتساءلت إن كنت قد ارتكبت خطأ جسيمًا.

الفصل السادس

أخذ سلوان روجيان التي كانت صغيرة يانعة بريئة كل البراءة. وبعد مرور سنوات عدّة، لا أزال أفكّر فيه بكثير من الغضب والحنق. وأحلم باليوم الذي أسوق فيه المسلّحين كلّهم أمام العدالة، وليس القادة وحسب أمثال أبو بكر البغدادي، بل جميع الحرّاس ومالكي الجواري، وكل رجل أطلق رصاصة ودفع بأجساد إخوتي إلى مقابرهم الجماعيّة، وكل مقاتل حاول أن يغسل عقول الصبية الصغار فيدفعهم إلى كره أمّهاتهم لأنهن أنجبنهم أيزيديّين، وكل عراقي رحّب بالإرهابيّين في مدينته وساعدهم، قائلًا بينه وبين نفسه، أخيرًا بات يمكننا التخلّص من هؤلاء غير المؤمنين. لا بد من سوقهم جميعًا إلى قوس المحكمة أمام عيون العالم أجمعين، مثل القادة النازيّين بعد الحرب العالميّة الثانية، من غير أن يمنحهم أحد أي فرصة للاختباء. في أحلامي، كان سلوان أوّل شخص يخضع للمحاكمة، بينما تقف الفتيات كلّهن في المنزل الثاني في الموصل في قاعة المحكمة، يدلين بشهاداتهن ضدّه. وأقول، مشيرة إلى الوحش: «هذا هو. هذا العملاق الضخم الذي أرعب كل واحدة منّا. كان يتفرّج عليّ وأنا أتعرّض للضرب». ثم تستطيع روجيان، لو أرادت ذلك، أن تخبر المحكمة ما فعله بها. ولو تملّكها الذعر أو

حالت صدمتها دون أن تنطق بكلمة، فأستطيع أنا أن أتكلّم عنها. فأقرّ أمام المحكمة: «لم يقم سلوان بشرائها وحسب، بل استغلّها مرارًا وتكرارًا، وكان يضربها كلّما عنّ له ذلك. حتى في الليلة الأولى، عندما كانت روجيان على درجة من الخوف والتعب حالت دون تفكيرها حتّى بالمقاومة والدفاع عن نفسها، أخذ سلوان يضربها عندما اكتشف أنها ترتدي طبقات من الملابس، ثم ضربها ولامها على هروبي منه. وعندما نجحت روجيان في الهرب، اشترى أمّها واستعبدها انتقامًا من ابنتها. وكانت أمّها تحمل على ذراعيها رضيعًا يبلغ من العمر ستة عشر يومًا، فأخذه سلوان منها، مع أن قوانينكم أنتم تقول إنّه لا يجوز لكم أن تفصلوا أمًّا عن أطفالها. وأخبرها أنها لن ترى ابنها مجدّدًا. (وعلمت لاحقًا، أن عددًا من قواعد داعش قد وُضعت ليتم خرقها). وسأخبر المحكمة كل تفصيل عمَّ فعله بها، وأنا أدعو لربّي أن يتم إلقاء القبض على سلوان حيًّا يرزق، عندما تُهزم داعش.

في تلك الليلة، عندما كانت العدالة لا تزال حلمًا بعيد المنال، ولم يكن ثمّة فرصة لكي ننجو بأنفسنا، تبعتني روجيان مع سلوان والحاج سلمان خارج المنزل إلى الحديقة. غير أن الصراخ من سوق النخاسة لحقنا أيضًا، كان صراخًا يمزق الآذان ويتردّد صداه في أرجاء المدينة كلّها. ورحت أفكّر في العائلات التي تعيش في المنازل في هذه الشوارع. هل تجلس الآن استعدادًا للعشاء؟ أو تضع أطفالها في أسرّتهم؟ يستحيل ألّا يسمعوا ما يجري في المنزل. فالموسيقى وجلبة التلفزيون التي كانت لتكتم صراخنا قد مُنعت في ظل داعش. لربّما هم أرادوا أن يسمعوا معاناتنا، التي تشكّل دليلًا قاطعًا على تعاظم قوّة قيادة تنظيم الدولة الإسلاميّة الجديدة. ماذا تراهم ظنّوا سيحصل لهم في النهاية،

عندما تشنّ القوّات العراقيّة والكرديّة حربها لاستعادة الموصل؟ هل اعتقدوا بأن داعش ستحميهم؟ كنت أرتعش لمجرّد الفكرة.

استقلّينا سيّارة مع روجيان في الخلف والرجال في الأمام، وراحت تسير بعيدًا عن المنزل. قال الحاج سلمان وهو يتكلّم على هاتفه: «سنذهب إلى منزلي. هناك ثماني فتيات. تخلّص منهنّ».

توقّفنا أمام ردهة فسيحة، شبيهة بقاعة لحفلات الزفاف، مدخلها ببابين تُحيط بهما أعمدة اسمنتيّة ضخمة، وقد بدت وكأنّها تُستخدم كمسجد. في الداخل، كانت القاعة تعج بمسلحي تنظيم الدولة الإسلاميّة، قرابة الثلاثمائة منهم، وكلّهم يصلّون. لم يعِرنا أي منهم انتباهه بينما عبرنا، وبقيت على مقربة من الباب بينما أمسك الحاج سلمان زوجان من الصنادل من رف كبير وأعطانا إيّاهما. كانا زوجي صنادل للرجال، مصنوعين من الجلد، كبيرين يصعب المشي فيهما، لكن مسلّحي الدولة كانوا قد أخذوا أحذيتنا منّا وكنا عاريتي القدمين. حاولنا ألا نتعثّر بينما كنّا نمر أمام المصلّين، وعُدنا إلى الخارج.

كان سلوان ينتظر أمام سيّارة أخرى، وكان من الواضح أنهم سيفصلوننا أنا وروجيان. أمسكنا بيدي بعضنا البعض ورحنا نرجوهم ألا يفرّقوننا عن بعضنا البعض. فقلنا لهم: «رجاء، لا تدعونا نذهب كل بمفردها»، لكن لا سلوان ولا الحاج سلمان استمعا إلى ندائنا. بل أمسك سلوان روجيان من كتفيها وانتزعها عني. كانت تبدو صغيرة جدًا وهشّة جدًا. أخذنا نصرخ باسمَيْ بعضنا البعض، لكن بلا أي جدوى. اختفت روجيان داخل السيّارة مع سلوان، لتتركني وحدي مع الحاج سلمان، فشعرت بأنّني على وشك أن أموت ههنا، على قارعة هذه الطريق، حزنًا وأسى.

ركبنا أنا والحاج سلمان في سيّارة بيضاء صغيرة، حيث كان سائق وحارس شاب اسمه مرتجى بانتظارنا. أخذ مرتجى يحدّق بي بينما جلست بالقرب منه، فرحت أفكّر أنه لو لم يكن الحاج سلمان هنا، لكان حاول التحرّش بي مثل الرجال الآخرين في سوق الجواري. انكمشت على نفسي والتصقت بالنافذة، محاولة أن أبعد قدر الإمكان عنه.

بحلول ذلك الوقت، كانت الشوارع الضيّقة قد أصبحت شبه مقفرة وحلَّ عليها سواد الليل، تنيرها أضواء منازل قليلة تستخدم المولّدات الكهربائيّة. سرنا في السيّارة لنحو العشرين دقيقة بصمت، والظلام الحالك في الخارج يجعلنا وكأنّنا نغوص في أعماق المياه، ثم توقّفنا. أمرني الحاج سلمان: «اخرجي من السيّارة يا نادية». وجذبني بقوة من ذراعي عبر بوّابة تقود إلى حديقة. استغرقت بعض الوقت قبل أن أدرك أننا عدنا إلى المنزل الأول، مركز تنظيم الدولة الإسلاميّة، حيث فصل المسلّحون مجموعة من الفتيات قدّر لهن أن يعبرن الحدود. فسألت برفق: «هل تأخذني إلى سوريا؟». لكن الحاج سلمان لم يجب.

كان بإمكاننا أن نسمع من الحديقة صوت الفتيات اللواتي يصرخن داخل المبنى، وبعد دقائق معدودة، رأيت ثماني فتيات يرتدين العباءات والنقاب يسحبهن مسلّحون إلى الباب الأمامي. وبينما كن يمشين أمامي، استدرن برؤوسهن نحوي وحدّقن بي. لربّما يعرفنني. لربما بينهن نسرين وكاثرين، وهن مذعورات لا يقوين على قول أي شيء، كما هو حالي. أيًّا كنّ، كانت وجوههن تائهة خلف النقاب، وبعد لحظات أدخلن إلى باص صغير. ثم أغلق الباب وذهبن بعيدًا.

أخذني حارس إلى غرفة فارغة. لم أرَ أو أسمع أي فتيات أخريات، لكن كما في المنازل الأخرى، كان تنظيم داعش قد خلّف أكوامًا من

الأوشحة والملابس الأيزيديّة كدليل على جميع الفتيات اللواتي مررن من هنا. وكل ما تبقى من الوثائق التي أخذوها منا كان كومة رماد. وحدها بطاقة هويّة فتاة من كوجو أبت أن تأكلها النيران؛ فانبعثت من تحت الرماد كنبتة صغيرة.

وبما أن مسلّحي داعش لم يبالوا بإزالة الممتلكات الشخصيّة للعائلة التي كانت تعيش في المنزل، فقد بقيت أدلّة على حياة من عاش هنا أينما كان. ففي غرفة، كانت تُستعمل للتمارين الرياضيّة، كانت الجدران تزدان بصور صبيّ، افترضت أنه الابن الأكبر، يحمل أوزانًا ضخمة. وثمّة غرفة أخرى كانت مخصّصة للتسلية ليس إلّا، مثل البلياردو. لكن أكثر الغرف حزنًا كانت غرف الأطفال المليئة بألعابهم والمزيّنة بالملاءات الزاهية الألوان، والجاهزة لاستقبال أولادها إن عادوا يومًا إليها.

سألت الحاج سلمان بعد أن التحق بي: «لمن كان هذا المنزل؟».

فأخبرني قائلًا: «الشيعي. لقاضٍ».

«وماذا حلّ بأهله؟». كنت آمل أن يكونوا قد نجحوا في الهرب وباتوا بأمان في المناطق الكرديّة. فحتّى لو لم يكونوا أيزيديّين، شعرت بقلبي ينفطر عليهم. فكما حصل في كوجو، أخذ الدواعش كل شيء من هذه العائلة.

أجابني الحاج سلمان، «ذهبوا إلى الجحيم»، فتوقّفت عن طرح المزيد من الأسئلة.

توجّه الحاج سلمان للاستحمام. وعندما عاد، كان يرتدي الملابس نفسها التي كان يرتديها في السابق، فأخذت أشتم رائحة العرق المعشّشة بملابسه مع عطره والصابون. أغلق الباب وراءه وجلس على الفرشة

بالقرب مني. فتأتأت سريعاً: «أنا في أيّام الدورة الشهريّة»، وأشحت بنظري بعيدًا، لكنه لم يجب.

سألني وقد اقترب أكثر فأكثر مني: «من أين أنتِ؟». فأجبته: «من كوجو». وفي حالة الرعب التي كانت تتملّكني في تلك اللحظات، لم يسَعني أن أفكر بمنزلي أو بعائلتي أو بأي شيء آخر غير ما سيجري لي من لحظة لأخرى. كم آلمني ذكر اسم قريتي. فقد استحضر ذكريات عن المنزل والناس الذين أحببت، وأحيا فيّ صورة أمّي التي وضعت رأسها المكشوف بهدوء في حضني بينما كنا ننتظر في صولاغ.

«تعلمِين أن الأيزيديّين كفّار»، قال لي الحاج سلمان. كان يكلّمني برفق، وكأنّه يهمس، لكن لم يكن فيه ما يوحي بالرقّة. «الله يريدنا أن نجعلكم تعتنقون الإسلام، وإن لم نستطع ذلك، فيمكننا فعل ما نشاء بكم».

توقّف قليلًا قبل أن يكمل سائلًا: «ماذا حل بعائلتك؟» فكذبت مجيبة: «نجحوا كلّهم تقريبًا في النجاة، ما خلا ثلاثتنا اللواتي وقعنا في الأسر».

«ذهبت إلى سنجار في الثالث من أغسطس، عندما بدأ كل شيء»، قال وهو يستلقي على السرير كما لو كان يخبر قصّة مسليّة. «رأيت على الطريق ثلاثة رجال أيزيديّين يرتدون لباس الشرطة. كانوا يحاولون الهرب، لكنّني تمكّنت من اللحاق بهم، وعندما بلغتهم، قتلتهم».

رحت أحدّق بالأرض، لا أقوى على الكلام.

«جئنا إلى سنجار لقتل كل الرجال»، راح آسري يكمل: «ولأخذ النساء والأطفال، كلّهم. لكن لسوء الحظ، تمكّن البعض من النجاة والوصول إلى الجبل».

ظلّ الحاج سلمان يتكلّم على هذا النحو لقرابة الساعة، بينما أنا

أجلس على طرف الفرشة، أحاول ألّا أنصت لما يقوله. لعن بلدتي وعائلتي وديني. أخبرني أنّه قضى سبع سنوات في سجن بادوش في الموصل وها هو يسعى للانتقام من الكفّار في العراق. فما حصل في سنجار أمر جلل، بالنسبة إليه، وعليَّ أن أكون سعيدة لأن داعش تخطّط للقضاء على الأيزيديّة في العراق. حاول أن يقنعني بأن أعتنق الإسلام لكنّني رفضت. لم أكن أقوى على النظر إليه. باتت كلماته بلا أي معنى. انقطع عن مناجاته الفرديّة ليجيب على اتّصال هاتفي ورده من زوجته وقد ناداها بأم سارة.

على الرغم من أن ما قاله كان يهدف إلى إصابتي في الصميم، إلّا أنّني كنت أتمنّى ألّا يتوقّف أبدًا عن الكلام. فكنت أعتقد بأنه طالما يتكلّم، لن يلمسني. لم تكن القواعد الأيزيديّة لتواجد الفتيات والصبية معًا صارمة شأنها شأن سائر المجتمعات الأخرى في العراق. وفي كوجو، لطالما استقلّيت السيّارة مع أصدقاء من الذكور وسرت إلى المدرسة مع رفاق صبية من دون أن أخشى ما سيقوله الناس عني. لكن أولئك الصبية ما كانوا ليلمسونني أو يزعجونني، وقبل الحاج سلمان، ما جلست يومًا مع رجل بمفردي كما الآن.

تابع الحاج قائلًا: «أنت رابعة سبيّة لي. الثلاث الأخريات أصبحن مسلمات الآن. قمت بهذا لأجلهن. فالأيزيديّون كفّار. لهذا نقوم بما نقوم به. لمساعدتكم». وبعد أن أنهى كلامه، أمرني بنزع ملابسي.

بدأت أبكي. وكرّرت على مسامعه: «أنا في فترة الحيض».

فأجابني وقد بدأ ينزع ملابسه: «أثبتي لي ذلك. فهذا ما قالته السبايا الأخريات أيضًا».

نزعت ملابسي. ولأنّني كنت فعلًا في أيّام الدورة الشهريّة، لم يغتصبني. وإذا كان كتيّب تنظيم الدولة لا يحرّم ممارسة الجنس مع السبيّة الحائض، لكنّه يشير إلى أنه على الآسر أن ينتظر حتى تنهي سبيّته دورتها الشهريّة قبل ممارسة الجنس معها، كي يتأكّد من أنها غير حامل. لربّما هذا ما ردع الحاج سلمان تلك الليلة.

ومع ذلك، لم يتركني وشأني. بل استلقينا طوال الليلة على الفرشة عاريين، من غير أن يتوقف عن مداعبتي. شعرت الشعور نفسه الذي اعتراني على الباص عندما كان يدسّ أبو بطاط يده تحت فستاني ويمسك نهدي عنوة. فكان الألم يصيبني في جسدي الذي يتحوّل خدِرًا كلّما مرّر الحاج سلمان أصابعه عليه. لكنّني كنت على درجة من الخوف حالت دون أن أحاول مقاومته، فضلًا عن أن لا فائدة من ذلك. فقد كنت صغيرة، هشّة، وواهنة. ولم أتناول أي وجبة حقيقيّة منذ أيام، ولربّما أكثر، إذا ما احتسبت الأيّام التي كنّا عالقين فيها في كوجو، وليس ثمّة ما يردعه عن فعل ما يريده بي.

عندما فتحت عينيَّ في الصباح، كان الحاج سلمان مستيقظًا. بدأت أرتدي ملابسي، لكنّه أوقفني قائلًا، «استحمّي يا نادية. أمامنا نهار طويل».

بعد الحمّام، أعطاني عباءة سوداء ونقابًا، وضعتهما فوق فستاني. كانت المرّة الأولى التي أرتدي فيها ملابس المرأة المسلمة المحافظة، وعلى الرغم من أن القماش كان خفيفًا، إلا أنّني وجدته يعيق التنفس. في الخارج، وأنا مخفيّة تحت نقابي، رحت أتأمّل الجوار للمرّة الأولى تحت وضح النهار. كان القاضي الشيعي ثريًّا على ما يبدو؛ إذ عاش في القسم الراقي من الموصل، حيث المنازل الأنيقة تتراجع

عن الطريق لتتقدّمها الحدائق وتحيط بها الأسوار. لقد كانت الدعاية الدينيّة التي ينشرها تنظيم الدولة الإسلاميّة عامل إغراء قوي للجهاديّين المحتملين، لكن المسلّحين من سائر أنحاء العالم قد غرّهم الوعد بالمال، وعندما وصلوا إلى الموصل، احتلّوا أجمل المنازل أولًا ونهبوا كل ما أرادوه تاليًا. أمّا أولئك السكّان الذين لم يغادروا المدينة، فقيل لهم إنهم سيستردّون السلطة التي خسروها بعد العام 2003، عندما فكّكت الولايات المتّحدة مؤسّسات حزب البعث وأعادت توزيع السلطة على شيعة العراق، لكنّهم خضعوا أيضًا لضرائب باهظة فرضتها عليهم داعش، التي بدت بالنسبة لي مجموعة إرهابيّة يحركها الجشع أكثر من أي أمر آخر.

بدا الدواعش وكأنّهم يستمتعون بفائض قوّتهم من الطريقة التي سيطروا فيها على أهم مباني المدينة، رافعين راياتهم السود والبيض أينما حلّوا. وقد تحوّل المطار المحلي، إضافة إلى كامل حرم جامعة الموصل، التي كانت في ما مضى إحدى أفضل الصروح التعليميّة في العراق، إلى قواعد عسكرية. كما عصف العسكر داخل متحف الموصل، ثاني أكبر المتاحف العراقية، فأتلفوا التحف التي قالوا إنّها غير إسلاميّة وباعوا أخرى في سوق سوداء تهدف إلى تمويل حربهم. حتى إن فندق «نينوى أوبروي» الذي بني في ثمانينات القرن الماضي في ظل حكم صدّام وكان فندقًا خمس نجوم في المدينة، صار مركزًا لكبار أعضاء المجموعة الإرهابيّة. ويقال إن أجمل غرفه قد خصّصت للانتحاريين.

عندما جاءت داعش في العام 2014، غادر مئات الآلاف الموصل، منتظرين لساعات عند نقاط تفتيش الحزب الديمقراطي الكردستاني لدخول كردستان، وكانت مخلّفات هروبهم لا تزال جليّة على طول

الطرق التي سرنا فيها أنا والحاج سلمان. فقد احترقت السيّارات المتروكة حتى تحوّلت هياكل متفحّمة؛ وظهرت قضبان الحديد من ركام المنازل المهدّمة؛ وتناثرت بقايا بزّات الشرطة العراقيّة على جانبَيّ الطريق، بعد أن تخلّى عنها قادة اعتقدوا أن لديهم فرصة أفضل بالنجاة إن نزعوا بزّاتهم عنهم. وقد أصبحت القنصليّات والمحاكم والمدارس ومراكز الشرطة والقواعد العسكريّة كلها تحت سيطرة داعش، الذين تركوا بصمتهم أينما حلّوا، رافعين الرايات، ومطلقين الخطب من الجوامع عبر مكبّرات الصوت، وحتّى إنهم أزالوا رسوما لوجوه رسمها أطفال عن جداريّة خارج مدرسة متوسّطة على اعتبار أن هذه الصور حرام.

أُطلق سراح سجناء سجن بادوش، وفي المقابل، طُلب منهم أن يعلنوا ولاءهم لتنظيم الدولة الإسلاميّة. فالتحقوا بالعسكر وراحوا يفجّرون المعابد المسيحيّة والأماكن المقدّسة الصوفيّة والمقامات الشيعيّة، وبعضها كان جزءًا لا يتجزّأ من العراق وتاريخه. أقلّه لا يزال المسجد الأكبر في الموصل يقف شامخًا في المدينة القديمة، مع أنه تحوّل بشعًا لحظة اعتلى البغدادي منبره وأعلن ثاني أكبر مدينة في العراق عاصمةً لتنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق، وبحلول العام 2017، تم تدميره كما سائر أرجاء المدينة.

توقّفنا أخيرًا أمام محكمة الموصل، وكانت عبارة عن مبنى ضخم ترابي اللون يقع على الضفة الغربيّة لنهر دجلة، تعلوه أبراج رفيعة تذكّرني بالمساجد. كانت راية كبيرة للدولة الإسلامية ترفرف أعلى المحكمة. وكان المبنى محوريًّا لمخطّط الدولة الإسلاميّة من أجل التأسيس لنظام جديد في الموصل، لا تحكمه قوانين الحكومة العراقيّة المركزيّة، بل معتقدات الدولة الإسلاميّة الأصوليّة. فحلّت بطاقات هويّة الدولة

الإسلاميّة محل بطاقات هوية الدولة العراقيّة، وبدأت السيّارات تضع لوحات جديدة خاصة بالدولة الجديدة. وفي موصل الدولة الإسلاميّة، يتعيّن على النساء أن يلتزمنَ لباسهنَّ الإسلامي طوال الوقت - النقاب والعباءة - على أن يرافقهن الرجال إن أردن مغادرة المنزل. كما منعت داعش التلفزيون والراديو وحتى السجائر. أمّا المواطنون الذين لم يرغبوا بالالتحاق بالمجموعة الإرهابيّة، فكان يتعيّن عليهم دفع أتاوة إن أرادوا مغادرة الموصل، على أن يُسمح لهم أن يكونوا خارج المدينة لفترة زمنيّة محدّدة وحسب. وإذا تخطّوا تلك الفترة، فقد تتم معاقبة أحد أفراد عائلتهم وتتم مصادرة منازلهم وممتلكاتهم عقابًا على «تخلّيهم عن الخلافة». كان عدد من المحاكمات يدور في أروقة هذه المحكمة.

في الداخل، كانت الحشود تنتظر أن يستقبلها القضاة والموظّفون. أمامي، كان خط من المسلّحين مع نساء متّشحات بالسواد، افترضت أنّهن سبايا مثلي، يقفون أمام غرفة محدّدة. داخل هذه الغرفة، سنملأ وثائق تحدّد أي فتاة أيزيديّة يملكها أي مسلح. وسنجبَر على اعتناق الإسلام، وسيتم تدوين هذا الاعتناق أيضًا. ثم سيعلن قاضٍ أنّنا ملك للرجل الذي أحضرنا إلى هنا. كان هذا بمثابة عقد اغتصاب يسمّيه المسلّحون، بمن فيهم الحاج سلمان «زواجًا».

عندما رأى المسلّحون العاملون هناك الحاج سلمان، أشاروا إلينا أن نتقدّم إلى مقدّمة الخط. رحت أنصت للمحادثات من حولي، فتمكّنت من فهم دور آسري مع داعش. كان الحاج سلمان قاضيًا ويقتضي عمله تحديد ما إذا كان أحد المدّعى عليهم مذنبًا فيأمر بقتله.

في الداخل، كانت الغرفة فارغة إلّا من قاضٍ لحيته رماديّة اللون قد كساها الشيب، يجلس وراء مكتب طويل، تحيط به الأوراق من

كل جهة. وراءه علم كبير لتنظيم الدولة الإسلاميّة يرفرف تحت وقع هواء المكيّف، وعلمان إضافيّان يزيّنان بزّته على كتفيه. بينما كنّا ندخل الغرفة، رحت أتضرّع إلى الله بحنق أن يغفر لي ما سأقوم به. «سأؤمن بك ما حييت. سأكون أيزيديّة ما عشت»، رحت أردّد في صلاتي.

كان القاضي حسين صارمًا، منهجيًّا في عمله. أمرني قائلًا: «ارفعي النقاب»، ففعلت، مظهرة له وجهي. سألني: «هل تعرفين الشهادة؟». فأجبته: «نعم». كان الجميع يعرف الشهادة التي تفيد بالتزام الإسلام والتي يردّدها المسلمون في صلواتهم. عندما انتهيت، لمع وجه القاضي وقال لي: «الله يبارك بك. ما تقومين به لهو أمر جيد». ثم رفع كاميرا كانت موضوعة على مكتبه والتقط صورة لوجهي المكشوف.

بعد ذلك، استدار إلى الحاج سليمان قائلًا: «إنها سبيّتك الآن. يمكنك أن تفعل بها ما تشاء»، واستدرنا خارجَيْن من قاعة المحكمة.

بهذه «الزيجات»، واصلت داعش اغتيالها البطيء للفتيات الأيزيديّات. فقد أخذونا أوّلًا من منازلنا وقتلوا رجالنا. ثم فصلونا عن أمّهاتنا وأخواتنا. وحيث كنّا، راحوا يذكّروننا أنّنا مجرّد ملكيّات يمكن لمسها واستغلالها، كما فعل أبو بطاط بنهدي عندما كان على وشك أن يهشّمه، أو كما أطفأ نفّاع السجائر بجسدي. كل تلك الاعتداءات ما هي إلّا خطوات تقود رويدًا رويدًا نحو إعدام الروح.

غير أن سلبنا ديننا كان أقسى الأمور وأعنفها. شعرت بفراغ مفزع وأنا أغادر المحكمة. من أكون أنا إن لم أكن أيزيديّة؟ كنت آمل أن يعلم الله أنني حتى لو تلوت الشهادة، إلّا أنّني لم أقصد ما قلته. فطالما أن روحي التي قتلتها داعش يمكن لها أن تكون في الحياة الآخرة مع الله والطاووس ملك، فيمكن للدواعش أن يحصلوا على جسدي.

سألت الحاج سلمان: «هل الصورة لبطاقة الهويّة؟».

أجابني: «كلا. يستخدمون الصورة للتحقّق من الموقع الذي تكونين فيه ومع من». وشد قبضته على ذراعي: «ولو حاولتِ الهرب، فسيطبعون مئات النسخ من هذه الصورة مع اسمي ورقم هاتفي ويعلّقونها عند كل حاجز كي يتأكّدوا من إعادتك لي. وستعودين».

وصدّقته، بالطبع.

الفصل السابع

غادرنا المحكمة متوجّهين إلى منزل جديد يعيش فيه الحارس مرتجى مع عائلته. كان مقارنة بمنزل الحاج سلمان، منزلًا متواضعًا، يتألّف من طابق واحد، ومع ذلك أكبر من المنزل الذي ترعرت فيه. وبما أنّني كنتُ قد تحوّلت مسلمة للتو، خلت لربّما الحاج سلمان سيشفق عليّ ويخبرني بما حلّ بعائلتي، فسألته: «رجاء، خذني لأرى كاثرين ونسرين وروجيان. أريد أن أتأكّد أنّهن بخير ليس إلّا».

لدهشتي، أجابني أنه سيحاول. وأضاف: «أنا أعرف أين هنّ. سأجري اتّصالًا هاتفيًا. لربّما تستطيعين رؤيتهن للحظة، لكن علينا أن ننتظر هنا الآن».

دخلنا عبر المطبخ، لتستقبلنا على الفور امرأة سمينة متقدمة في السن عرّفَت عن نفسها أنّها أم مرتجى. فأخبر مرتجى أمّه: «كانت نادية كافرة لكنّها أصبحت لتوّها مسلمة»، فرفعت ذراعيها العريضين لتبارك بحماسة للحاج سلمان. ثم قالت لي: «ليس خطأك إن ولدتِ أيزيديّة. إنه خطأ أهلك، وستكونين سعيدة الآن».

لم يسبق لي أن كنت في غرفة واحدة مع امرأة غير أيزيديّة مذ وصلت إلى الموصل، فرحت أحدّق بأم مرتجى، بحثًا عن بصيص تعاطف في

عينيها. في النهاية هي أم، وخلتها تهتم لهذا الأمر أكثر من اكتراثها لكونها سنّية وأنا أيزيديّة. هل تدري ما فعله بي الحاج سلمان في الليلة السابقة، وما ينوي فعله ما إن أنتهي من الدورة الشهريّة؟ وحتّى لو لم تعلم ذلك، فإنّها تعرف جيدًا أنّني هنا غصبًا عنّي، وأنّني فُصلت عن عائلتي، وأن الرجال كلّهم في كوجو قد قتلوا. لكنّها لم تُظهِر أيّ عطف أو مواساة تجاهي، بل مجرّد غبطة لمعرفتها أنّني أجبرت على اعتناق الإسلام، وبالتالي بات عدد أيزيديّي العراق أقل بنفر واحد.

كرهتها، ليس لأنّها تركت الموصل تقع بيد داعش وحسب، بل لأنّها تركتها تسقط بيد رجال من هذا النوع. ففي ظل حكم الدواعش، تلاشت النساء من الحياة العامة. والتحق الرجال بالإرهابيّين لأسباب واضحة، إذ أرادوا المال والسلطة والجنس. برأيي كانوا ضعفاء يعجزون عن تصوّر كيفيّة حصولهم على هذه الأمور من دون استخدام العنف، وبأيّ الأحوال، بدا وكأن مسلّحي الدولة الإسلاميّة الذين التقيتهم حتى الآن يستمتعون بإلحاق الأذى بالآخرين. فأولئك الرجال يتّبعون القوانين التي تبنّتها داعش، وهي قوانين تعطيهم مطلق السلطة على زوجاتهم وبناتهم.

ومع ذلك، لم أستطع أن أفهم كيف تلتحق امرأة بالجهاديّين وتحتفل علنًا باستعباد الفتيات كما فعلت أم مرتجى. فأي امرأة في العراق، أيًّا كان دينها، قد عانت كثيرًا لتحصل على ما حصلت عليه وعلى ما وصلت إليه النساء في البلاد. من المقاعد في البرلمان إلى حقوق الإنجاب والمراكز العليا في الجامعات - وهذه كلّها كانت حصيلة نضالات طويلة - . وقد كان الرجال راضين بالبقاء في السلطة، لذا كان لا بد للنساء من انتزاعها منهم بالقوة. حتّى إن إصرار أدكي على قيادة الجرار ما هو إلّا دليل مساواة وتحدٍّ لهؤلاء الرجال.

وعلى الرغم من هذا كله، عندما وصل تنظيم الدولة الإسلاميّة إلى الموصل، ثمّة نساء مثل أم مرتجى رحّبن بوصوله واحتفلن بالسياسات المقيتة التي ستخفي نساء مثلها وتستغل نساء مثلي، كما عندما وقفَت متفرّجة بينما الإرهابيّون يقتلون سكّانًا عاش معهم السنّة لمئات السنين، من مسيحيّين وشيعة، أو يدفعونهم خارج المدينة. لكنّها اختارت أن تبقى وتتفرّج وتعيش في ظل داعش.

لو كنتُ رأيت يومًا أيزيديّين في سنجار يهاجمون مسلمين بالطريقة التي هاجمنا بها الدواعش، فيستحيل أن أقف ولا آتي بحركة بينما يحصل هكذا هجوم وحشي. ولم يكن أي فرد من عائلتي ليقبل بذلك، رجالًا أم نساء. فالجميع يعتقد بأن النساء الأيزيديّات ضعيفات، لأنّنا فقراء نعيش خارج المدن، وقد سمعت أشخاصًا يقولون إن المقاتلات مع داعش يثبتن بطريقة أو بأخرى قوّتهن بين الرجال. لكن أيًّا منهن - لا أم مرتجى، ولا حتّى أي انتحارية - كانت تتمتّع بخمس شجاعة أمي، التي تخطّت عددًا لا يحصى من المصاعب، والتي لم تكن لتسمح ببيع أي امرأة أخرى في سوق الجواري، أيًّا كان دينها.

والآن، بتُّ على يقين من أن النساء الإرهابيّات لسن بالأمر الجديد. فقد التحقت النساء في العالم وعبر التاريخ بمنظّمات إرهابيّة، ليتولّين أحيانًا أدوارًا رياديّة، ومع ذلك ما زالت أفعالهن تذهل الجميع. فالناس يفترضون أن النساء، ولا سيّما في الشرق الأوسط، هنَّ من الانصياع بما يحول دون أن يقمنَ بأي عنف، لكن ثمّة عدد كبير من النساء في صفوف داعش. وكما الرجال، هن ينكرن كل إيمان باستثناء الإسلام ويعتقدن بأنّهنَّ عبر التحاقهن بالإرهابيّين، يساعدن قضية أعظم تقوم على بناء الخلافة السنّية. وكما الرجال، يعتبرن أنفسهن ضحايا القمع

الطائفي والاجتياح الأميركي. وقد آمنت النساء بتنظيم الدولة الإسلاميّة عندما قالوا إنّه لو دعمتنا النسوة، فستحصل عوائلهن على المزيد من المال، وسيحظى رجالهن بوظائف أفضل وسيفوز أطفالهن بالوضعية الاجتماعية التي يستحقّونها في بلادهم. قيل لهن إنّه من واجبهن الديني أن يدعمن الرجال، فوافقن على ذلك.

لقد سمعت روايات عن نساء من تنظيم الدولة يساعدن الأيزيديّات. فقد أُعطيت فتاة من كوجو هاتفًا خلويًا من زوجة آسرها، وهو مقاتل أجنبي اصطحب عائلته كلّها معه في رحلتهم الطويلة من منزلهم إلى غرب سوريا. في البداية، كانت الزوجة مسحورة بدعاية الدولة الإسلاميّة، لكن سرعان ما شعرت بالنفور نتيجة استعباد النساء الأيزيديّات. وبفضل تلك المرأة، تمكّنت الفتيات الأيزيديّات في ذلك المنزل من تنسيق عمليّة هربهنّ إلى خارج سوريا بأمان.

لكنّني غالبًا ما كنت أسمع روايات عن نساء أكثر وحشيّة من الرجال فكن يضربن سبايا أزواجهن ويتركنهن يتضوّرن جوعًا، بسبب الغيرة أو الغضب، أو لمجرّد أنهن لقمة سائغة بين أيديهن. ولربّما اعتبرن أنفسهن ثوريّات - وحتى نسويّات - فقلن لأنفسهن، كما حصل عبر التاريخ، إن العنف الذي يفضي إلى قضية سامية هو عنف مسوَّغ. وقد سمعت عن هذا كلّه، وعندما أفكّر بسَوْق داعش أمام العدالة لارتكابها المجازر، أشعر ببعض الشفقة على النساء. وقد أتقبّل كيف أن الناس ينظرون إليهن على أنهن ضحايا. لكنّني لا أفهم كيف يمكن لأي كان أن يقف ويتفرّج على آلاف الأيزيديّات اللواتي يتم بيعهن للتجارة الجنسية ويتم اغتصابهن حتى تتكسّر عظامهن. ليس ثمة ما يبرّر هذا النوع من الفظاعة، وما من قضيّة سامية يصبون إليها قد تبرّر هذه الوحشية.

واصلت أم مرتجى حوارها مع الحاج سلمان، محاولة أن تثير اهتمامه. فقالت: «لديَّ غير مرتجى ابنة في الثانية عشرة من عمرها. وابن في سوريا يقاتل مع الدولة». وابتسمت وهي تفكّر بابنها. ثم أضافت: «شاب فائق الوسامة! الله يحميه».

بعد انتهاء حفلة السلام، قادتني أم مرتجى إلى غرفة صغيرة قائلة: «انتظري الحاج سلمان هنا. وحاولي ألّا تذهبي إلى أي مكان، أو تلمسي أي شيء». ثم أغلقت الباب وراءها.

جلست على حافّة أريكة وأحطت جسدي بذراعيَّ. كنت أتساءل إن كان الحاج سلمان يحاول البحث عن قريباتي، وإن كنت سأتمكّن من رؤيتهن. فلم يكن من غير الشائع للسبايا أن يتواصلن في ما بينهن - إذ لطالما سافر الرجال معهن - وكان من الممكن أن يقوم بما طلبته منه كي يبقيني هادئة، حتى تكون مقاومتي أقل لاحقًا. وطالما أستطيع أن أرى أن كاثرين والأخريات على قيد الحياة، فلا يهم ما سيحصل لي لاحقًا.

فجأة فتح الباب، ودخل مرتجى. لاحظت للمرة الأولى كم كان يافعًا، لا يتعدّى أن يكون أكبر مني بسنة واحدة، وقد نمَت عنده لحية قصيرة خجولة. كان واضحًا أنه لا يحتل إلّا مرتبة دنيا بين المسلّحين، ولم أكن حتّى أكيدة أنه يملك سبيّة؛ فلو فعل، ما من دليل على أنّها تعيش معه. لأن الحاج سلمان لم يكن في الجوار، اقترب مني بسلطة أكبر، لكنّها بدت سلطة مصطنعة، كصبيّ ينتعل حذاء أبيه.

أغلق الباب وراءه وجلس على السرير بالقرب مني. فقرّبت تلقائيًا ساقيّ من صدري ووضعت جبيني على ركبتي، متفادية النظر إليه. غير أنّه بدأ يتكلّم فسأل: «هل أنت سعيدة هنا؟ أو تكونين أسعد لو تمكّنت من الهرب والالتحاق بعائلتك؟». كان يسخر مني؛ فهو يعرف تمام المعرفة ما ستكون إجابة أي إنسان على هذا السؤال.

فأجبته قائلة: «لا أعلم أي شيء حول ما حصل مع عائلتي». وتضرّعت إلى الله أن يذهب ويتركني وشأني.

فسأل مجددًا: «ماذا تعطيني لو ساعدتك على الهرب؟». فأجبته بصدق: «ليس لديَّ ما أعطيك إياه»، على الرغم من أنّني كنت أفهم إلى ما يشير. «لكن لو ساعدتني، أتّصل بأخي ويعطيك ما تريد».

فضحك وسألني: «هل أنت خائفة؟»؛ وهو يقترب شيئًا فشيئًا مني.

فقلت: «نعم أنا خائفة. بالطبع أنا خائفة».

«دعيني أرى»، ومدّ يده نحو صدري. «دعيني أرى إن كانت نبضات قلبك تتسارع لأنّك خائفة».

وما إن رأيت يده تقترب منّي، حتى توقّفت عن الكلام معه ورحت أصرخ بأقوى ما يمكنني. تمنّيت لو أن صراخي يحطّم الجدران فيتهاوى السقف ويقتلنا جميعًا.

فتح الباب وظهرت أم مرتجى. عاجلت ابنها بنظرة غضب، قائلة له «اتركها وشأنها. هي ليست لك». فغادر مرتجى الغرفة، مطأطئًا رأسه خجِلًا كطفل صغير مذنب. وأكملت أمّه بينما يغادر: «هي كافرة». ثم نظرت إليَّ نظرة احتقار. «وهي ملك الحاج سلمان».

فكّرت للحظة بما كانت لتفعله لو كنّا نحن الاثنتين بمفردنا. فعلى الرغم ممّ هي عليه، وما سمحت به، لو جاءت وجلست بالقرب منّي ولم تقم سوى بالإقرار بما يحصل معي، أعتقد بأنّني لكنت سامحتها. فكانت من عمر أمّي تقريبًا، وجسدها ممتلئ ناعم كما جسد أمي. ولو قالت: «أنا أعلم أنهم أحضروك إلى هنا عنوة»، ولو سألت: «أين أمّك وأخواتك؟»، ولم تقم بأي شيء آخر سوى التفوّه بهذه الكلمات،

لكنت شعرت بالارتياح. فرحت أتخيّلها تنتظر خروج مرتجى ثم تأتي وتجلس إلى جانبي على السرير، تأخذ بيدي وتدعوني ابنتها وتهمس لي: «لا تخافي، سأساعدك على الهرب. أنا أم وأشعر بك». تلك الكلمات وحدها كانت كفيلة بجعلي أشعر بالتخمة بعد أسابيع من الصوم. لكنّها لم تنبس بكلمة. بل غادرت، وبقيتُ وحيدة مرة أخرى في تلك الغرفة الصغيرة.

بعد دقائق قليلة، دخل الحاج سلمان. وأخبرني: «يمكننا أن نذهب الآن لرؤية كاثرين»، فشعرت بقلبي تغمره النشوة ويتهاوى خوفًا في آن واحد. كنت أخشى على ابنة أخي أكثر من أي شيء آخر.

ولدت كاثرين في العام 1998، وهي ابنة الياس الكبرى، ومنذ اللحظة التي ولدَت فيها، كانت مميّزة في عائلتنا. فدموع كاثرين معترضة هي التي حالت دون نقل الياس لعائلته من منزلنا. كانت تحب أمّي مثلي تمامًا، وكانت تحبّني أيضًا. وكنا نتشارك كل شيء، حتى ملابسنا، ونرتدي الملابس نفسها أحيانًا. وفي زفاف قريبتنا، ارتدينا كلانا الأحمر، وفي زفاف أحد إخوتي، ارتدينا الأخضر.

ومع أنني كنت أكبرها سنًا، إلا أنّني قد تخلّفت سنوات عدة في المدرسة، لذا كنّا في الصف نفسه. كانت كاثرين ذكيّة، وعمليّة تتخطّى سنيّها بأشواط، وكانت محبّة للعمل، فتركت المدرسة بعد الصف السادس لتعمل في المزرعة. إذ كانت تفضّل البقاء خارجًا مع عائلتها أكثر من الدراسة، وكانت تحب أن تشعر بأن عملها يؤتي ثمارًا. ومع أنّها كانت صغيرة وهادئة، إلا أنّه كان بإمكانها أن تقوم بكل المهام في المنزل وفي المزرعة.

كانت كاثرين تحلب الغنم وتطبخ تمامًا كما ديمال. وعندما يصيب

المرض أحدهم، كانت تبكي وتنتحب وتقول إنّها تشعر بمرضهم داخلها حتى يتحسّنون. وبينما نغفو في الليل، كنّا نتكلّم عن خططنا للمستقبل. فكانت تخبرني: «سأتزوج في سن الخامسة والعشرين. أريد الكثير الكثير من الأولاد وعائلة كبيرة».

خلال فترة الحصار، بالكاد انتقلت كاثرين من غرفة المعيشة، حيث كانت تجلس أمام شاشة التلفزيون تنتحب على الناس في الجبل. رفضَت أن تأكل بعد أن سمعت أنه ألقي القبض على اختها باسو. وكنت أردّد على مسامعها: «علينا أن نكون متفائلين»، ممرّرة برفق يدي على وجهها الذي تحوّل شاحبًا من قلة الأكل والنوم. «لربّما سننجو». كانت أمّي تقول لها: «انظري إلى أبيك، عليك أن تكوني قويّة أمامه». لكن كاثرين فقدت أي أمل بسرعة ولم تستعده يومًا.

وُضعنا أنا وكاثرين في شاحنتَين مختلفتَيْن. غادرت كوجو، ولم أرها مجدّدًا قبل صولاغ، عندما وجدتها تتشبّث بأمي بأقوى ما تستطيع، محاولة أن تمنع الدواعش من أخذها بعيدًا. وقد قالت لمسلّح من الدولة: «أريد الذهاب مع أمّي. لا تستطيع أن تمشي بمفردها». لكنّه صرخ في وجهها طالبًا منها أن تجلس، وهكذا كان.

في الموصل، كانت كاثرين أكثر من ساوره القلق بشأني. فراحت تقول لي،: «لا تصرخي مجدّدًا. أنا أعلم ما يفعله أبو بطاط. قام بالأمر نفسه معي». كانت تعلم أنّني أجد صعوبة في ضبط أعصابي - فهي تعرفني أكثر من أي شخص آخر - وأرادت أن تساعدني على تفادي العقاب. وقالت بينما كنّا ننتظر في المنزل في الموصل أن يتم تقسيمنا: «لا تتكلّمي العربيّة يا نادية. أنت لا تريدين أن يأخذوك إلى سوريا». والمرّة الأخيرة التي رأيتها فيها، كان يتم نزعي عنها من قبل سلوان قبل أن يأخذوني إلى الطابق السفلي.

غادرت أنا والحاج سلمان منزل مرتجى. وبينما كنا نتوجّه إلى الباب، رأيت أم مرتجى في المطبخ، حيث كانت منهمكة بوضع طاسات الهواء الحارّة على ظهر رجل - وهو نوع من التدليك يترك دوائر حمرًا على البشرة لكنّه يُفترض أن يساعد الدورة الدمويّة - . ولأنه من الأدب أن تشكر سيّدة المكان - ولأنه على الرغم من كل ما حصل، تصبح العادات التي نشأت عليها فطريّة لديك - نظرتُ إليها وقلت: «سلمان هنا وأنا ذاهبة، أشكرك».

فردّت علي قائلة: «الله معك»، ثم استدارت لتكمل ما كانت تقوم بي.

ذهبت أنا والحاج سلمان مرّة أخرى إلى المبنى حيث سوق النخاسة. فأخبرني قبل أن يتركني، «إنّهن في الأعلى».

ركضتُ على الدرج لأجد كاثرين ونسرين بمفردهما في غرفة كبيرة نوافذها متشحة بالسواد. كان باستطاعتي أن أرى أنّهما منهكتا القوى. كانت كاثرين تستلقي على إحدى الفرش الرفيعة، بالكاد تفتح عينيها بينما تجلس نسرين بالقرب منها. عندما فتحت الباب، حدّقتا بي من دون أن تأتيا بأي حركة. كنت قد نسيت أن أخلع نقابي. سألَت كاثرين سريعًا: «هل أنت هنا لتلاوة القرآن علينا؟».

«أنا نادية»، أجبتها، وعندما رأتا وجهي هرعتا إليّ. بكينا كثيراً حتى شعرنا أنّنا سنموت من البكاء. وأحسسنا بعضلاتنا تؤلمنا حتى وجدنا صعوبة في التنفس. قالتا لي: «طلبوا منّا أن ننتظر امرأة ستأتي لتتحقّق من أننا عذارى. فاعتقدنا بأنك تلك المرأة!».

كانت عينا كاثرين متورّمتين مكدَّمَتيْن. أخبرتني بينما أجلس إلى جانبها: «لا أستطيع أن أرى جيّدًا».

فقلت لها بينما آخذ بيدها: «تبدين غاية في الوهن».

فشرحت قائلة: «أنا أصوم حتى يساعدنا الله جميعًا». كنت أخشى عليها من انهيارها من دون أي طعام، لكنّني لم أقل شيئًا. فالأيزيديّون يصومون مرّتين في السنة، ويمكن أن نختار أن نصوم في أي وقت آخر، لترسيخ إيماننا بالله وللتواصل مع الطاووس ملك. ويمكن للصوم أن يمنحنا القوّة بدل أن يأخذها منا.

سألتُ كاثرين: «ماذا حدث معك؟».

أخبرتني قائلة: «اشتراني رجل اسمه أبو عبدالله وأخذني إلى منزل آخر في الموصل. قلت له إنني مصابة بالسرطان ولا يجدر به لمسي، فضربني وأعادني إلى السوق. لهذا السبب عيناي مكدّمتان».

أردفت نسرين: «حاولت الهرب، فقبضوا عليّ وضربوني ثم أحضروني إلى هنا».

سألتني كاثرين: «لماذا ترتدين هذا؟». كانت لا تزال ترتدي فستانَيْن أيزيديَّين فوق بعضهما البعض.

فأجبتها: «أخذوا كل ملابسي وجعلوني أرتدي هذه. أضعت حقيبتي. لا أملك أي شيء آخر».

«حقيبتك معي!». ردّت كاثرين وهي تعطيني حقيبتي. ثم نزعت الطبقة العليا عنها وأعطتني ذاك الفستان أيضًا. كان فستانًا زهريًّا وبنّي اللون، أحد أحدث فساتينها، وحتى يومنا هذا، نتشارك أنا وديمال ارتداءه، لأنّه فستان جميل ولأنّه يذكّرنا بابنة أخينا. وقالت لي: «ارتديه تحت العباءة»، فقبّلتها على وجنتها.

جاء أحد الحرّاس إلى الباب وقال: «لديك خمس دقائق. ثم يريدك الحاج سلمان أن تنزلي».

بعد أن غادر، راحت كاثرين تبحث في جيب فستانها ثم أعطتني زوج أقراط وقالت: «ابقيها معك. قد لا نرى بعضنا البعض مجددًا».

«إن سنحت لك فرصة للهرب، فاهربي»، همست لي وهي تمسك بيدي وترافقني إلى الدرج. «أنا أيضًا سأحاول». كنّا نمسك بأيدي بعضنا البعض حتى وصلنا إلى المطبخ فسحبني الحاج سلمان إلى الخارج.

كنا صامتَين بينما يقود الحاج سلمان سيارته إلى المنزل. بكيت بهدوء على كاثرين ونسرين، متضرّعة لله أن يبقيهما على قيد الحياة أيًّا كان ما ستتعرّضان له. وعندما وصلنا، طلب مني الحاج سلمان أن أدخل مع أحد الحرّاس وأنتظره مضيفًا: «لن أتأخر». فبدأت أدعو لنفسي.

وقبل أن أدخل، نظر إليَّ الحاج سلمان مطوّلًا قبل أن يقول: «عندما أعود، لا أبالي إن كنت لا تزالين في مرحلة الحيض. أعدك، سأدخل بك».

هكذا قالها: «سأدخل بك».

الفصل الثامن

على مر السنوات الثلاث الأخيرة، كنت أسمع قصصًا عن نساء أيزيديّات أخريات قد ألقي القبض عليهن وبِتْنَ جواريَ لدى الدولة الإسلاميّة. وقد تعرّضن كلّهن تقريبًا للعنف نفسه. فكان يتم شراؤنا في سوق، أو تقديمنا هديّة لمنضمٍّ جديد أو لمسؤول رفيع المستوى، ثم نؤخذ إلى منزله، حيث نتعرّض للاغتصاب والمذلّة، وللضرب في أغلب الأحيان. بعد ذلك، يتم بيعنا أو تقديمنا كهدايا مرة أخرى، ثم اغتصابنا وضربنا، وهكذا دواليك طالما ثمّة من يرغب بنا ولم نلقَ حتفنا بعد. ولو حاولنا الهرب، تتم معاقبتنا بقسوة. وكما حذّرني الحاج سلمان، كان تنظيم الدولة يعلّق صورًا لنا عند نقاط تفتيشه، بينما طلب من المواطنين في الموصل إعادة أي جارية هاربة إلى أقرب مركز للدولة الإسلاميّة. وقيل لهم إنّهم يحصلون على جائزة بقيمة خمسة آلاف دولار لو فعلوا ذلك.

كان الاعتداء هو الجزء الأسوأ. فهو يسلبنا إنسانيتنا ويجعل التفكير بالمستقبل - العودة إلى المجتمع الأيزيدي والزواج وإنجاب الأطفال والشعور بالسعادة - شيئًا مستحيلًا. لذلك، كنا نتمنّى أن يقتلونا عوضًا عن ذلك.

كان الدواعش يعلمون جيّدًا كم من المريع بالنسبة لفتاة أيزيديّة غير متزوّجة أن تعتنق الإسلام وتفقد عذريّتها، فكانوا يستخدمون ضدَّنا أسوأ مخاوفنا: ألّا يرحّب بنا مجتمعنا ورجال الدين عندنا بعد ذلك. فكان الحاج سلمان يقول لي: «حاولي أن تهربي، لا يهمّ. وحتّى لو وصلت إلى منزلك، فسيقتلك والدك أو عمّك. أنت لم تعودي عذراء، وأنت مسلمة الآن!».

كانت النساء يخبرن روايات عن كيفيّة مقاومتهن لمهاجميهنّ، وكيف حاولن ضرب الرجال الذين كانوا يتخطّينهم قوّة. ومع أنّهن ما كنَّ ليتفوّقن على المسلّحين الذين كانوا مصرّين على اغتصابهن، إلّا أن مقاومتهن جعلتهن يشعرن بحال أفضل بعد فعل الاغتصاب. فكن يقلن: «لم نسمح لهن مرة بالقيام بالأمر بسهولة». وسمعتُ إحداهن تقول: «كنت أقاوم وأضرب وأبصق في وجهه وأفعل أي شيء». تلك أصرّت على أن تفقد عذريتها بنفسها مستخدمة زجاجة قبل أن يغتصبها المسلّح، بينما حاولت أخريات إضرام النار بأنفسهن. وبعد أن تم تحريرهن، تمكنّ من القول بكل فخر إنّهن خدشن ذراع آسرهن بقوّة جعلت الدماء تسيل، أو كدّمن وجنتيه بينما كان يغتصبهن. فتُضِفن: «أقلّه، لم أسمح له أن يقوم بما يريد»، وكل حركة، مهما كانت صغيرة، شكّلت رسالة إلى الدواعش أنهم لم يملكوهنَّ بالفعل. لكن صوت النساء اللواتي لم يعدن على قيد الحياة، أولئك اللواتي قتلن أنفسهن بدل أن يتعرّضن لمذلة الاغتصاب، كان الصوت الذي خلّف الصدى الأقوى.

لم يسبق لي أن قلتُ لأحد من قبل، لم أقاوم الحاج سلمان أو أي شخص آخر قدم للاعتداء عليّ. كان يقول لي الناس دائمًا: «آه كم أنت شجاعة، كم أنت قوية». فأقبض على لساني، لأنّني أريد أن أصحّح لهم

وأقول، بينما ضربت الفتيات الأخريات مهاجميهن وقمن بعضهن، أنا بكيت ليس إلّا. «أنا لست قويّة مثلهن»، هذا ما أريد قوله، لكنّني أخشى من نظرة الناس إليّ. أحيانًا، يبدو وكأن كل ما يكترث له المرء عندما تكون القضيّة قضية مجزرة أو إبادة هو الاستغلال الجنسي الذي تعرّضت له الفتيات الأيزيديّات، فيبحثون عن قصّة نضال. أمّا أنا، فأريد الكلام عن كل شيء - عن مقتل إخوتي، واختفاء أمّي، وغسل دماغ الصبية - وليس الاعتداء وحسب. أو لربّما ما زلت خائفة مما سيفكّر به الآخرون. لقد استغرقت وقتًا طويلًا قبل أن أتقبّل فكرة أن عدم مقاومتي مثل سائر الفتيات لا تعني أنّني كنت موافقة على ما يفعله هؤلاء الرجال.

قبل أن يصل الدواعش إلينا، كنت أعتبر نفسي شخصًا شجاعًا صادقًا. فأيًّا تكن المشاكل التي كنت أواجهها، وأيًّا تكن الأخطاء التي كنت أرتكبها، كنت أعترف بها صراحة أمام عائلتي. فكنت أقول لهم: «هذه أنا»، وكنت جاهزة دائمًا لتقبّل رد فعلهم. وطالما كنت مع عائلتي، كان باستطاعتي مواجهة أي أمر. لكن من دون عائلتي، وأنا هنا، أسيرة في الموصل، شعرت بوحدة جرّدتني من إنسانيّتي. لقد مات شيء ما داخلي.

كان منزل الحاج سلمان يكتظ بالحرس، فتوجّهت إلى الأعلى مباشرة. بعد حوالى النصف ساعة، قدم أحد الحرّاس، واسمه حسام وهو يحمل فستانًا وبعض الماكياج وكريمًا مزيلًا للشعر. «سلمان قال إنه عليك أن تستحمّي وتستعدّي قبل أن يأتي»، قال لي قبل أن يغادر، تاركًا الأغراض على السرير.

أخذت حمّامًا، وقمت بما قاله حسام، فاستخدمت المسحوق لنزع كل الشعر عن ساقيّ ومنطقة تحت الإبط. كان المسحوق من علامة تجاريّة غالبًا ما كانت تحضرها لنا أمّي وتطلب منّا استخدامها، ولطالما

كرهته، مفضّلة عجينة السكر الشائعة في الشرق الأوسط. فقد كان للمسحوق رائحة كيميائيّة قويّة تجعلني أشعر بالدوار. في الحمّام، لاحظت أن الطمث في الواقع قد انقطع.

ثم ارتديت الفستان الذي تركه لي حسام. كان فستانًا أسود وأزرق قصيرًا لا يبلغ حد الركبتين، مع شرائط رفيعة من على الكتفين. كان في داخله حمالة صدر لذا لم يكن من داع لأرتدي واحدة. كان من نوع فساتين الحفلات التي كنت أراها على شاشة التلفزيون، وليس من الفساتين المتواضعة التي يمكن ارتداؤها في كوجو، أو حتى في الموصل. كان نوعًا من الفساتين التي ترتديها المرأة حصرًا لزوجها.

وضعت الفستان، ووقفت أمام مرآة الحمّام. كنت أدرك أنني لو لم أضع أيًا من مساحيق التبرّج، فسألقى عقابًا قاسيًا، لذا أخذت أبحث في الكومة التي تركها لي حسام. في العادة، كنت أنا وكاثرين نغتبط بمساحيق التبرّج الجديدة التي كانت من علامة تجاريّة أعرفها وبالكاد أستطيع شراءها. ولكنّا وقفنا أمام مرآة غرفة النوم، نضع ظلال العيون من مختلف الألوان ونحيط عينينا بالكحل الأسود السميك، ونغطّي حبوب النمش بكريم الأساس. لكن في منزل الحاج سلمان، بصعوبة أمكنني الوقوف للنظر إلى نفسي في المرآة. وضعت بعض أحمر الشفاه الزهري وماكياج العينين. ما يكفي، على ما كنت آمل، لتفادي تعرّضي للضرب.

نظرت إلى المرآة للمرّة الأولى مذ غادرت كوجو. قبل ذلك، كنت عندما أضع الماكياج، أشعر دائمًا عندما أنتهي أنّني أبدو شخصًا آخر، وكنت أحب ذلك التغيير. لكن في ذلك اليوم عند الحاج سلمان، لم أشعر بأنّني أبدو مختلفة. فأيًا تكن كمّية أحمر الشفاه التي أضعها، ذاك

الوجه في المرآة يعكس تمامًا ما أصبحته - جارية تتحوّل في أي لحظة مكافآة لإرهابي. جلست على السرير أنتظر أن يُفتح الباب.

بعد أربعين دقيقة، سمعت الحرس في الخارج يلقون التحيّة على آسري، ثم دخل الحاج سلمان إلى الغرفة. لم يكن بمفرده، لكن الرجال الذين كانوا برفقته بقوا في الردهة. وما إن رأيته، حتى انهرت، محاولة أن أتكوّر على نفسي حتى لا يلمسني، كما طفل صغير.

«السلام عليكم»، حيّاني الحاج سلمان وهو يمرّر نظراته عليّ من أعلى رأسي وحتّى أخمص قدميَّ. بدا متفاجئًا أنّني رتّبت هندامي كما طلب مني. فقال: «كان لدي سبايا أخريات اضطررت لبيعهن بعد أيّام قليلة. لم يقمن بما كنت أطلبه منهن. أمّا أنت فقمت بعمل جيد». ثم غادر مغلقًا الباب وراءه وتركني أشعر بعريي وخجلي.

كان المساء قد حل عندما فُتح الباب مجدّدًا. هذه المرة، سرح حسام بنظره في أرجاء الغرفة قبل أن يقول: «يريدك الحاج سلمان أن تحضري الشاي للضيوف».

«كم عددهم؟ ومن هم؟». لم أكن أريد أن أغادر الغرفة وأنا أرتدي هذا الزي، لكن حسام رفض أن يجيب، بل قال: «تعالي وحسب. واستعجلي فالرجال ينتظرون».

للحظة، كنت آمل أن لا يحدث الاعتداء في تلك الليلة. فرحت أسرّ لنفسي، هو سيقدمني لأحد أولئك الرجال، ومشيت إلى الأسفل نحو المطبخ.

كان أحد الحرّاس قد أعدَّ الشاي، فراح يسكب السائل البنّي الداكن في أقداح زجاجيّة صغيرة، ويرتّبها فوق طبق التقديم مع سكّرية بيضاء،

قبل أن يترك الصينيّة على الدرج. فحملتها وأحضرتها إلى غرفة المعيشة، حيث كانت مجموعة من المسلّحين تجلس على الأرائك الفخمة. «السلام عليكم»، قلت وأنا أدخل، ثم درت حول الغرفة، أضع أقداح الشاي على الطاولات الصغيرة، المصفوفة بالقرب من أقدام الرجال. كان باستطاعتي أن أسمعهم يضحكون ويتكلّمون باللغة العربيّة بلهجة سوريّة، لكنني لم أعِر أي اهتمام لما يقولونه. بل كانت يداي ترتجفان بينما أقدّم الشاي. وكنت أشعر بنظراتهم تتوقّف عند كتفيَّ العاريين وساقَيَّ. وقد أخافتني النبرة على وجه الخصوص. فقد كنت أكيدة أنّهم ينوون أخذي خارج العراق.

قال أحد الرجال: «الجنود السوريّون فظيعون»، فراح الآخرون يضحكون. «يستسلمون سريعًا. كم هم خائفون!».

أردف الحاج سلمان: «أذكر أنّهم استسلموا وقدّموا بلادهم بسهولة كبيرة. تمامًا كما سنجار!». كان التعليق الأخير موجّهًا إلي، فرحت أدعو ألّا تكون ملامحي قد أفشت كم آلمني سماع ذلك. حملت قدح شاي قدّمته للحاج سلمان. فقال من دون أن ينظر إليّ: «ضعيه على الطاولة».

ثم ذهبت إلى الممر، حيث جلست أنتظر. بعد نحو العشرين دقيقة، وقف الرجال، وعندما غادروا كلّهم المنزل، قدم الحاج سلمان لرؤيتي، حاملًا عباءة. وقال: «حان وقت الصلاة. غطّي نفسك حتى نصلّي معًا». لم أكن أعرف تلاوة الآيات، لكنّني كنت أتقن كل حركات الصلاة، فوقفت إلى جانبه، أحاول أن أقلّد تمامًا ما يفعله حتى يرضى عنّي ولا يؤذيني. وعندما عدنا إلى الغرفة، وضع بعض الأناشيد الدينيّة، ثم دخل الحمام. وعندما خرج، أطفأ الأناشيد فساد الصمت أرجاء الغرفة.

ثم قال كما في الليلة السابقة: «انزعي عنك فستانك»، ونزع هو ملابسه. ثم جاء إليَّ ودخل بي، تمامًا كما قال سيفعل.

كانت كل لحظة مريعة. فلو حاولت أن أبعد عنه، كان يدفعني إليه بقوة. كان يصرخ صريخًا كفيلًا بجعل الحرّاس يسمعونه - لا بل كان يصرخ كما لو أنّه أراد أن تعرف الموصل كلها أنّه يغتصب أخيرًا سبيّته - ولم يحرّك أحد ساكنًا. وكان يبالغ في أفعاله، وفي عنفه، كما لو أنّه يقصد إلحاق الأذى بي. فما من رجل قد يلامس زوجته على هذا النحو. كان الحاج سلمان كبيرًا اكبر منزل، كبيرًا كبر المنزل الذي كنّا فيه. وكنت كما الطفل الصغير، يبكي مناديًا أمه.

الفصل التاسع

بقيت في منزل الحاج سلمان لأربع ليال أو خمس قبل أن يقرّر التخلّص مني. كنت في حالة وجع دائم. وكل يوم، كلّما سنحت له الفرصة، كان يغتصبني، وكل صباح قبل أن يغادر، كان يملي عليّ تعليماته: «نظّفي المنزل. اطبخي هذا الطعام. ارتدي هذا الفستان». غير ذلك، كل ما كان يقوله لي: «السلام عليكم». كان يأمرني أن أتصرّف كزوجة مطيعة، وكنت على درجة من الذعر جعلتني أفعل كل ما يطلبه منّي. فلو كان ثمّة من يراقب عن بعد، عن بعد يعجز فيه عن رؤية كم كنت أبكي أو كم كان جسدي يرتعش كلّما لمسني، لكان خالنا متزوّجَين بالفعل. فقد كنت أؤدّي دور الزوجة بينما يملي عليّ أوامره. لكنّه لم يناديني يومًا بالزوجة، بل بالسبيّة ليس إلا.

كان حارس يدعى يحيى يحضر الطعام والشاي إلى الغرفة التي كنت أتشاركها مع سلمان. كان شابًّا، لربّما في الثالثة والعشرين من عمره، ولم يجرؤ يومًا على النظر إليّ بينما كان يضع الصينيّة داخل الغرفة. لم يكونوا يحرمونني من أي طعام أو شراب – فقد كنت على قدر من القيمة كسبيّة لا يريدون أن يخاطروا بقتلي – لكنّني ما كنت لآكل سوى القليل القليل من الأرز وبعض الحساء الذي كانوا يقدّمونه لي، ما

يكفيني من قوت كي لا أشعر بالدوار. كنت أنظّف المنزل كما أمرني الحاج سلمان فعله، من الأعلى إلى الأسفل، فأفرك الحمّامات، التي سرعان ما كانت تتّسخ بفعل تواجد ستّة حرّاس وسلمان يستخدمونها، ثم أمسح الدرج. وكنت ألتقط الملابس التي كانوا يتركونها أينما كان في المنزل - وهي عبارة عن سراويل سود خاصة بالدولة الإسلاميّة ودشداشات بيض - وكنت أضعها في الغسّالة. كما كنت أرمي بقايا الأرزّ في القمامة وأغسل أقداح الشاي التي تحمل طبعات شفاههم. كان منزله يعج بالحرّاس، لذا لم يكونوا يخشون أن أكتشف أي أمر أو أهرب، وقد سُمح لي بدخول أي غرفة أردت باستثناء المرأب، حيث أعتقد أنّهم كانوا يحتفظون بأسلحتهم.

كنت أتأمّل، من خلال النافذة، المدينة تعيش أيّامها. كان الحاج سلمان يعيش في منطقة مكتظّة من الموصل، على مقربة من الطريق السريع الذي غالبًا ما يجتازه عدد كبير من السيّارات. وكانت نوافذ الدرج تطل على منحدر دائري، فتراني أتخيّل نفسي أحاول أن أركض إلى هناك بحثًا عن أمان. وكان الحاج سلمان لا ينفك يحاول تحذيري من خطر الهرب فيقول: «لو حاولت يا نادية، فستندمين، أعدك بذلك. لن يكون عقابك سهلًا». وقد أعطاني تذكيره المتواصل بعض الأمل. فما كان ليقلق لو لم تنجح بعض الفتيات في الهرب من آسريهن.

كان الدواعش على قدر كبير من الدقة والحذَر عندما يتعلّق الأمر باستعباد الفتيات الأيزيديّات، لكنّهم ارتكبوا الأخطاء وأعطونا الفرص. وأكبر خطأ ارتكبوه كان جعلنا نرتدي ملابس مثل النساء في الموصل، أي العباءات السود والنقاب. فما إن نتدثّر خلف هذا الزي، حتى ننصهر فيه، ومع تولّي داعش زمام الأمور، كان الرجال لا يجرؤون على

التقرّب من امرأة لا يعرفونها في الشارع، وبالتالي يقلّ احتمال اقتفاء أثرنا. كنت بينما أمسح الدرج، أتأمّل النساء يمشين في المدينة، وكلّهنّ يرتدينَ الزّي نفسه. كان يستحيل معرفة من قد تكون امرأة سنّية تذهب إلى السوق، ومن قد تكون فتاة أيزيديّة تهرب من آسرها.

كان عدد من مراكز الدولة الإسلاميّة يقع في أحياء مكتظّة مثل منزل الحاج سلمان، الأمر الذي قد يفيد إن خرجت بمفردي. وكنت أتخيّل نفسي أتسلّق نافذة المطبخ الكبيرة وأعبر إلى الخارج، وأنا أضع العباءة، قبل أن أندسّ بين الجموع. وأنجح بطريقة أو بأخرى في بلوغ موقف سيّارات الأجرة، فأجد لي مقعدًا في سيّارة تقلّني إلى كركوك، وهي نقطة عبور داخل كردستان العراق. ولو حاول أحد التكلّم معي، فسأجيب أنّني مسلمة من كركوك أقوم بزيارة عائلتي. أو لربّما أقول إنّني هربت من الحرب في سوريا. كنت قد حفظت بعض آيات القرآن لو حاول أي من العسكر اختباري، وكانت لغتي العربيّة ممتازة، وكنت أتقن ترديد الشهادتَين. حتى إنّني حفظت نشيدين للدولة الإسلاميّة، أحدهما يحتفل بالانتصارات العسكرية: «بادوش: هدمناها، بادوش: هدمناها، تلّعفر الخير: رجّعناها، تلعفر الخير: رجعناها». كنت أكره كل كلمة وكل عبارة فيها، لكن تلك الأغاني كانت تدور في ذهني وأنا أنظّف. أما الأغنية الأخرى فكانت تقول: «سلّم روحك لله والدين». وكنت أقول لنفسي: «أيًّا يحدث، لن أقرّ بأنّني أيزيديّة».

ومع ذلك، كنت على يقين بأن هذه الخطّة ضرب من ضروب المستحيل. فبيت سلمان كان مركزًا يعجّ بمسلّحي الدولة الإسلاميّة، وكان يستحيل أن أتسلّق النافذة وأصل إلى سور الحديقة من دون أن يلاحظني أي منهم. بالإضافة إلى ذلك، كان الحاج سلمان لا يسمح لي

بارتداء العباءة والنقاب إلّا عندما أكون في الخارج معه أو مع حارس يستطيع مراقبتي. في المنزل، كنت أرتدي الفساتين التي أحضرتها معي من كوجو أو ما يختاره لي الحاج سلمان. وفي الليل بينما أستلقي على السرير، أنتظر صرير الباب يؤذن بوصول الحاج سلمان، كنت أعيد في رأسي هيامات هروبي فأعترف لنفسي أنّها لن تحصل يومًا، فأغرق في حزن عميق يدفعني إلى الصلاة من أجل ملاقاة ربّي سريعًا.

بعد ظهر أحد الأيام، بعدما اغتصبني، طلب مني الحاج سلمان أن أستعد لاستقبال ضيوف سيأتون الليلة. وقال لي: «قد تعرفين السبيّة. لقد طلبت أن تراكِ».

راحت نبضات قلبي تطرق طرقًا. من تكون تلك السبيّة؟ على قدر ما كنت أتمنى رؤية وجه مألوف، لم أكن أكيدة من أنّني أستطيع تحمّل رؤية كاثرين أو إحدى شقيقاتي في الملابس التي كان يجعلني الحاج سلمان أرتديها. في العادة، عندما كان سلمان يطلب مني أن أعدّ نفسي للزوار، كان يريدني أن أرتدي فساتين مثل ذلك الأزرق والأسود القصير، وكنت أشعر بذلٍّ كبير لمجرّد فكرة أن تراني فتاة أيزيدية أخرى هكذا. لحسن الحظ، تمكّنت من إيجاد فستان أسود كان يغطّي على الأقل ركبتيَّ مع أن شرائطه رفيعة على الكتفين. رفعت شعري ووضعت القليل من أحمر الشفاه لكنّني تركت عينَيَّ من دون أي مساحيق. وعندما أبدى الحاج سلمان رضاه عن مظهري، ذهبنا إلى الأسفل.

كان العسكري الزائر نفّاع، الرجل من المركز الأول الذي عاقبني على صراخي في الباص. أخذ يعبس في وجهي لكنّه وجّه كلامه للحاج سلمان حصرًا. فقال: «سبيّتي لم تنفكّ تطلب رؤية سبيّتك. علينا أن نجلس معهما ونستمع لما تقولانه، لأنّني لا أثق بنادية».

كانت سبيّة نفاع لميا، وهي شقيقة صديقتي ولاء، فهرعنا إلى حضن بعضنا البعض نقبّل بعضنا وقد غمرتنا الراحة لرؤية وجه مألوف. ثم جلسنا الأربعة معًا، وعندما بدأ سلمان ونفّاع بالتكلّم معًا متجاهلينا، انتقلنا أنا ولميا من العربيّة إلى الكرديّة.

كانت لميا ترتدي فستانًا طويلًا وحجابًا يغطّي شعرها. لم نكن ندري كم سنبقى معًا، فتكلّمنا سريعًا، محاولتَيْن أن ندلي بأكبر قدر من المعلومات. سألتني لميا: «هل لمسك؟».

فسألتها: «هل لمسك أنت؟». فأومأت برأسها إيجابًا. ثم اعترفت لي قائلة: «جعلني أعتنق الإسلام، ثم تزوّجنا في المحكمة»، فأخبرتها أن الأمر نفسه حصل معي، مضيفة: «يجب ألا تعتبري الأمر زواجًا. هو لا يشبه زيجاتنا في كوجو».

ردّت عليّ، «أريد أن أهرب. لكن ثمة دائمًا من يزور نفّاع ويستحيل أن أخرج».

«الأمر نفسه هنا. الحرس أينما كان. وقد أخبرني أنّني لو حاولت الهرب، فسيعاقبني عقابًا ليس سهلًا». فسألَت بهدوء: «ماذا تخالينه قد يفعل؟»، وهي ترمي آسرينا بنظرة خاطفة. كانا يتكلّمان مع بعضهما البعض، غافلَين عمّا نقوم به.

فأجبتها: «لا أدري. أمر سيئ».

«أمرناكما يا فتاتان أن تتكلّما بالعربية!»، صرخ بنا سلمان. كانا قد سمعانا وقد استشاطا غضبًا لعجزهما عن فهم ما نقوله.

فسألت لميا بالعربيّة: «ماذا حصل مع ولاء؟». لم أكن قد رأيت صديقتي مذ غادرنا كوجو.

فأخبرتني لميا: «في الليلة نفسها التي أخذوني، وزّعوا سائر الفتيات الأخريات. لا أدري ماذا حلّ بولاء. لقد طلبت من نفّاع مرارًا وتكرارًا أن يجدها، لكنه لم يفعل. ماذا عن ديمال وأدكي»؟.

فأجبتها: «بقيتا في صولاغ مع أمّي». ساد صمت بيننا للحظات كفيلة بأن تجعل غياب نسائنا يسقط ثقيلًا علينا.

بعد خمس وثلاثين دقيقة، نهض نفّاع مغادرًا. قبّلنا أنا ولميا بعضنا مودّعتَيْن. همست في أذنها بينما أسدل النقاب على وجهها: «اعتنِ بنفسك ولا تنزعجي. كلّنا نعاني الأمر نفسه». ثم غادرا، فبقيت وحيدة مع سلمان.

صعدنا إلى غرفتي. قال لي بينما كدنا نصل إلى الباب،: «كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها تعابير وجهك تتغيّر».

فاستدرت إليه. ولم أدّعِ أنني لست غاضبة. «وكيف تريد أن تكون تعابيري عندما تسجنني طوال النهار وتجعلني أقوم بأمور لا أرغب بها؟».

فأجابني: «ستعتادين الأمر. ادخلي». وفتح الباب ليبقى في الغرفة معي حتى الصباح.

كان الحاج سلمان يكرّر على مسامعي: «سأعاقبك لو حاولت الهرب». لكنّه لم يقل ما الذي سيفعله على وجه التحديد. فلا شك في أنّه سيضربني، ولن تكون المرّة الأولى التي يضربني فيها. فقد كان يضربني طوال الوقت. كان يضربني إذا لم تعجبه الطريقة التي أنظّف فيها المنزل، ويضربني كلّما أغضبه أمر ما في العمل، أو إن بكيت أو أبقيت عينيَّ مغمضتين بينما يغتصبني. لربّما لو حاولت الهرب، سيضربني

ضربًا مبرّحًا يخلّف آثارًا لا تُمحى أو يشوّهني، لكنّني لم أبالي. فلو كان أحد الجراح أو الإصابات تحول دون أن يغتصبني هو أو أي شخص آخر، فأنا مستعدّة أن أحمله نيشانًا على جسدي.

أحيانًا بعد أن يغتصبني، كان يقول لي إن لا فائدة حتّى من محاولة الهرب. فيؤكّد لي: «لم تعودي عذراء، وأنت الآن مسلمة. ستقتلك عائلتك. لقد انتهيتِ». وعلى الرغم من أنّني أُجبرت على ذلك، إلا أنّني كنت أصدّقه. كنت أشعر بأنني حقًا انتهيت.

كنت قد فكّرت في ألف وسيلة ووسيلة لجعل نفسي أبدو مقيتة – كانت الفتيات في المركز يمرّغن وجوههن بالرماد والتراب، ويعقدن شعرهن عقدًا عديدة، ويمتنعن عن الاستحمام في مسعى لتنفير الشارين – لكنّني لم أستطع التفكير بحيلة غير جلد وجهي أو قص شعري، وهو ما افترضت أنه قد يحمل سلمان على ضربي. لو حاولت تشويه نفسي، فهل يقتلني؟ لا أعتقد ذلك. فأنا أمثّل له قيمة أكبر وأنا على قيد الحياة، وكان يعلم جيّدًا أن مقتلي يشكّل خلاصي. فلم يسعني إلّا أن أتخيّل ما قد يفعله بي سلمان لو حاولت الهرب. ثم سنحت لي الفرصة في أحد الأيام لاختباره.

ذاك اليوم عند المساء، عاد سلمان إلى المنزل مع رجلين، مسلّحَين لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل كانا مسافرَيْن من دون سباياهما. سألني: «هل انتهيت من تنظيف المنزل؟». وعندما قلت إنّني فعلت، طلب مني أن أقضي الأمسية في غرفتنا، بمفردي. «الطعام في المطبخ. إن كنت جائعة، أخبري حسام، وسيجلبه إليك». كان يفترض بي أن أبقى بمنأى عنهم وأنتظره.

لكنّه طلب مني أوّلًا أن أحضر الشاي للجميع. أراد أن يتباهى

بسببيّته. ففعلت كما طلب مني، وقد ارتديت أحد الفساتين التي كان يحبّها، وأخذت الشاي من المطبخ إلى غرفة المعيشة. وكالعادة، كان المسلحون يتكلّمون عن انتصارات الدولة الإسلاميّة في سوريا والعراق. رحت أنصت بانتظار أن أسمع اسم كوجو، لكنّهم لم يأتوا على ذكر بلدتي.

كانت الغرفة تعج بالرجال، اثنان منهم لا غير من الزائرين. وقد بدا وكأن حرس المركز كلّهم قد التحقوا بسلمان وزائريه إلى مائدة العشاء، تاركين مراكزهم شاغرة للمرّة الأولى منذ وصلت. تساءلت إن كان هذا ما حمله على الإصرار أن أبقى في غرفتي حتى يغادر الضيوف. فلو التحق بهم الحرس كلهم، هذا يعني أن ما من مسلّحين يحرسون الحديقة أو يراقبون للتأكد من أنّني لو أغلقت باب الحمّام، لن أحاول الخروج من النافذة. لن يكون ثمّة من يقف خارج غرفتي، يصغي لما يجري في الداخل.

عندما انتهيت من تقديم الشاي، صرفني الحاج سلمان، فعدت إلى الطابق الأعلى. كانت معالم خطّة قد بدأت ترتسم في ذهني، فتحرّكت سريعًا، وقد أدركت أنّني لو توقّفت برهة لأفكّر في ما سأفعله، فقد أتراجع، وقد لا تسنح لي أبدًا فرصة مثل هذه مجدّدًا. وبدل الذهاب إلى غرفتي، توجّهت إلى غرفة المعيشة، حيث كنت أعلم أن الخزائن لا تزال تحتوي على ملابس تركتها فتيات أيزيديّات والعائلة التي كانت تملك المنزل، فرحت أبحث عن عباءة إضافيّة ونقاب. وعندما وجدتها سريعًا، ارتديتها فوق فستاني. وكي أغطّي شعري ووجهي، اخترت وشاحًا أسود طويلًا بدل النقاب، على أمل أن أبلغ بر الأمان قبل أن يلاحظ أحد الفرق. ثم توجهت إلى النافذة.

كنت في الطابق الثاني، لكنّه لم يكن شاهق الارتفاع، وقد بُني الجدار تحت النافذة بطريقة جعلت بعض الأحجار الترابيّة اللون تبرز ناتئة بضع سنتمترات. كان تصميمًا شائعًا في الموصل، يشكّل نوعًا من الزينة، لكنّني فكّرت في استخدام تلك الأحجار كسلّم أنزل عليه إلى الحديقة. أخرجت رأسي من النافذة، بحثًا عن الحرس الذين يذرعون عادة الحديقة بخطواتهم طوال الوقت، لكنّها كانت خالية. رأيت شيئًا أسطواني الشكل يتكئ على سور الحديقة؛ سيشكل الخشبة المثاليّة لأستند إليها.

وراء سور الحديقة، كان الطريق السريع يزدحم بالسيّارات، لكن الشوارع بدأت تفقد ضجيجها بينما يتوجّه الناس إلى منازلهم مساءً، فرحت أفكّر بأن المغيب قد يشكّل أفضل توقيت كي لا يتنبّه أحد للفارق بين الوشاح الأسود والنقاب الحقيقي. كنت آمل أن أجد أحدًا يساعدني قبل أن يتم اكتشاف أمري. لقد تركت كل شيء ورائي في الغرفة باستثناء حليّي وبطاقة أمّي التموينيّة التي خبّأتها داخل حمالة صدري.

وضعت بعناية رجلي خارج النافذة، ثم أتبعتها برجلي الأخرى. وبعد أن أصبح نصف جسدي متدلّيًا خارج النافذة والجزء الأعلى منه لا يزال في الداخل، نقلت رجليّ، محاولة أن أتحسّس إحدى تلك الأحجار. لكنّ ذراعيّ اهتزتا، محاولتين التشبّث بحافة النافذة، فعمدتُ سريعًا إلى تثبيت نفسي. كنت أستطيع الجزم بأن عملية النزول لن تكون صعبة. وكنت قد بدأت أبحث عن الأحجار نزولًا عندما سمعت صوت مسدّس يتم حشوه في الأسفل. تجمّدت الدماء في عروق، وجسمي لا يزال مقسومًا بين خارج النافذة وداخلها. صرخ بي صوت ذكوري: «عودي إلى الداخل!». ومن دون أن أنظر إلى الأسفل، رفعت نفسي

سريعًا ودخلت عبر النافذة، لأسقط أرضًا، ونبضات قلبي تتسارع من الخوف. لم أعرف من أمسك بي. فكل حرس الحاج سلمان كانوا في غرفة المعيشة معه. كوّرت نفسي على الأرض تحت النافذة إلى أن سمعت وقع خطوات تتّجه نحوي، وعندما نظرت كان الحاج سلمان يقف فوقي، فهرعت بأسرع ما يمكنني إلى غرفتي.

فتح الباب، ودخل الحاج سلمان، حاملًا سوطًا بين يديه. رحت أصرخ، ملقية بنفسي على السرير، وساحبة اللحاف السميك على جسدي ورأسي، محاولة أن أحمي نفسي كما قد يفعل طفل يختبئ من أهله. لكن سلمان وقف إلى جانب السرير ومن دون أن ينبس بكلمة شرع يضربني. كان السوط ينزل عليّ فيسلخني الضربة تلو الأخرى، يسوطني بسرعة وبغضب لم يستطع اللحاف البائس أن يحميني منه. راح الحاج سلمان يصرخ بصوت لم يسبق لي أن سمعته بهذه الحدة والارتفاع: «اخرجي! اخرجي من تحت اللحاف وانزعي ملابسك!».

لم أكن أملك أي خيار. رفعت اللحاف عني، وبدأت أنزع ملابسي ببطء وسلمان يحوم فوقي وهو يحمل السوط. وعندما أصبحت عارية بالكامل، وقفت بلا حراك، أنتظر ما ينوي فعله بي ودموعي تنهمر صامتة. افترضت أنه سيغتصبني، لكن عوضًا عن ذلك، بدأ يسير نحو الباب. «نادية، قلت لك إنّك لو حاولت الهرب، سيحصل لك من السوء ما لا تستطيعين تصوّره». كان قد بدأ يستعيد صوته المتّزن. ثم فتح الباب وذهب بعيدًا.

بعد دقائق، دخل مرتجى ويحيى وحسام والحراس الثلاثة وراحوا يحدّقون بي. وقفوا حيث كان سلمان قبل لحظات. وما إن رأيتهم، حتى فهمت كيف سيكون عقابي. كان مرتجى أول من جاء إلى السرير.

حاولت أن أوقفه، لكنه كان فائق القوة. دفعني إلى السرير، ولم يكن ثمّة ما أستطيع فعله.

بعد مرتجى، اغتصبني حارس آخر. رحت أصرخ مناديةً أمّي وأخي خيري. في كوجو، كانا يأتيان كلّما احتجت إليهما. وحتى لو أحرقت إصبعي حرقًا بسيطًا، لو ناديتهما، لكانا يهرعان للتخفيف عنّي. لكن في الموصل، كنت وحيدة، لا أملك سوى اسميهما. لم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء أو أقول أي جملة تردع الرجال وتحول دون اغتصابهم لي. آخر ما أتذكّره من تلك الليلة كان وجه أحد الحراس بينما كان يدنو مني.

أذكر أنه قبل أن يحين دوره ليغتصبني، نزع نظّارتيه ووضعهما بعناية على طاولة. أعتقد أنه كان يخشى أن يكسرهما.

عندما استيقظت في الصباح، كنت وحيدة عارية. لم أستطع الحراك. أحدهم، وأعتقد أنه أحد الرجال، وضع غطاءً عليّ. بدأ رأسي يدور ويدور كلّما حاولت النهوض. كان جسدي يؤلمني كلما تحرّكت وأنا أحاول أن أجلب ملابسي. كل حركة بدت وكأنّها ستعيدني إلى حالة اللاوعي، كما لو أن ستارًا أسود قد أسدل نصفيًّا أمام عينيّ، أو قد أضحى كل ما في هذا العالم ظلالًا.

بعد جُهد، توجّهت إلى الحمّام لأستحم. جسدي كان يغطيه رجس هؤلاء الرجال، ففتحت المياه ووقفت لفترة طويلة، أنتحب. ثم نظّفت نفسي جيدًا. رحت أفرك جسدي، وأسناني، ووجهي وشعري وأدعو طوال الوقت وأطلب من الله أن يساعدني ويغفر لي.

بعد ذلك، عدت إلى غرفتي واستلقيت على الكنبة. كان السرير لا يزال يعبق برائحة الرجال الذين اغتصبوني. لم يأتِ أحد لرؤيتي، مع

أنّني كنت أسمعهم يتكلّمون خارج غرفتي، وبعد لحظات نجحت في النوم. لم أحلم أي حلم. وعندما فتحت عينيَّ، كان سائق سلمان يقف أمامي، يهزّني من كتفي.

قال: «استيقظي يا نادية، وارتدي ملابسك. حان وقت الذهاب».

فسألته، وأنا أوضِّب أغراضي في حقيبتي السوداء: «إلى أين أنا ذاهبة؟».

أجابني: «لا أعلم، بعيدًا من هنا. لقد باعك الحاج سلمان».

الفصل العاشر

عندما وقعت في الأسر للمرة الأولى وعرفت ما يجري للفتيات الأيزيديّات، رحت أدعو أن يأسرني رجل واحد لا غير. فأن يتم شراؤك كجارية لمرّة واحدة، وأن يتم تجريدك من إنسانيّتك وكرامتك، لهو من السوء بما يكفي. ولا يسعني أن أتحمّل فكرة أن يتم تمريري من مسلّح إلى آخر، وانتقالي من منزل إلى آخر، أو نقلي عبر الحدود إلى الأراضي التي تسيطر عليها داعش في سوريا، كبضاعة في سوق تجاري، أو ككيس طحين على ظهر شاحنة.

في ذلك الزمن، لم أكن أعي كم يمكن أن تبلغ درجة الإجرام لدى الإنسان. كان الحاج سلمان أسوأ رجل قابلته في حياتي، وبعد أن سمح لحراسه باغتصابي، رحت أدعو أن يتم بيعي. لم آبه لمن ولم أكترث أين سيتم أخذي. حتّى إن احتمال التوجّه إلى سوريا، حيث يصعب كثيرًا الفرار، وهو ما كنت أعتبره في السابق بمثابة عقوبة إعدام، بدا لي أفضل من البقاء مع سلمان. وعندما أجلس أتخيّل كيف سأسوق داعش أمام العدالة لارتكابها تلك المجازر، أريد أن أرى الحاج سلمان - كما سلوان - قد ألقي القبض عليه حيًّا يرزق. أريد أن أزوره في السجن، حيث يكون محاطًا بمسؤولين عسكريّين عراقيّين وبحرّاس مدجّجين

بالسلاح. أريد أن أرى كيف يبدو، وأسمع ما سيقوله وقد جُرِّد من تلك القوّة التي يستمدّها من داعش. وأريده أن ينظر إليّ ويتذكّر ما فعله بي ويدرك أنه لهذا السبب لن يرى وجه الحرية بعد ذاك اليوم.

وضّبت حقيبتي ولحقت بالسائق إلى الخارج. كان الحاج سلمان في مكان ما في المنزل، لكنّني لم أره عندما غادرت.

عقدت العزم على ألّا أنظر إلى مرتجى والحرّاس الآخرين بينما أمرّ من أمامهم. كان الظلام قد بدأ يحل عندما غادرنا مركز الحاج سلمان، لكن الهواء كان لا يزال حارًّا، تتخلّله نسمة يتيمة كانت تلفح وجهي الذي لم يطلب منّي أحد تغطيته، فتنقل إليه حبيبات من التراب. لم أشعر بأي إحساس بالحرّية، مع أنّني كنت في الخارج. فاليقين بأن ما من آدميٍّ في الموصل يساعدني أصابني بيأس ما بعده يأس.

جلس حارس جديد، وهو رجل لم أتعرّف إليه، في المقعد الأمامي لسيّارة بيضاء صغيرة، إلى جانب السائق. سألني عندما غادرنا: «هل أنت جائعة؟». فأشرت برأسي نفيًا، لكنّنا توقّفنا أمام مطعم. دخله السائق ليعود بعد فترة محمّلًا بسندويشات ملفوفة بورق القصدير، رمى بأحدها إلى المقعد الخلفي إلى جانبي، مع زجاجة مياه. في الخارج، كان الناس يمشون، يُحضرون الطعام ويجلسون ويأكلون، أو يتكلّمون على هواتفهم. كنت أتمنّى لو أستطيع أن أفتح باب السيّارة وأريهم شكلي. كنت أتمنّى لو يساعدوني ما إن يبلغهم ماذا يجري. لكنّني لم أظنهم سيفعلون. انبعثت رائحة قوية من اللحم والبصل من ورق القصدير، فأغمضت عينيّ بينما سارت السيّارة، محاولة ألّا أتقيأ.

سرعان ما وصلنا إلى الحاجز الأوّل خارج الموصل. كان يشغله مسلّحو الدولة الإسلاميّة حاملين أسلحة رشاشة ومسدّسات. نظرت

من النافذة، متسائلة إن كانوا فعلًا يعلّقون صورًا للسبايا الهاربات كما قال الحاج سلمان، لكن الظلمة حالت دون أن أرى شيئًا. سأل عسكري السائق: «لماذا لا تضع زوجتك النقاب؟».

فأجابه السائق: «هي ليست زوجتي. إنها سبيّة». فرد عليه العسكري قائلًا: «مبروك عليك»، وأشار لنا أن نمضي.

كان الظلام قد تحوّل دامسًا. كنّا نسير على الطريق السريع شرق الموصل، فنعبر عددًا ضئيلًا من السيّارات والشاحنات. في الظلمة، بدت الأراضي العراقيّة المسطّحة وكأن لا بداية لها ولا نهاية .عندما فرّت الأسيرات الهاربات، أي اتّجاه سلكنَ؟ كيف استطعن النفاذ عبر الحواجز في الموصل؟ ولو تمكّنَّ من ذلك، كيف عرفن أين يهربن في الحقول، ومن قد يساعدهن ومن قد يخذلهن، وكم من الوقت قد يعشن قبل أن يمتن عطشًا؟ كم كنّ شجاعات لمجرد محاولتهن الهرب.

«انظر!»، صرخ السائق، مشيرًا أمامنا إلى صندوق موضوع إلى جانب الطريق، كان يلمع أبيض تحت مصابيح السيّارة. «أتساءل ما هذا؟».

فحذّره الحارس قائلًا: «لا تتوقّف. قد تكون عبوّة ناسفة. أنت تعرف أن هذه الطريق مزروعة بالعبوّات الناسفة».

لكن السائق رد: «لا أعتقد»، ونحا بالسيّارة جانبًا متوقّفًا على بعد ثلاثة أمتار من الصندوق. كان جانب الصندوق مغطّى بالصور والحروف، لكنّه يستحيل جزم ما هو، من مكاني في السيارة. «أراهن أنّه شيء تم نهبه ووقع من على ظهر شاحنة». كان مفرط الحماسة: بما أنّه سائق بائس، لم يكن باستطاعته أن يحصل على الأصناف المنهوبة التي يفوز بها كبار المسؤولين في داعش.

لكن الحارس راح يعترض: «لن يترك أحدهم شيئًا له قيمة على الطريق! إن انفجر فسيقتلنا جميعًا!». كان السائق قد خرج من السيارة وسار نحو الصندوق. جثا على ركبتيه وأخذ يتفحّصه من دون أن يلمسه. في المقابل، كان الحارس يتمتم لنفسه: «أيًا يكن، لا يستحق الأمر». كنت أتصوّر السائق يفتح الغطاء بكل جشع فتنفجر عبوّة ضخمة تمزّقه إربًا وتلقي بسيّارتنا في منتصف الصحراء. لو مت، لا يهم، طالما أن الرجلين قد قُتلا أيضًا. ورحت أدعو، فلتكن عبوّة ناسفة.

وما هي إلا دقائق حتى عاد السائق إلى السيارة يحمل الصندوق بكل غبطة قائلًا: «مراوح!»، قبل أن يضعه في صندوق السيارة. «مروحتان. وتعملان على البطّارية».

تنفّس الحارس الصعداء وساعده على وضع الصندوق في السيارة. فغرقت مجدّدًا في مقعدي وقد استفحل بي اليأس. بعد الحاجز الثاني، سألت السائق: «حاج، إلى أين نحن ذاهبون؟».

أجابني: «إلى الحمدانيّة». على ما يبدو، فإن الحمدانيّة، وهي مقاطعة في شمال نينوى قد سقطت في يد الدواعش. كان أخي غير الشقيق خالد متمركزًا هناك مع العسكر، ولم يخبرني الكثير عنها، لكنّني كنت أعرف أن سكّانها بمعظمهم من المسيحيين، وقد هربوا كلّهم الآن على الأرجح، أو قُتلوا. مررنا أمام آليّة متفحّمة للدولة الإسلاميّة، دليل على المعركة التي دارت للسيطرة على المحلة.

في كوجو، خلال الحصار، كنّا نتابع هجمات الدولة الإسلاميّة على القرى المسيحيّة عن كثب. ومثلنا، خسر أهل هذه القرى كل ما يملكون إضافة إلى المنازل التي قضوا حياتهم وهم يبنونها. وقد أجبر المسيحيّون العراقيّون على مغادرة منازلهم بسبب دينهم. فغالبًا ما كان المسيحيّون

في العراق يتعرّضون للهجوم، مثل الأيزيديّين، كانوا يكافحون للبقاء في أراضيهم. ومع مرور السنين، راحت الجماعات المسيحيّة تتضاءل أكثر فأكثر بعد أن غادرت إلى بلاد تشعر فيها بأنها أكثر ترحيبًا بهم. وبعد وصول الدواعش، قال عدد من المسيحيّين إنّه لن يبقى قريبًا مسيحي واحد في العراق. ومع ذلك عندما دخل الدواعش إلى كوجو، شعرت بالغيرة من المسيحيّين. فقد تم تحذيرهم في قراهم من أن داعش قادمة. ولأنّهم، بحسب الدواعش «أصحاب كتاب»، وليسوا كفّارًا مثلنا، تمكّنوا من نقل أطفالهم وبناتهم إلى بر الأمان في كردستان وفي سوريا، وقد نجح البعض في دفع جزية بدل اعتناق الإسلام. حتى إن أولئك الذين طردوا من الموصل من دون أن يأخذوا شيئًا معهم قد تجنّبوا الاستعباد. لكن الأيزيديّين لم ينعموا بمثل هذه الفرصة.

وصلنا سريعًا إلى مدينة في مقاطعة الحمدانيّة. كانت المدينة بأكملها غارقة في ظلام دامس من دون أي كهرباء، والرائحة كريهة، كمثل رائحة لحم حيواني متعفّن. وكانت الشوارع هادئة والمنازل خالية من سكّانها الاعتياديين. وحدهم الإرهابيّون بقوا، ووحدها مقرّات الدولة الإسلامية كانت مضاءَة، يغذّيها مولد كهربائي ضخم كان صوت هديره يمزّق سكون الليل.

عندما دخل الدواعش إلى العراق، وعدوا بإعادة الخدمات إلى المدن والبلدات التي تفتقدها. وكانت البروباغندا التي ينشرونها، في الفترات النادرة التي لا يحتفلون فيها بالعنف، تتباهى بمثل هذه الوعود - من الكهرباء، إلى جمع النفايات إلى تحسين الطرق - كما لو أنّهم كانوا حزبًا سياسيًا عاديًا تسلّم السلطة. وقد قيل لنا إن الناس صدّقوهم واعتقدوا أنّهم سيخدمونهم أفضل من الحكومة العراقيّة، لكنّني لم

أرَ أيًا من هذا في الموصل جعلني أفكّر بأن الحياة قد أصبحت أفضل للإنسان العادي. أمّا هذه المدينة، فتبدو بمثابة قشرة عارية، فارغة ومظلمة، تفوح رائحة الموت منها ولا يسكنها إلا الإرهابيّون الذين قدّموا وعودًا واهية منذ البداية.

توقّفنا عند مقر الدولة الإسلامية ودخلنا. كما في الموصل، كان يعج بالمسلحين، فجلست بهدوء بانتظار أن يملي عليَّ أحد أوامره؛ كنت مرهقة أتوق للنوم. جاء عسكريّ، كان قصيرًا عجوزًا قد احدودب ظهره، وتعفّن ما بقي من أسنان في فمه. أمرني: «اصعدي إلى الأعلى». كنت مذعورة، وكلّي ثقة بأن الحاج سلمان كان يواصل عقابه ببيعي للرجل العجوز الذي كان يرسلني إلى الغرفة حيث يخطّط لاغتصابي. لكنّني عندما فتحت باب الغرفة، رأيت فتيات أخريات مثلي. واستغرقت بعض الوقت قبل أن أتعرّف إليهن.

"جيلان! نسرين!»، كانتا زوجة أخي وابنة أخي. لم يسبق لي أن شعرت بهذه السعادة لرؤية أحدهم في حياتي، فهرعنا إلى بعضنا البعض، نقبّل بعضنا ونبكي. كانتا ترتديان مثلي، وبدتا كأنّهما لم تناما منذ أسابيع. كانت نسرين صغيرة الحجم منمنمة - حتى إنّي لم أفهم كيف كانت تتعامل مع كونها سبيّة - ، أمّا جيلان، فقد تم فصلها عن زوجها الذي كانت تحبه كثيرًا، ورحت أفكّر بأن الاغتصاب لا بد من أنّه أضنى بالنسبة إليها. لكنّنا جلسنا سريعًا على الأرض، مدركات أنهم قد يفصلوننا عن بعضنا في أي لحظة، ورحنا نتبادل أخبارنا وقصصنا.

سألتهما: «كيف وصلتما إلى هنا؟».

فأجابت نسرين: «تم بيعنا كلانا. تم بيعي مرّتين في الموصل، ثم أحضرت إلى هنا».

سألتني نسرين: «هل تعرفين ما حل بكاثرين؟».

فأجبتها: «إنّها في مركز أيضًا في الموصل».

أخبرتهم بما حدّثتني به ولاء، وبعض ممّا حصل لي. فقلت: «كنت محتجزة لدى إنسان رهيب. حاولت الهرب لكنّه قبض علي». لكنّني لم أخبرهما كل شيء. لم أكن مستعدّة بعد للتصريح ببعض ما حدث معي. رحنا نعانق بعضنا البعض بقوّة قبل أن أضيف: «هذا الرجل العجوز البغيض في الأسفل - أعتقد بأنّه من اشتراني».

«كلّا»، ردّت نسرين وهي تطأطئ برأسها. «إنه يمتلكني».

فسألت نسرين: «كيف تتحمّلين عندما يأتي هذا الرجل المقيت إليك في الليل؟».

هزّت نسرين برأسها قائلة: «لا أفكّر بنفسي. ماذا عن روجيان التي أخذها ذاك الرجل الضخم؟ بعد أن غادرت أصبنا كلنا بالجنون. فرحنا نبكي ونتنحب طوال الوقت. كانت المرّة الأولى التي لا نفكّر فيها بما حصل في كوجو، بل انصبَّ تفكيرنا على روجيان وذاك الوحش».

«وماذا حصل في كوجو؟». كنت أخشى السؤال. «هل تعرفين ما حصل بالفعل؟».

فأجابت نسرين: «رأيت على التلفاز أن الرجال كلّهم قُتلوا. قَتلوا الجميع، كل رجل. رأيت ذلك في الأخبار».

مع أنّني سمعت أصوات الطلقات الناريّة وراء المدرسة، إلا أنّني حتى تلك اللحظة كنت لا أزال أعيش على أمل أن يكون الرجال قد نجوا بطريقة أو بأخرى. لكن عندما سمعت ابنة أخي تؤكّد ذلك صرت كمن يسمع الطلقات مجدّدًا، الجولة تلو الأخرى إلى أن تستحوذ الصورة

على كل تفكيري. حاولنا التخفيف عن بعضنا البعض. فقلت لهما: «لا تبكيان لأنّهم قتلوا. أتمنّى لو آنّنا قتلنا معهم». فأن نقتل لهو أفضل ألف مرة من أن يتم بيعنا كسلع واغتصابنا حتى تنهَكَ أجسادنا. بين رجالنا كان الطلاب والأطباء والشباب والعجّز. وفي كوجو، وقف إخوتي كلّهم جنبًا إلى جنب بينما قتلهم الدواعش كلّهم تقريبًا. لكن موتهم لم يدُم سوى لحظة. أما نحن السبايا، فنموت في كل لحظة من يومنا. وكما الرجال، لن نرى عوائلنا أو منازلنا مرّة أخرى. وافقتني نسرين وجيلان الرأي فقالتا مؤيّدتين: «يا ليتنا كنّا مع الرجال عندما أعدموهم».

جاء المسلّح صاحب الأسنان العفنة - آسر نسرين - إلى الباب وأشار إليّ قائلًا: «حان وقت الذهاب»، فبدأنا كلّنا نرجوه. «يمكنك أن تفعل ما تريد بنا، لكن أبقنا مع بعضنا. رحنا نصرخ وتتشبّث الواحدة منّا بالأخرى كما فعلنا تلك الليلة بالموصل. وكما في تلك الليلة، فصلوَنا عن بعضنا البعض وسحبوني إلى الأسفل قبل أن أتمكّن من احتضانهما حضن الوداع.

في الحمدانيّة، خسرت ما تبقّى لي من أمل. كانت المنطقة خاضعة لداعش، لذا لا مجال للهرب، ولا سبيل للحلم بأن تتحرّك مشاعر أحدهم في الشارع فيهرع للمساعدة ما إن يرى فتاة أيزيديّة بائسة. فلا شيء سوى منازل خالية ورائحة الحرب.

بعد خمس عشرة دقيقة، وصلنا إلى المركز الثاني في الحمدانيّة. كان حدسي يخبرني آنّني سألتقي هنا بمالكي الجديد، فنزلت من السيارة وسرت ببطء وأنا أشعر كأن جسدي من اسمنت. كان هذا المركز مكوّنًا من منزلين، وعندما وصلت السيّارة، خرج رجل في منتصف العمر من المنزل الصغير. كانت لحيته سوداء طويلة ويرتدي سروال

الدولة الإسلاميّة. أشار السائق إليّ كي أتبعه إلى الداخل قائلًا: «هذا أبو معاوية. قومي بما يأمرك به».

كان المنزل مؤلفًا من طابق واحد، لكنّه نظيف وجميل، إذ كان يعود في ما مضى لعائلة مسيحيّة ثريّة. لم أجد أي فتاة تستقبلني هنا، لكن الملابس الأيزيديّة كانت مكدّسة في كل مكان، تلك الفساتين الملوّنة التي تتخطّى بجرأتها الزي التقليدي لامرأة عراقيّة مسلمة محافظة، إضافة إلى بقايا من العائلة التي هربت من منزلها. كان إحساسي كمن يدخل قبرًا.

التحق أبو معاوية بشاب آخر في المطبخ، حيث جلسا يأكلان الخبز واللبن ويشربان الشاي الأسود.

سألت الرجلين: «كم سأبقى هنا؟ لديَّ أفراد من عائلتي في المركز الآخر. هل أستطيع أن أكون معهم؟».

بالكاد نظرا إليّ، قبل أن يجيبني أبو معاوية بهدوء قائلًا: «أنت سبيّة. لا تُملين الأوامر، بل تتلقّينها».

سألني الآخر: «نادية، هل اعتنقت الإسلام؟».

فأجبته، «نعم»، متسائلة كيف عرفا باسمي وما الذي يعرفانه عنّي أيضًا. لم يطرحا عليّ أي سؤال مثل من أين أتيت أو ماذا حل بعائلتي، لكن قد لا تهمّهم مثل هذه التفاصيل. فكل ما يعنيهم أنّني هنا، ويمتلكانني.

أمرني أبو معاوية: «اذهبي للاستحمام». رحت أتساءل بكم باعني الحاج سلمان. فالسبايا اللواتي لم يعدن عذراوات يُبعنَ بمبالغ باخسة، كنت أعلم هذا جيدًا، ولربّما سبقني صيتي كمسبّبة للمشاكل بعد حادثة

الباص ومحاولة الفرار. فهل هذا عقاب إضافي على ما فعلت؟ لربّما كان سلمان تواقًا للتخلّص مني فقدّمني هدية، أو لربّما وجد أعنف الرجال فقدّمني له بكل بساطة. فتلك كانت عادة شائعة. كانت الفتيات الأيزيديّات ينتقلن من إرهابي إلى آخر بلا أي مقابل.

أجبته: «استحممت هذا الصباح».

«إذًا اذهبي وانتظريني في تلك الغرفة»، قال أبو معاوية مشيرًا إلى غرفة نوم، فأطعته وسرت باتجاه الباب. كانت غرفة صغيرة فيها سرير بنّي صغير تغطّيه ملاءة زرقاء بشرائط بيض. كانت الأحذية مصفوفة على رفّين إلى الجدار، بينما تمتلئ مكتبة كبيرة بالكثير من الكتب. فوق المكتب حاسوب محمول، شاشته سوداء. لا بد أن الغرفة كانت تعود لطالب، على ما أعتقد، صبيّ من مثل سنّي؛ فالأحذية كانت من النوع الذي ينتعله الطلّاب، لكنّها لم تكن كبيرة. جلست على السرير أنتظر. كنت أتفادى النظر إلى مرآة كبيرة معلّقة على الجدار، ولم أفكر في ما إذا كنت أستطيع أن أتسلّل عبر جهاز التبريد الذي كان موضوعًا محل النافذة. ولم أرد أن أفتح الخزانة أو أنظر في أغراضه لأعرف المزيد عنه. لم أدقّق حتى بالكتب على الرف. لربّما الصبي لا يزال على قيد الحياة في مكان ما، فلم يبدُ لي من الصائب لميت أن يعبث بأغراض الأحياء.

الفصل الحادي عشر

كل فرد من أفراد الدولة الإسلاميّة عاملني بوحشيّة تشبه وحشيّة سَلَفه، وكل جولة اغتصاب كانت تشبه سابقتها، لكنّني مع ذلك، أذكر بعض الفوارق البسيطة بين الرجال الذين استغلّوني. فالحاج سلمان كان أسوأهم، لأنّه من جهة كان أول من اغتصبني، ومن جهة أخرى تصرّف على نحو يؤكّد كم كان يكرهني. كان يضربني لو حاولت أن أطبق عينيّ. بالنسبة إليه، لم يكن كافيًا أن يغتصبني - بل كان يعمد إلى إذلالي كلّما سنحت له الفرصة، فكان يمرّغ العسل على أصابع رجليه ويجبرني على لعقها، أو يفرض عليَّ أن أحسِّن مظهري لإرضائه. أمّا مرتجى، فتصرّف كطفل سُمح له أخيرًا بالحصول على السكاكر التي كان يلحّ في طلبها عندما جاء ليغتصبني، ولن أنسى يومًا حارس النظّارات، كيف كان ينظر إليهم برفق وكم كان عنيفًا مقيتًا معي.

عندما دخل أبو معاوية إلى الغرفة، حوالى الساعة الثامنة مساء، أمسكني من فكّي ودفع بي إلى الجدار. ثم سألني: «لمَ لا تقاومين؟». بدا وكأن الأمر يثير غيظه. افترضت من كم الملابس الأيزيديّة في منزله أنّه قد خبِرَ عددًا لا بأس به من السبايا، ولربّما كلّهن قاومنه إلّا أنا. لربّما كان يحب أن يثبت أنه يستطيع الحصول على ما يريد إن قاومنَه. كان

صغير الحجم، لكنّه فائق القوّة. فسألته: «وما الجدوى من ذلك؟ ليست مسألة رجل واحد أو اثنين أو ثلاثة. كلّكم تفعلون الأمر نفسه. كم تتوقّع مني أن أقاوم؟». أذكر أنه راح يقهقه ضاحكًا عندما قلت ذلك.

بعد أن غادر أبو معاوية، نمت بمفردي واستيقظت في منتصف الليل على جسد ورائي في السرير. كان الرجل الذي كان يتناول الخبز واللبن مع أبو معاوية في المطبخ؛ لا أذكر اسمه. لكنّني أذكر أن حلقي كان يؤلمني من العطش، وعندما نهضت لجلب بعض الماء، أمسكني من ذراعي. فقلت له: «أريد أن أشرب». كانت قلّة حيلتي وحالة يأسي تصدمني. فبعد ما حصل معي، فقدت الاحساس بالخوف من داعش ومن الاعتداء. كنت كالمخدَّرة.. لم أسأل هذا الرجل الجديد ماذا يفعل هنا، ولم أحاول أن أثنيه عن لمسي، ولم أكلّمه على الإطلاق.

يتحوّل الأمر، في لحظة ما، إلى فعل اغتصاب، دون سواه. يصبح ذلك خبزك اليومي. لا تدري من سيفتح الباب تاليًا ليهاجمك، لكنّك على يقين بأن الأمر سيحدث، وأن الغد قد يكون أسوأ ممّا سبقه. فتتخلّى عن فكرة الهرب أو رؤية عائلتك مجدّدًا. وتصبح حياتك الماضية ذكرى غابرة، سرابًا يتجلّى على هيئة حلم. جسدك لم يعد ملكًا لك، ولا طاقة للكلام أو القتال، أو حتّى التفكير بالعالم في الخارج. وحده الاعتداء سيّد الموقف، والخدَر الذي يترافق مع تقبّل أن هذه هي حياتك الآن.

لكن الخوف شعور أفضل. فمع الخوف، ثمّة افتراض أن ما يحصل ليس أمرًا طبيعيًّا. تشعر بالطبع أن قلبك سينفجر وستتقيّأ، لكنّك تتشبّث يائسًا بعائلتك وأصدقائك وتتذلّل أمام الإرهابيّين، وتبكي حتى يجف

الدمع في المآقي، ومع ذلك فأنت أقله تعبّر وتتفاعل. أمّا اليأس، فهو أقرب إلى الموت.

أذكر أن صديق أبو معاوية تصرّف وكأنّه أهين في رجولته عندما ابتعدت عنه في الصباح بعدما فتحت عينيَّ فوجدت، لهولي، أن ساقي ترتاح فوق ساقه. مذ كنت صغيرة، كنت كلّما نمت بالقرب من أحد أحبّه، مثل أختي أو أمّي أو أخي، أضع ساقي فوق ساقه، لأحس بأنّني أقرب إليه. وعندما رأيت أنّني فعلت ذلك مع الإرهابي، نفرت منه على الفور. فضحك وسأل: «لماذا ابتعدتِ؟». كرهت نفسي. كنت أخشى أن يخالني أهتم لأمره. فأجبته: «لست معتادة أن أنام إلى جانب أي شخص. أريد أن أرتاح قليلًا». فتحقّق من الوقت على هاتفه ثم نهض للذهاب إلى الحمام.

كان أبو معاوية قد مدّ الفطور على فرشة على الأرض، فسألني أن أقترب لآكل. ومع أن ذلك كان يعني أن أجلس في المطبخ وأتشارك وجبة الفطور مع الرجلين اللذين اغتصباني، إلا أنّني هرعت إلى الطعام. فلم أكن قد أكلت مذ غادرت منزل سلمان، وكنت أتضوّر جوعًا. كان الطعام مألوفًا وجيّدًا - عسل أسود وخبز وبيض ولبن. رحت آكل بصمت بينما الرجلان يتكلّمان عن أعمال دنيّوية تشغل أيّامهما - من أين يجلبان الوقود للمولّدات، ومن سيأتي إلى المركز. لم أنظر إليهما. وعندما انتهينا، طلب مني أبو معاوية أن أستحم وأرتدي العباءة مضيفًا: «سنغادر قريبًا».

بالعودة إلى الغرفة، وبعد أن انتهيت من الاستحمام، نظرت إلى المرآة للمرّة الأولى. كان وجهي أصفر شاحبًا، وشعري الذي يكاد يبلغ وسطي، معقّدًا متشابكًا. كان شعري مصدر سعادتي، لكنّني الآن لم أرد

أن أملك ما يذكّرني بكَم كنت جميلة. أخذت أبحث في الجوارير عن مقص لأقصّه، لكنّني لم أجد. كانت الغرفة شديدة الحرارة، وشعرت كأن رأسي يلتهب. فجأة فُتح الباب، ودخل الرجل الثاني. كان يحمل فستانًا أزرق طلب مني أن أرتديه. «ألا أستطيع أن أرتدي هذا؟»، سألته وأنا أشير إلى أحد الفساتين الأيزيديّة. لكان يريحني أن أضع أحد فساتيني، لكنّه رفض.

أخذ يتفرّج علي بينما أرتدي ملابسي، واقترب أكثر منّي، يلمسني أينما كان. ثم قال، وهو يغطّي أنفه بيده: «رائحتك كريهة. ألم تستحمّي؟ هل الفتيات الأيزيديّات كلّهن مثلك؟».

فأجبته، «هذه هي رائحتي. ولا يهمّني إن أحببتها أو لا».

لاحظت وأنا أخرج من المنزل، قرصًا بلاستيكيًّا صغيرًا - هو شريحة ذاكرة للهاتف الخلوي - على الطاولة بالقرب من هاتف أبو معاوية. تساءلت ما قد يحتوي. صور للسبايا؟ صور لي؟ مخطّطات للعراق؟ كنت في كوجو أهوى أخذ شرائح الناس ووضعها في هاتف خيري، لأرى ما تحتويه. فكل منها لغز بحد ذاته يتعيّن حلّه، وهي غالبًا ما تخبر الكثير عن مالكها. خلتني لهنيهة من الزمن قد أسرق شريحة ذاكرة الإرهابي. لربّما تحوي أسرارًا قد تساعد حزني على إيجادي، أو تساعد الجيش العراقي على استعادة الموصل. ولربّما كانت تحتوي على أدلّة توثّق الجرائم التي ترتكبها داعش. لكنّني تركت الشريحة؛ كنت على درجة من اليأس حالت دون أن أرى ما قد يغيّر في وضعي. عوضًا عن ذلك، لحقت بالرجال إلى الخارج.

كانت سيّارة فان بحجم سيّارة الإسعاف، مركونة في الشارع، وقد وقف سائق ينتظر أمام الباب. لقد جاء من مكان مجاوِر - من الموصل

أو تلّعفر. وبينما وقفنا هناك، شرع يخبر أبو معاوية عن نجاحات المقاتلين في هذه المدن. فقال: «نلقى دعمًا كبيرًا في المحانين». فأومأ أبو معاوية موافقًا. ثم أقلعوا عن الكلام عندما فتح باب الفان وخرجت ثلاث نساء.

كانت النسوة مثلي يختفين وراء العباءة والنقاب. تجمّعن خارج الفان. كانت إحداهن أكثر طولًا من الأخريين، بينما راحت الصغيرتان تتعلّقان بعباءة الأولى الفارعة الطول وبيديها المخبّأتين في قفّازين، كما لو أنّهما تنتظران أن تبتلعهما ثنايا عباءتها. توقّفن بالقرب من الفان، ثم أدرن برؤوسهن يمنة ويسرة، ينظرن من حولهن ويتأمّلن مجمّع الحمدانية. كانت عيونهن المحدّقة عبر فجوة النقاب تصرخ فزعًا عندما استقرّت على أبو معاوية، الذي كان يراقبهن عن كثب.

كانت المرأة الطويلة تضع يدها على كتف الفتاة الصغرى وتدفع بها أكثر فأكثر إلى جسمها المكتنز. أما الفتاة الأصغر سنًّا فيبدو وكأنّها لم تتعدَ العاشرة من عمرها. اعتقدت بأنّه لا بد من أنّها أمّ مع ابنتيها، وقد تم بيعهنَّ معًا. فكتيّب الدولة الإسلاميّة يفيد بأن «لا يجوز فصل الأم عن أولادها الصغار عند عمليّة شراء [جارية] أو بيعها أو تقديمها. لذلك تبقى الأمّهات مع أولادهن حتى يصبح هؤلاء «ناضجين وبالغين». بعد ذلك، تستطيع داعش أن تفعل بهم ما تشاء.

كانت البنتان إلى جانبيّ المرأة الطويلة، وسرن متلاصقات معًا ببطء بعيدًا عن الفان نحو المنزل الصغير حيث قضيت ليلتي، والطفلتان تتنقلان حول أمّهما كما الصيصان حول الدجاجة، تتعلّقان بنسيج قفّازَيها. هل تم تبديلي معهن؟ بينما مررن من أمامي، حاولت أن أركز نظري في نظرهنّ، لكنّهن كن ينظرن أمامهن. ثم اختفين الواحدة

تلو الأخرى في ظلمة المنزل الصغير، قبل أن يغلَق الباب وراءهن. من الرهيب أن تشاهد أطفالك أو أمّك أو أخواتك يعيشون ما نعيشه نحن الآن. ومع ذلك، كنت أحسدهن. فهن محظوظات؛ لطالما خرق الدواعش قوانينهم وفصلوا الأمّهات عن أطفالهنّ. ولكم من الأسوأ أن يكون المرء بمفرده.

أعطى أبو معاوية السائق بضعة دنانير عراقيّة وبدأنا الرحلة خارج الحمدانيّة. لم أسأل إلى أين نحن ذاهبون. فقد تحوّل يأسي معطفًا أتدثّر به، وكان أكثر ثقلًا وظلمة من أي عباءة. في السيّارة، وضع السائق نوعًا من الموسيقى الدينيّة الذائعة الصيت في الموصل الواقعة تحت سلطة داعش، فجعلني الصوت وحركة السيّارة أشعر بالدوار. «رجاء توقف»، قلت لأبو معاوية: «أريد أن أتقيّأ».

توقّفت السيّارة عند جانب الطريق السريع، فدفعت الباب، وهرعت على بعد أقدام في التراب. رفعت نقابي وتقيأت فطوري. كانت السيّارات تعبر مسرعة، وقد جعلتني رائحة الوقود والغبار أتقيّأ مرّة أخرى. خرج أبو معاوية من السيارة ووقف على بعد مسافة قصيرة يراقبني للتأكد من أنّني لن أهرب، إمّا إلى الحقل أو بين زحمة السيّارات.

على الطريق التي تربط الحمدانيّة بالموصل، كانت توجد نقطة تفتيش كبيرة. قبل أن يدخل الدواعش العراق، كانت تلك النقطة خاضعة للجيش العراقي الذي أراد أن يراقب تحرّكات المنشقّين المرتبطين بالقاعدة. وقد تحوّلت نقطة التفتيش تلك الآن جزءًا من مخطّط داعش للسيطرة على الطرقات وتاليًا على البلاد. يمكنك حتى القول إن العراق دولة قائمة على نقاط التفتيش، وتلك التي تربط الحمدانيّة بالموصل ما هي إلّا واحدة من نقاط تفتيش عدة ترفع رايات الإرهابيّين السود والبيض.

في كردستان، تتزيّن نقاط التفتيش بالرايات الكرديّة الصفر والحمر والخضر وتضم قوات البيشمركة. أمّا في مناطق أخرى من العراق، فنقاط التفتيش التي ترتفع فوقها الراية العراقيّة السوداء والحمراء والبيضاء والخضراء تفيد بأنك في أرض واقعة تحت حكم السلطة المركزيّة. وفي الجبال العراقيّة الشماليّة التي تربطنا مع إيران، والآن في جزء من سنجار، ترفع وحدات حماية الشعب الكردي راياتها فوق نقاط تفتيشها. وكيف تدّعي بغداد أو الأمم المتحدة أن العراق دولة موحّدة؟ فالأجدى بك ألّا تكون قد سافرت عبر طرقاتنا، وانتظرت في خط طويل عند نقاط التفتيش، أو خضعت للاستجواب بحسب اسم المدينة المكتوب على لوحة سيّارتك، كي تفكر بأن العراق ليس مشرذَمًا إلى مائة قسم وقسم.

نحو الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، توقّفنا عند نقطة تفتيش. قال لي أبو معاوية: «اخرجي نادية. ادخلي إلى هناك». دخلت ببطء المبنى الإسمنتي الصغير الذي يشكّل مكتب الحرس، وأنا أشعر بالدوار نتيجة القيء. افترضت أنهم بحاجة للقيام بتحقيقات إضافيّة بينما أنتظر، لكنّني تفاجأت عندما رأيت سيّارة الفان تعبر نقطة التفتيش وتواصل طريقها إلى الموصل، بعد أن تركتني بمفردي.

كان المبنى يتألّف من ثلاث غرف صغيرة؛ القاعة الرئيسيّة، حيث جلس عسكري وراء مكتب تتراكم فوقه الأوراق، وغرفتان صغيرتان بدتا وكأنّهما ردهتا استراحة. كان أحد الأبواب مشقوقًا، فاستطعت أن أرى إطارًا حديديًّا لسرير مزدوج. كانت فتاة تجلس على الفرشة تكلّم فتاة أخرى باللغة العربيّة. «السلام عليكم»، أشار لي المسلّح أن أتحرّك، وهو يرفع نظره إليّ. بدأت أسير باتجاه الغرفة التي تضم الفتيات، لكنه

أوقفني. «كلّا، ستدخلين الغرفة الأخرى». فارتعدت فرائصي؛ سأكون بمفردي هناك.

كانت الغرفة الصغيرة تبدو وكأن أحدًا نظّفها حديثًا ودهنها. في زاوية منها جهاز تلفزيون، وسجّادة صلاة بالقرب منه. وقد ترك أحدهم بعض الفاكهة في صحن أمام التلفزيون، وسرعان ما عاودني دواري وحال التقيؤ بفعل الرائحة العبقة المنبعثة من التفّاح. شربت القليل من المياه من برّاد المياه الموضوع إلى جانب الجدار، ثم جلست على الفرشة التي كانت على الأرض. كنت أشعر بالدوار، فبدأت الغرفة تدور بي.

ظهر عسكري آخر عند الباب. كان شابًا بالغ النحول .«ما اسمك يا سبيّة؟». انتصب في وقفته يحدّق بي.

«نادية»، أجبته وأنا أجفل من صداعي.

فسألني: «هل تحبّين المكان هنا؟».

«لماذا؟ هل سأبقى هنا؟». وفكرت، هل سأبقى في هذا المكان، عند نقطة التفتيش هذه التي ليست بالمكان حتى؟

فأجابني قبل أن يغادر: «لن تبقي لفترة طويلة».

بدأت الغرفة تدور بوتيرة أسرع، فرحت أتقيّأ وأسعل، محاولة أن أبقي المياه التي شربتها في معدتي. كنت خائفة من أن أتقيّأ فأجلب لنفسي المتاعب.

طرق أحدهم الباب: «هل أنتِ بخير؟». سمعت صوت الرجل النحيل من خارج الغرفة.

فأجبته: «أريد أن أتقيّأ. هل أقدر أن...؟»، «كلّا، كلّا، ليس هنا. هذه غرفتي، أنا أصلّي فيها».

«إذاً، دعني أذهب إلى الحمام. أريد أن أغسل وجهي».

«كّلا، كّلا». رفض أن يفتح الباب. «أنت بخير. أنت بخير، انتظري وحسب. بعد لحظات، عاد حاملًا كوبًا فيه سائل ساخن. وقال لي وهو يعطيني الكوب: «اشربي هذا، ستشعرين بالتحسّن». كان السائل أخضر تفوح منه رائحة مثل رائحة الأعشاب.

فأخبرته: «لا أشرب الشاي».

أجابني: «هذا ليس شايًا. سيجعل صداعك يتلاشى على الفور». ثم جلس على الفرشة في الجهة المقابلة لي، يزم شفتيه ويضع يدًا على صدره. «اشربيه هكذا». وراح يمثّل لي كيف أشرب، فينفخ البخار ثم يرشف القليل من السائل.

كنت في حال من الذعر. فقد كنت واثقة أن هذا هو الرجل الذي اشتراني، وسيرفع في أي لحظة يده عن صدره ويضعها على صدري. حتّى لو أراد مداواة صداعي، فهدفه أن تتحسّن حالي ليستطيع التحرّش بي.

أخذت يدي ترتجف بينما كنت أشرب السائل. ما إن تناولت جرعات قليلة، حتى أخذ الكوب من بين يدي ووضعه على الأرض بالقرب من الفرشة.

بدأت أبكي قائلة: «أرجوك، أنا خضعت لرجال آخرين هذا الصباح. قلبي يؤلمني، أنا حقًا عليلة».

فأجاب: «ستكونين بخير، ستكونين بخير»، وبدأ ينزع فستاني. كانت الحرارة في الغرفة لا تُطاق ما اضطرّني إلى نزع العباءة، لأبقى بالفستان الأزرق الذي أحضره لي صديق أبو معاوية ذاك الصباح.

حاولت أن أقاومه، وأنا أشد التنورة إلى الأسفل بينما هو يرفعها إلى الأعلى، وسرعان ما فقد أعصابه، فبدأ يضربني بقوّة على وركي مردّدًا: «ستكونين بخير». لكن هذه المرّة، بدا تهديدًا أكثر منه طمأنة. ثم شرع يغتصبني قبل أن ينتزع فستاني كلّيًا. فعل ذلك بسرعة فائقة، وعندما انتهى، جلس وسوّى قميصه وقال: «سأعود. سأرى إن كان يمكنك البقاء هنا أم لا».

عندما غادر، سوّيت فستاني وانتحبت قليلًا، ثم أخذت الكوب وعدت أشرب الأعشاب مجدّدًا. ما الفائدة من البكاء؟ كان السائل معتدلًا مائلًا إلى السخونة، فخفّف من صداعي. عاد العسكري سريعًا، كما لو أن شيئًا لم يكن بيننا، وسألني إن كنت أريد المزيد من الشراب. فهززت برأسي نفيًا.

لقد أصبح جليًّا بالنسبة لي أن العسكري النحيل لا يملكني ولا أي شخص آخر. كنت سبيّة عند نقطة تفتيش، وأي عضو في الدولة الإسلاميّة يستطيع أن يدخل هذه الغرفة ويقوم بما يحلو له معي. سيبقونني في هذه الغرفة المقفلة التي لا تحتوي إلا على فرشة وصحن فاكهة معفّنة، أنتظر أن يفتح الباب ويدخل عسكري آخر. تلك هي حياتي الآن.

كنت لا أزال أشعر بالدوار عندما غادر الرجل النحيل، فخلت أنه من الأفضل أن أحاول الوقوف والتجوّل قليلًا. فليس ثمّة ما أفعله في هذا المكان إلا التنقل بين أرجاء هذه الغرفة في دوائر كما السجين، من برّاد المياه إلى صحن الفاكهة، مرورًا بالفرشة والتلفزيون الذي لم أحاول أن أشغلّه أبدًا. مررت بيدي على الجدار الأبيض، أتحسس بقع الدهان الصغيرة كما لو كانت تحوي رسائل ضمنيّة. ثم خلعت ملابسي

الداخليّة، أتحقق ما إذا بدأت دورتي الشهريّة، لكن لا شيء. ثم جلست مجدّدًا على الفرشة.

بعد ذلك، دخل عسكري آخر. كان ضخمًا يتكلّم بصوت عال متعجرف. سألني: «هل أنت المريضة؟».

«ومن تجد غيري هنا؟».

«هذا ليس شأنك»، قال لي قبل أن يعيد: «هل أنت المريضة؟». فأومأت إيجابًا هذه المرة.

دخل وأقفل الباب وراءه. كان يضع مسدسًا على جانبه، فتخيّلت نفسي أنتزعه منه وأصوّبه إلى رأسي. أردت أن أقول له: «اقتلني وحسب»، ثم فكّرت أنه لو رآني أقترب من المسدّس فسيقرر عقابًا أسوأ من الموت، لذا لم أقم بأيّ حركة.

على عكس الرجل النحيل قبله، قام هذا العسكري الجديد بإقفال الباب بالمفتاح، الأمر الذي أصابني بالذعر. خطوت خطوة واحدة بعيدًا عنه، فتملّكني الدوار، ووقعت على الأرض، من دون أن أفقد وعيي بالكامل؛ بل وجدت نفسي في دوّامة ضبابيّة عليلة. اقترب منّي وجلس بالقرب مني قائلًا: «أعتقد أنك خائفة». لكن نبرته لم تكن لطيفة - بل كانت زائفة قاسية.

فرجوته قائلة: «أرجوك، أنا حقًّا مريضة». ثم كررت: «أرجوك يا حاج، أنا حقًّا مريضة». ورحت أكرّر ذلك المرّة تلو الأخرى، لكنّه لم يكترث بل سحبني من كتفي إلى الفرشة، حتى لأحسست بالأرض تكشط قدميّ العاريتين ونعليّ. مرة أخرى، راح يهزأ مني: «هل تحبّين الوضع هنا؟». قالها وهو يضحك. «هل تحبّين كيف يعاملونك هنا؟».

فأجبته: «كلّكم تعاملونني بالطريقة نفسها». كان رأسي يسبح في الفضاء، وكنت بالكاد أرى. بقيت ممددة حيث سحبني، أغمض عينيّ، وأحاول ألّا أراه وأن أنسى هذه الغرفة. حاولت أن أنسى من أنا. حاولت أن أخسر تلك القدرة على تحريك أطرافي والتكلّم والتنفس.

لكنه واصل تهكّمه: «أنت مريضة، لا تتكلّمي»، قال واضعًا يده على بطني: «لمَ أنت على هذا النحول؟ ألا تأكلين؟».

«حاج، أنا حقًّا مريضة». لكن صوتي تلاشى بينما راح يرفع فستاني.

«ألا تدرين كم تثيرينني عندما تكونين بهذه الحالة؟ ألا تفهمين أنّني أحب الوضع عندما تكونين ضعيفة؟».

الفصل الثاني عشر

لكل سبيّة قصّة تحاكي قصّتي. لا يستطيع المرء تخيّل حجم الفظاعات التي يستطيع الدواعش ارتكابها حتّى يسمعها بكلتا أذنيه على لسان أخواته وأبناء عمومه وجيرانه ورفاقه في المدرسة، فيدرك بأن السبب ليس مردّه أنّك لم تكن محظوظًا على وجه الخصوص، أو أنّك تخضع للعقاب لبكائك أو لمحاولتك الفرار. فالرجال كلّهم نفسهم: كلّهم إرهابيّون منحوا أنفسهم الحق بإيذائنا.

رأت نساء أخريات أزواجهن يُقتلن أمامهن قبل أن يقعن في الأسر، أو استمعن إلى آسريهن يفاخرون بالمذبحة في سنجار. وقد احتجزن في منازل أو فنادق أو حتّى في سجون، ليتم اغتصابهن ليل نهار. وكان بعضهن لا يزلن يافعات، لكنّهن تعرّضن للهجوم بغض النظر إن كن حائضات أو مريضات. وقد تم تكبيل يديّ ورجليّ إحدى الفتيات عندما اغتصبها آسرها، بينما اغتُصبت أخرى للمرّة الأولى وهي نائمة. وقد تعرّضت بعض الفتيات للتجويع والتعذيب لو خالفن أوامر آسريهن، بينما خضعت أخريات للمصير نفسه حتى لو فعلن كل ما أمرهنَّ به المسلّحون.

كانت إحدى نساء بلدتنا تنقل من الحمدانية إلى الموصل عندما قرّر

آسرها أنه لم يعد بوسعه الانتظار لاغتصابها، فركن السيّارة إلى جانب الطريق واغتصبها فيها. أخبرتني قائلة: «حصل الأمر على الطريق، والباب مفتوح وساقاي عالقان خارج السيارة». وعندما وصلا إلى منزله، جعلها تصبغ شعرها باللون الذهبي وتنتف حواجبها وتتصرّف كزوجة.

أُخذت كاثرين من قبل الدكتور إسلام، وهو أخصّائي كان يسافر لمعالجة الأيزيديّات قبل أن يلتحق بداعش. كان كل أسبوع يحضر فتاة جديدة ويتخلّص من القديمة، لكنّه أبقى على كاثرين، المفضّلة لديه. كان يجبرها على تحسين هندامها ووضع الماكياج، كما فعل الحاج سلمان معي، ثم كان يلتقط الصور الفوتوغرافيّة لهما معًا. فتراهما في إحدى الصور يجتازان نهرًا، والدكتور إسلام يحمل كاثرين بين ذراعيه كما عروسَين جديدين. كانت ترفع نقابها فوق رأسها وتبتسم ابتسامة يكاد وجهها ينقسم قسمين على حجم اتّساعها. كان الدكتور إسلام يجبر كاثرين على التصرّف وكأنّها سعيدة، والادّعاء أنّها تحبه، لكنّني أعرفها جيدًا ويمكنني الجزم بأن وراء تلك الابتسامة المفتعلة رعبًا صافيًا. حاولت كاثرين الهرب ست مرات لكن في كل مرّة كانت تسلَّم من قبل الناس الذين كانت تلجأ إليهم للمساعدة. وفي كل مرّة كانت تُعاد إلى الدكتور إسلام، فكان يعاقبها بعنف. قصَصُنا قصصٌ تبدأ ولا تنتهي.

بقيت في نقطة التفتيش لليلة واحدة. في الصباح الباكر من اليوم التالي، ضجَّ جهاز الراديو الخاص بالعسكري فأيقظه من نومه. سألني: «هل تشعرين بأي تحسّن؟». لم أكن قد ذقت طعم النوم. «لا أشعر بأي تحسّن»، أجبته. «لا أريد أن أكون هنا».

«تحتاجين شيئًا ما إذًا. سأريك لاحقًا كيف يمكنك أن تشعري بتحسّن، قال قبل أن يبدأ بالإجابة على اتّصالات جهازه، وسرعان ما غادر الغرفة.

احتجزوني في الداخل. كان بوسعي أن أسمع السيّارات التي تمر عند نقطة التفتيش والمسلّحين الذين يتكلّمون عبر أجهزتهم، فرحت أفكّر أنهم قد يبقونني هنا حتى مماتي. أخذت أطرق الباب طرقًا كي يدَعوني أخرج، لكنّني سرعان ما بدأت أتقيّأ مجدّدًا، تاركة هذه المرة القيء يخرج على الأرض والفرشة. عاد المسلّح النحيل وطلب مني أن أنزع نقابي، ثم سكب المياه فوق رأسي بينما كنت أتقيّأ. طوال خمس عشرة دقيقة، لم أكن أبصق غير خيط رفيع من السائل الكريه، كما لو أن جسدي يدخل مرحلة جفاف. أمرني قائلًا: «اذهبي إلى الحمّام. اغتسلي». كانت سيارة فان أبو معاوية قد عاد لاصطحابي مجددًا إلى الموصل.

في الحمّام، رحت أرشّ الماء على وجهي وذراعيَّ. كان جسدي يرتعش كما لو أنّني مصابة بالحمى، وكنت بالكاد أقوى على الرؤية أو الوقوف. لم أشعر يومًا في حياتي بأنّني على هذا القدر من الوهن. ذلك الشعور قد غيّر شيئًا ما في داخلي.

منذ تركت كوجو، كنت أتوق للموت. فكنت أرجو سلمان أن يقتلني، أو أسأل الله أن يدعني أموت، أو أرفض الأكل والشرب على أمل أن أذوي. وغالبًا ما اعتقدت بأن الرجال الذين اغتصبوني وضربوني سيقتلونني. لكن ساعة الأجل لم تحِن بعد. في حمّام نقطة التفتيش، بدأت أبكي. للمرّة الأولى مذ غادرت كوجو، فكّرت بأنّني قد أموت فعلًا. وأيقنت حينئذ أنّني لا أريد أن أموت.

وصل مسلّح آخر ليصطحبني إلى الموصل. كان اسمه الحاج عامر، وافترضت أنه مالكي الجديد، لكني كنت مريضة إلى حد أنني ما كنت قادرة على طرح أي سؤال. كانت المسافة قصيرة بين نقطة التفتيش والمدينة، لكن بما أنّني اضطررت أن أتوقف كل بضع دقائق لأتقيّأ،

استغرقنا الطريق نحو الساعة. سألني الحاج عامر: «لماذا أنتِ عليلة إلى هذه الدرجة؟». لم أرد أن أجيبه أن الأمر قد يكون متعلقا بالاعتداءات المتكررة. فقلت: «لم آكل أو أشرب الكثير. والجو حار هنا».

عندما وصلنا إلى الموصل، توجّه إلى صيدليّة واشترى لي بعض الأدوية التي أعطاني إيّاها بعد أن وصلنا إلى منزله. كنت أبكي بصمت طوال الوقت، فراح يقهقه كما كان يفعل إخوتي عندما يخالونني أبالغ في الدراما، قائلًا: «لقد كبرت على هذه الأمور. يجب ألّا تبكي».

كان منزله الصغير مطليًّا باللون الأخضر الداكن مع خطوط بيض، وقد بدا وكأنّه لم يمضِ على احتلاله وقت طويل. كان المنزل نظيفًا وما من ملابس للدولة الإسلاميّة أو أي ملابس أخرى تركتها فتيات أيزيديّات. توجّهت إلى الكنبة وغفوت فور أن استلقيت عليها ولم أستيقظ قبل المساء لأجد أن حالة صداعي وغثياني قد انقشعت. كان السائق مستلقيًا على كنبة أخرى وإلى جانبه هاتفه. سألني عندما رآني قد استيقظت: «هل تشعرين بالتحسّن؟».

«قليلًا»، أجبته، وفي نيّتي أن أقنعه أنّني ما زلت عليلة ولا يمكنه لمسي. «أشعر بالدوار. أعتقد بأنّني أحتاج أن آكل». لم أكن قد تناولت أي طعام منذ وجبة الفطور مع أبو معاوية، في الصباح السابق، وقد تقيأت كل ما تناولت.

فقال لي: «اقرئي بعضًا من آيات القرآن وصلّي. سيختفي وجعك».

توجّهت إلى الحمام، حاملةً حقيبتي معي. كنت أخشى أني لو تركتها في غرفة المعيشة، فسيأخذها مني، حتّى لو كانت لا تحتوي إلا على بعض الملابس والفوط الصحية. أغلقت الباب بالمفتاح ورائي،

وأخذت أتحقّق من أن حليي في أمان داخل الفوَط، وقد خبّأتها جيّدًا حتى لا يستطيع أحد اكتشافها إلّا إذا قرر أن يرفع كل فوطة بمفردها، ولا أعتقد أن أي رجل قد يقوم بذلك. ثم أخذت بطاقة التموين الخاصة بأمّي وأمسكتها بيدي للحظات، أستذكرها. غادرت الحمّام، وأنا مصرَّة على سحب المعلومات من المسلّح.

كان غريبًا أن أكون بحضرة رجل لم يغتصبني لحظة أصبحنا بمفردنا. في البداية، رحت أتساءل إن كان من الممكن أن يكون الحاج عامر، على الرغم من انتمائه لداعش، قد أشفق عليّ عندما رآني عليلة. لربّما كان من صغار القوم بينهم لتقتصر مهامّه على مراقبتي ليس إلّا. لكن بالعودة إلى غرفة المعيشة، وجدته ينتظرني كما كان يفعل الحاج سلمان كل ليلة، بنظرة متوحّشة على وجهه. وبعد أن انتهى من اغتصابي، ارتاح مجدّدًا على الأريكة وبدأ يتكلّم بنبرة عادية كما لو كنا خليلَين.

أخبرني قائلًا: «ستبقين في هذا المنزل لأسبوع. بعد ذلك، قد تتوجّهين إلى سوريا».

فرجوته: «لا أريد الذهاب إلى سوريا! خذني إلى منزل آخر في الموصل، لكن لا ترسلني إلى سوريا».

«لا تخافي»، طمأنني قائلًا: «تكثر السبايا مثلك في سوريا».

«أعرف ذلك، لكنّني لا أريد أن أذهب إلى هناك».

توقّف الحاج عامر قليلًا عن الكلام ثم قال: «سنرى».

سألته: «إن كنت سأبقى هنا لأسبوع، هل أستطيع أن أرى بنات إخوتي روجيان وكاثرين؟».

«لربّما هما في سوريا. لربما إن ذهبتِ إلى سوريا، يمكنك أن تريهما».

فأجبته: «رأيتهما منذ فترة ليست بالبعيدة في الموصل. أعتقد بأنّهما لا تزالان هنا في هذه المدينة».

فقال لي: «حسنًا لا أستطيع أن أساعدك. كل ما أعرفه أنّه عليك الانتظار هنا. قد تُنقلين إلى سوريا في الغد».

«قلت لك يستحيل أن أذهب إلى سوريا!». كان الغضب قد بدأ يتملّكني الآن.

ابتسم الحاج عامر. «ومن تظنينه يتحكّم بالأمور هنا؟»، سألني من غير أن ترتفع نبرة صوته. «فكّري بالأمر. أين كنتِ البارحة؟ وأين أنت اليوم؟».

ثم توجّه إلى المطبخ، وسمعت بعد حين صوت البيض يقليه في الزيت الساخن. تبعته. كان صحن بيض وبندورة ينتظرني على الطاولة، لكن على الرغم من جوعي، لم أعد أشعر بأي رغبة بالأكل. فمجرّد فكرة ذهابي إلى سوريا ترعبني. كنت بالكاد أقوى على الجلوس، ومع ذلك، يبدو كأنّه لم يكترث لعدم تناولي الطعام.

بعد أن انتهى من تناول صحنه، سألني إن كنت أملك أيًا من العباءات غير تلك التي كنت أرتديها. فأجبته: «إنها الوحيدة التي بحوزتي».

فرد قائلًا: «قد تحتاجين للمزيد منها إن كنت ستذهبين إلى سوريا. سأخرج لأشتري لكِ بعض الثياب».

تناول مفاتيح السيّارة ثم سار نحو الباب. استدار قائلًا: «ابقي هنا. سأعود قريبًا». وغادر بعد أن أغلق الباب بعنف وراءه.

كنت بمفردي. لم يكن أي أشخاص في المنزل ولا شعرت بأي حركة. كنّا خارج المدينة تقريبًا، حيث كانت الشوارع هادئة نسبيًا، وقلّة

قليلة من السيّارات تمر، ومع أن المنازل كانت تحاذي بعضها البعض، إلا أنّها كانت صغيرة. كان بإمكاني أن أرى من نافذة المطبخ البعض يتنقّلون من منزل إلى آخر، ووراء ذلك كلّه، الطريق التي تمتد خارج الموصل. بدا لي الجوار هادئًا، ليس مزدحمًا كالمكان المحيط بمنزل الحاج سلمان، ولا بائسًا كما هو حال الحمدانيّة. وقفت أنظر من النافذة لحوالى النصف ساعة قبل أن يخطر ببالي أن الطرقات خالية ليس من الناس وحسب بل ومن الدواعش أيضًا.

للمرّة الأولى منذ أن عاقبني الحاج سلمان، أخذت أفكّر بالهرب. فالعذاب عند نقطة التفتيش والوعد بنقلي إلى سوريا قد أيقظا فيّ الحاجة الملحّة للهرب. رحت أفكّر باحتمال الخروج من نافذة المطبخ، لكن قبل أن أفعل، سرت إلى الباب الأمامي لأرى إذا كان المسلّح قد تركه بأعجوبة ما، غير مقفل. كان الباب خشبيًّا ثقيلًا. أدرت المسكة الصفراء، وانفطر قلبي. لم يتحرّك الباب. ففكّرت، يستحيل أن يكون من الغباء فيترك الباب من دون أن يحكِمَ إقفاله. لكن لمزيد من الإطمئنان، أعدت الكرّة مرة أخرى، وكدت أقع أرضًا عندما فتح بين يدي.

وقفت مذهولة عند العتبة، لا أجرؤ على الإتيان بأي حركة، متوقّعة في أي لحظة أن أجد سلاحًا مصوبًا إليّ، أو أسمع صوت الحارس المرتفع. لكن لا شيء. نزلت الدرج إلى الحديقة. لم أكن أضع نقابي، فرحت أسير ورأسي منحنٍ أنظر من زوايا عينيَّ بحثًا عن حرس أو مسلّحين. لكنّني لم أجد أيًا منهم. لم يصرخ بي أحد - إذ يبدو أن ليس هناك من لاحظ وجودي. كان سور منخفض يحيط بالحديقة، لكنّني أستطيع أن أقفز من فوقه بسهولة لو استخدمت سلّة المهملات كرافعة لي. انعقدت أعصاب معدتي توتّرًا.

وبسرعة، كما لو أن مسًّا استحوذ على جسدي، ركضت إلى داخل المنزل والتقطت حقيبتي ونقابي. كنت أتحرّك بأسرع ما يمكنني؛ فمن يدري متى يعود الحاج عامر، وماذا لو كان على حق وخطّطوا لإرسالي في الغد إلى سوريا؟ أنزلت النقاب على وجهي، ووضعت شرائط الحقيبة على كتفي، ثم انقضّيت على مسكة الباب مجدّدًا.

هذه المرّة، استخدمت كامل قوّتي، ففتح الباب بسهولة معي. وعبرت العتبة سريعًا، لكن ما إن لفحني الهواء، حتى شعرت بمن يشد بتنورة العباءة. فاستدرت قائلة: «أشعر بأنّني مريضة!»، متوقّعة أن أرى مسلّحًا يقف عند الباب. «أحتاج لتنشّق بعض الهواء!»، حتّى إن الليلة التي قضيتها مع حرس سلمان كانت أقل رعبًا من تلك اللحظة، إذ يستحيل أن يصدّقوا أنّني أفعل أي شيء هنا غير الهرب. لكن عندما نظرت ورائي، لم أجد أحدًا. بل ما أحسسته كان عباءتي التي علقت في الباب عندما أغلقته. كدت أضحك، وأنا أشدّها، ثم هرعت نحو الحديقة.

وقفت على أعلى سلّة المهملات، أحدّق من فوق سور الحديقة. كان الشارع خاليًا. إلى يساري مسجد كبير يعج على الأرجح بمسلّحي الدولة الإسلاميّة يؤدّون صلاة المغرب، لكن إلى يميني وأمامي شوارع سكنيّة عادية، كان المقيمون فيها داخل منازلهم، لربّما يصلّون أو يعدّون طعام العشاء. كنت أسمع السيّارات وصوت خرطوم مياه؛ في المنزل المجاور امرأة تروي زرعها. أوقفني خوفي عن تسلّق الجدار. ماذا لو عاد الحاج عامر في هذه اللحظة؟ هل أستطيع تحمّل عقاب جديد؟

فكّرت في القفز من فوق الجدار إلى حديقة مجاورة بدل القفز إلى الشارع، حيث كنت أخشى الالتقاء بسيّارة الحاج عامر. لكن ولا منزل من هذه المنازل بدا وكأنّه يملك الكهرباء، وكان الظلام يشتد في



الخارج. قد يصعب اقتفاء أثري بعباءتي في الظلام. استبعدت فكرة الخروج من بوّابة الحديقة، إذ كنت متأكّدة من أن ثمة من يحرسها. فامرأة تسير وحيدة بنقاب أو من دونه، تخرج من منزل يسيطر عليه الدواعش، قد تثير الشكوك، وجائزة إعادة سبيّة هي جائزة فيها من الإغراء ما يثير اللعاب.

كنت على يقين بأنّني لو فكّرت بالأمر أكثر، فسأخسر وقتًا ثمينًا. عليّ أن أقرّر. لكنّني لم أستطع الحراك. فأيًّا كان القرار الذي كنت أديره في ذهني، كان ينتهي بإلقاء القبض عليّ ومعاقبتي كما فعل الحاج سلمان. رحت أفترض أن الحاج عامر قد تركني بمفردي في المنزل مع الباب غير المقفل وبلا حرس ليس لأنّه نسي. فهو ليس غبيًّا. بل فعل ذلك لأنّه فكّر أنّه بعد كل ما تعرّضت له من استغلال، ولشدّة وهني ومرضي وجوعي، لن أقوى على التفكير حتى بالهرب. كانوا يعتبرونني ملكًا لهم إلى الأبد. لكنهم مخطئون. وبرمشة عين، رميت بحقيبتي من خلف الجدار ثم قفزت لأهبط بصوت مكتوم على الجانب الآخر.

الجزء الثالث

الفصل الأول

من الجانب الآخر من سور الحديقة، لاحظت أن الطريق المقابل للمنزل هي في الواقع طريق مقطوعة، وبما أن الوقت كان وقت صلاة العشاء، كانت مخاطرة كبيرة أن أمرّ أمام المسجد الكبير إلى اليسار. لذا فالخيار الوحيد المتاح كان التوجّه يمنة، من دون أن تكون لديَّ أدنى فكرة إلى أين تقودني هذه الطريق. فبدأت المشي.

كنت أرتدي الصندل الرجالي الذي أعطانيه الحاج سلمان في الليلة الأولى، بعد أن أخذه من القاعة التي تحوّلت إلى مسجد، وكانت المرّة الأولى التي أنتعله فيها وأسير مسافة تتخطّى المسافة من باب المنزل إلى السيارة. فراح الصندل يطرق طرقًا - وقد خشيت أن يسمع الصوت - بينما كان الرمل يعلق بين شرائطه وأصابع رجليّ. فأخذت أفكّر، كم هو كبير! لقد نسيت ذلك، ورحت للحظات أتلذّذ في تلك الملاحظة التي تعني أنّني أتحرّك.

لم أمشِ في خط مستقيم. بل كنت أشق طريقًا متعرّجًا بين السيّارات المركونة، وأستدير عند المنعطفات عشوائيًا، وأعبر الطرق نفسها وأعيد عبورها مرارًا وتكرارًا، على أمل أن يظنني كل مَن قد يراقبني امرأة تدرك جيّدًا أين هي بذاهبة. وكان قلبي يدق سريعًا في صدري حتّى إنّني خفت أن يسمع المارّون طرق نبضاته فيكتشفوا من أنا.

كان بعض المنازل التي مررت من أمامها مضاءً بفعل المولّدات الكهربائيّة، تحيط به حدائق مزيّنة بالأزهار البنفسجيّة والأشجار الفارعة. كان حيًّا جميلًا، قد بنيَ للعائلات الثريّة الكبرى. وبما أن الوقت كان عند المغيب، فقد كان أغلب السكّان في منازلهم، يتناولون العشاء ويضعون أطفالهم في فراشهم. لكن بعد اشتداد الظلمة، بدأوا يخرجون إلى حدائقهم للاستمتاع بالنسيم العليل والتحدّث مع جيرانهم. حاولت ألّا أنظر إلى أيّ منهم، على أمل ألّا يتنبّه لي أحد.

طوال حياتي، كنت أخشى الليل. وكنت محظوظة أنّني ولدت في عائلة فقراء: فهذا يعني أن أنام في الغرفة نفسها مع أخواتي وبنات إخوتي أو على السطح محاطة بعائلتي، فلا يعود يخيفني ما تخبّئه الظلمة لي. وبينما كنت أمشي ذلك المساء في الموصل، أخذت السماء تنتقل سريعًا إلى ظلام دامس، فتخطّى خوفي من الليل خوفي من أن يلقي الدواعش القبض عليّ. فمن دون إنارة في الشوارع، ومع منازل قليلة مضاءة، كانت الموصل على وشك أن تتحوّل سوداء متفحّمة. فالعائلات ستوشك على الخلود إلى النوم، وسرعان ما ستخلو الشوارع من المارة - كما رحت أفكّر - إلّا منّي ومن الرجال الذين يبحثون عني. وكنت أفترض أن الحاج عامر قد عاد إلى المنزل مع الثياب الجديدة واكتشف أنّني اختفيت. وقد اتّصل عبر جهازه على الأرجح بأعضاء آخرين من الدولة الإسلاميّة، ربما بقائد أو حتّى بالحاج سلمان على وجه التحديد، ليخبرهم أنّني هربت. ثم سيهرع مجددًا إلى سيّارته للبحث عن طيف فتاة هاربة تحت ضوء مصابيح سيّارته القوي. وربّما كان يخشى أيضًا على نفسه. ففي النهاية، أنا هربت بسهولة مطلقة لأنّه تركني بمفردي من دون أن يقفل الباب بالمفتاح. تخيّلته كيف سيقود بسرعة جنونيّة وبعناد

أكبر، فيطرق الأبواب ويستجوب الناس في الشارع، ويوقف أيّ امرأة يصادفها تسير بمفردها. تخيّلته يقضي الليل كلّه يبحث عني.

ساعدتني عباءتي على الاندماج بين المارّة، لكنّني لم أكن خفيّة كما وددت. فكل ما استطعت التفكير به بينما كنت أسير، كان اللحظة التي سيلقون فيها القبض علي، وكيف ستكون أسلحتهم، وما هي نبرة أصواتهم، ثم كيف سأستقبل أيديهم بينما تجرّني جرًّا إلى المنزل الذي هربت منه. كان عليَّ أن أجد مكانًا أختبئ فيه قبل أن يزداد الليل وحشة.

بينما كنت أمرّ أمام كل منزل، كنت أتخيّل نفسي أتوجّه إلى الباب أطرقه. هل ستسلّمني العائلة التي تفتح لي الباب على الفور؟ هل سترسلني إلى الحاج سلمان؟ كانت أعلام الدولة الإسلاميّة تتدلّى من قناديل الإنارة وفوق الأسوار، لتذكّرني أنّني في مكان خطِر. حتى إن صوت الأطفال يلعبون في الحدائق كان يصيبني بالهلع.

تساءلت للحظة إن كان من الأفضل أن أعود أدراجي. أستطيع أن أتسلّق سور الحديقة وأدفع بالباب الأمامي الثقيل وأجلس في المطبخ حيث تركني الحاج عامر عندما خرج. لربّما من الأفضل أن أذهب إلى سوريا بدل أن يُقبض عليَّ وأنا أحاول الهرب ثانية. ثم فكّرت، لا، لقد منحني الله هذه الفرصة وسهّل عليّ مغادرتي المنزل. - الباب غير المقفل، والحي الهادئ، وغياب الحراس، وسلّة المهملات أمام سور الحديقة - كل هذه إشارات أنه قد حان وقت المخاطرة بمحاولة هرب جديدة. فلن تسنح لي مثل هذه الفرصة مرّتين، لا سيّما إذا ما وقعت مجدّدًا في الأسر.

في البدء، كنت أنتفض عند سماع أدنى صوت ولدى الاتيان بأي حركة. مرّت سيّارة من أمامي، وكان مصباحها الأمامي الوحيد يلمع

في وجهي كما مصباح شرطي، فالتصقت بجدار حديقة حتى اجتازتني. وعندما رأيت شابّين يرتديان بدلات رياضيّة ويسيران نحوي، عبرت الشارع لتفاديهما. لكنّهما أكملا سيرهما وهما يتحادثان وكأنّهما لم يرياني. وعندما سمعت صرير بوّابة صدئة تفتح أمام منزل، انعطفت سريعًا، ومشيت بأسرع ما يمكنني من دون أن أركض، إلى أن نبح كلب، فانعطفت إلى زاوية أخرى. كانت تلك اللحظات المريعة بوصلتي الوحيدة، ومع ذلك، لم يكن بإمكاني أن أتصوّر وجهتي. خلتني سأمشي إلى ما لا نهاية.

بينما كنت أمشي، راحت المنازل تتقلّص من تلك الاسمنتيّة المتعدّدة الطوابق التي كانت تعود لعائلات ثريّة قبل أن تضع داعش يدها عليها - مع السيّارات الفخمة المركونة في الخارج والمولّدات الكهربائيّة التي تشغّل أجهزة التلفزيون والراديو - إلى مبانٍ أكثر تواضعًا، لا يتعدّى أغلبها طابقين من الاسمنت الرمادي اللون. كانت قلّة قليلة منها مضاءة، وقد ازداد الحي هدوءًا. كان بإمكاني أن أسمع الأطفال يبكون داخل المنازل، فأتخيّل أمّهاتهم يهدهدنهم، محاولات أن يهدّئن من روعهم. كما تحوّلت الحدائق المعشوشبة إلى رقع صغيرة مزروعة بالخضراوات، بينما استبدلت سيّارات السيدان الفخمة بشاحنات المزارعين. وكانت مجاري الصرف الصحي تتدفّق في المزاريب على طول الطريق: لقد أصبحت في حي فقير.

فجأة أحسست بأن هذا ما كنت أبحث عنه. إن كان لأيّ سنّي في الموصل أن يقدّم لي المساعدة، فلا شك في أنها ستكون عائلة فقيرة، على الأرجح عائلة بقيت هنا لأنّها لا تملك ما يكفيها من المال لترحل وربما كانت أقل اكتراثًا بالشؤون السياسيّة في العراق من اهتمامها بتأمين

كفاف يومها. كثيرة كانت العائلات الفقيرة التي التحقت بداعش. لكن في تلك الليلة، من دون أن أملك ما يرشدني أو من دون ما يدفعني إلى الثقة بغريب دون سواه، جل ما أردته هو إيجاد عائلة مثل عائلتي.

لم أكن أعلم أي باب أطرق. لقد قضيت ساعات طوال داخل مراكز الدولة الإسلاميّة، أصرخ بأعلى ما يمكنني مع الفتيات الأخريات، وكلّنا ثقة بأن الصوت يصل إلى الناس في الخارج. ومع ذلك، لم نجد أذنًا صاغية تقدّم لنا يد المساعدة. كما تم نقلي بين المدن في باصات وسيّارات، فعبرت أمام سيّارات فيها عائلات لم ترمِنا حتى بنظرة واحدة. وكل يوم، يعدم المسلّحون أناسًا خالفوهم الرأي، ويغتصبون نساء أيزيديّات يعتبرونهن أقل من سلع، ويواصلون مخطّطهم باجتثاث الأيزيديّين عن وجه الأرض - ومع ذلك لم يحرّك أي فرد في الموصل ساكنًا للمساعدة. فداعش كانت بجزئها الأكبر مكوَّنة من النسيج المحلّي، ومع أن نسبة كبيرة من المسلمين السنّة قد هربوا من الموصل عندما احتلّها التنظيم - بينما عانى كثيرون إرهاب الدولة الإسلاميّة - لم يكن لديَّ سبب يحملني على التفكير بأن وراء أي من هذه الأبواب شخص واحد يتعاطف معي. أذكر كيف كنت أتوق لأن تنظر إليّ والدة مرتجى بالطريقة التي قد تنظر بها إلى ابنتها، وكيف كانت في المقابل ترمقني بحقد. هل في هذه المنازل أشخاص مثلها؟

ومع ذلك، لم أكن أملك الخيار. فكان يستحيل عليَّ أن أغادر الموصل بمفردي. فحتّى لو تمكّنت من اجتياز نقطة التفتيش، وهو ضرب من ضروب المستحيل، فسيتم القبض عليّ وأنا أمشي على طول الطريق، أو أموت من العطش والجفاف قبل أن أصل إلى كردستان. أملي الوحيد بالخروج من الموصل على قيد الحياة كان أحد هذه المنازل. لكن أيّ منزلٍ منها؟

سرعان ما حل ظلام دامس حال دون أن أرى أمامي. لقد مضى على رحلة سيري على قدميّ ما يناهز الساعتين، وقد بدأت قدماي تؤلمانني من الصندل. لكن كل خطوة كنت أخطوها بدت وكأنّها تدبير أمان، نوع من المسافة المتزايدة، أيًّا كان قصرها، بيني وبين داعش. ومع ذلك، لم يكن بوسعي أن أمشي إلى ما لا نهاية. توقّفت عند أحد المنعطفات أمام باب حديدي ضخم، واسع ومرتفع، ورفعت يدي لأدق الباب. لكن في اللحظة الأخيرة، أخفضت يدي إلى جانبي وبدأت المشي مجدّدًا. لا أعرف لماذا.

عند زاوية ذلك المنزل، توقّفت أمام باب حديدي أخضر، أصغر من الباب الأول. لم تكن أنوار المنزل مشتعلة في الداخل الذي كان يتألف من طابقين من الاسمنت، فيشبه إلى حد كبير بعض المنازل الجديدة التي تم تشييدها في كوجو. لم يكن ثمّة ما هو مميز في هذا المنزل، أو ما قد يرشدني إلى العائلة التي تعيش داخله. لكنّني كنت قد مشيت بما فيه الكفاية. هذه المرّة، رفعت يدي، وطرقت براحتي مرّتين على الباب. فجاء الصوت قويًّا فارغًا، وبينما أخذ يتردّد الصدى عبر الحديد، وقفت في الشارع أنتظر إن كان سيتم إنقاذي أم لا.

بعد ثوانٍ معدودة فُتح الباب، ووقف رجل بدا في خمسينيّاته من الجهة الأخرى. «من أنتِ؟»، سألني، لكنّني دفعته ومررت من أمامه من دون أن أقول كلمة. في الحديقة الصغيرة، رأيت عائلة تجلس في دائرة على مقربة من الباب، تتسامر تحت ضوء القمر. وقفوا كلّهم مذهولين، لكنّني لم أنبس ببنت شفة. وعندما سمعت بوّابة الحديقة تُغلق، رفعت نقابي فوق وجهي.

وراحت الكلمات تتدافع من فمي، «أرجوكم، ساعدوني». ساد

صمت ثقيل فواصلت الكلام. «اسمي نادية. أنا أيزيديّة من سنجار. جاءت داعش إلى قريتي، فأخذوني إلى الموصل كي أكون سبيّة. لقد خسرت عائلتي».

كان شابّان في العشرينات من عمرهما يجلسان في الحديقة مع ثنائي أكبر في السن قدّرتُ أنّهما الأهل، وصبيّ يبدو وكأنّه في الحادية عشرة من عمره. كما جلست امرأة شابّة في العشرين من عمرها أيضًا، تهز لطفل كي يغفو. كانت حبلى، وخلتني أرى ملامح خوف ترتسم على وجهها قبل أي شخص آخر. كانت الكهرباء مقطوعة في منزلهم الصغير وقد أحضروا فرشًا إلى الحديقة حيث النسيم عليل.

توقّف قلبي عن الخفقان للحظة. ماذا لو كانوا أعضاء في الدولة الإسلاميّة، فللرجال لحى وكانوا يرتدون سراويل سودًا فضفاضة، بينما كانت النساء في ملابس محافظة، مع أن وجوههن غير مغطاة لأنّهن في المنزل. ليس ثمّة ما يميّزهم عن الأشخاص الذين كانوا يحتجزونني، فبتّ على يقين بأنّهم سيسلّمونني. تجمّدت في مكاني وعلقت الكلمات في فمي.

أخذني أحد الرجال من ذراعي وسحبني من الحديقة إلى داخل المنزل. كان المدخل حارًّا وداكنًا. فشرح الرجل الطاعن في السن قائلًا: «هنا أكثر أمانًا. لا يجدر بكِ قول ما قلتِه في الخارج».

فسألتني المرأة الطاعنة في السن التي افترضت أنّها زوجته، ما إن دخلنا كلّنا: «من أين أنت؟ ماذا حصل معكِ؟». كان صوتها متوتّرًا من دون أي نبرة غضب، فشعرت وكأن ضربات قلبي تستعيد شيئًا فشيئًا انتظامها.

أخبرتهم قصّتي: «أنا من كوجو. أُخذت سبيّة، وهربت للتو من آخر منزل احتجزني فيه الدواعش. كانوا على وشك أن ينقلوني إلى سوريا».

أخبرتهم بما حل بي، حتّى الاعتداء والاستغلال. ففكّرت بأن كلّما عرفوا أكثر، كلّما رغبوا بمساعدتي. كانوا عائلة، لذا قد يكون في قلبهم شيء من الرأفة والحب. لكنّني لم أذكر أسماء أي من المسلّحين الذين اشتروني أو باعوني. فالحاج سلمان كان شخصيّة مهمة في داعش، وهل من شخص يصعب تحدّيه أكثر من قاض يُصدِر عقوبة الإعدام على الناس؟ رحت أحدّث نفسي، لو عرفوا أنّني كنت ملك سلمان، لأعادوني إليه على الفور، أيًا تكن شفقتهم عليّ.

سألتني المرأة، «ما الذي تطلبينه منّا؟».

فأجبتها: «تخيّلي أن لديك ابنة شابّة أُخذت من عائلتها وخضعت لهذا الكم من الاعتداءات والمعاناة. أرجوكم، فكّروا بهذا عندما تدرسون ما ستفعلونه بي الآن». ما إن انتهيت، حتّى تكلّم الأب: «فلتطمئنّي يا بنيّتي. سنحاول أن نساعدك».

فهمست المرأة: «كيف يسعهم أن يفعلوا هذا بالفتيات الصغيرات؟».

بدأ أفراد العائلة يعرّفون عن أنفسهم. كانوا بالفعل مسلمين سنّة بقوا في الموصل عند اجتياح داعش، لأن لا مكان آخر يلجأون إليه، بحسب ما أخبروني. «لا نعرف أحدًا في كردستان يساعدنا على اجتياز نقاط التفتيش. فضلًا عن ذلك، نحن فقراء. كل ما نملك هو هذا المنزل». لم أكن أدري إن كنت أصدّقهم - إذ قد غادر الكثير من السنّة الفقراء الموصل، بينما بقي آخرون ولم يعرفوا داعش على حقيقتها إلّا عندما ازدادت حياتهم سوءًا وليس بسبب معاناة الآخرين - لكنّني قررت أن لو ساعدني هؤلاء، فهذا يعني أنّهم يقولون الحقيقة.

قالوا لي: «نحن من عشيرة العزّاوي»، في إشارة إلى قبيلة لطالما

كانت على علاقة وثيقة بالأيزيديّين في المنطقة، ممّا يعني على الأرجح أنّهم يعرفون بأمر الأيزيديّين، وقد يكون بينهم كريف في القرى المجاورة لقريتي. تلك إشارة جيدة.

كان هشام، الرجل الأكبر سنًّا، ممتلئ البنية قد أرخى لحية طويلة سوداء وبيضاء. أمّا زوجته، مهى، فكانت جميلة المحيّا. عندما دخلت، لم تكن ترتدي إلا فستانًا منزليًّا بسيطًا، لكن بعد قليل، توجّهت لترتدي عباءتها بما أنّني غريبة. كان ابناهما ناصر وحسين شابَّيْن نحيلَين، راحا يمطرانني، وتحديدًا ناصر، بأسئلتهما الفضوليّة: كيف وصلت إلى هنا؟ أين عائلتي؟

كان ناصر الابن الأكبر، ويبلغ من العمر الخامسة والعشرين. وكان فارع الطول، شعره أسود داكنًا ومتراجعًا إلى الوراء، وفمه كبيرًا. أكثر ما كنت أخشاه كان الشابّان: فلو كان أي من أفراد هذه العائلة وفيًا لداعش، فلا شك في أنّه أحد هذين الشابّين السنّيين أو كليهما. لكنّهما أقسما أنهما يكرهان المسلّحين، إذ قال لي ناصر: «أصبحت الحياة رهيبة منذ وصلوا إلى هنا. نحن نشعر وكأننا نعيش في حالة حرب مستمرّة».

كانت زوجة ناصر، صفاء في الحديقة أيضًا. كما ناصر، كانت فارعة الطول، وعيناها جذّابتان تغوران في وجهها. لم تقل شيئًا، بل راحت تنظر إليّ بينما تهزّ طفلها في حضنها وترمق بين الفينة والأخرى شقيق ناصر الأصغر خالد، الذي كان لا يزال يافعًا لا يبالي بما يجري من حوله. بدت صفاء الأكثر قلقًا بينهم جميعًا لتواجدي معهم. سألتني بعد أن نزعت عباءتي المتّسخة: «هل تريدين عباءة أخرى؟». كانت التفاتة لطيفة منها، لكن شيئًا ما في نبرتها جعلني أفكّر بأنّها تحكم عليّ لارتدائي فستانًا أيزيديًّا في منزل مسلم. فأجبتها، «كلّا شكرًا». لم أكن أريد أن أرتدي الزيّ الهجين إلّا إذا ما أجبرت على ذلك.

سألني ناصر أخيرًا: «مع من كنتِ من داعش؟». «سلمان»، قلتها بهدوء، فراح يهمهم مظهرًا معرفته بآسري السابق لكنّه لم يضف شيئًا عنه. عوضًا عن ذلك، سألني عن عائلتي وأين قد أذهب لو غادرت الموصل. فشعرت بأنّه لم يكن خائفًا وأنّه يريد مساعدتي.

سألت: «هل سبق والتقيت بفتيات أيزيديّات أخريات؟».

«رأيت بعضهن من قبل في المحكمة»، أجاب هشام. واعترف ابنه حسام بأنّه كان يراقب الباصات تمر وهي على ما يعتقد تحمل فتيات أسيرات مثلي. فقال: «ثمّة ملصقات في الموصل تقول إن سلّمت سبيّة، فستجزيك داعش بخمسة آلاف دولار. لكن سمعنا أنّها كذبة».

وأضاف هشام: «لا نستحسن ما يجري هنا. ونحن غادرنا الموصل منذ زمن طويل، عندما وصلت داعش، لكنّنا لا نملك المال، ولا مكان نلجأ إليه».

«أربع من بناتنا متزوّجات هنا»، قالت مهى. «حتى لو غادرنا، سيبقين. فقد تكون عائلات أزواجهن من أنصار داعش. لا ندري، الكثير من الناس يبايعونهم هنا. لكن لا يمكننا أن نترك بناتنا هنا بمفردهن».

لم أكن أريد أن أبدو جاحدة بحق العائلة التي سمحت لي بالدخول إلى منزلها. فقد استمعوا إلى قصّتي من غير أن يحكموا عليّ وعرضوا المساعدة. ومع ذلك، لم يكن بوسعي إلّا أن أتساءل أين كانوا طوال الفترة التي كنت فيها أسيرة. فالاستماع إلى تبريراتهم زادني غضبًا، مع أنّني حاولت ألّا أعبّر عن مكنونات نفسي. كيف يمكن لحسين أن يقف متفرّجًا على تلك الباصات تمر من أمامه، يفكّر بأن على متنها فتيات شابّات ونساء سيتعرّضن للاغتصاب الليلة تلو الأخرى على يد مسلّحي الدولة

الإسلاميّة؟ كيف يمكن لهشام أن يقف متفرّجًا في المحكمة بينما يجرّ المسلّحون سباياهم إلى زيجات غير شرعيّة؟ بالطبع كانوا يساعدونني، لكن بعدما ظهرت على عتبة بابهم ليس إلّا. وكنت واحدة من آلاف. قالوا إنّهم يكرهون داعش، لكن أيًّا منهم لم يقم بأي خطوة لردع الدواعش.

رحت أفكّر، ربما كنت أغالي في مطالبتي لعائلة متواضعة أن تحارب إرهابيّين من أمثال الدواعش. رجال رموا من اتّهموهم بالمثليّة الجنسيّة من على الأسطح؛ رجال اغتصبوا فتيات يانعات لمجرّد أنّهن ينتمين إلى الديانة الخطأ؛ رجال رجموا أناسًا بالحجارة حتى الموت. لم يسبق لي أن خبرت استعدادي لمساعدة الآخرين على هذا النحو. لكن السبب وراء ذلك أن الأيزيديّين لم يشعروا يومًا بأن دينهم كان مصدر حماية لهم، بل لطالما كان سبب الهجوم عليهم. وقد بقي هشام وعائلته يعيشون في أمان في الموصل الخاضعة لداعش لأنّهم ولدوا سنّة، وبالتالي تقبّلهم الإرهابيّون. وكانوا راضين بالاحتماء خلف دينهم، إلى أن ظهرتُ في حياتهم. حاولت ألّا أبغضهم نتيجة ذلك، لأنّهم كانوا يبادلونني عاطفة ملحوظة، لكنّني لم أستطع أن أحبّهم.

سألني هشام: «هل لديك أحد في كردستان نستطيع الاتّصال به لنخبره أنّك معنا؟».

فأجبته: «لديّ إخوة هناك»، وتلوت رقم هاتف حزني الذي كان محفورًا في ذهني.

رحت أراقب هشام يطلب الرقم ويبدأ بالكلام. ثم نزع الهاتف عن أذنه بارتباك وطلب الرقم مجدّدًا. في المرّة الثانية، حصل الأمر نفسه، فخشيت أن أكون أعطيته رقمًا غير صحيح. فسألت هشام: «ألا يجيب؟».

هز رأسه نفيًا. «يجيب رجل، لكن ما إن أقول له من أنا ومن أين أتصل، حتّى يبدأ بكيل الشتائم. قد لا يكون أخوك. ولو كان، لا أعتقد أنه يصدّق أنّك معي».

حاول هشام مجدّدًا. هذه المرة، أيًّا كان من رد على الاتصال سمح له بالكلام. «نادية هنا معنا، هربت من آسرها»، أخذ يشرح. «إن كنت لا تصدّقني، أعرف أيزيديّين سيخبرونك من أنا». كان هشام قد خدم في جيش صدّام مع سياسي أيزيدي من سنجار. «سيقول لك إنّني رجل صالح ولن أؤذي أختك».

كانت مكالمة موجزة، أخبرني بعدها هشام أنه كان يكلّم حزني. «في البداية، عندما علم أنّه اتّصال من الموصل، اعتقد أنّني أتّصل لأضمر له شرًّا. على ما يبدو، فإن الرجال الذين يحتجزون زوجته يتّصلون به بين الفينة والأخرى لتذكيره بما يفعلونه بها. وكل ما يقوى على فعله هو كيل الشتائم وإقفال الخط». انفطر قلبي حزنًا على حزني وجيلان اللذين حاربا كثيرًا كي يكونا معًا كخيار أوّل.

كان الوقت قد تأخّر، فوضعت النسوة فرشة لي في إحدى الغرف وسألنني إن كنت جائعة. فأجبت نفيًا. لم أكن أتخيّل نفسي أقوى على تناول أي لقمة. «لكنّني عطشى». فأحضر لي ناصر بعض المياه، وبينما رحت أشرب، حذّرني من مغبّة الخروج على الإطلاق. «هذا الحي كلّه أعضاء ومناصرون لداعش. إيّاك والخروج».

«ماذا كان يجري هنا؟». أردت أن أعرف. هل من سبايا في الجوار؟ هل كان المسلّحون يفتشون المنازل عندما تختفي إحداهن؟

فأجابني ناصر: «نحن نعيش في زمن خطير. داعش أينما كان.

يحكمون المدينة بأكملها، وعلينا كلّنا توخّي الحذر. لدينا مولّد كهربائي، لكن لا نستطيع أن نشغّله ليلًا لأنّنا نخشى أن تقتفي الطائرات الأميركيّة أثر الضوء فتلقي بقنبلة على منزلنا».

على الرغم من الحرارة، رحت أرتعش، وأنا أفكّر بالباب الأول الذي توقّفت عنده قبل أن أقرّر ألّا أطرقه. من كان خلفه؟

«نامي الآن»، قال لي هشام. «في الصباح، سنفكّر بطريقة نخرجك بها من هنا».

كانت الغرفة خانقة، وبالكاد ذقت طعم النوم. قضيت الليل بطوله أفكّر في المنازل من حولي، وهل هي تحوي عائلات تشجّع الدولة الإسلاميّة؟ كما رحت أفكّر بالحاج سلمان يجول في الطرقات في سيّارته، يبحث عنّي، ويستشيط غيظًا فيبقى صاحيًا طوال الليل. ثم تساءلت عمّا حصل للعسكري الذي سمح لي بالفرار. هل تقنع جائزة الخمسة آلاف دولار ناصر وعائلته بتسليمي؟ هل كانوا يكذبون عليّ، مدّعين أنّهم متعاطفون ومستعدّون للمساعدة، بينما هم يكرهونني لأنّني أيزيديّة؟ قد يكون من الغباء أن أثق بهم لمجرّد أنّهم من عشيرة العزاوي، حتّى لو كان لهشام أصدقاء أيزيديّون في الماضي في الجيش. فثمّة سنّة كانت تربطهم علاقات وثيقة مع الأيزيديّين ومع ذلك خانوا أصدقاءهم وباعوهم لداعش.

أخواتي وبنات أشقّائي اللواتي فُصلن عني، قد يكنّ في أي مكان. هل سيتلقّين عقابًا لأنّني هربت؟ ماذا حصل للنساء اللواتي تركناهن في صولاغ، والفتيات اللواتي نُقلن إلى سوريا؟ رحت أفكّر بأمّي الجميلة، وبمنديلها الأبيض يسقط عن شعرها بينما تتعثّر وهي تصعد على متن الباص في صولاغ، وكيف وضعت رأسها في حضني وأغمضت عينيها

لتحجب عن نظرها هول ما يجري من حولها. رأيت كاثرين تسلخ عن ذراعيّ أمّي قبل أن يتم تحميلها في الباص. سأعلم سريعًا ما حصل لهن كلّهن. عندما غفوت، كان سباتًا بلا أحلام. سباتًا غارقًا في سواد قاتم.

الفصل الثاني

استيقظت في الخامسة صباحًا، قبل أي فرد من العائلة، وأوّل ما راودني من أفكار هو أنّه عليّ أن أخرج من هنا. فرحت أسرّ لنفسي، أنا لست بأمان هنا. ماذا سيفعلون بي؟ ما احتمالات أن يكونوا أشخاصًا طيّبين ويخاطرون بحياتهم من أجل مساعدتي؟ لكن النهار كان قد أصبح، وبدأت الشمس الحارقة تسطع بنورها في الشوارع، ليغيب أي ظل قد يخبّئني لو حاولت الرحيل. لم يكن لديّ مكان أذهب إليه. فاستلقيت على فرشتي، وأنا أدرك أن مصيري معلّق بين يديّ هشام وعائلته، وكل ما أستطيع فعله كان الصلاة لكي يساعدوني بالفعل.

وصل ناصر بعد حوالى الساعتين، حاملًا تعليمات من هشام. وبينما أخذنا نتكلّم بانتظار أن يلحق بنا والده، قدّمت لنا مهى الفطور. لم أستطع تناول الطعام، لكنّني شربت القليل من القهوة. فأخبرني: «سنأخذك لتبقي مع أختي مينا وزوجها بشير. يعيشان عند أطراف المدينة، وهناك يقل تواجد داعش ويخف احتمال أن يفتضح أمرك».

أضاف ناصر: «نعلم أن بشيرًا لا يحب داعش. لكنّنا لسنا أكيدين من إخوته. يقول إنّهم لم يلتحقوا بهم، لكن لا أحد يعلم. لذا عليك أن تحاذري. ومع ذلك، بشير رجل صالح».

وضعت نقابي على وجهي، الأمر الذي منحني حسًّا بالأمان مع هشام وناصر في السيارة. كان الحي قد بدأ يتقلّص بينما رحنا نسير باتّجاه منزل مينا وبشير، في ضواحي الموصل. ولم يعرنا أحد أي اهتمام عندما سرنا من السيارة إلى الباب الأمامي، كما أنّني لم ألحظ أي منازل مجاورة ترفع راية الدولة الإسلاميّة، أو طلت جدرانها بخرابيش للتنظيم.

التقانا الزوج عند مدخل المنزل، الذي كان أكبر وأجمل من منزل هشام، وذكّرني بالمنازل التي كان إخوتي المتزوّجون يبنونها رويدًا رويدًا في كوجو، بما ادّخروه من مال في حياتهم. كان منزلًا مشيّدًا من الاسمنت الطويل الأمد، وبلاط الأرضيّة مغطّى بالسجاد الأخضر والبيج، بينما غرفة المعيشة تضم أرائك بمساند فاخرة.

كانت مينا أجمل امرأة رأيتها في حياتي. وجهها بيضاوي شاحب اللون. عيناها خضراوان لوزيّتان. تشبه في هيئتها ديمال، أي ليست بالنحيلة. شعرها الطويل مصبوغ باللون البنّي. كان لديها هي وبشير خمسة أولاد، ثلاثة صبية وابنتان، وعندما وصلت، رحّبت بي العائلة كلّها بهدوء، بما يوحي بأن هشام وناصر قد سبق وأجابا على كل ما قد يخطر لهم من أسئلة حولي. لم يحاول أحد التخفيف عنّي. فباستثناء ناصر الذي بدا فضوليًّا يريد أن يعرف أصغر تفاصيل ما حدث لي، عاملتني العائلة وكأنّني واجب عليها تأديته، وكنت ممتنّة لذلك. فلم أكن واثقة من أنّني أستطيع مبادلتهم عطفهم لو أظهروا أيًّا منه لي. «السلام عليكم»، قلت للجميع. فرد بشير: «وعليكم السلام. لا تقلقي، سنساعدك».

كانت الخطّة تقضي بالاستحصال على بطاقة هويّة مزوّرة لي باسم صفاء أو مينا وفق البطاقة التي تبدو معاملاتها أكثر سهولة، ثم بطاقة لأحد الرجلين، بشير أو ناصر، لاصطحابي من الموصل إلى كركوك،

مدّعين أنّنا زوجٌ وزوجة. كان لناصر أصدقاء في الموصل يزوّرون بطاقات هويّة - في ما مضى بطاقة الهويّة العراقيّة الرسميّة التقليديّة والآن البطاقة السوداء والبيضاء التي تعود إلى الدولة الإسلاميّة - وكانوا على استعداد لمساعدتنا. فأخبرني قائلًا: «سنجلب لك بطاقة هويّة عراقيّة وليس بطاقة خاصّة بداعش. فهكذا يبدو الأمر على قدر أكبر من المصداقيّة وسيسهّل عمليّة دخولك إلى كردستان، إن تمكّنا من عبور نقاط تفتيش داعش».

أضاف بشير: «إن كنت ستستخدمين معلومات صفاء، فتذهبين مع ناصر. وإن استخدمت معلومات مينا، فتذهبين معي». كانت مينا تجلس معنا، تنصت للحديث من غير أن تتكلّم. أخذت عيناها الخضراوان تلمعان في اتّجاهي بينما كان زوجها يشرح المخطّط. كان جليًّا أنّها ليست مسرورة بما يُحاك، لكنّها لم تبدِ أي اعتراض.

سأل بشير: «هل يمكن أن نتركك في كركوك؟». كان يرى أن كركوك قد تكون أسهل مدخل إلى كردستان بعد الموصل. وهكذا، يستطيعون أن يطلبوا من صانع بطاقة الهويّة أن يذكر كركوك كمكان الولادة ويعطونني اسمًا شائعًا في تلك المدينة.

«هل كركوك خاضعة لداعش؟». لم أكن أملك أدنى فكرة. فطوال نشأتي، كنت أفترض أن كركوك هي جزء من كردستان لأن هذا ما قالته الأحزاب الكرديّة، لكن ممّا سمعته من المحادثات بين مسلّحي الدولة الإسلاميّة، فهمتُ أن المنطقة متنازَع عليها، مثل سنجار، وأنّها ضائعة الآن ليس بين الأكراد وحكومة بغداد وحسب، بل وداعش أيضًا. وقد استحوذ المسلّحون على أجزاء كبيرة من العراق، لذا كان من السهل أن أفترض أنّهم يسيطرون على كركوك وحقولها النفطية الآن. «أستطيع أن أسأل عائلتي. إن كانت خاضعة لسيطرة البيشمركة، فأستطيع الذهاب إلى هناك».

«حسنًا»، بدا بشير راضيًا عن إجابتي. «سأتّصل بصديق هشام في سنجار لأرى إن كان يستطيع مساعدتكِ، وسيستحصل لك ناصر على بطاقة هويّة». ذاك اليوم، تكلّمت مع حزني للمرّة الأولى منذ هروبي. حاولنا في الجزء الأكبر من المكالمة أن يحافظ كلانا على رباطة جأش - فثمّة الكثير يفترض أن نقوم به إن كنت أريد أن أصل سالمة - لكنّني عندما سمعت صوته، اجتاحتني فرحة عارمة حتّى انعقد لساني.

«نادية»، قال لي. «لا تقلقي. أعتقد بأن هذه العائلة صالحة - سيساعدونك».

بدا حزني كما كان دائمًا، واثقًا من نفسه وعاطفيًّا في الوقت نفسه. وعلى الرغم ممّا كنت أمرّ به، إلا أنّني شعرت بالأسى عليه. افترضت أنّني سأكتشف قريبًا ماذا يعني أن أكون إحدى الأيزيديّات الناجيات، وكل ما يرافق ذلك من أسى واشتياق، لو حالفني الحظ.

أردت أن أخبره كيف هربت. فكنت أفتخر بالشجاعة التي تحلّيت بها. «كان الأمر غريبًا يا حزني. بعد كل ما مررت به، والجميع يحرسني عن كثب، يترك هذا الرجل الباب من غير أن يقفله. كل ما فعلته هو أنّني فتحت الباب وقفزت فوق الجدار وغادرت». فأجابني حزني: «هذا ما أراده الله لك يا نادية. يريدك أن تعيشي وتعودي إلينا سالمة».

«أخشى أن يكون أحد الأبناء هنا مع داعش»، قلت لحزني. «إنّهم على درجة عالية من الالتزام الديني».

لكن حزني أكّد أن لا خيار لديّ، مضيفًا: «عليك أن تثقي بهذه العائلة». فأجبته أنّه إن كان يعتقد بأنّها عائلة صالحة، فسأبقى معهم.

لاحقًا، علمت عن شبكات التهريب التي أُعدّت لمساعدة الفتيات

الأيزيديّات على الفرار من داعش، وتعمل تحديدًا من منزله في مخيّم اللاجئين، حيث كان حزني يساعد على تدبير فرار عشرات الفتيات. كانت كل عملية تبدأ بالذعر والفوضى، لكن بعد أن تنجح عائلة الضحيّة في جمع المال اللازم، يتحوّل الأمر إلى شبه صفقة، توظّف نظامًا متكاملًا من المهرّبين. فثمّة وسطاء - بمعظمهم من العرب والتركمان والسوريّين والأكراد العراقيّين - يتقاضون بضعة آلاف الدولارات لمشاركتهم في هذه المخطّطات. وكان بعضهم سائقي سيّارات أجرة، يهرّبون الفتيات في سياراتهم؛ وآخرون يعملون جواسيس في الموصل أو تلّعفر، فيخبرون العائلات أين تختبئ الفتيات؛ وآخرون يساعدون عند نقاط التفتيش أو يرشون ويجادلون سلطات التنظيم. وقلّة من هؤلاء الفرقاء الأساسيّين داخل الأراضي الخاضعة للدولة الإسلاميّة كانوا من النساء؛ إذ يستطعن التقرّب بسهولة أكبر من سبيّة من دون أن يثرن الشكوك. وعلى رأس هذه الشبكات بضعة رجال أيزيديّين، أعدّوا شبكاتهم مستخدمين علاقاتهم في القرى السنّية، وتأكدوا من سير الأمور كلّها كما خطّطوا لها. فكان كل فريق يعمل ضمن نطاق منطقته، البعض في سوريا والبعض في العراق. وكما في أي أعمال منظّمة، تطوّرت المنافسة بينهم، إذ بدا من الواضح أن تهريب السبايا كان وسيلة ممتازة لجني المال في زمن الحرب.

عندما وُضعت خطّة تهريبي، كانت شبكة التهريب قد أبصرت لتوّها النور وأخذت تتطوّر، فراح حزني يفكّر كيف يمكنه أن يشارك فيها. كان أخي شجاعًا وصالحًا، ولم يكن ليترك أحدًا يعاني لو أمكنه المساعدة، لكن عددًا كبيرًا من الفتيات قد حصل على رقم هاتفه - كل النساء قريباته قد حفظن رقمه ومرّرنه للسبايا اللواتي كن يلتقين بهن

- حتى بات غير قادر على الإجابة على كل الاتّصالات الهاتفية التي تَرِده. وعندما اتّصل به هشام ليكلّمه عني، كان قد سبق له أن تواصل مع آخرين للمساعدة واتّصل بمسؤولين من ممثليّة حكومة كردستان يعملون على تحرير الأيزيديّات، بالإضافة إلى أشخاص محليّين في الموصل وفي أماكن أخرى في العراق كانت خاضعة لداعش. وسرعان ما أصبح التهريب وظيفته بدوام كامل بلا أي مقابل ماديّ.

لكن حزني كان قلقًا، إذ لم يكن يدري ماذا يتوقّع وأنا أعد لرحلتي إلى كركوك. فهو لم يكن متأكدًا من أن اصطحاب أحد الأخوين، ناصر أو بشير، لي إلى كردستان سيؤتي ثماره. فلم يكن من السهل لرجل سنّي بالسن المناسبة للقتال أن يعبر نقاط التفتيش الكرديّة، وكان حزني يدرك جيّدًا أنه لو اكتشف الدواعش أن عائلة في الموصل ساعدت سبيّة على الهرب، فسيكون العقاب وخيمًا. لذا قال لي: «لا نريده أن يقع في الأسر لمجرّد أنه ساعدك. مسؤوليّتنا تقضي بأن نتأكّد من أنه لن يصيب ناصر أو بشير أي مكروه عندما يصطحبانك إلى كردستان. مفهوم يا نادية؟».

«مفهوم يا حزني، سألتزم الحذر». كنت أعلم أنه لو افتُضح أمرنا عند أي من نقاط تفتيش الدولة الإسلاميّة، فسيُقتل أي شخص معي، وستتم إعادتي إلى العبوديّة. أمّا عند نقطة التفتيش الكرديّة، فيكمن الخطر في أن يتم احتجاز ناصر أو بشير.

أضاف حزني: «اهتمّي بنفسك يا نادية. وحاولي ألّا تقلقي. في الغد ستحصلين على بطاقة الهويّة. وعندما تصلين إلى كركوك، اتّصلي بي».

وقبل أن نقفل الخط، سألته: «ماذا حصل لكاثرين؟».

أجابني: «لا أدري يا نادية».

«وماذا عن صولاغ؟».

فردَّ: «لا يزال الدواعش في كوجو وصولاغ. نعرف أن الرجال قد قُتلوا. نجا سعيد، وأخبرني بما حصل. كما تمكّن سعود من الوصول إلى هنا وهو يبلي حسنًا. إنما لا نعرف بعد ماذا حلّ بالنساء في صولاغ. لكن سعيدًا مصرٌ على التوجّه لمحاربة داعش وتحرير المنطقة، وأنا قلق عليه». كان سعيد يعاني كثيرًا بفعل إصاباته وكانت كوابيس عمليّة إطلاق النار لا تفارقه كل ليلة، فتسلب النوم من عينيه». ثم أضاف حزني: «أخشى ألّا يتمكن من التأقلم مع ما حدث».

ودّعنا بعضنا البعض على الهاتف، قبل أن يُعطي حزني الخط لأخي غير الشقيق خالد، الذي كانت لديه معلومات أكثر يخبرني بها. فقال: «الأيزيديّون لم يعودوا في مرحلة هروب. بل يعيشون ظروفًا قاسية جدًّا في كردستان، بانتظار أن يتم إعداد مخيّمات لهم».

سألته: «ماذا حصل للرجال في كوجو؟». مع أنني تلقّيت الخبر من قبل. لكنّني لم أرِد أن يكون صحيحًا.

فأجاب: «قُتل الرجال كلّهم. وأُخذت النسوة كلّهن. هل رأيتِ أيًّا من النساء؟».

أجبته: «رأيت نسرين وروجيان وكاثرين. لكنّني لا أعرف أين هنّ الآن».

كانت الأخبار أسوأ ممّا توقعت. فكان يصعب عليّ سماع حتّى ما أعرفه مسبقًا. أقفلنا الخط، وأعدت الهاتف لناصر. لم أعد خائفة من خيانة العائلة لي، لذا سمحت لنفسي بأن أستريح قليلًا. لكنّني شعرت بتعب لم يسبق أن أحسسته من قبل.

بقيت في منزل مينا وبشير لأيّام عدة بينما كان يتم العمل على وضع خطة الهروب، وكنت أبقى بمفردي لأغلب الأحيان، أفكّر بعائلتي وبما سيحلّ بي. وإن لم يطرح عليّ أحد أي سؤال، كنت أسعد لبقائي صامتة. كانوا عائلة متديّنة، يؤدّون فريضة الصلاة خمس مرات في اليوم، لكنّهم قالوا إنّهم يكرهون داعش، ولم يسألوني يومًا عن اعتناقي الإسلام عنوة، ولا حاولوا أن يجبروني على الصلاة معهم.

كنت لا أزال عليلة أشعر وكأن النار تتآكل معدتي، لذا أخذوني في أحد الأيّام إلى مستشفى النساء المحلّي. كان عليهم أوّلًا أن يقنعوني بأن الطريق آمنة وأستطيع الذهاب. لكنّني كنت أقول لوالدة ناصر، «يكفي أن تضعي زجاجة من المياه الساخنة على معدتي. هذا يكفيني». لكنّها أصرّت أن أرى طبيبًا. «طالما أنّك ترتدين النقاب وتبقين معنا، فستكونين بأمان»، راحت تطمئنني، وكنت بحال من الألم حالت دون أن أجادل أكثر. كان رأسي يدور دورانًا، وبالكاد تنبّهت لما يجري من حولي عندما أخذوني إلى السيّارة وساروا بي إلى البلدة. وإذا ما نظرت الآن إلى تلك المرحلة، أذكر أن زيارة المستشفى بدت لي حلمًا أجهد لتذكّره، على ما كنت أعانيه من أوجاع. لكن بعد ذلك، تحسّنت حالي كثيرًا، وبتّ أقوى، وانتظرت بهدوء اليوم الموعود الذي سيخبرونني فيه أنه حان موعد الرحيل.

أحيانًا، كنت آكل معهم، وأحيانًا آكل بمفردي؛ وكانوا قد حثّوني على التنبّه، والبقاء بعيدة عن النوافذ وتجاهل رنين الهاتف. «إن جاء أحدهم إلى الباب، ابقي في غرفتك ولا تحدثي أي جلبة». لم تكن الموصل كما سنجار. في كوجو، عندما كان يأتي زائر، لم يكن يكبّد نفسه عناء قرع الباب. فالجميع يعرف الجميع، وكان كلّنا مرحّبًا به في

منازل بعضنا البعض. لكن في الموصل، ينتظر الزائر عند الباب كي تتم دعوته إلى الداخل، وحتى الصديق يعامَل كغريب.

لم يكن يُفترَض بي أن أذهب إلى الخارج تحت أي ظرف من الظروف. كان الحمّام الرئيسي خارج المنزل، فطلبوا مني أن أستخدم الحمّام الصغير في الداخل. وقالوا: «لا نعلم إن كان أي من جيراننا مع الدواعش». ففعلت كما أمروني، إذ آخر ما كنت أريده أن يتم افتضاح أمري وإعادتي إلى داعش، وأن يتعرّض هشام وعائلته للعقاب لمحاولتهم مساعدتي. لم يكن لديّ أدنى شك في أنّهم سيعدمون جميع البالغين، وكنت أصاب بالغثيان لمجرّد التفكير بأن ابنتَيْ مينا اللتين بالكاد تبلغان الثامنة من العمر واللتين تضاهيان أمّهما جمالًا، قد تقعان بين براثن حضانة الدولة الإسلاميّة بسببي.

كنت أنام في غرفة الفتاتين. لكنّنا بالكاد كنّا نتكلّم مع بعضنا. لم تكن الفتاتان تخافان مني، بل بكل بساطة لم تكونا مهتمّتين لأمري، ولم يكن لديَّ أي نية بإخبارهما من أنا. كانتا بريئتين. في اليوم التالي، استيقظت فرأيتهما جالستين أمام مرآة غرفة نومهما، تحاولان تسريح شعرهما. فسألت: «هل لي بالمساعدة؟ أنا أجيد تسريح الشعر». أومأتا برأسيْهما فجلست وراءهما أمرّر المشط في شعرهما الطويل حتى تحوّل ناعمًا منسدلًا. هذا ما كنت أفعله مع أدكي وكاثرين كل يوم، وقد شعرت الآن وأنا أقوم به مع الفتاتين وكأن الحياة شبه طبيعية.

كان جهاز التلفزيون يبقى مفتوحًا طوال اليوم حتى يتمكّن الأولاد من اللعب بجهاز البلاي ستايشن. وبما أن الصبية كانوا مأخوذين بألعابهم، بالكاد لاحظوا وجودي. كانوا تقريبًا في عمر مالك وهاني، ابنَيْ شقيقيَّ اللذين اختطفا وأجبرا على الالتحاق بمقاتلي داعش.

قبل أغسطس من العام 2014، كان مالك صبيًّا خجولًا، لكن ذكيًّا يهتم بالعالم من حوله. وكان يحبّنا ويحب أمّه حمدية. لم يكن لدي أي فكرة الآن أين أصبح. لقد وضعت الدولة الإسلاميّة نظام إعادة تعليم مكثّف عملت من خلاله على غسل عقول الشباب الذين تختطفهم. وبينما كان يتم تعليم الصبية العربيّة والإنكليزيّة، كان التركيز على لغة الحرب وكلماتها مثل «سلاح»، وقيل لهم إن الأيزيديّة ديانة الشيطان، وإنّه حريّ بأفراد عوائلهم الذين لا يريدون اعتناق الإسلام أن يلقوا مصير القتل.

لقد تم اقتلاعهم من أسرهم في سن حسّاسة، وعلمت لاحقًا أن الدروس قد نفعت معهم. فكان مالك يرسل صورًا لحزني من مخيّم اللاجئين. كان يبدو في الصور مرتديًا زيّ الدولة الإسلاميّة، يبتسم وهو يحمل البندقية، وقد احمرّت وجنتاه من الحماسة. ثم يتّصل بحزني ليخبر حمدية أن عليها أن تلتحق به.

فتقول حمدية لابنها: «أبوك مات. لم يبقَ أحد ليهتم بالعائلة. عليك أن تعود إلى المنزل».

فيرد مالك: «عليكِ أنتِ أن تأتي إلى الدولة الإسلاميّة. سنهتم بك هنا».

في المقابل، تمكّن هاني من الفرار بعد حوالى ثلاث سنوات في الأسر، لكن عندما حاول حزني تدبير أمر فرار مالك، رفض ابن أخي الذهاب مع المهرّب الذي حاول التكلّم معه في سوق في سوريا. وأجابه: «أريد أن أحارب». كان قد تحوّل ظلًّا للصبي الصغير الذي كبر في كوجو، وبعد ذلك، أقلع حزني عن المحاولة. لكن حمدية كانت تردّ دائمًا على الهاتف لو رأت أن المتّصل هو مالك، قائلة: «إنه لا يزال ابني».

كانت مينا أمًّا صالحة وربّة منزل قديرة، تقضي أيّامها تنظّف المنزل

وتطبخ لعائلتها وتلعب مع أولادها وتطعم طفلها. كانت الأيّام مشحونة، لها ولي، وكنّا لا نتكلّم إلا لمامًا. فقريبًا سيرافقني أخوها أو زوجها في تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر إلى كردستان. ستعاني هذه العائلة الكثير.

في إحدى المرّات، بينما كنّا نمر في الردهة، علّقَت على شعري، فسألت: «لماذا شعرك أحمر عند الأطراف ليس إلا؟».

فأجبتها وأنا أنظر إلى خصل شعري: «لقد صبغته بالحنّاء منذ فترة طويلة».

«إنّه جميل». ومرّت من أمامي من دون أن تضيف أي شيء آخر. وبعد ظهر أحد الأيام، كانت مينا تكابد كي تهدّئ طفلها الذي كان يحتاج أن يأكل لكنّه لم يتوقّف عن البكاء. في العادة، لم تكن تسمح لي بالمساعدة بالأعمال المنزليّة، لكن في ذلك النهار، عرضت عليها أن أغسل الصحون بعد الغداء، فوافقت ممتنّة لي. كان المجلى أمام نافذة تطل على الشارع، حيث يمكن لأي كان أن يراني، لكنّها كانت مأخوذة بطفلها ولم تفكّر في احتمال أن يكتشف أحدهم أمرنا، وكنت مسرورة بمساعدتها. وكم تفاجأت عندما بدأت تطرح الأسئلة.

سألتني، وهي تهز بطفلها على صدرها: «هل تعرفين آخرين مع داعش؟».

«نعم»، أجبتها. «أخذوا كل أصدقائي وعائلتي، وفصلونا». أردت أن أسألها السؤال نفسه، لكنّني لم أرغب في الإساءة إليها.

توقّفَت قليلًا تفكّر ثم سألَت: «بعد أن تغادري الموصل، إلى أين ستذهبين؟».

أجبتها: «إلى أخي. ينتظر أن نذهب إلى مخيّم للاجئين مع أيزيديّين آخرين».

«وكيف هو المخيّم؟».

«لا أدري. جميع من نجا تقريبًا سيذهب إلى هناك. أخي حزني يقول إن الأمر لن يكون سهلًا. فلا شيء نقوم به، ولا عمل، والمخيم بعيد عن المدن. لكنّه على الأقل آمن». فأردفت قائلة: «أتساءل ما الذي سيحصل هنا». لم يكن سؤالًا فعليًّا، فلم أضِف شيئًا. وواصلت غسل الصحون، بينما التزمت هي الصمت حتى انتهيت.

عندئذ، كان الطفل قد أقلع عن البكاء وغفا بين ذراعي مينا. عدت إلى الأعلى إلى غرفة الفتاتين واستلقيت على الفرشة، من غير أن أطبق أجفاني.

الفصل الثالث

تقرّر أن يصطحبني ناصر، وقد أسعدني الأمر؛ فكان ناصر يحب التكلّم معي، وفي الأيّام التي سبقت رحلتنا، كنت أشعر بالراحة معه أكثر من أي فرد آخر. وعندما غادرنا، كان قد أضحى أخًا لي. وكما إخوتي، راح ناصر يسخر مني عندما كنت أهيم في مخيّلتي، وقد تكرّر الأمر كثيرًا. فكانت تدور بيننا نكتة لم يكن أحد يفهمها. خلال الأيّام الأولى في المنزل، عندما كان ناصر يسألني كيف تسير الأمور، كنت أجيبه بلا أي تركيز: «الجو حار، حار جدًّا». فقد كان الخوف يتملّكني ويحول دون أن أقول أي جملة مفيدة أخرى. لذلك، كان ناصر يعيد سؤاله عندما يراني بعد نحو الساعة: «نادية، كيف تسير الأمور الآن؟». فأجيبه مجدّدًا من غير أن أدرك أنّني أكرّر كلماتي نفسها:، «ناصر، الجو حارٌّ، حارٌّ جدًا»، وهكذا دواليك. في النهاية، بدأ يجيب عنّي، فيطرح سؤاله بطريقة مرحة ساخرة: «نادية، كيف تجري الأمور؟ هل الجو حار حار؟ أم هو حار جدًا جدًا؟». فصرتُ أضحك عندما أدركت ماذا كان يفعل.

جاء ناصر في اليوم الثالث حاملًا بطاقة هويّة. كانت تذكر اسمي على أنّه سوسن ومسقط رأسي على أنّه كركوك، وكل ما عدا ذلك كان

معلومات صفاء. «تأكّدي من حفظ كل ما على هذه البطاقة»، طلب مني. «فلو سألوك أين أو متى ولدتِ عند نقطة تفتيش ولم تجيبي... تلك ستكون نهايتنا».

درست بطاقة هويّتي عن ظهر قلب ليل نهار، فحفظت تاريخ ميلاد صفاء - كانت أكبر منّي بقليل - واسم أمّها وأبيها، إضافة إلى تاريخ ميلاد ناصر واسم أمّه وأبيه. فعلى بطاقات الهويّة العراقيّة، قبل داعش وبعدهم، ترتدي أسماء الآباء والأمّهات الأهمّية نفسها التي ترتديها أسماء أصحاب الهويّة.

كانت صورة صفاء ترد في إحدى الزوايا. لم نكن نشبه بعضنا كثيرًا، لكنّني لم أخشَ أن يطلب منّي أي من الحرس عند نقاط التفتيش أن أكشف عن نقابي لأريه وجهي. فلم يكن بوسعي أن أتخيّل عضوًا من تنظيم الدولة يطلب من امرأة سنّية أن تريه وجهها أمام زوجها، الذي يُفترض أنّه من الدواعش أيضًا. قال لي هشام: «إن سألوك لماذا لم تستحصلي بعد على بطاقة هويّة من داعش، قولي لهم إن الفرصة لم تسنح لك بعد». كنت مذعورة، فحفظت المعلومات سريعًا، إلى أن شعرت بعد ذلك أنّها باتت محفورة في ذهني.

كانت خطّتنا بسيطة. سندّعي أنا وناصر أنّنا زوج وزوجة، نسافر إلى كركوك لزيارة عائلتي. كان اسم سوسن اسمًا شائعًا في المدينة. علّموني كيف أتصرّف: «تقولين لهم إنّك ستبقين لأسبوع تقريبًا. ويقول ناصر إنّه يصطحبك وسيعود في اليوم نفسه أو في اليوم التالي، بحسب الساعة التي تصلون فيها». هكذا، لن يضطرَّ ناصر لأخذ حقيبة معه أو دفع ضريبة يفرضها الدواعش على السنّة الذين يريدون البقاء خارج الخلافة لفترة طويلة.

سألوني: «هل تعرفين أي شيء عن كركوك؟ أسماء الأحياء، أو أي شيء آخر في حال سألوا؟».

فأجبت: «لم أزرها يومًا. لكنّني أستطيع أن أسأل أخي بعض التفاصيل». «وماذا عن حقيبتها؟»، سأل ناصر. كنت لا أزال أحتفظ بكيس القطن الأسود. في داخله الفساتين التي كانت لكاثرين وديمال ولي بالإضافة إلى الفوط الصحّية التي كنت أخبّئ في طيّاتها مجوهراتي وبطاقة أمّي التموينيّة. «لا تبدو كحقيبة توضّبها امرأة مسلمة إن كانت تزور أهلها لأسبوع. خرج هشام، وعاد بعد قليل وقد ابتاع زجاجة شامبو وكريم، بالإضافة إلى بعض الفساتين البسيطة الشائعة بين النساء المسلمات، فأضفت هذه إلى حقيبتي. بدأت أشعر بالذنب لما ينفقونه من مال عليّ. فقد كانوا عائلة فقيرة، شأنهم شأن حال عائلتي، ولم أرد أن أشكّل عبئًا إضافيًا عليهم. فقلت: «عندما أعود إلى كردستان، سأرسل لكم المال». لكنّهم أصرّوا أن لا داعي لذلك، وبالرغم من هذا، لم أستطع أن أزيل الفكرة من رأسي. لقد كنت أخشى لو أصبح المال عائقًا أساسيًّا، أن يقرّروا تسليمي إلى داعش.

طلب منّي حزني ألّا أفكّر بالموضوع، وقال: «جائزة الخمسة آلاف دولار مجرّد كذبة. يقول الدواعش ذلك حتى لا تقدم الفتيات على الفرار. يريدونك أن تفكّري أنك مثل القطيع، وأن كل عائلة تريد أن تلتقط واحدة حتى تبيعكن. لكنّهم لا يدفعون أي مبلغ. «على كل حال، من الأجدى لناصر أن يغادر الموصل».

«ماذا تعني؟»، سألته بإرباك.

أجابني حزني: «ألا تعلمين؟ اسألي هشام».

في ذلك المساء، أخبرت هشام ما قاله لي أخي. فأجابني: «نحن قلقون على ناصر. إنه شاب وهي مسألة وقت ليس إلّا قبل أن يجبره الدواعش على القتال معهم».

لقد ترعرع ناصر فقيرًا في ظل حكومة شيعيّة خلال الاجتياح الأميركي للعراق، وعندما كان صغيرًا، كان يصاب بالغضب لما يراه من اضطهاد للسنّة. وكان الشباب من أمثاله الهدف الأوّل للتوظيف عند داعش، وكانت عائلته تظن أن الإرهابيّين يريدون ناصر للالتحاق بقوّة الشرطة الخاصة بهم. وقد بدأ يصلح أنظمة الصرف الصحي في المباني حول الموصل وكان الجميع يخشى من أن تصنّفه هذه الوظيفة لاحقًا كإرهابي، مع أنّها ليست بالوظيفة العنيفة أو الإرهابيّة.

عندما وصلت من لا مكان إلى عتبة منزلهم، كانوا يحاولون جاهدين التفكير في طريقة تُخرِجه من الموصل. لذلك رأوا أنّه قد يكون من الممكن لو ساعدت عائلة ناصر فتاة أيزيديّة على الهروب من العبوديّة، أن تسمح لهم السلطات الكرديّة بدخول كردستان. وقد حثّني هشام على ألّا أخبر ناصرًا أنّني أعرف، ومهما حصل، ألّا أقول لأحد أنه قد عمل لصالح داعش، وإن اقتصر عمله على مجرّد تصليح الحمّامات. «لا يهم نوع العمل. سيزجّه الأكراد أو الجيش العراقي في السجن».

وعدتُ أنّني لن أخبر أحدًا. لم يكن بوسعي أن أتخيّل ناصر رجل شرطة لدى الدولة الإسلاميّة، يوقف الناس على أساس دينهم، أو لمجرّد أنهم انتهكوا إحدى القواعد الخرقاء أو انشقّوا بطريقة أو بأخرى، ويرسلهم ربما لقضاء نحبهم. هل سيعمل مع الحاج سلمان؟ كان ناصر قد أصبح صديقي الآن، وبدا من اللطف والتفهّم ما يحول دون أن يؤدّي تلك الوظيفة. من جهة أخرى، لقد التقيت به للتو، وعدد

كبير جدًا من السنّة قد انقلب ضد الأيزيديّين. أخذت أتساءل إن كان قد فكّر في مرحلة ما من حياته بأن جميع الديانات والمعتقدات في العراق، باستثناء الإسلام السنّي، يُفترض أن تُطردَ من البلاد، وما إذا كان يرى بتفكيره هذا أنّه يشارك في ثورة لاستعادة العراق. لقد سمعت إخوتي يتكلّمون عن السنّة الذين تحوّلوا عنيفين ضد جيرانهم، بفعل سنوات من القمع تحت حكم الأميركيّين والأكراد والشيعة ونتيجة للتطرف الإسلامي الذي تزامن في الوقت نفسه. الآن، واحد منهم يساعدني. لكن هل يقوم بذلك لمجرّد إنقاذ نفسه؟ وهل هذا يهم؟

خلال السنوات القليلة الماضية، فكّرت كثيرًا بناصر وبعائلته. لقد خاطروا كثيرًا عندما قرّروا مساعدتي. كان الدواعش ليقتلوهم، ولربّما أسروا الفتيات وأخذوا الأبناء لو اكتشفوا أن العائلة قد استقبلت سبيّة - ولم يكن أسهل من اكتشافهم ذلك. فقد كانوا أينما كان. كم أتمنّى لو أن كل إنسان قد تصرّف بالشجاعة نفسها التي تحلّت بها عائلة ناصر.

ومع ذلك، مقابل كل عائلة مثل عائلة ناصر، ثمّة الآلاف في العراق وسوريا الذين لم يقدموا على أي خطوة، أو على العكس شاركوا في الإبادة. فبعضهم خان فتيات مثلي حاولن الهرب. كاثرين ولميا على سبيل المثال أعيدتا ست مرات على يد أشخاص لجأتا إليهم للمساعدة، أوّلًا في الموصل ثم في الحمدانيّة، وقد تعرّضتا في كل مرّة لأبشع أنواع العقاب والتعذيب. وقد تم تعقّب مجموعة من السبايا متّجهات إلى سوريا على ضفاف دجلة مثل المجرمين الفارّين، بعد أن اتّصل مزارع محلّي بقائد في الدولة الإسلاميّة ليخبره عن بعض الجواري اللواتي لجأن إليه في الظلمة التماسًا للمساعدة.

كانت العائلات في العراق وسوريا تعيش حياتها الطبيعيّة بينما

كنّا نتعرض للتعذيب والاعتداءات. فراحوا ينظرون إلينا نعبر الطرق مع آسرينا وتجمّعوا في الشوارع ليشهدوا على إعدامنا. لا أدري ما الذي يشعر به كل فرد يشارك في أمرٍ كهذا. فبعد بدء تحرير الموصل في أواخر العام 2016، بدأت العائلات تتكلّم عن مشقّة العيش تحت سلطة داعش، وكم كان الإرهابيّون عنيفين، وكم كان صوت الطائرات الحربيّة الجاهزة لقصف المنازل فوق رؤوسهم مريعًا. لم يكن بإمكانهم إيجاد كفافهم من الطعام، وكان التيّار الكهربائي ينقطع على الدوام. وقد اضطر أولادهم لارتياد مدارس تابعة للدولة الإسلاميّة، وأجبر صبيتهم على القتال، وكل ما كانوا يقومون به كان يوجب عليهم دفع غرامة أو جزية. قالوا إن الناس كانوا يقتَلون في الشوارع، وإن الحياة كانت مستحيلة.

لكنّني عندما كنت في الموصل، بدت لي الحياة طبيعية، وحتى جيّدة للمقيمين فيها. لماذا بقوا في الدرجة الأولى؟ هل كانوا يتّفقون مع داعش ويعتبرون فكرة الخلافة أمرًا جيّدًا؟ هل بدا الأمر لهم استمرارًا منطقيًّا لحروبهم المذهبيّة التي بدأوها مذ جاء الأميركيّون في العام 2003؟ لو كانت الحياة لتتحسّن، كما وعد الدواعش، هل كانوا ليسمحوا للإرهابيّين بقتل من يشاؤون؟

أحاول أن أتعاطف مع هذه العائلات. فأنا متأكدة أن عددًا كبيرًا من أفرادها كانوا يعيشون في حال من الرعب، وفي النهاية، حتّى أولئك الذين رحّبوا بداعش في البداية، خلصوا إلى كرههم، وأكّدوا بعد تحرير الموصل، أنّهم لم يملكوا أي خيار غير السماح للإرهابيّين بفعل ما أرادوا. لكنّني أعتقد بأنّهم كانوا يملكون الخيار. لو تجمّعوا يدًا واحدة، وسحبوا أسلحتهم وهاجموا مراكز الدولة الإسلاميّة حيث كان

المسلّحون يبيعون الفتيات أو يقدّمونهن هدايا، لربّما كنّا قُتلنا كلّنا. قد يحصل، لكن أقلّه كانت الرسالة لتصل إلى داعش والأيزيديّين وسائر العالم، أن ليس كل السنّة الذين بقوا في منازلهم يناصرون الإرهاب. لربّما لو نزل بعض سكّان الموصل إلى الشارع وصرخوا: «أنا مسلم وما تطلبونه منّا لا يمثّل الإسلام الحقيقي!»؛ لكانت تدخّلت القوّات العراقيّة والأميركيّون في وقت أسرع، مدعومة من السكّان المحليّين، أو لربّما كان بوسع المهرّبين الذين يعملون على تحرير الفتيات الأيزيديّات توسيع شبكاتهم وتحريرنا جماعات بدل العمل على فتاة تلو الأخرى كما صنبور مياه يقطر قطرةً قطرة. لكن عوضًا عن ذلك تركونا نصرخ في سوق العبيد ولم يفعلوا شيئًا.

بعد فترة من وصولي إلى منزل عائلة ناصر، أخبروني أنّهم بدأوا يفكّرون في الدور الذي يؤدّونه في داعش. قالوا إنّهم يشعرون بالذنب لاضطراري أن أصل إلى عتبة منزلهم، يائسة راجية، حتى يقرّروا مساعدة سبيّة؛ كانوا يدركون أن بقاءهم، وتاليًا عدم نزوحهم، هو وجه من أوجه التواطؤ مع الإرهابيّين. لا أعرف ما كان ليكون موقفهم من داعش لو كانت حياتهم أفضل، وليس أسوأ عندما احتل المسلّحون الموصل. قالوا لي إن ما حصل كان لحظة مفصليّة غيّرتهم إلى الأبد. «نقسم أن بعد مغادرتك، سنساعد فتيات أخريات مثلك».

«كثيرات، كثيرات يحتجن إليكم»، قلت.

الفصل الرابع

انتظرنا بضعة أيّام قبل أن نقرّر أنا وناصر خوض غمار رحلتنا. كنت مرتاحة لمكوثي في المنزل، لكنّني أتوق للخروج من الموصل بأي ثمن. فالدواعش كانوا في كل مكان، وكنت أكيدة أنّهم يبحثون عنّي. أستطيع أن أتخيّل الحاج سلمان، بهيأته النحيلة يرتجف غضبًا وصوته الهادئ المهدِّد يتوعّدني بالتعذيب. لا يمكنني أن أكون في مدينة واحدة مع هذا النوع من الرجال. في صبيحة أحد الأيام، استيقظت في منزل مينا وقد غطّاني النمل الأحمر الصغير اللاذع، فاعتبرت ذلك إشارة. لن أشعر بالأمان الفعلي قبل أن نعبر نقطة التفتيش الأولى، وكنت أعي جيّدًا أن ثمة احتمالًا ألّا نعبرها على الإطلاق.

بعد أيّام قليلة من وصولي إلى منزل مينا، جاءت أم ناصر مع والده إلى المنزل في الصباح الباكر. وقال هشام: «حان وقت الانطلاق». ارتديت فستان كاثرين الزهري والبنّي ووضعت فوقه عباءة سوداء، قبل أن أهمّ بالمغادرة.

قالت لي مهى: «سأصلّي من أجلك». قالت ذلك بلطف، فوافقت، ورحت أنصت إليها تتلو صلاتها. ثم أعطتني خاتمًا، قائلة: «قلتِ إن الدواعش أخذوا خاتم أمّك. خذي هذا لو سمحت عِوَضًا عنه».

كانت حقيبتي تضم إلى أغراضي التي احتفظت بها من كوجو، كل الأصناف الإضافيّة التي جلبتها لي العائلة. في الدقيقة الأخيرة، أخذت فستان ديمال الطويل الأصفر الجميل وقدّمته لمينا. قبّلتها على وجنتيها، وشكرتها لاستضافتي. «ستبدين جميلة في هذا الفستان»، قلت وأنا أقدّمه لها. «كان لأختي ديمال».

فردّت قائلة: «شكرًا يا نادية. إنشاء الله ستصلين بخير إلى كردستان». لم أستطع أن أقف متفرّجة على وداع العائلة لناصر، ولا سيّما زوجته.

قبل أن نغادر المنزل، أعطاني ناصر أحد جهازَي الهاتف الخلوي اللذين جلبهما معه وشرح: «إن احتجت لأي شيء أو تريدين طرح أي سؤال بينما نحن في سيّارة الأجرة، أرسلي لي رسالة. لا تتكلّمي».

فحذّرته قائلة: «أنا أتقيّأ عندما أركب سيّارة لفترة طويلة». فتناول عددًا من أكياس النايلون المخصّصة للبقالة من المطبخ وأعطاني إيّاها. «استخدمي هذه. لا أريد أن نتوقّف كثيرًا».

وواصل قائلًا: «عند نقاط التفتيش لا تجزعي. حاولي أن تحافظي على هدوئك. سأجيب على معظم الأسئلة. لكن إن استداروا إليك، إجعلي إجاباتك موجزة واخفضي صوتك. فلو صدّقوا أنّك زوجتي، لن يطلبوا منك أن تتكلّمي كثيرًا».

فأومأت برأسي موافقة، «سأفعل ما بوسعي». كنت قد بدأت أشعر وكأنّني سأقع مغشيّة من الخوف. أمّا ناصر، فقد بدا هادئًا؛ لم يبدُ يومًا وكأنّه يخشى أيًا كان أو أي شيء.

في حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحًا، بدأنا نسير معًا نحو

الطريق العام. هناك سنستقل سيّارة أجرة تأخذنا إلى مرآب الموصل، حيث تنتظرنا سيّارة أجرة أخرى حجزها ناصر مسبقًا لتقلّنا إلى كركوك. كان ناصر يسبقني قليلًا في مشيته على الرصيف، ولم نكلّم بعضنا. أبقيت رأسي مطأطأً أحاول ألّا أنظر إلى المارّة، وكلّي ثقة بأن الخوف في عينيّ سيفضحني ويشي بي على الفور أنّني أيزيديّة.

كان يومًا حارًّا. وكان جيران مينا يسقون الحشيش، في محاولة لإعادة إحياء النبات الميت، بينما يتسابق أولادهم على طول الشوارع ذهابًا وإيّابًا على درّاجاتهم الملوّنة. أذهلني ضجيج الشارع. فبعد بقائي في الداخل لفترة طويلة، غدت الشوارع المشرقة مصدر تهديد لي محفوف بالمخاطر. وكل ما عملت على استعادته من أمل وأنا أنتظر في منزل مينا قد ذهب أدراج الرياح، إذ بتّ على يقين بأن داعش ستلقي القبض علينا، وسأعود سبيّة. همس ناصر في أذني بينما كنّا نقف على جانب الطريق العريض، ننتظر سيّارة أجرة، «لا بأس، الأمور جيّدة». كان يستطيع الشعور بي أنّني مذعورة. كانت السيّارات تمر سريعًا، فتكسو عباءتي السوداء بطبقة غبار خفيفة. كنت أرتعش ارتعاشًا حال دون أن أتمكّن من زج جسدي بسهولة داخل سيّارة الأجرة عندما وصلت.

كان كل سيناريو أعيد رسمه في رأسي يقود إلى أسرنا. رأيت سيّارتنا تتعطّل فتقف إلى جانب الطريق السريع، فتنقلنا إحدى الآليّات التي تعج بالمسلّحين. أو تخيّلتنا ندوس على عبوّة ناسفة فنموت هناك على قارعة الطريق. ورحت أفكّر بكل الفتيات اللواتي أعرفهن في بلدتي، وعائلتي وأصدقائي، الذين باتوا الآن مشتّتين في العراق وسوريا، وإخوتي الذين أُخذوا إلى ما وراء المدرسة في كوجو. هل سأعود يومًا إلى أرضي؟

كان مرآب الموصل مكتظًّا بالناس الذين يبحثون عن سيّارات أجرة
تقلّهم إلى مدن أخرى في العراق. وكان الرجال يجادلون السائقين
للحصول على سعر جيّد، بينما تقف زوجاتهم بصمت وراءهم. في
المقابل، كان الصبية يبيعون عبوّات مياه مثلّجة، بينما يعرض الباعة عند
الرصيف أكياس رقاقات البطاطا والسكاكر أو يقفون بفخر أمام أبراج
شيّدوها من علب السجائر. رحت أتساءل إن كانت أي من النساء في هذا
المرآب أيزيديّة مثلي. وكنت آمل أن يكنّ كلّهن أيزيديّات، وأن يكون
الرجال مثل ناصر، يساعدونهن. كانت سيّارات الأجرة الصفر التي تعلو
سطحها إشارات صغيرة مركونة تحت إشارات مضاءة تدل على وجهتها:
تلعفر، تكريت، الرمادي. كانت كل هذه الوجهات خاضعة أقلّه جزئيًا
لسيطرة الدولة الإسلاميّة أو مهدّدة من قبل الإرهابيّين. لقد بات السواد
الأعظم من بلادي الآن خاضعًا للرجال الذين استعبدوني واغتصبوني.

بينما كان سائق سيّارة الأجرة يستعد لرحلتنا، أخذ يتبادل أطراف
الحديث مع ناصر. جلست على مقعد بعيد قليلًا عنهما، أحاول أن
أتصرّف كما قد تفعل زوجة ناصر، لكنّني لم أتمكّن من الإصغاء
لحديثهما. كان العرق يسيل نزولًا إلى أطراف عينيّ، ويعيق بصري،
فرحت أتشبّث بحقيبتي التي وضعتها في حضني. كان السائق في أواخر
الأربعينات وقد بدا قويّ البنية مع أنّه لم يكن ضخمًا، وكانت لحيته
صغيرة. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن رأيه بداعش، لكنّني كنت خائفة
من الجميع. وبينما كانا يتفاوضان، حاولت أن أتحلّى بالشجاعة، لكنّني
لم أحسن التفكير في أي محصّلة لا تتم فيها إعادة أسري.

أخيرًا، أشار لي ناصر أن أصعد إلى السيّارة. وجلس هو إلى جانب

السائق، بينما جلست أنا في المقعد الخلفي، ووضعت برفق حقيبتي إلى جانبي. بينما كنّا نخرج من المرآب، راح السائق يقلّب المحطّات في جهاز الراديو بحثًا عن محطة يستمع إليها، لكنّه لم يحصل على أي إشارة. فتنهّد وأطفأ الجهاز.

ثم قال لناصر: «إنه يوم حار. فلنشترِ بعض المياه قبل أن ننطلق». أومأ ناصر برأسه إيجابًا، فتوقّفنا بعد لحظات أمام كشك حيث نزل السائق فاشترى بضع عبوّات مياه وبعض المقرمشات. أعطاني ناصر زجاجة مياه. كانت قطرات المياه تسيل عن جوانبها وتتجمّع على المقعد إلى جانبي. أمّا المقرمشات فكانت جافة؛ حاولت أن آكل واحدة، كي أبدو وكأنّني مرتاحة، لكنها علقت في حلقي كما الاسمنت.

«لماذا أنتما ذاهبان إلى كركوك؟»، سأل السائق.

فأجابه ناصر: «عائلة زوجتي هناك».

نظر السائق إليّ في مرآته. عندما رأيت عينيه، أشحت بوجهي، مدّعية أنني مأخوذة بالمدينة التي تمر أمامي خارج النافذة. كنت أكيدة أن الخوف في عينيّ سيكشف أمري. وكانت الطريق حول المرآب تعجّ بالمسلحين. كما كانت سيّارات شرطة الدولة الإسلاميّة مركونة على جانبَي الطريق، ورجال الشرطة يتمشّون على الأرصفة، والأسلحة على خصورهم. أحسست وكأن عدد رجال الشرطة يفوق عدد الناس الطبيعيّين.

«هل ستبقى في كركوك أو تعود إلى الموصل؟»، سأل السائق ناصر مجدّدًا.

فرد ناصر: «لسنا أكيدين بعد»، كما طلب منه أبوه. «سنرى كم يلزمنا من الوقت كي نصل إلى هناك، وكيف ستكون الحال في كركوك».

لماذا يطرح هذا الكم من الأسئلة؟ رحت أتساءل في قرارة نفسي. ومع ذلك شعرت بالامتنان لعدم اضطراري للكلام.

ثم قال لنا السائق: «لو أردت، أستطيع أن أنتظرك وأردّك إلى الموصل». فابتسم له ناصر قائلًا: «ربما. سنرى».

كانت نقطة التفتيش الأولى داخل الموصل، وهي عبارة عن هيكليّة عنكبوتيّة ضخمة تتألّف من أعمدة شاهقة يعلوها سقف حديدي. باتت نقطة التفتيش هذه التي كانت في السابق خاضعة للجيش العراقي، ترفع بفخر راية الدولة الإسلاميّة، بينما تصطف آليّات الدولة الإسلاميّة التي كانت أيضًا للجيش العراقي، أمام مكتب صغير. هي أيضًا، كانت مغطّاة برايات سود وبيض.

كان أربعة مسلّحين في الخدمة عندما توقّفنا، يعملون من أكشاكٍ بيضٍ صغيرة تحميهم من قيظ الصيف ويملأون الأوراق. كانت داعش مصرّة على مراقبة خطوط السير كلّها من الموصل وإليها. فلم يعملوا على التأكد من أن أيًا من المقاتلين المناوئين لداعش أو المهرّبين قد دخلوا المدينة وحسب، بل أرادوا أيضًا أن يعرفوا من غادرها ولماذا ولكم من الوقت. ولو لم يلتزموا بما صرّحوا به، فستعاقِب داعش عائلتهم. أو أقلّه، يحاول المسلحون ابتزازهم بالمال.

كان عدد قليل من السيارات يصطف قبلنا، وسرعان ما اقتربنا من أحد الحراس. بدأت أفقد السيطرة على نفسي وأرتعش، وشعرت بالدموع تنهمر من عينيّ. وكلّما عقدت العزم على الهدوء، أحسست بنفسي أرتجف وبتّ على يقين بأن أمري سينكشف. ففكّرت، لربما عليّ أن أركض، وبينما راحت السيارة تبطئ، وضعت يدًا على مسكة

الباب، أستعد للقفز من السيّارة إن لزمني الأمر. بالطبع لم يكن خيارًا حكيمًا. فلا مكان لي ألجأ إليه. فمن جهة تمتد السهول الحارّة إلى ما لا نهاية، ومن جهة أخرى وراءنا المدينة التي كنت أتوق لمغادرتها. كان المسلّحون يُحكِمون سيطرتهم على كل زاوية في الموصل، ولن يجدوا أي صعوبة في اللحاق بسبيّة تهرب سيرًا على الأقدام. فرحت أتضرّع إلى الله ألّا أقع في الأسر مرّة أخرى.

أحسّ ناصر بأنّني خائفة لكنّه لم يكن بوسعه أن يكلّمني، فطرف إليّ في المرآة الجانبية. وابتسم لهنيهة من الزمن، للتخفيف من رَوعي، كما كان خيري أو أمّي يفعلان في كوجو. لم يكن ثمّة ما يوقف ضرب نبضات قلبي في صدري، لكن أقلّه لم أعد أتخيّل نفسي أقفز من السيّارة.

توقّفنا وراء أحد أكشاك الحرس، فرحت أراقب الباب يُفتح فيخرج منه مسلّح يرتدي زي الدولة الإسلاميّة الكامل. كان يبدو مثل الرجال الذين أتوا إلى مركز الدولة الإسلاميّة لشرائنا، فبدأت أرتعش مجددًا من الخوف. أنزل السائق زجاج نافذته، فانحنى المسلح قليلًا. نظر إلى السائق، ثم إلى ناصر، ثم طرف بعينه إليّ وإلى الحقيبة الموضوعة بجانبي. «السلام عليكم»، قال. «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

أجاب ناصر: «كركوك يا حاج»، وأعطاه بطاقات هويّاتنا من النافذة. «زوجتي من كركوك». لم يظهر في صوته أي تردّد.

أخذ المسلّح بطاقات هويّاتنا. ومن خلال الباب المفتوح الذي يؤدّي إلى كشك الحرس، رأيت كرسيًّا ومكتبًا صغيرًا مع بعض الأوراق، وفوقها جهاز الراديو الخاص بالمسلّح. كانت مروحة صغيرة تهدر بنعومة على زاوية المكتب، بينما تكاد زجاجة مياه شبه فارغة

تسقط أرضًا. ثم رأيتها. هناك على الجدار، مع ثلاث أخرى، الصورة التي التُقطت لي في محكمة الموصل، يوم أجبرني الحاج سلمان على اعتناق الإسلام. وتحتها، كتابة ما. لكنّني كنت بعيدة لا أستطيع أن أقرأ ما كُتب، فافترضت أن معلوماتي مذكورة وما يتعيّن فعله لو ألقي القبض علي. شهقت بخفّة ومسحت بنظري سريعًا الصور الثلاث الأخرى. لكنّني لم أستطع أن أرى اثنين منها بسبب انعكاس الشمس عليها، بينما الثالثة كانت لفتاة لا أعرفها. كانت تبدو صغيرة في السن، والخوف بادٍ مثلي على محيّاها. أشحت بنظري بعيدًا، كي لا يلاحظ المسلّح أنني أحدّق بالصور، الأمر الذي قد يثير شكوكه.

كان الحارس لا يزال يستجوب ناصر وبالكاد التفت إليّ: «إلى من تذهب في كركوك؟».

أجابه ناصر: «عائلة زوجتي».

«لكم من الوقت؟».

«ستبقى زوجتي لأسبوع، لكنّني سأعود اليوم»، رد عليه كما تمرّنّا. لم يبدُ خائفًا على الإطلاق.

رحت أتساءل إن كان بإمكان ناصر أن يرى صورتي معلّقة في مقر الحرس من حيث هو في السيارة. وكنت أكيدة أنه لو رأى الصورة، فسيجبرنا على العودة أدراجنا. فالصورة تشكّل الدليل القاطع أنّهم يبحثون عني، لكن ناصر واصل الإجابة عن الأسئلة.

دار الحارس حول السيّارة ليصل إلى جهتي، ثم أشار إليّ كي أخفض الزجاج. ففعلت، وأنا أشعر بأنّني قد أفقد الوعي من الخوف.

ثم تذكّرت نصيحة ناصر أن أبقى هادئة وأجيب عن الأسئلة بهدوء وبإيجاز قدر الإمكان. كانت لغتي العربيّة ممتازة، إذ كنت أتكلّمها منذ نعومة أظفاري، لكنّني لم أكن أعلم إن كانت لهجتي أو اختياري لبعض الكلمات قد يشي بي ويفضح نشأتي في سنجار وليس في كركوك. فالعراق دولة شاسعة، وبإمكان المرء عادة أن يحدّد أين نشأ أحدهم بحسب اللهجة التي يستخدمها في كلامه. ولم أكن أملك أدنى فكرة كيف يفترض بشخص من كركوك أن يتكلّم.

انحنى قليلًا وأخذ ينظر من خلال النافذة إليّ. كنت ممتنّة للنقاب الذي يغطّي وجهي، فحاولت السيطرة على عينيّ، ألّا أرمش بهما كثيرًا أو قليلًا، وبالتأكيد ألّا أبكي، تحت أي ظرف من الظروف. كنت أغرق في عرقي تحت عباءتي وما انفككتُ أرتعش خوفًا، لكن انعكاس صورتي على نظّارات الحرس كان لامرأة مسلمة طبيعيّة. سوّيت جلستي أستعد لأسئلته.

كانت موجزة. «من أنت؟»، كانت نبرة صوته عاديّة، لا بل بدا وكأنّه يشعر بالملل.

فأجبته: «أنا زوجة ناصر».

«إلى أين أنت ذاهبة؟».

«كركوك».

«لماذا؟».

«عائلتي في كركوك». كنت أتكلّم برقّة وأنا أنظر إلى الأسفل، آملة أن يتلقّف خوفي على أنه نوع من التواضع، ولم تبدُ إجاباتي وكأنّها محضّرة سلفًا.

استقام الحارس وذهب بعيدًا. أخيرًا سأل السائق: «من أين أنت؟».

فأجابه السائق: «من الموصل»، وقد بدا وكأنه يجيب عن هذا السؤال للمرّة المليون.

«وأين تعمل؟».

فرد السائق مقهقهًا: «حيث أجد من أقلّه!». ثم من دون أي كلمة إضافيّة، أعاد لنا الحارس بطاقات الهويّة من النافذة وأشار لنا بأن نمضي.

كنّا نسير فوق جسر طويل، من غير أن يكلّم أحدنا الآخر. تحتنا، كانت مياه دجلة تتلألأ تحت أشعة الشمس. وكانت الطحالب والنباتات تعانق المياه؛ وكلّما اقتربت بعلوّها منّا، بدت أكثر انتعاشًا. غير أن النباتات البعيدة عن ضفة النهر بدت أقل حظًا. فكانت تحرقها أشعة شمس الصيف العراقي الحارّة، وقلة قليلة منها كانت تُروى من قبل سكان المحلّة، أو تتلقّف الرطوبة من شلّال سينفجر مرّة جديدة في الربيع.

ما إن أصبحنا على الضفّة الثانية من النهر، حتى تكلّم السائق: «أتعلم أن هذا الجسر الذي عبرناه للتو، كلّه عبوّات ناسفة، زرعها الدواعش في حال حاول العراقيّون أو الأميركيّون استعادة الموصل؟ أكره القيادة فوق هذا الجسر. أشعر وكأنّه قد ينفجر في أي لحظة».

استدرت لأنظر ورائي. كان الجسر والحاجز يتلاشيان في البعيد. لقد اجتزنا الاثنين بخير، لكن كان يمكن للوضع أن يكون عكس ذلك. فكان بإمكان مسلّح الدولة الإسلاميّة عند نقطة التفتيش أن يطرح

عليّ المزيد من الأسئلة، وكان يمكن له أن يلاحظ لهجتي أو شيئًا في تصرّفاتي يثير ريبته. «اخرجي من السيارة»، تخيّلته يقول، وما كنت لأملك خيارًا إلّا أن أفعل ما طلبه مني، وأن ألحق به إلى كشك الحرس، حيث سيأمرني أن أرفع نقابي، لأثبت له أنّني المرأة في الصورة. كما تخيّلت الجسر ينفجر بينما نعبره، فتمزّق العبوّة الناسفة سيّارتنا وتقتلنا كلّنا في هنيهة من الزمن. ورحت أتمنّى لو أن الجسر ينفجر، بينما يعبره آلاف مؤلّفة من مسلّحي الدولة الإسلامية.

الفصل الخامس

بينما كنّا نبتعد عن الموصل، رحنا نعبر ساحات شهدت معارك لم يمرّ عليها وقتٌ طويل فقد تحوّلت نقاط التفتيش الثانويّة التي تخلّى عنها الجيش العراقي إلى ركام محترق. كما رُمي هيكل شاحنة كبرى عند قارعة الطريق. لقد رأيت على جهاز التلفزيون أن المسلّحين قد أحرقوا نقاط التفتيش بعد أن غادرها الجيش، لكنّني لم أفهم لماذا قاموا بذلك. هم أرادوا أن يدمّروا المواقع بلا أي مبرّر. ولم يفلح قطيع الغنم الذي كان يسير على جانب الطريق، يقوده راع شاب يجلس على ظهر حمار يتحرّك ببطء، في ما جعل المشهديّة تقارب الطبيعة.

وصلنا سريعًا إلى نقطة تفتيش أخرى. كان مسلّحان من الدولة الإسلاميّة يتمركزان فيها، وقد بدوَا أقل مبالاة بمن نحن وإلى أين نذهب. فأخذا يطرحان الأسئلة نفسها إنّما بوتيرة أسرع. ومرّة أخرى، نظرتُ من خلال باب كشك الحرس، لكنّني لم أرَ أي صورة معلّقة. أشارا لنا بالعبور بعد دقائق معدودة.

كانت الطريق من الموصل إلى كركوك طويلة تعصف بها الرياح مع مرورنا بين الجبال. وإذا كان بعضها واسعًا، إلّا أنّها كانت تضيق أحيانًا لتقتصر على خطّي سيّارات مفتوحين على بعضهما البعض من جهتي

الطريق. لطالما اشتهرت هذه الطرق بحوادث السير. فالسيّارات تحاول أن تجتاز مسرعة شاحنات ضخمة تسير بطيئة، فتطلق العنان لأنوار مصابيحها القوية التي تعمي أبصار الخط المقابل، وتجبر السيّارات على السير بمحاذاة الطريق كي تفسح لها المجال للعبور. في المقابل، يتساقط البحص من على ظهر شاحنات محمّلة بمواد بناء على طول الطريق، فيحطّم زجاج السيّارات العابرة، بينما تصبح الطرقات في بعض الأماكن متعرّجة غير مستوية، فتخال نفسك تسير على حافة هاوية.

ترتبط المدن العراقيّة في ما بينها بشبكة مماثلة من هذه الطرق، بعضها محفوف بالمخاطر أكثر من غيره، وتشهد اكتظاظًا على الدوام. وعندما جاء الدواعش، عملوا استراتيجيًّا على السيطرة على الطرق قبل المدن، فقطعوا السير وعزلوا السكّان الذين كانوا يسعون للهرب. ثم أعدّوا نقاط تفتيش، ممّا سهّل عملية إلقاء القبض على كل من يحاول المغادرة. وقد كانت الطرق المعبّدة في غالبيّة المساحة العراقيّة، الخيار الوحيد للمواطنين الذين يسعون للهرب. ففي السهول والصحاري المكشوفة، لا يمكن لهؤلاء أن يجدوا أماكن يختبئون فيها. وإن كانت المدن والبلدات تعتبر الأعضاء الحيويّة للعراق، فالطرق هي الشريان الأساسي، وما إن أحكمت داعش سيطرتها عليها، حتى باتت تسيطر على كل من يعيش في هذه المدن أو يموت.

رحت لفترة من الزمن أراقب المشاهد الطبيعيّة، التي كانت عبارة عن مسطّح رملي وصخري جاف أشبه بالصحراء، على عكس ما كنت أراه وأحبّه في سنجار، عندما كانت الخضرة تغطّي كل شيء في الربيع، مزدانة بالأزهار. شعرت وكأنّني في دولة غريبة، وبطريقة أو بأخرى، أعتقد بأنّني كنت في دولة غريبة، فلم نكن قد غادرنا بعد أراضي الدولة

الإسلاميّة. وبينما رحت أراقب المناظر عن كثب، لاحظت أنّها لم تعد رتيبة. بل ازدادت الصخور حجمًا حتى تحوّلت إلى منحدرات صغيرة قبل أن تتقلّص مجددًا وتستوي رمالًا مع الأرض. كما ظهرت النباتات الشوكية في الرمال لتتحوّل أحيانًا إلى شجيرات نحيلة. وكنت أرى أحيانًا رأسًا مترنّحًا يعود لمضخّة نفط أو مجموعة من المنازل الطينيّة الصغيرة تشكّل قرية صغيرة. رحت أتفرّج حتى تملّك مني الغثيان في السيارة ولم أعد أحتمل النظر من النافذة.

كنت أشعر بالدوار فتناولت أحد أكياس النايلون التي أعطاني إيّاها ناصر قبل أن نغادر منزل مينا. تقيّأت بعد لحظات، مفرغة معدتي الفارغة بالكامل - إذ كنت بحال من التوتر حالت دون أن أتناول فطوري - لكن القيء السائل ملأ السيارة رائحة كريهة أستطيع الجزم بأنّها أزعجت السائق الذي أبقى على نافذته مفتوحة حتى لم يعد قادرًا على تحمّل حبيبات الرمل التي كانت تعصف في وجهه مع الهواء الحار. فقال لناصر من دون أي نبرة تعاطف، «أرجوك قل لزوجتك أنني أستطيع أن أركن السيارة جانبًا إن شعرت بالغثيان مجددًا. فالرائحة مقيتة هنا». فهز ناصر رأسه موافقًا.

دقائق معدودة مرّت قبل أن أطلب منه أن يوقف السيارة وأخرج منها. كانت السيّارات تمر مسرعة، فتخلق زوبعة تبعث بالهواء في عباءتي فتنفخها حول جسمي كما البالون. رحت أمشي ما تمكّنت مبتعدة مسافة عن السيّارة - فلم أكن أريد أن يرى السائق وجهي - ورفعت نقابي. أخذ القيء يلسع حلقي وشفتيَّ، وما كان من رائحة الوقود إلّا أن زادت حالتي سوءًا.

اقترب منّي ناصر يطمئن عليّ، وسألني: «هل أنت بخير؟ هل نستطيع

أن نمضي أو تريدين البقاء فترة أطول؟». كان باستطاعتي أن ألتمس بعض القلق في صوته، قلق عليّ، وقلق بسبب توقّفنا عند قارعة الطريق. فبين الفينة والأخرى، كانت تمر آليّة عسكريّة للدولة الإسلاميّة، وكان مشهد فتاة تتقيّأ، حتّى لو كانت ترتدي العباءة والنقاب، يثير بعض الفضول.

«أنا بخير»، أجبته، وأنا أعود بطيئة إلى سيّارة الأجرة. شعرت بالوهن وبالجفاف. كان العرق يسيل على كل طبقة من ملابسي، ولم أتمكّن من تذكّر آخر ما أكلت. عندما عدت إلى السيّارة، جلست في وسط المقعد الخلفي، وأغمضت عينيّ على أمل أن أنام.

اقتربنا من بلدة صغيرة، مبنيّة على أطراف الطريق. كانت المتاجر التي تبيع الوجبات السريعة ومحال الميكانيكيّين تطل مباشرة على الطريق السريع، تنتظر الزبائن. ظهر مطعم على هيئة كافيتيريا يعرض طعامًا عراقيًّا تقليديًّا مثل اللحم المشوي والأرز مع صلصة البندورة. فسألَنا السائق: «هل أنتما جائعان؟». وأومأ ناصر برأسه. لم يكن قد تناول فطوره. لم أرِد أن نتوقّف، لكن الأمر لا يعود لي.

كان المطعم فسيحًا ونظيفًا، أرضه مبلّطة بالرخام وفيه كراسٍ بلاستيكيّة للزوّار. كانت العائلات تجلس بالقرب من بعضها البعض، لكن تفصل قواطع بلاستيكيّة قابلة للطي بين الرجال والنساء، وهو ما كان الأمر الطبيعي في الأجزاء المحافظة من العراق. جلست على جانب من القاطع بينما ذهب ناصر والسائق لجلب الطعام. همست لناصر: «إن أكلت، فسأتقيأ من جديد»، لكنّه أصرَّ. «ستسوء حالك إن لم تأكلي»، قال لي، وعاد بعد دقيقة محمّلًا بحساء العدس والخبز، فوضعهما على الطاولة أمامي قبل أن يختفي وراء القاطع.

رفعت النقاب عن وجهي بما يسمح لي بتناول أكلي من دون اتساخ

النسيج. كان الحساء لذيذًا، مصنوعًا من العدس والبصل كالذي كنت أتناوله في كوجو لكن البهارات كانت أكثر ممّا اعتدته، ولم أستطع تناول إلا ملاعق معدودة. كنت أخشى أن نضطر للتوقّف مجدّدًا على الطريق، لو أحسست بالإعياء.

بسبب القاطع، شعرت وكأنّني وحيدة. كانت مجموعة من النساء تجلس عند الطرف المقابل من المطعم، تبعد عني بما لا يسمح لي بالاستماع لما يقلن. كانت النساء يرتدين مثلي، ويأكلن ببطء، فيرفعن على نحو ممنهج النقاب لتناول الكباب والخبز. أمّا الرجال، الذين كانوا يرتدون الدشداشات البيضاء الطويلة، والذين افترضتهم معهم، فقد جلسوا في الجهة المقابلة من قاطعهم؛ رأيتهم عندما دخلنا. كانوا يأكلون من دون أن يتكلّموا، وهكذا فعلنا، فخيّم الصمت على المطعم حتّى خلتني قادرة على سماع صوت رفع النقاب ثم خفضه وكأنّه كائن حيّ يشهق ويزفر.

مشى مسلّحان من الدولة الإسلاميّة باتجاهنا في المرآب بينما كنّا نهم بالمغادرة. كانت سيّارتهما، وهي آليّة عسكريّة لونها البيج وتحمل علم الدولة الإسلاميّة مركونة بالقرب من سيّارتنا. كان أحدهما مصابًا في قدمه ويمشي متكئًا على عكاز، بينما الآخر يمشي ببطء بجانبه حتى يبقى قريبًا منه. كاد قلبي يتوقّف. انتقلت بسرعة إلى الجانب الآخر من ناصر، لأجعله بيني وبين المسلحين، لكن عندما عبرنا أمامهما، لم يعيرانا أي اهتمام.

في المقابل، في الشارع، كانت سيّارة شرطة تابعة للدولة الإسلاميّة تقف إلى جانب الطريق وفي داخلها رجلا شرطة. هل هما هنا من أجلنا؟ هل أقلّا زميلًا لهما يمشّط الشارع بحثًا عنّي وعن ناصر؟ توقّعت

في أي لحظة أن أراهما يخرجان من المطعم ويسيران بسرعة باتّجاهنا مصوّبَيْن أسلحتهما على رأسَينا. ربّما لن يكلّفا نفسَيْهما عناء طرح الأسئلة. وربما سيقتلاننا هنا في هذا المرآب.

كنت أشعر بالخوف من الجميع. الرجال في المطعم بالدشداشات البيضاء - هل هم من الدواعش؟ هل النسوة اللواتي كنّ معهم زوجاتهم أو سباياهم؟ هل ينظرن إلى داعش كمخلّص كما تفعل أم مرتجى؟ كان كل شخص في الشارع، من بائع السجائر إلى الميكانيكي الذي يصلح السيّارات عدوًّا لي. وكان صوت السيّارات، أو حتى صوت الأطفال، مرعبًا بقدر ما قد ترعبني قنبلة انفجرت. عدت مسرعة إلى السيّارة. أردت أن أخرج من كركوك سريعًا، وأستطيع القول من الطريقة التي لحقني بها ناصر، إنّه كان قلقًا ويودّ المغادرة أيضًا.

كان الوقت قد تخطّى الظهيرة، والشمس أضحت أكثر لهيبًا. لو نظرت من النافذة، لشعرت بالغثيان على الفور، لكن لو حاولت أن أغمض عينيَّ، لحملتني الظلمة وراءهما في دوار يغزل بي غزلًا. لذا أخذت أحدّق أمامي إلى خلفيّة مقعد ناصر، لا أفكّر إلّا بنفسي وبما قد يحدث على الطريق. كان خوفي منقطع النظير. إذ كنت أعي جيّدًا أنّنا على موعد مع عدد من نقاط التفتيش الخاضعة للدولة الإسلاميّة، وبعدها نقاط تفتيش البيشمركة. رجّ الهاتف الذي أعطاني إيّاه ناصر، فلاحظت أنه قد أرسل لي رسالة.

«عائلتك تراسلني. صباح ينتظرنا في إربيل».

كان ابن أخي صباح يعمل في فندق في العاصمة الكرديّة عندما ارتكب الدواعش مجزرتهم برجال كوجو. كنّا نخطّط لقضاء ليلة أو ليلتين معه قبل أن أواصل دربي إلى زاخو، حيث ينتظرني حزني. على افتراض أنّنا سننجح في بلوغ هذه المرحلة.

عند نقطة التفتيش الثالثة الخاضعة للدولة الإسلاميّة، لم يطرحوا علينا أي سؤال، ولا حتى استعلموا عن أسمائنا. بل نظروا إلى بطاقات هويّاتنا وأشاروا لنا بالمضيّ في طريقنا. وهنا، إمّا أن نظام إلقاء القبض على السبايا الهاربات لم يصلهم بعد، أو أن المسلّحين يبدون وأقل تنظيمًا ممّا يوهمون به الناس.

سرنا من هناك لفترة من الزمن بصمت. أعتقد بأنّنا كنّا كلنا متعَبين. لم يرسل لي ناصر أي رسائل إضافيّة، بينما توقّف السائق عن البحث عن إذاعة مسموعة بوضوح على الراديو، وعن طرح الأسئلة على ناصر. بل أخذ ينظر أمامه ويسير بوتيرة ثابتة مجتازًا الحقول والمراعي شمال العراق، ماسحًا العرق عن جبينه بعدد من المحارم حتى تحوّلت كلّها إلى قطع صغيرة مبتلّة.

كنت متهوكة القوى نتيجة الخوف والمرض، ورحت أتساءل إن كان ناصر قد بدأ يشعر بالتوتّر جراء اقترابنا من نقاط التفتيش الكرديّة، حيث تدرّب البيشمركة على اكتشاف أي رجل سنّي يحاول الدخول إلى كردستان. لقد قرّرت بعد محادثتي مع حزني، أنّني لن أترك ناصر في أراضي الدولة الإسلاميّة، حتى لو كان ذلك يعني العودة إلى الموصل. أردت أن أطمئنه، لكنّني تذكّرت وعدي له بالتزام الصمت، وأردت أن أبقي رسائلي للطوارئ، فتراجعت عن الكلام. كنت آمل في تلك اللحظة أن يدرك ناصر أنني لست من أولئك الذين يتخلّون عن أصدقائهم أو يعرّضونهم للخطر.

وصلنا إلى مفترق طرق، يشير من جهة إلى كركوك، فتوقّف السائق قائلًا: «لا أستطيع أن أذهب أكثر من ذلك. عليكما أن تسيرا مشيًا على أقدامكما إلى نقطة التفتيش من هنا». فقد يتعرّض للاستجواب وقد

يعتقله البيشمركة لأن سيّارته تحمل لوحة تسجيل من الموصل. ثم أضاف لناصر: «سأنتظر هنا. إن لم يقبلوا بإدخالك عُد، وسنعود معًا إلى الموصل».

شكره ناصر وسدّد له أتعابه، ثم أخذنا أغراضنا من السيّارة. بدأنا نمشي باتّجاه نقطة التفتيش، وكنّا الوحيدين على طرف الطريق. «هل أنت متعبة؟»، سألني ناصر، فأومأت برأسي إيجابًا. «أنا مرهقة».

شعرت بأنّني بت مستنزَفة من كل شيء، وكنت لا أزال غير واثقة أنّنا سننجح. لم أستطع إلا التفكير في أسوأ الاحتمالات مع كل خطوة كنت أخطوها، أن تلقي داعش القبض علينا هنا الآن، بينما نمشي، أو أن يحتجز البيشمركة ناصر. فكركوك كانت مدينة خطيرة، وغالبًا ما شكّلت مسرحًا للاقتتال المذهبي حتى قبل الحرب مع داعش. رحت أتخيل نجاحنا في اجتياز كل ما اجتزناه لنذهب ضحيّة سيّارة مفخخة أو عبوّة ناسفة. كانت الطريق لا تزال طويلة أمامنا.

فقال لي: «دعينا نصل إلى نقطة التفتيش ونرى ما قد يحصل. أين عائلتك؟»، سألني.

«في زاخو»، أجبته. «بالقرب من دهوك».

«وكم تبعد عن كركوك؟»، سأل. فهززت برأسي وقلت: «لا أعلم. هي بعيدة». مشينا بصمت سائر الطريق، جنبًا إلى جنب.

عند نقطة التفتيش، كان الناس يصطفّون بسيّاراتهم وعلى أقدامهم بانتظار أن يستجوبهم البيشمركة. فمنذ أن بدأت الحرب مع داعش، استقبلت حكومة إقليم كردستان مئات الآلاف من النازحين العراقيّين، بمن فيهم المسلمون السنّة من محافظة الأنبار ومن مناطق أخرى بات

يصعب العيش فيها لمن لا يؤمن بالدولة الإسلاميّة. ومع ذلك، هم لم يسهّلوا عملية الدخول إلى كردستان. بل كان يتعيّن على غالبيّة العرب السنّة إيجاد كفيل كردي لهم لو أرادوا عبور نقاط التفتيش، وقد تستغرق العمليّة وقتًا طويلًا.

ولأن كركوك ليست رسميًا جزءًا من الإقليم الكردي المستقل وفيها شريحة كبيرة من السكان العرب، فمن الطبيعي إلى حد ما بالنسبة لغير الأكراد عبور نقاط تفتيشها مقارنة بنقاط التفتيش في إربيل. فكان الطلاب العرب السنّة يمرّون عبرها مرة في الأسبوع أو كل يوم للذهاب إلى المدرسة في المدينة، بينما تذهب العائلات للتسوّق أو لزيارة الأقرباء. كانت مدينة كركوك فسيفساء متنوّعة - من التركمان إلى المسيحيّين الذين يعيشون جنبًا إلى جنب مع العرب والأكراد - ولطالما شكّل ذلك سحرها ولعنتها في آن.

بعد قدوم داعش إلى العراق، سارع البيشمركة إلى كركوك لحماية المدينة وحقولها النفطيّة الغنية، من الإرهابيّين. كانوا القوّة العسكريّة الوحيدة في العراق القادرة على حماية كركوك من الإرهابيّين، لكن بعض الذين كانوا يعيشون هناك تذمّروا من تصرّفهم كما المحتل في إصرارهم على أن المدينة كرديّة، وليست لا عربيّة ولا تركيّة. لم نكن نعلم ما إذا كان ذلك سيصعّب على ناصر عبور نقطة التفتيش. فبما أنّنا قادمان من عاصمة الدولة الإسلاميّة في العراق، لا شك في أنّهم سيشكّكون في الشرح الذي سنقدّمه لهم حول أنّنا في زيارة لعائلتي، وقد لا يسمحون لنا بالعبور، إلّا إذا أقرّيت أنّني سبيّة أيزيديّة فارّة. لكنّني لم أكن مستعدّة للقيام بذلك. أقلّه، ليس الآن.

منذ وقوع المذابح في سنجار، بات الأيزيديّون مرحّبًا بهم في

كردستان، حيث ساعدت الحكومة على إنشاء مخيّمات للنازحين. وكان بعض الأيزيديّين يشككون بنيّات حكومة إقليم كردستان. «الأكراد يريدوننا أن ننسى أنّهم تخلوا عنا»، كانوا يقولون. «إنّها للدعاية وغسل ماء الوجه ليس إلّا. لقد شاهد العالم الأيزيديّين العالقين في الجبال، وتريد تلك الحكومة أن ينسوا ما رأوا». بينما رأى آخرون أن حكومة إقليم كردستان تريد أن يبقى الأيزيديّون في كردستان بدل مساعدتهم على استعادة سنجار، حتى تشكّل أعدادنا الإضافيّة عاملًا ضاغطًا في مسعاهم للاستقلال عن العراق.

أيًّا كانت دوافع الأكراد، فالأيزيديّون بحاجة الآن للحكومة الكرديّة. لذلك كان يتم تشييد المخيّمات للأيزيديّين على وجه الخصوص بالقرب من دهوك، وقد أعد الحزب الديمقراطي الكردستاني مكتبًا مخصّصًا للمساعدة على تحرير السبايا الأيزيديات مثلي. كانت حكومة إقليم كردستان تسعى لترميم علاقتها مع الأيزيديّين وإعادة إرساء الثقة بين الجانبين، على أمل أن نعتبر أنفسنا مرّة أخرى أكرادًا ونسعى لنكون جزءًا من كردستان. لكن في ذلك اليوم، لم أكن مستعدّة لأن أغفر لهم. لم أرد أن يفكّروا أنّهم بالسماح لي بدخول أراضيهم، هم ينقذونني، بينما كان يفترض بهم أن يحافظوا على عائلتي مجتمعة قبل أن تصل داعش إلى سنجار.

استدار ناصر نحوي. وقال: «نادية، تستطيعين أن تذهبي وتقولي لهم إنّك أيزيديّة. قولي لهم من أنت ومن أنا. تكلّمي معهم بالكرديّة». كان يعرف جيّدًا أنهم سيدَعونني أمرّ على الفور لو قلت لهم من أنا.

لكنّني هززت برأسي نفيًا. «كلا». شعرت بالغضب عندما نظرت إلى البيشمركة ببزّاتهم الرسميّة، يقومون بمهامهم عند نقطة التفتيش في كركوك. هم لم يتركوا كركوك، فلماذا تركونا؟

«هل تدرك كم من هؤلاء الرجال تخلّوا عنا في سنجار؟»، قلت لناصر. ورحت أفكّر بأولئك الأيزيديّين الذين شعروا بالخوف عند اقتراب الدواعش وحاولوا العبور إلى كردستان لكن محاولاتهم باءت بالفشل. وقيل لهم عند نقاط التفتيش التابعة لحكومة إقليم كردستان، «لا داعي للهلع! فقوّات البيشمركة ستحميكم، لذلك الأفضل لكم أن تبقوا في منازلكم». إذا لم يكونوا ينوون القتال للدفاع عنا، فكان يفترض بهم أن يسمحوا لنا بدخول كردستان. بسببهم، قتل مئات الآلاف، وخطف آخرون وشُرّد الباقون.

«لن أقول لهم إنّني أيزيديّة، ولن أتكلّم الكرديّة. لن يغير الأمر شيئًا».

ردّ ناصر: «عليك أن تهدّئي من روعك. أنت بحاجة لهم الآن. كوني عمليّة».

أجبته بنرةٍ أشبه بصراخ. «مستحيل، لن أفعل أي شيء يوحي بأنّني أحتاج إليهم». بعد هذا، لم يجرؤ ناصر على التفوّه بأي كلمة.

عند نقطة التفتيش، أخذ الجندي يدقّق ببطاقات هويّاتنا وينظر إلينا. لم أوجّه لهم أي كلمة، وكنت أتكلّم مع ناصر بالعربيّة. «افتح الحقيبة»، قال الجندي، فأخذها ناصر منّي وفتحها للبيشمركة. فاستغرقوا وقتهم يعبثون في محتوياتها فيرفعون الفساتين ويدقّقون بزجاجات الشامبو والكريم المرطّب. وكم ارتحت عندما لم يدقّقوا البحث في علبة الفوط الصحّية، حيث كنت لا أزال أحتفظ بمجوهراتي مخبّأة بينها.

سألونا: «إلى أين أنتما ذاهبان؟».

أجاب ناصر: «سنبقى في كركوك. مع عائلة زوجتي». فسألوا: «ومن سيأخذكم إلى هناك؟».

«سيّارة أجرة. سنجد واحدة من الجهة المقابلة لنقطة التفتيش».

«حسنًا»، قال مشيرًا إلى حيث تقف جمهرة من الناس في حشود متفرقة أمام مكاتب نقاط التفتيش. «قفا هناك وانتظرا».

وقفنا مع الآخرين تحت أشعة الشمس الحارقة، بانتظار أن يسمح لنا البيشمركة بدخول كركوك. كانت عائلات بأكملها تتجمّع معًا، تحمل حقائب ضخمة وأكياس بلاستيكيّة شفّافة مليئة بالشراشف والملاءات. في المقابل، جلس الطاعنون في السن على أمتعتهم بينما حملت النسوة أشياء متنوّعة يستخدمنها كمراوح يبعدن بها قيظ الحر عنهن ويتململن بهدوء. وكانت السيّارات تحمل على ظهرها من الأثاث والفرش ما يجعلها تبدو وكأنّها ستنهار تحت ثقل ما تحمله. رأيت صبيًّا صغيرًا يحمل طابة كرة قدم ورجلًا عجوزًا يحمل عصفورًا أصفر في قفص كما لو أن هذه الأغراض هي أهم ما في العالم. كنّا كلّنا قادمين من أماكن مختلفة، ومن أعمار مختلفة ومن ديانات مختلفة، لكنّنا ننتظر معًا، غير واثقين خائفين، عند نقطة عبور كركوك، لنصبح كلّنا واحدًا. نريد الأمر نفسه - السلامة والأمان، وإيجاد عائلاتنا - وكنّا كلّنا نهرب من الإرهابيّين نفسهم. فهذا ما يعني أن تكون عراقيًّا في ظل داعش، رحت أفكّر. نحن مشرّدون. نعيش عند نقاط العبور إلى أن نصل إلى مخيّمات اللاجئين.

أخيرًا ناداNا عسكري. تكلّمت معه بالعربيّة: «أنا من كركوك، لكنّني أعيش في الموصل الآن مع زوجي»، قلت وأنا أشير إلى ناصر: «نحن ذاهبان لرؤية عائلتي».

«وماذا تأخذان معكما؟».

«القليل من الملابس لقضاء الأسبوع. بعض الشامبو، وبعض الأغراض الشخصيّة...». كان صوتي قد بدأ يخونني بينما راحت

ضربات قلبي تتسارع. لو قرّروا أن يعيدونا، لا أعرف ماذا نفعل. فقد يضطر ناصر للعودة إلى الموصل. نظرنا إلى بعضنا البعض بتوتر.

ثم سألوا ناصر: «هل تحمل أي سلاحٍ؟». أجابهم بالنفي، لكنّهم فتّشوه. ثم أخذوا يفتّشون في هاتفه، بحثًا عن صور أو فيديوات قد توحي بأنه مع داعش. تركوني بمفردي ولم يطلبوا أن يفتّشوا في الهاتف الذي أعطاني إياه ناصر.

بعد برهة من الزمن، أعاد لنا الجندي أغراضنا وهز برأسه. «أنا آسف، لا نستطيع أن نوافق على دخولكما». لم يكن قاسيًا، بل يؤدّي مهامه بنظام ليس إلا. «يحتاج كل زائر إلى كردستان لمن يكفله. وإلّا نحن لا نعلم من أنتم بالفعل».

«علينا أن نتّصل بصديق أبي في سنجار»، قال لي ناصر عندما غادر الجندي. «لديه علاقات ويستطيع أن يطلب منهم أن يسمحوا لنا بالعبور. سيستمعون إليه».

أجبته: «حسنًا، طالما لا يقول لهم إنّني أيزيديّة وأنت تساعدني على الهرب».

أجرى ناصر الاتصال وأعطى الهاتف للجندي الذي تكلّم معه بإيجاز. ثم نظر متفاجئًا وبدا منزعجًا بعض الشيء. بعد ذلك، قال لنا وهو يرد الهاتف لناصر: «كان يفترض بك أن تتّصل من البداية. تستطيعان المضي الآن».

في الجانب الآخر، خلعت النقاب على الفور. كان نسيم المساء يدغدغ وجهي فتبسّمت. أخذ ناصر يمازحني مبتسمًا: «ماذا، ألا تحبّين ارتداءه؟».

الفصل السادس

عندما سألَنا سائق سيّارة الأجرة، وهو كردي في الأربعين من عمره، أين نريد أن نذهب، نظرنا أنا وناصر إلى بعضنا البعض نظرة فارغة. ثم أجابه ناصر: «خذنا إلى كردستان»، فانطلق السائق ضاحكًا. «أنت في كردستان»، ثم حاول ثانية. «إلى أي مدينة تريد أن تذهب؟ إربيل؟ السليمانيّة؟».

فضحكنا أنا وناصر. لم يكن أي منّا يعرف جغرافية كردستان. سأله ناصر: «أيّهما الأقرب؟».

فأجاب السائق: «السليمانيّة».

«فلتكن السليمانيّة»، قلنا معًا. كنّا مرهقَين ومرتاحَين في آن واحد، لكنّنا بعد أن استقر رأينا على الوجهة التي سنسلكها، نسينا الاتصال بابن أخي صباح، كما طلب منا حزني.

كان الليل قد بدأ يرخي بظلاله. وكل ما أمكنني رؤيته من كركوك كان إنارة المنازل والشوارع من بعيد. عندما كنت أصغر سنًّا، كنّا نشاهد على التلفاز الأكراد يحتفلون برأس السنة وهو ما يعرف بالنوروز، فيرقصون في مجموعات كبيرة حول النار ويشوون أكوامًا من اللحم على جانبَي

سفوح الجبال الخضر. وكنت أقول بشيء من المرارة: «انظروا كم الحياة جميلة في كردستان، بينما نحن نعيش في هذه القرى الفقيرة»، فتنهرني أمي قائلة: «يستحقّون الحياة الكريمة يا نادية. لقد عانوا الكثير وتحديدًا الإبادة في ظل حكم صدام، وأنت تعرفين هذا جيدًا».

كنت غريبة في كردستان. فلم أكن أعرف أسماء البلدات ولا حتّى كيف يبدو سكّانها. ولم يكن لدي أصدقاء في كركوك أو في السليمانية، وعلى الرغم من أن صباح كان يعمل في فندق في إربيل وقد عمل سعود في ورش بناء بالقرب من دهوك، إلا أنّهما كانا أشبه بالعمّال البنغلادشيين أو الهنود الذين قدموا إلى كردستان للحصول على المال، ولم ينجحوا يومًا في جعل إربيل أو دهوك موطنًا لهم. ربّما كنت غريبة في أرض العراق كلّها. فلا يمكنني العودة إلى الموصل، حيث تعرّضت لأبشع أنواع التعذيب. ولم أذهب يومًا إلى بغداد أو تكريت أو النجف. ولم أرَ يومًا في حياتي المتاحف العظيمة أو الآثار القديمة. وكل ما كنت أعرفه من العراق كاملًا كان كوجو، وقد باتت الآن تحت سيطرة الدواعش.

كان سائقنا كرديًا فخورًا بنفسه، راح يشير طوال الطريق إلى مواقع بلغة تمزج ما بين الكرديّة والعربيّة، محاولاً التحدّث مع ناصر حول الحياة في الموصل. فسأله وهو يهز برأسه: «هل المدينة كلّها سقطت بيد داعش؟».

أجابه ناصر: «نعم. يريد كثيرون الخروج، لكن الأمر ليس سهلًا».

فأعلن سائقنا: «سيخرجهم البيشمركة من كل العراق!». لكن ناصر امتنع عن الرد.

كنت أشعر براحة أكبر في سيّارة الأجرة. قد يخضع ناصر للتحقيق

عند نقطة التفتيش التالية، التي تفصل المنطقة المتنازَع عليها عن كردستان الفعليّة، لكن كان معنا صديق هشام يقف في صفّنا. لا شك في أنّه يتمتّع بنوع من النفوذ. أقلّه، لم أعد أسترق النظر بحثًا عن سيّارات للدولة الإسلاميّة وأخشى أن يكون من حولي من الناس إرهابيّين في السر.

«أترِيان هذه المباني، القريبة من الجبال؟»، سألنا السائق وهو يشير بأنامله الرفيعة إلى نافذة ناصر. إلى يميننا، كان يتم بناء وحدات سكنيّة كثيرة في ظل الجبال الشرقيّة العراقيّة. وكانت يافطات كبيرة تسوّق للمشروع فتعرض ما تم إنجازه في المنطقة المجاورة. وراح يشرح لنا: «عندما ينتهون من أعمال البناء، سيبدو وكأنّه مبانٍ أميركيّة. جميلة جدًا وجديدة. أمور جميلة تحدث الآن في كردستان».

ثم سألَ السائق وهو ينظر إليّ من مرآته الخلفية: «ما اسم زوجتك؟».

«سوسن»، أجابه ناصر، وهو يذكر الاسم على بطاقة الهويّة. فهتف السائق، «سوسن! يا له من اسم جميل. سأدعوك سوسو»، قال وهو يبتسم لي. بعد ذلك، كان كلّما أشار إلى شيء ما، يصر على شحذ انتباهي إليه. «سوسو! هل ترين تلك البحيرة هناك؟ إنّها جميلة في الربيع»، أو «سوسو، تلك البلدة التي اجتزناها للتو؟ ذلك المكان يبيع أفضل بوظة تذوّقتِها في حياتك».

أذكر تلك الرحلة فأتساءل إن كانت سنجار ستتمكّن يومًا ما من القيام بما قامت به كردستان، فتنهض من رحم الإبادة التي شهدتها لتصبح أفضل ممّا كانت عليه. أنا أتوق لتصديق أنّها يمكنها أن تفعل ذلك، لكن عليَّ أن أقر بأن الأمر بدا غير وارد. فسنجار ليست مثل كردستان، حيث السكان هم أكراد بمجملهم والعدو، جيش صدّام، جاء من الخارج. في سنجار، يتعايش الأيزيديّون والعرب معًا جنبًا إلى

جنب. نعتمد على بعضنا البعض في التجارة، ونعبر بلدات بعضنا بعضًا. وقد حاولنا أن نصبح أصدقاء، لكن عدوّنا بنى نفسه داخل سنجار، مثل مرض خبيث يتغلغل بيننا ويسعى إلى القضاء على كل ما قد تطاله يده. وحتى لو ساعدنا الأميركيّون وآخرون كما فعلوا بعد أن هاجم صدام الأكراد - لا يستطيع الأيزيديّون تقديم أي مقابل لهم، لذا لن يقدّموا لهم على الأرجح أي مساعدة - فكيف نعود إلى حياتنا السابقة ونعيش بين العرب مجدَّدًا؟

كان السائق يحاول جذب انتباهي. «سوسو! هل تحبّين التنزه في الطبيعة؟». فأومأت برأسي. فأضاف، «بالطبع تحبّين! حسنًا، عليك أن تأتي إلى هنا، إلى الجبال خارج السليمانية ليوم نزهة. لن تصدّقي كم هي جميلة في الربيع». فأومأت برأسي مجدّدًا.

كنّا أنا وناصر نضحك لاحقًا على السائق والاسم المستعار الذي ألحقه بي. قال لي ناصر: «لم نسمح لداعش بأخذك، لكن لو بقينا وقتًا أطول معه، لكان هو أخذك».

وصلنا إلى السليمانيّة عند حوالى الرابعة صباحًا، حيث كان كل شيء، بما في ذلك المرآب الذي يفترض أن نأخذ منه سيّارة أجرة إلى إربيل مقفَلًا. وبينما كنّا نقترب من نقطة التفتيش، طلب منا السائق ألّا نقلق. وقال،: «أنا أعرف هؤلاء الرجال»، وبالفعل بعد كلمات قليلة بالكرديّة، أشاروا إلينا بالمرور.

«إلى أين آخذكما؟»، سألنا السائق.

«إلى أقرب مرآب، أجابه ناصر.

فرد السائق: «إنه مقفل في هذا الوقت». كان لطيفًا يهتم لأمرنا.

فرد عليه ناصر: «لا بأس، سننتظر».

ركن السائق سيارته وسدّد له ناصر أتعابه. «حظًا سعيدًا يا سوسو!»، هتف لي وهو يسير بعيدًا.

جلسنا خارج سوبرماركت بالقرب من مرآب واتّكأنا على الجدار. كان الشارع خاليًا، والمدينة بأكملها هادئة. أخذت المباني الشاهقة، بنوافذها المظلمة تلوح فوقنا. كان أحدها على شكل شراع أزرق مضيء؛ وقد علمت لاحقًا أنه صُمّم على شكل مبنى في دبي. لفحنا نسيم عليل، وبدت لي مناظر الجبال التي تحيط بالسليمانيّة كما السوار، مناظر مألوفة مريحة. كنت بحاجة لإيجاد حمام، لكنّني شعرت بالخجل من ناصر، فجلسنا هناك، منهَكَين، خائرَي القوى، ننتظر المحال أن تفتح حتى نستطيع تناول بعض الطعام.

سألني ناصر: «هل سبق أن جئتِ إلى هنا؟».

فأجبته بالنفي. «كلّا. لكنّني أعرف أن المكان جميل». أخبرته عن احتفالات النوروز التي كنت أشاهدها على التلفاز لكنّني لم أتطرق إلى صدام أو الأنفال. «هذه المنطقة غنيّة بالمياه، فتبقى الأرض خضراء لفترة أطول. وتكثر الحدائق والملاهي للأولاد. ويعبر الإيرانيّون الحدود لمجرد التجوّل في الحدائق. أما الجبال، فتذكّرني ببلادي».

«أين سنذهب في الغد؟»، سألت ناصر.

فأجابني: «سنستقل سيّارة أجرة إلى إربيل ونلتقي بابن أخيك في فندقه. ثم تتوجّهين إلى زاخو لتكوني مع حزني».

فسألته: «من دونك؟». فأومأ برأسه. شعرت بالأسى عليه. «أتمنّى لو أن عائلتك تستطيع أن تأتي إلى كردستان. أتمنى لو أنكم لا تضطرون للعيش تحت سلطة الدواعش».

أجابني ناصر: «لست أدري كيف لذلك أن يتحقّق، لربّما يتحقق يومًا ما». بدا غاية في الحزن.

كان جسدي يؤلمني من الجلوس في السيّارات لفترة طويلة، وآلمتني قدماي من المشي إلى نقطة التفتيش الأولى الكرديّة. في النهاية، غفونا كلانا، لكن ليس لفترة طويلة. فبعد نحو الساعة أو الساعتين، أيقظنا ضجيج الازدحام الصباحي والنور الخافت المتسلّل من شمس الصباح. استدار ناصر نحوي. كان مسرورًا أنّني غفوت. «لقد أشرقت شمس صباح هذا اليوم عليك بلا أي مخاوف»، قال لي.

فأجبته: «إنّه صباح بلا مخاوف. وهو صباح جميل هنا». كانت معدتانا فارغتين. اقترح ناصر، «فلنحضر ما نأكله». مشينا مسافة قصيرة إلى محل اشترينا منه سندويشات بيض وباذنجان مقلي. لم تكن السندويشات ممتازة، لكنّني كنت جائعة جوعًا عتيقًا فتناولت حصّتي بنهم. ولم أعد أشعر بأنّني قد أتقيأ.

في حمّام المطعم، نزعت عباءتي وفستان كاثرين اللذَين كانا قد أصبحا نتنَين، ومرّرت بعض المناشف الرطبة تحت إبطيَّ وعلى عنقي. ثم ارتديت سروالًا وقميصًا كانا في حقيبتي. كنت حريصة ألّا أنظر إلى المرآة. فأنا لم أرَ انعكاس صورتي منذ ذاك الصباح في الحمدانيّة، وكنت خائفة ممّا ستظهره لي المرآة. ثنيت فستان كاثرين وأعدته إلى الحقيبة بعناية. سأحتفظ به حتى تصبح حرّة، ثم أعيده إليها، فكّرت. أعددت العدّة لأرمي العباءة في سلّة المهملات، لكنّني تراجعت في اللحظة الأخيرة، وقرّرت أن أحتفظ بها كدليل على ما فعلته داعش بي.

في الخارج، كانت الشوارع قد بدأت تزدحم بالسكّان المتوجّهين

إلى العمل والمدارس. وكانت السيّارات تزعق بينما تزداد زحمة السير، وترفع المتاجر شباكها المعدنية وتفتح أبوابها. وراحت أشعة الشمس تتلألأ على ناطحة السحاب التي تشبه الشراع، فبدت لي بوضوح الآن وقد غطّاها الزجاج الأزرق الذي يعلوه مرصد مستدير على سطح الناطحة. كان كل جزء من أجزاء الحياة هنا يمنح المدينة وجهًا إضافيًا من أوجه الجمال. لم ينظر أحد إلينا، ولا أحسست بخوف من أحد.

اتّصلنا بصباح. فعرض قائلًا: «سآتي إلى السليمانية لأصطحبكما»، لكن ناصر وأنا رفضنا. وقلت له: «لا داعي لذلك، نحن سنأتي إليك».

في البداية، أرادني ناصر أن اذهب إلى إربيل بمفردي، وقال: «لم تعودي بحاجة إلي»، لكنّني بقيت أتجادل معه حتى وافق على الذهاب معي. وجدت نفسي قد استعدت عنادي السابق، ولم أكن على استعداد بعد لتوديعه. فقلت لصباح: «سنأتي إلى إربيل معًا. أريدك أن تقابل الرجل الذي ساعدني على الهرب».

كان مرآب السليمانيّة مزدحمًا في ذلك الصباح بينما أخذنا ننتظر سيّارة أجرة تقلّنا إلى إربيل. أربعة سائقين اعتذروا عن الرحلة. لم يقولوا لنا السبب، لكنّنا كنا نشك في أن السبب يعود إلى أننا جئنا من الموصل وناصر عربي. لقد كان السائقون يطلبون هويّاتنا الواحد تلو الآخر، فيدقّقون بها، ثم ينظرون إلينا، ثم إلى الهويّات مجددًا قبل أن يعيدوها إلينا. ثم يسألون: «تريدان الذهاب إلى إربيل؟»، فنومئ برأسَيْنا معًا.

«لماذا تريدان الذهاب إلى إربيل؟»، كان يسألنا كل سائق.

«لنرى عائلتنا»، هكذا كنّا نجيب، لكنّ كل واحدٍ كان يتنهّد ثم يعيد لنا الهويّات ويقول: «عذرًا، أنا محجوز. جرّبوا سائقًا آخر».

قال لي ناصر: «إنّهم خائفون لأنّنا من الموصل». فأجبت: «ومن ذا الذي يلومهم؟ هم يخشون الدواعش». فسألني ناصر: «ألا تريدين تكّلم اللغة الكرديّة؟». فهززت برأسي نفيًا. لم أكن مستعدّة لأن أُظهِرَ لهم حقيقتي. لم نكن بعد قد تعرّضنا لأي خطر بعد.

جلسنا بصمت بينما تزداد أشعة الشمس حدّة، وقد بدأ القلق يساورنا من احتمال عدم إيجاد سائق يقلّنا إلى إربيل. أخيرًا وافق سائق، لكن بما أنّنا كنّا أوّل الراكبين، سننتظر حتى يملأ سيارته. أشار السائق إلى الرصيف، حيث كان حشد قد بدأ يتجمهر في الظل بانتظار أن يبلغهم السائق أنّه جاهز للانطلاق، وقال: «اجلسي هنا».

وبينما أخذ المرآب يمتلىء، رحت أمسح بنظري الجموع. لم يكن أحد ينظر إلينا. لم أعد خائفة، لكنّني لم أحس ذلك الشعور بالراحة الذي خلته سيتملّكني. وكل ما استطعت التفكير به كان الحياة التي سأخوضها عندما أصل أخيرًا إلى زاخو. لقد قُتل عدد كبير من أفراد عائلتي أو بات مفقودًا، ولن أعود أدراجي، بل سأعود إلى الفراغات التي خلّفها الأشخاص الذين خسرتهم. كنت أشعر بالسعادة وبالفراغ في آن، وكنت ممتنّة أن ناصر موجود وأستطيع أن أكلّمه.

سألت ناصر: «ماذا لو قدّم الدواعش إلى هذا المرآب الآن؟ ماذا سيحصل برأيك؟».

أجابني: «سيخاف الجميع». رحت أتخيّل مسلّحًا يرتدي اللون الأسود من رأسه حتى أخمص قدميه ويحمل سلاحًا رشّاشًا، يفتح النار على هذه الجموع المنهمكة في أمورها.

قلت: «لكن من تظن سيقتلونه أولًا؟». من يستحق عناء الأمر أكثر - أنا، السيّة الهاربة؟ أم أنت، السنّي الذي غادر الموصل والذي ساعدني على الفرار؟».

انفجر ناصر ضاحكًا قبل أن يجيبني بالقول: «يبدو الأمر أحجية».

قلت: «حسنًا، أنا أعرف الإجابة. سنُقتل نحن الاثنان».

ردّد: «سنقتل كلانا». وغرقنا معًا في ضحكة لم تدم طويلًا.

الفصل السابع

تعتبر كردستان تقنيًّا إقليمًا واحدًا يتألّف من محافظات منفصلة. فحتّى وقت قريب، كانت عبارة عن ثلاث محافظات - دهوك وإربيل والسليمانيّة - لكن في العام 2014، جعلت حكومة إقليم كردستان من «حلبجة»، التي كانت الهدف الأكبر في حملة الأنفال، محافظة أيضًا.

وعلى الرغم من كل ما قيل عن كردستان مستقلّة والتشديد على الهويّة الكرديّة، قد تبدو المحافظات مختلفة جدًا الواحدة عن الأخرى، ومقسومة جدًّا جدًّا. فالأحزاب السياسيّة الكبرى - من الحزب الديمقراطي الكردستاني التابع للبرزاني إلى الاتحاد الوطني الكردستاني التابع لجلال طالباني، وحركة كوران الجديدة وتحالف ثلاثة أحزاب إسلاميّة - قد قسّمت ولاء المنطقة، وبرز الانقسام بين الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني بشكل ملحوظ. وفي منتصف التسعينات، دخل السكّان والبيشمركة التابعون للفريقين في حرب أهليّة. ولا يحب الأكراد التكلّم عن الموضوع إذ لو كانوا لا يزالون يملكون أي أمل بالاستقلال عن العراق، فعليهم أن يكونوا متّحدين، لكنّها كانت حربًا رهيبة خلّفت جراحًا لم تندمل بعد. وقد أمل البعض أن يوحّد القتال ضد داعش الأكراد. لكن عندما تسافر

في أرجاء المنطقة، تشعر وكأنك تنتقل بين دولتين. فلكلا الحزبين قوّة بيشمركة خاصة به، وأمنه الخاص ومخابراته واسمها الأسايش.

كانت السليمانيّة الواقعة على الحدود مع إيران معقل الاتحاد الوطني الكردستاني وعائلة طالباني. وهي تعتبر أكثر تحرّرًا من إربيل الخاضعة للحزب الديمقراطي الكردستاني. كانت مناطق الاتّحاد واقعة تحت تأثير إيران، بينما دخل الحزب الديمقراطي في تحالف مع تركيا. باختصار، السياسات التركيّة بالغة التعقيد. وبعد أن تحرّرتُ وبدأتُ أقوم بعملي في مجال حقوق الإنسان، صرت أفهم كيف يمكن أن يحدث ما حدث من فشل في سنجار.

كانت نقطة التفتيش الأولى في طريقنا إلى إربيل تحت إدارة البيشمركة والأسايش الذين يدينون بولائهم للاتحاد الوطني. بعد التدقيق في هويّاتنا، طلبوا من سائق السيارة أن يتنحّى إلى جانب الطريق وينتظر.

كنّا نتشارك سيّارة الأجرة مع شاب وشابّة، قد يكونان زوجًا وزوجة. بدت الفتاة مذهولة عندما سمعتنا أنا وناصر نتكلّم العربيّة مع بعضنا البعض، فسألتني: «هل تتكلّمين الكرديّة أيضًا؟». وعندما شعرت بالرضا لأنّني أتكلّم لغتها، بدت أكثر ارتياحًا. جلستُ في الخلف معهما، وناصر في الأمام. كان الاثنان من كردستان، وقد بدا واضحًا أن سبب إيقاف السيارة يعود إلى أن كلانا يملك بطاقة هويّة من خارج الإقليم. تنهّدت الفتاة وقد عيل صبرها عندما طلب الضابط من السائق أن ينتظر، فراحت تقلّب هويّتها في يدها وتنظر من النافذة محاولة أن تستعلم عن سبب التأخير. أمّا أنا، فرحت أحدّق بها.

أشار مسلّح البيشمركة إليّ وإلى ناصر. «أنتما الاثنان، تعالا معنا». ثم استدار إلى السائق قائلًا، «يمكنك الذهاب»، فتناولنا أغراضنا

قبل أن يقلع السائق. وبينما كنّا نتبع الجندي إلى المكاتب، أحسست بالخوف يعتريني من جديد. لم أكن أتوقّع أن أواجه الكثير من المتاعب ما إن نصبح داخل كردستان، لكن من الواضح أنّه طالما أصرّيت على الادّعاء أنّني سوسن من كركوك، أسافر في كردستان، فلن يكون الأمر سهلًا. ولو شكّوا بأنّنا من أنصار الدولة الإسلاميّة، أو لو شكّكوا في أي من علاقاتنا في إربيل، فلا أسهل من إعادتنا من حيث أتينا.

داخل المكتب، بدأ الجندي يطرح الأسئلة علينا: «من أنتما؟ لماذا أنتما ذاهبان إلى إربيل بينما تفيد إحدى بطاقات الهويّة أنّك من الموصل والثانية من كركوك؟». كان يخشى على وجه التحديد ناصر، الذي كان في العمر المناسب لينخرط مقاتلًا مع تنظيم الدولة الإسلاميّة.

كنّا مرهقَيْن. وكل ما أردته كان الوصول إلى إربيل ورؤية صباح. أدركت أن السبيل الوحيد لتحقيق ذلك كان أن أتوقّف عن الادّعاء وأقر بهويّتي الحقيقية. فقلت لناصر: «هذا يكفي. سأخبرهم».

ثم توجّهت إلى الجندي بالكرديّة.

«أنا نادية»، قلت له. «أنا أيزيديّة من كوجو. وهذه بطاقة هويتي المزوّرة. وصلت إلى الموصل، كأسيرة لدى داعش». ثم أشرت إلى ناصر. «وهذا الرجل ساعدني على الهرب».

بدا الجندي مذهولًا. أخذ يحدّق بنا، وما إن استعاد رباطة جأشه، حتّى قال: «عليك أن تخبري قصّتك كاملة للأسايش. اتبعاني».

أجرى اتّصالًا هاتفيًا ثم أخذنا إلى مبنى مجاور يمثّل مقر الأمن للأسايش، حيث كانت مجموعة من الضباط بانتظارنا في قاعة اجتماعات كبرى. تم ترتيب كرسيّين لي ولناصر على رأس طاولة

كبيرة، ووضعت كاميرا فيديو على الطاولة وقد سلّطت عدستها على هذين الكرسيّين. عندما رأى ناصر الكاميرا، هز برأسه على الفور. «كلا»، قال لي بالعربيّة. «لا أستطيع أن أظهر في الفيلم. لا يفترض بأحد أن يعرف شكلي».

استدرت إلى المسؤولين قائلة لهم: «لقد تكبّد ناصر عناء مخاطرة كبيرة عندما جاء معي، وعائلته لا تزال في الموصل. إن علم أحد من هو، قد يتعرّض للأذى، أو سيلحق الأذى بعائلته. إلى ذلك، لماذا تريدون تصوير هذا؟ من سيراه؟». كنت أيضًا مضطربة لا أفهم لماذا يريد الأسايش الاتّحاد الوطني تصوير هذه المقابلة، ولم أكن بعد على استعداد لتذكّر تجربتي في الموصل أمام جمهرة من الناس.

«نبقي ذلك في سجلّاتنا، وسنقوم بتمويه وجه ناصر على كل حال. نقسم بالله وعلى القرآن أن ما من أحد سيرى هذا إلّا نحن ورؤساؤنا».

عندما أدركنا أنّهم لن يسمحوا لنا بالعبور إن لم نخبرهم قصّتنا، وافقنا. فقلت: «أتقسمون ألّا أحد سيتمكّن من تحديد هويّة ناصر وأن البيشمركة والأسايش وحدهم سيرون هذا الفيديو». فردّوا: «بالطبع، بالطبع». وبدأنا. استمرّت المقابلة ساعات.

كان مسؤول رفيع المستوى يتولّى طرح الأسئلة. فسأل: «أنت أيزيديّة من كوجو؟».

«نعم»، أجبته. «أنا فتاة أيزيديّة من بلدة كوجو في سنجار. كنّا في القرية عندما غادر البيشمركة. كتب الدواعش على مدرستنا: «هذه القرية للدولة الإسلاميّة». وشرحت كيف أجبرونا على التجمع في المدرسة وكيف أخذوا النساء والفتيات إلى صولاغ ثم الموصل.

سأل: «كم بقيت في الموصل؟».

«لست أكيدة على وجه التحديد. لقد تم احتجازنا في غرف مظلمة وكان من الصعب أن نعرف كم من الوقت مر في كل مكان». كان الأسايش على بيّنة واضحة ممّا جرى في سنجار، وكيف تم قتل الرجال الأيزيديّين وأخذ الفتيات إلى الموصل وبعد ذلك توزيعهن في أرجاء العراق. لكنّهم أرادوا أن يعرفوا تفاصيل قصّتي، وعلى وجه الخصوص، ما حصل معي في الأسر وكيف ساعدني ناصر على الهرب. همس لي ناصر بالعربيّة أن أكون حذرة وأن أختار كلماتي. فعندما بدأت بسرد الجزء المتعلّق بعائلته، قال لي: «لا تقولي إنّك عندما قدمت إلى المنزل كان ذلك في المساء وكنّا نجلس في الخارج. قولي إن الوقت كان في منتصف الليل. وإلّا، قد يخالون أنّه لمجرد أنّنا كنا نجلس خارجًا في الحديقة نتسامر، فنحن مع داعش». فأجبته أن لا داعي للقلق.

عندما دار الحديث حول الممارسات التي تعرضت لها، ومع أن مسؤولي الاتحاد الوطني ضغطوا عليّ للحصول على تفاصيل، إلّا أنني رفضت الإقرار بما حدث. فلا شك في أن عائلتي تحبّني، لكن إلى أن أراهم، أنا في الواقع لست أدري كيف ستكون ردّة فعلهم، أو ردّة فعل المجتمع الأيزيدي بشكل عام، عندما أعود ويدركون أنّني لم أعد عذراء. رحت أتذكّر كيف كان الحاج سلمان يهمس في أذني بعد كل جولة اغتصاب، أن عائلتي ستقتلني لحظة تراني. فكان يقول: «أنت مدمَّرة. لن يتزوّجك أحد، ولن يحبّك أحد. عائلتك لا تريدك بعد اليوم». حتى أن ناصر كان يخشى إعادتي إلى عائلتي، وكيف سيتصرّفون عندما يكتشفون أنني تعرضت للاغتصاب. «نادية، إنهم يصوّرون - أنا لا أثق بهم»، همس لي في مكتب الاتحاد. «عليك أن تنتظري لتري كيف

ستعاملك عائلتك. لربما سيقتلونك لو اكتشفوا الأمر». كم كان مؤلمًا أن تساورك شكوك مماثلة حول أشخاص قاموا بتربيتك، فالأيزيديّون محافظون، ولم يسمحوا يومًا بممارسة الجنس قبل الزواج. ولم يكن لأحد أن يتوقّع ما سيحدث مع هذا العدد الكبير من الفتيات الأيزيديّات دفعة واحدة. فحالة مثل هذه تشكّل امتحانًا لأي مجتمع، أيًا يكن حجم الحب، أو أيًا تكن درجة القوة التي يتمتّع بها.

قدّم لنا أحد المسؤولين القليل من الماء وبعض الطعام. كنت متوتّرة أريد المغادرة، فقلت لهم: «يفترض بنا أن نلتقي عائلتي في زاخو. لقد تأخّر الوقت».

فردوا عليّ: «هذه حالة بالغة الأهمّية. يريد مسؤولو الاتحاد الوطني الكردستاني أن يعرفوا تفاصيل أسرك وهروبك». كانوا مهتمّين على وجه الخصوص بالإنصات لكيفيّة تخلّي بيشمركة الحزب الديمقراطي عنّا. فأخبرتهم عن ذلك وكيف جاء الشارون إلى سوق النخاسة، ليختاروا أجمل الفتيات أوّلًا، لكن عندما كان يفترض بي أن أتكلّم عن أسري، كذبت.

«من أخذك؟»، سألني المحاور.

«اختارني شخص ضخم جدًا وقال إنّك ستكونين ملكي»، قلت مرتعشة وأنا أفكر بسلوان. «قلت لا. سأبقى في المركز إلى أن لاحظت يومًا أن لا حرس فتمكّنت من الهرب».

ثم كان دور ناصر بالكلام.

«كانت الساعة حوالى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، أو الواحدة فجرًا عندما سمعنا طرقًا على الباب»، قال لهم. ثم تململ قليلًا

في كرسيّه وبدا في قميصه المقلّم أصغر سنًا. «كنّا نخشى من أن يكون الدواعش وقد حضروا بأسلحتهم». وراح يصفني، فتاة خائفة، وكيف كانوا هم أيضًا خائفين. ثم قرروا مساعدتي واستحصلوا لي على بطاقة هويّة وادّعى أنه زوجي لإخراجي من الموصل.

كان بيشمركة الاتّحاد والأسايش راضين جدًا عن ناصر. فشكروه وعاملوه كبطل، وسألوه كيف هي الحياة تحت حكم داعش، معلنين: «ستحارب قوّات البيشمركة التابعة لنا الإرهابيّين حتى طردهم من أرض العراق». كانوا فخورين بأن كردستان تشكّل ملاذًا آمنًا لهؤلاء الهاربين من الموصل، وقد أسعدهم تذكيرنا أن من تخلّى عن سنجار لم يكونوا القوّات التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني.

ثم أخبرهم ناصر: «ثمّة آلاف الفتيات مثل نادية في الموصل. نادية واحدة منهن وقد أحضرتها إلى هنا». كانت الساعة قد شارفت على الرابعة من بعد الظهر عندما انتهينا من مقابلتنا.

فسأل أحد المسؤولين: «أين تخطّطان للذهاب؟».

«إلى المخيّم بالقرب من دهوك»، أجبت. «لكن أوّلًا أريد أن أرى ابن أخي في إربيل».

فسأل المسؤول: «ومَن لديكم في دهوك؟ لا نريد أن نزجّكما في وضع خطر».

أعطيتهم رقم وليد، أخي غير الشقيق الذي التحق بالبيشمركة بعد المجازر، مع عدد من الرجال الأيزيديّين التوّاقين للقتال وللحصول على راتب. فخلتهم قد يثقون بجندي زميل لهم، لكن الأمر جعل مسؤول الاتحاد أكثر حذرًا. فسأل بعد أن أقفل الخط، «هل وليد من

البيشمركة التابعة للحزب الديمقراطي؟ إن كان كذلك، فلا يفترض بكما الذهاب معه. تعلمين، لقد تخلّوا عنكم وتركوكم بلا حماية».

لم أقل شيئًا. لقد بدأت أشعر، وأنا التي أجهل الكثير عن السياسات الكرديّة، أنّه ليس من الفطنة الاصطفاف مع أحد الجانبين. وأضاف لي المسؤول: «كان عليك التكلّم عن ذلك أكثر في المقابلة. على العالم أن يدرك أن البيشمركة التابعة للحزب الديمقراطي قد تركتكم تموتون.

ثم تابع قائلًا: «أستطيع أن أقدّم لك المساعدة إن بقيت هنا. هل لديك ما يكفي من المال للعودة؟».

تناقشنا لدقائق، والمسؤول يصر أنّني سأكون بأمان أكبر في الأراضي الخاضعة لسلطة الاتحاد الوطني بينما أنا أؤكّد ضرورة ذهابي. في النهاية، أدرك أن لا مجال لإقناعي. «أريد أن أكون مع عائلتي، في أراضي الحزب أو غيره»، قلت له. «أنا لم أرهما منذ أسابيع».

«حسنًا»، قال أخيرًا، وأعطى ناصر ورقة. «خذ هذه معك لما تبقّى من رحلتكما. ولا تستخدم بطاقة هويّتك عند نقاط التفتيش - استعمل هذه. سيدعونكما تمرّان».

ثم استأجروا سيّارة أجرة لتقلّنا إلى إربيل ودفعوا له مسبقًا وشكرونا على بقائنا عندهم طوال هذا الوقت. لم نقل أي شيء أنا وناصر عندما دخلنا السيارة، لكن كان بإمكاني أن أحس بأنه يشعر مثلي بالراحة لعبورنا نقطة التفتيش هذه.

كنّا عند كل نقطة تفتيش تالية، نعطيهم الورقة، فيسمحون لنا بالعبور على الفور. ارتخيت في مقعدي، بحثًا عن قليل من النوم قبل أن ألتقي صباح في إربيل. كانت المناظر الطبيعية قد ازدادت خضرة عن قبل،

والمزارع والمراعي كلّها بحال جيدة لأن أحدًا لم يغادرها. وسرعان ما أفسحت القرى الزراعيّة الصغيرة، التي تشبه كوجو بمنازلها القرميديّة وجرّاراتها المجال أمام بلدات أكبر، تشبه كثيرًا المدن، وبعضها يحتوي على مبانٍ شاهقة ومساجد أكبر من كل ما رأيت في سنجار. كنت أشعر بالأمان في سيّارة الأجرة. حتّى الهواء، عندما فتحت النافذة، كان أكثر برودة وإنعاشًا.

مر وقت قصير قبل أن يرتجّ هاتف ناصر. «إنّه صباح»، قال لي، ثم أخذ يلعن. «لقد رأى مقابلتنا! لقد نشروها».

اتّصل صباح، فأعطاني ناصر الهاتف. كان ابن أخي غاضبًا. سألني: «لماذا وافقتِ على إجراء هذه المقابلة؟ كان عليك الانتظار».

فأخبرته: «قالوا إنّهم لن ينشروها. وعدوا بذلك». شعرت بالإعياء والغضب، وقد تملّكني خوف من تعريض ناصر وعائلته لخطر الدواعش، الذين قد يكونون في هذه اللحظة يطرقون باب هشام ومينا، وقد جاؤوا غاضبين لمعاقبتهم. كان ناصر يعرف العديد من مسلّحي الدولة الإسلاميّة، وهم يعرفونه جيدًا أيضًا. وحتى لو كان وجهه مموّهًا (التزم على الأقل الأسايش الاتحاد بهذا الوعد)، فقد يتمكّنون من التعرّف إليه. لم أستطع أن أصدّق أن قصتي، التي كانت حتى تلك اللحظة أمرًا حميمًا خاصًا لا يعرف تفاصيلها إلّا عدد قليل ممن أثق بهم، قد باتت الآن تتصدّر عناوين الأخبار. أحسست بخوف شديد.

وأكمل صباح: «حياة عائلة ناصر وحياتنا على المحك! لماذا فعلوا ذلك!».

تجمّدت في مقعدي على وشك الانفجار بالبكاء. لم أدرِ ما أقول.

بدا لي شريط الفيديو وكأنّه قمّة الخيانة لناصر، فكرهت الأسايش الاتحاد لنشرهم المقابلة، ولأنهم نقضوا وعودهم لمجرّد أنّهم يريدون تظهير أنفسهم بصورة أفضل من الحزب الديمقراطي، الذي أصر على التخلّي عن الأيزيديّين. «أتمنّى لو أنّني متّ في الموصل بدل أن أصل إلى هنا وأشهد على هذا الفيديو يخرج إلى العلن»، قلت له وأنا أعني كل كلمة. لقد استغلّنا الاتحاد الوطني الكردستاني.

شغلني شريط الفيديو هذا لفترة طويلة. كان إخوتي غاضبين لأنّني كشفت عن نفسي وعن عائلتي، وكان ناصر يخشى على سلامته. وقد قال حزني: «كم من المريع أن نتّصل بهشام لنقول له إن ابنك قد قتل لأنه ساعدكِ». كانوا غاضبين منّي لأنّني انتقدت بيشمركة الحزب الديمقراطي على الكاميرا. ففي النهاية، مخيّمات اللاجئين للأيزيديّين تُنصَبُ في أراضي الحزب الديمقراطي؛ ونحن نعتمد عليهم مجدّدًا في حياتنا. وسرعان ما أدركت أن قصّتي، التي كنت لا أزال أعتبرها مأساة شخصيّة، قد تتحوّل إلى أداة سياسيّة في يد هذا أو ذاك، ولا سيّما في دولة مثل العراق. لذلك عليّ أن أحاذر في ما أقول، لأن كل طرف سيفسّر الكلام كما يحلو له، وليس أسهل من تحوّل قصّتك إلى سلاح يستخدم ضدّك.

الفصل الثامن

لم تعد أوراق الاتّحاد الوطني الكردستاني بأي نفع عند نقطة التفتيش خارج إربيل. فنقطة التفتيش تلك كانت كبيرة، حيث تصطف فيها السيّارات في خطوط طويلة يفصل بينها جدران إسمنتيّة جبّارة تفاديًا لأي تفجير انتحاري، وتتزيّن كلّها بصور مسعود برزاني. هذه المرة، لم يتفاجأ أي منّا عندما أمرنا البيشمركة بالخروج من سيّارة الأجرة، فتبعناه إلى مكتب المسؤول، وكان عبارة عن غرفة واحدة صغيرة ليس إلّا. في نهاية الغرفة، كان الضابط يجلس وراء مكتب خشبي. لا أجهزة تصوير ولا حشود، لكن قبل أن نبدأ، اتّصلت بصباح الذي كان يراسلنا طوال الوقت يستفهم لماذا تأخّرنا لأخبره بآخر المستجدات عن نقطة التفتيش. لم نكن نعلم كم ستستغرق هذه المقابلة.

سأل الضابط الأسئلة نفسها التي طرحها رجال أمن الاتّحاد الوطني، فأجبت عليها كلّها، مستثنية مرّة أخرى موضوع الاعتداء وأي تفاصيل تتعلّق بعائلة ناصر. وكنت حذرة هذه المرة من عدم توجيه أي انتقاد لبيشمركة الحزب الديمقراطي. أخذ الضابط يدوّن كل ما أقوله، وعندما انتهينا، ابتسم ووقف.

توجّه إلى ناصر قائلًا: «لن ينسى أحد ما أقدمت عليه»، وقبّله على وجنتيه. «الله يبارك بما فعلت».

لكن تعابير وجه ناصر بقيت ثابتة لا تبدي أي انفعال. «لم أقم بذلك بمفردي. خاطرت عائلتي كلّها بحياتها كي توصلنا إلى كردستان. كل من لديه ذرّة إنسانيّة وتعاطف سيقوم بالأمر نفسه».

ثم صادروا بطاقة هويّتي المزوّرة من الموصل، لكن ناصر احتفظ ببطاقته. بعد ذلك، فُتح الباب ودخل صباح.

كثيرون من رجال عائلتي مقاتلون، من والدي وسلسلة القصص البطوليّة التي خلّفها وراءه بعد مماته؛ إلى جلو الذي قاتل مع الأميركيّين في تلّعفر؛ وسعيد الذي كان متحمّسًا لإثبات شجاعته مذ كان طفلًا صغيرًا، فسحب نفسه خارج المقابر الجماعيّة وقدميه وساقه قد مزّقها الرصاص. لكن صباح كان طالبًا لا يكبرني إلا بعامين. كان يعمل في الفندق في إربيل لأنه أراد جني ما يكفيه من المال كي يستطيع يومًا ارتياد الجامعة والحصول على وظيفة لائقة والتمتّع بحياة أفضل من حياة المُزارع أو الراعي. قبل أن يأتي الدواعش إلى سنجار، تلك كانت الطريقة التي كان يقاتل بها.

لكن عملية الإبادة غيّرت الجميع. ها هو حزني يكرّس حياته لمساعدة المهرّبين على تحرير السبايا. وها هو سعيد يعيش كابوس اليوم الذي نجا فيه، حتى بات مسكونًا بالقتال. أما سعود، فأخذ يمرّر رتابة أيّامه في مخيّم اللاجئين، محاولًا التأقلم مع الذنب الذي يلاحقه كأحد الناجين. ومالك، يا لمالك الحزين، الذي لم يكن إلّا صبيًّا صغيرًا عندما بدأت الإبادة، فأصبح إرهابيًّا يكرّس حياته وحتى حبّه لأمه في سبيل داعش.

أمّا صباح، الذي لم يكن يرغب يومًا في أن يصبح جنديًّا أو ضابط شرطة، فقد غادر الفندق في إربيل ومدرسته وتوجّه إلى جبل سنجار

للقتال. لطالما كان شخصًا خجولًا لا يُظهر مشاعره سريعًا، لكن الآن ترافق ذلك مع نوع من الرجولة لا أذكر أنها كانت إحدى خصاله في السابق. عندما عانقته عند نقطة التفتيش وبدأت أنتحب، طلب منّي أن أهدأ. «ثمة ضبّاط ومسؤولون هنا يا نادية يجب ألا نبكي أمامهم. لقد عانيت الكثير، وها أنت في أمان الآن. لا تبكي». لقد كبر سنوات طويلة كثيرة في أسابيع قصيرة؛ أفترض أنّنا كلّنا فعلنا.

حاولت أن أستجمع نفسي. «أيّهم ناصر؟»، سألني صباح فأشرت إليه، فتصافحا. ثم قال صباح: «علينا أن نذهب إلى الفندق. ثمّة أيزيديّون يقيمون هناك. أنت يا ناصر تبقى معي، بينما تبقى نادية مع بعض النساء في غرفة أخرى».

سرنا بالسيّارة لمسافة قصيرة من نقطة التفتيش إلى وسط المدينة. كانت إربيل على شكل دائرة كبيرة غير مستوية الأطراف، تتناثر طرقها ومنازلها من حول قلعة قديمة يقول بعض علماء الآثار إنّها أقدم مكان مأهول في العالم. ويمكن رؤية أسوارها العالية الترابيّة اللون من معظم أماكن المدينة، لتتعارض مع سائر ما تقدّمه إربيل، من حداثة وعصريّة. كانت طرق إربيل تزدحم بسيّارات الدفع الرباعي البيض التي تسير مسرعة من دون أيّ قوانين تفرض عليها أن تبطئ، بينما تكثر المتاجر والفنادق على جانبي الطريق، ومنشآت أخرى جديدة قيد البناء. عندما وصلنا، كان عدد من مواقع البناء قد تحوّل إلى مخيّمات طارئة للاجئين ريثما تكوّن حكومة إقليم كردستان تصوّرًا حول كيفيّة التعامل مع الأعداد الهائلة من العراقيين والسوريين الذين يهربون إلى منطقة سيطرة داعش.

توقّفنا أمام الفندق، وكان عبارة عن مكان صغير لا هويّة له مع بعض

الأرائك الداكنة اللون. كانت النوافذ مغطاة بستائر شفّافة والأرضيّات مكسوة بمادة رمادية لمّاعة. كان عدد من الرجال الأيزيديّين يجلس في الردهة، فألقوا عليَّ التحية، لكنّني أردت أن أنام، فقادني صباح إلى الغرفة. في الداخل، وجدت عائلة، امرأة مسنّة مع ابنها الذي كان يعمل أيضًا في الفندق، وزوجته. كانوا يجلسون معًا حول طاولة صغيرة يتناولون الحساء والأرز والخضار من مطعم الفندق. عندما رأتني السيدة، أشارت إليّ. «هيّا اجلسي، كلي معنا».

كانت من عمر أمّي تقريبًا، ومثل أمّي، ترتدي فستانًا أبيض فضفاضًا ووشاحًا أبيض على رأسها. ما إن رأيتها، حتى خانتني كل القوّة والسيطرة التي حاولت جاهدة فرضها على نفسي مذ غادرت المنزل الخاضع للدولة الإسلاميّة في الموصل. وكأنّني أصبت بمسّ من جنون. فرحت أصرخ بكل جوارحي، حتّى ما عدت أستطيع الوقوف على قدميّ. بكيت أمّي، التي كنت حتى تلك اللحظة أجهل مصيرها. وبكيت إخوتي، الذين رأيتهم يُساقون أمامي إلى حتفهم، وبكيت أولئك الذين نجوا وسيعيشون سائر حياتهم محاولين أن يلملموا شتات عائلتنا. وبكيت كاثرين وولاء وأخواتي اللواتي ما زلن في الأسر. وبكيت لأنّني نجوت ولم أعتقد بأنّني أستطيع أن أكون محظوظة لهذه الدرجة؛ لكنّني، لم أعد أعرف إن كنت محظوظة على الإطلاق.

اقتربت المرأة منّي وحضنتني بين ذراعيها. كان جسدها ناعمًا كما جسد أمّي. وعندما هدأت قليلًا، لاحظت أنّها كانت تبكي أيضًا، وكذلك ابنها وكنّتها. فراحت تقول لي: «كوني صبورة. ربما سيعود كل من تحبّين. لا تقسي على نفسك».

جلست إلى الطاولة معهم. كنت أحس بجسمي وكأنّه مصنوع من

لا شيء، وكأنني أستطيع أن أطير بعيدًا في أي لحظة. تناولت القليل من الحساء، نزولًا عند إصرارهم. بدت السيّدة طاعنة في السن، أكثر بكثير من سنّها الفعلي، وقد فقدت تقريبًا شعرها الأبيض كله. فكانت فروة رأسها الزهريّة المنمّشة ببعض البني تظهر بوضوح تحت ما تبقّى من شعر. كانت من تل عزير، وحياتها مؤخّرًا مأساة تبدأ ولا تنتهي. «كان لدي ثلاثة أبناء، كلّهم غير متزوّجين، قتلوا في العام 2007 نتيجة الانفجارات. فقلت لنفسي عندما قتلوا إنّني لن أستحم قبل أن أرى جثامينهم. كنت أغسل وجهي وأنظف يديّ ليس إلا. لكنّني لم أستحم البتة. لا أريد أن أكون طاهرة قبل أن أطهّر أجسادهم وأدفنهم».

لاحظَت كم كنت متعبة فقالت لي: «يا ابنتي، اخلدي للنوم». فاستلقيت في سريرها وأطبقت عينيّ، لكنّني لم أجد إلى النوم سبيلًا. فكل ما استطعت التفكير به كان أبناؤها الثلاثة، وجثامينهم المفقودة، وأمّي. «تركت أمّي في صولاغ»، قلت لها. «ولا أعلم ماذا حلّ بها؟». وبدأت أبكي من جديد. قضينا الليلة بأكملها وهي إلى جانبي في السرير، نبكي، وفي الصباح، بعد أن ارتديت فستان كاثرين، قبّلتها على وجنتيها.

فقالت لي: «كنت أعتقد بأن ما حل بأبنائي هو أسوأ ما قد تعيشه أمّ وهي حيّة ترزق. كنت أتمنّى لهم طوال الوقت أن يكونوا على قيد الحياة. لكنّني الآن سعيدة لأنهم لم يعيشوا ليشهدوا على ما حل بنا في سنجار». ثم سوّت الوشاح الأبيض على ما تبقى من شعرها. «بإذن الله، ستعود لك أمّك يومًا. دعي كل شيء بيد الله. نحن الأيزيديّين لا نحمل شكوانا إلا لله».

في الأسفل في ردهة الفندق، رأيت صبيًا مألوفًا فتوجّهت إليه. كان شقيق صديقة من كوجو. فسألني: «هل تعلمين ما حلّ بها؟».

آخر مرة رأيت فيها أخته كانت في الموصل في السوق عندما رأيت الحاج سلمان للمرّة الأولى. وعندما غادرت أنا وروجيان، لم يكن قد اختارها أحد بعد، لكنّني أفترض أن الأمر تم بعد فترة قصيرة. فقلت له، «أتمنّى أن تبلغ بر الأمان يومًا ما». كنت قد بدأت أدرك أنّني أؤدّي دور رسول الأخبار السيّئة للعديد من الأيزيديّين في كردستان.

«لم تُجرِ حتى اتّصالًا هاتفيًا واحدًا»، رد قائلًا.

فأجبته: «ليس من السهل أبدًا إجراء الاتّصالات الهاتفية. لا يسمحون لنا أن نمتلك هواتف أو أن نتّصل بأي أحد. أنا لم أتّصل بأخي حزني إلى أن هربت».

ثم جاء صباح إلى الردهة وأبلغني أنه حان وقت التوجّه إلى زاخو. ثم قال وهو يشير إلى باب مفتوح آخر الممر: «ناصر في تلك الغرفة، اذهبي وودعيه».

توجّهت إلى الغرفة ودفعت بالباب. كان ناصر يقف في وسطها، وما إن رأيته حتى أجهشت بالبكاء. كنت أشعر بالشفقة عليه. عندما كنت مع عائلته، شعرت وكأنّني غريبة تعبر حياة آخرين. وقد بدأ أملي بالمستقبل وانتهى مع هروبي، وها أنا الآن في إربيل، أجتمع مجدّدًا مع ابن أخي وأيزيديّين آخرين. أما ناصر، فعليه أن يعيد تلك الرحلة المريعة إيّابًا ويعود إلى الدولة الإسلاميّة. كان دوري الآن أن أخاف عليه.

بدأ ناصر يبكي أيضًا. كان صباح يقف عند الباب يشاهدنا. «صباح، هل أستطيع التكلم مع نادية لدقيقتين؟»، سأله ناصر. فوافق صباح مغادرًا.

استدار ناصر إليّ، وتعابير جدّية قد ارتسمت على ملامحه. «نادية،

أنت مع صباح الآن، وستلتحقين قريبًا بسائر أفراد عائلتك. لا حاجة لي للقدوم معك. لكن أريد أن أسألك أمرًا. هل تشعرين أنك بأمان؟ إن كانت تراودك أي مخاوف من احتمال أن يحصل لك أي مكروه أو أنهم قد يلحقون بك أي أذى لأنك كنت سبيّة، فسأبقى معك».

«كلّا يا ناصر»، أجبته. «رأيتَ كيف يعاملني صباح. سأكون بخير». في الواقع، لم أكن على ثقة تامّة، لكنّني أردت لناصر أن يذهب في حال سبيله. وكان الذنب يتآكلني بسبب شريط فيديو الاتحاد الوطني الكردستاني، ولم أكن أكيدة كم من الوقت لديه قبل أن يتعرّف إليه أحدهم.

فقلت له: «لا تصدّق ما يقوله الدواعش حول الأيزيديّين. أنا أبكي خوفًا عليك، لأنك قمت بذلك من أجلي. لقد أنقذت حياتي».

أجابني: «هذا واجبي، وقد أسعدني ذلك».

غادرنا الغرفة معًا. لم أستطع أن أجد كلمات أعبّر فيها عن مدى امتناني له ولما قدّمه لي من مساعدة. في اليومين الماضيين، كنّا قد تشاركنا كل لحظة خوف وكل لحظة أسى وكل نظرة قلق وكل تساؤل مرعب. وعندما كنت أشعر بالإعياء، كان بقربي ليريحني، وعند كل نقطة تفتيش كان هدوؤه يحول دون انهياري من الخوف. لن أنسى ما حييت ما فعله هو وعائلته لي.

لا أعلم لمَ كان على هذه الدرجة من الطيبة والخير، بينما آخرون كثيرون في الموصل على هذه الدرجة من البشاعة والشر. برأيي إن كنت شخصًا طيّبًا، من عمق أعماقك، فيمكنك أن تولد وأن تنشأ في مقر الدولة الإسلاميّة ومع ذلك تبقى فردًا صالحًا، تمامًا كما عندما تجبر على التخلّي عن دينك لاعتناق ديانة أخرى لا تؤمن بها، ومع ذلك تبقى

أيزيديًا. فالأمر في داخلك. «كن حذرًا»، قلت له. «اهتم بنفسك وابقَ بعيدًا عن هؤلاء المجرمين قدر الإمكان. هاك، خذ رقم حزني». أعطيته قصاصة ورق مكتوب عليها رقم هاتف حزني، إضافة إلى المال الذي دفعته عائلته لسيارة الأجرة. «تستطيع الاتّصال بحزني في أي وقت. لن أنسى يوماً ما فعلته لي. لقد أنقذت حياتي».

«أتمنّى لك حياة سعيدة يا نادية. حياة جيّدة من الآن وصاعدًا. ستحاول عائلتي مساعدة أخريات مثلك. إن كان ثمة فتيات في الموصل يسعين للهرب، فليتّصلن بنا، وسنساعدهن على ذلك».

«لربّما يوماً ما، بعد أن تتحرّر الفتيات كلّهن ويخرج الدواعش من العراق، قد نجتمع مرّة أخرى ونتكلّم عن هذا كله»، أضاف ناصر. ثم ضحك بهدوء. «نادية، كيف تسير الأمور الآن؟».

فابتسمت ابتسامة حزينة وأنا أجيب: «الجو حار...».

«لا تنسي»، رد ناصر ممازحًا. «ناصر الجو حار، حار جدًا».

ثم اختفت الابتسامة عن وجهه ليقول: «الله معك يا نادية».

فأجبته: «وليكن الله معك يا ناصر». وبينما استدار ومشى نحو باب الخروج، رحت أدعو للطاووس ملك أن ينقله وعائلته إلى بر الأمان. وقبل أن أنتهي من دعائي، كان قد اختفى.

الفصل التاسع

بعد أن غادر ناصر إربيل، حاولت أن أتابع ما حلّ به وبعائلته. وكنت كلّما أفكّر بشريط الفيديو الذي صوّره الاتحاد الوطني الكردستاني، أشعر بالخزي والعار، فأدعو ألّا يعرّضهم لأي خطر. فناصر مجرّد غلام من حي فقير، لكنّنا أنا وحزني كنّا نعتقد بأنّها مسألة وقت ليس إلّا قبل أن ينخرط في صفوف الإرهابيّين. فقد أمضى الدواعش سنوات طويلة يزرعون جذور عقيدتهم في المدينة، فيتصيّدون حالة التململ بين السنّة وانعدام الاستقرار في البلاد. في تلك المنطقة، تمنّى الرجال أن يكون الإرهابيّون مثل البعثيّين، يعيدون لهم مجدهم الضائع وسلطتهم المسلوبة. وحتّى لو أصيبوا بخيبة أمل من الدولة الإسلاميّة، إلّا أن الصبية كانوا قد أصبحوا جنودًا، والأسوأ من ذلك، مؤمنين بحق بعقيدة داعش، في الوقت الذي عاد فيه ناصر من كردستان. فهل تمكّن أبناء مينا من الهروب من ساحة المعركة؟ ما زلت حتى الآن لا أدري.

كان حزني يشعر بقلق بالغ من احتمال وقوع أي سوء لهم. «لقد ساعدوكِ»، قال لي. «كيف يمكن لنا أن نتقبّل فكرة تعرّضهم لأي عقاب بسبب ذلك؟». كان يتحمّل المسؤوليّة كربّ عائلتنا بجدّية مطلقة. وبالطبع ليس ثمّة ما يستطيع القيام به من زاخو، أو لاحقًا من

مخيّم اللاجئين. وقد تكلّم حزني مع هشام وناصر عددًا من المرّات، ثم اتّصل في إحدى المرّات ليخبره صوت من الجهة الأخرى أن الخط غير صالح للاستخدام. بعد ذلك، كان على حزني الاتّكال على معلومات تصله من أطراف أخرى حول ناصر وعائلته. وفي أحد الأيّام، بلغنا أن الدواعش قد اكتشفوا في الواقع أن ناصر ساعدني، فاعتقلوا بشير وهشام لكن الرجلين أقنعا المسلّحين أن ناصر قد تصرّف من تلقاء نفسه من دون أن يستشير أحدًا.

كانت العائلة لا تزال في الموصل في العام 2017 عندما بدأت القوّات العراقيّة تحرير المدينة، وقد بات من الصعوبة بمكان الحصول على أي معلومات. وقد سمع حزني من آخرين أن أحد إخوة ناصر قد قتل في العام 2017 خلال المعركة التي وقعت بين داعش والقوات العراقيّة للسيطرة على الطريق التي تربط الموصل بوادي حجر، لكنّنا لا نعرف إن كان الخبر صحيحًا أم لا. وكانت العائلة تعيش شرق الموصل، وهو أول جزء من أجزاء المدينة التي تحرّرت ذلك العام، ويُحتمَل أن يكونوا قد هربوا أو قتلوا خلال المعارك. كما سمعت أن الدواعش كانوا يستخدمون الناس دروعًا بشريّة عندما دخلت القوّات العراقيّة، فيحرصون على أن يحتجزوا معهم المدنيّين في المباني التي أراد الأميركيون قصفها. وقد وصف السكّان الهاربون من الموصل الوضع بالجحيم. كل ما كان بوسعنا فعله هو الصلاة لهم والدعاء بأن يكونوا بأمان.

قبل أن أتوجّه إلى منزل عمّتي في زاخو، حيث يمكث حزني مذ قدم الدواعش إلى سنجار، توقّفنا في المستشفى في دهوك، حيث كان سعيد وخالد لا يزالان يداويان جراحهما. لم يكن مخيّم اللاجئين قد

جُهّز بعد، وكان الأيزيديّون الذين هربوا من كردستان العراق ينامون حيث استطاعوا. وكانت العائلات الأيزيديّة تعيش في ضواحي المدينة في شقق مبانٍ غير منجزة بعد، فتنصب الخيم التي حصلت عليها من وكالات الإغاثة على أرض الاسمنت. لم تكن جدران تلك المباني الشاهقة قد شيّدت بعد، لذا، كنت أخشى، وأنا أراها، على سلامة العائلات داخلها. فقد سقط الصغار مرّات عديدة من الطوابق العليا. لكن لم يكونوا يملكون أي مكان آخر يذهبون إليه. فسنجار بأكملها قد تكدّست في تلك المباني العارية، ولكنْ، هؤلاء اللاجئون لم يكونوا يملكون أي شيء لهم. وعندما كانت وكالات الإغاثة تجلب الطعام لتوزيعه، كان الجميع يسارع ويتدافع لمحاولة الفوز بكيس من هذه المعونات. فترى الأمّهات يهرعن مسرعات للحصول على عبوّة حليب ليس إلّا، لصغارهن.

كان حزني وسعود ووليد وعمّتي بانتظاري في المستشفى. عندما تقابلنا، انفجرنا كلّنا في موجة بكاء، ورحنا نعانق بعضنا البعض، ونطرح السؤال تلو الآخر، حتّى هدأت النفوس وبات بإمكاننا أن نسمع ما يقوله كلّ منا للآخر. أخبرتهم بإيجاز ما حصل معي، متفادية الحديث عن الاعتداء. وراحت عمّتي تنتحب قبل أن تنطلق في ندبة الجنازة، تلك التي يتعالى فيها عويل المشيّعين عندما يسيرون في دائرة حول نعش أحدهم، فيلطمون صدورهم ليعبّروا عن مدى أساهم، أحيانًا لساعات وساعات حتى تتمزّق الحناجر وتتهاوى الساقان ويصير الصدر خدرًا. لكن عمّتي لم تتحرّك وهي تندب، ومع ذلك، كان حجم عويلها كفيلًا بملء القاعة كلّها، ولربّما دهوك بكاملها.

كان حزني أكثر هدوءًا. فأخي العاطفي، الذي كان يبكي إذا ما اعتلّ

أي فرد من عائلته، وكان يمكن أن يكون بطل كتاب أشعار حب خلال مواعدته لجيلان، أصبح مسكونًا بهاجس بقائه على قيد الحياة. فكان يردّد قائلًا: «قد لا أعرف لمَ جنّبني الله ما حصل. لكنّني أدرك جيّدًا أنّه عليّ أن أجنّد حياتي لهدف نبيل». وأثناء ما إن رأيت سحنته السمراء المحبّبة وشاربيه الصغيرين، حتى انفجرت باكية. فغمرني بين ذراعيه قائلًا: «لا تبكي، هذا قدَرنا».

اقتربت من سرير سعيد في المستشفى. كانت جراحه تؤلمه، لكن ليس بحجم ألم ذكرى المجزرة والذنب الذي يترافق مع النجاة منها بينما لقي كثيرون حتفهم فيها. حتّى أولئك الذين لم ينجح الدواعش في قتلهم قد خسروا حياتهم، جيل كامل من الأيزيديّين التائهين مثلي ومثل إخوتي، ندور حول العالم ولا نملك في قلوبنا غير ذكرى أحبّتنا الذين فقدناهم، ولا يدور في خلدنا إلّا كيفيّة سَوق داعش أمام العدالة. كان سعيد قد التحق بفرقة الأيزيديّين في البيشمركة ويتوق للقتال.

رحت أبكي، وأنا أعانقه: «أين أمّي؟». «لا أحد يعلم يا نادية»، أجابني. «سنحرّر صولاغ من داعش وننقذها، بأسرع وقت».

كانت جراح خالد أسوأ من جراح سعيد، على الرغم من أن أخي غير الشقيق أصيب بطلقات ناريّة أقل. لكنّ رصاصتين قد مزّقتا كوعه، وكان بحاجة لمفصل اصطناعي، لم يكن متوفّرًا في المستشفى في دهوك. حتّى يومنا هذا، لا تزال ذراعه تتدلّى بلا حياة إلى جانب جسده، كجذع ميت في شجرة.

عندما وصلت إلى زاخو، كان حزني لا يزال يعيش عند عمّتنا في المنزل نصف المشيّد نفسه الذي هرب إليه من الجبل. فقد كانت عمّتي وعمّي في طور بناء منزل صغير لابنهما وزوجته في أرضهما، لكنّهما

لم يكونا ثريّين، لذلك كانت عمليّة البناء تستغرق وقتًا، إذ كانا يعمدان إلى إضافة بعض التفاصيل من هنا وهناك بفضل القليل من المال الذي ينجحان في ادّخاره. غير أن الحرب مع داعش أوقفت عمليّة البناء برمّتها، وعندما وصلت، كان المنزل عبارة عن غرفتي نوم من الاسمنت، مع نوافذ لم يتم تزويدها بما يغلقها وفجوات في الجدران بين الاسمنت، ممّا يسمح بتسرّب الهواء والغبار. لم يسبق لي أن جئت إلى هذا المنزل من دون أمّي، لذلك كنت أشعر بغيابها وكأنّني أفتقد إلى أحد أطرافي.

انتقلت إلى المنزل نصف المشيّد مع إخوتي حزني وسعود وإخوتي غير الأشقاء وليد ونواف. وبعد خروجهما من المستشفى، انضم إلينا سعيد وخالد. حاولنا قدر المستطاع أن نجعله منزلنا. وعندما وزّعت وكالة الإغاثة الأقمشة، استخدمناها لتغطية النوافذ، وعندما كانوا يقدّمون لنا الطعام، كنّا نقنّنه بعناية ونخزّن ما أمكننا في الغرفة الصغيرة التي كنّا نستخدمها كمطبخ لنا. وقد مدّد حزني أشرطة طويلة من البيت الرئيسي حتّى غرفنا علّق عليها لمبات إنارة. كما أحضرنا مادّة عازلة قمنا بواسطتها بسد الفجوات في الجدران. ومع أنّنا ما انقطعنا عن الكلام عن الحرب، إلّا أنّنا بالكاد كنّا نأتي على ذكر التفاصيل التي تزعج أحدنا.

كان سعيد ونواف الرجلين الوحيدين غير المتزوّجين، وكان شعورهما بالوحدة جليًّا أكثر من الآخرين المتزوّجين. لم يكن قد تلقى حزني أيّ معلومات عن جيلان بعد؛ وكلّ ما أمكننا معرفته أنّها مع نسرين في الحمدانيّة. ولم نكن نملك أي معلومات عن شيرين، زوجة سعود، أو زوجات إخوتي غير الأشقّاء. فقلت لهم ما أعرفه عن

الدواعش وما رأيته في الموصل وفي الحمدانيّة، لكنّني بقيت غامضة لم أدخل في تفاصيل ما حصل معي في الأسر. فلم أرِد أن أزيد من معاناة إخوتي بالتأكيد على أسوأ كوابيسهم والإقرار بما يفعله الدواعش بالفتيات الأيزيديّات. ومن جانبي لم أسأل عن المجزرة في كوجو لأنّني لم أرد أن أذكّر سعيدًا وخالدًا بما مرّا به. فأيّ منا لم يكن يرغب في التسبّب بمزيد من الألم واليأس للآخر.

كان المنزل مأساة، مع أن قاطنيه هم ناجون. فإخوتي الذين كانوا في ما مضى ينبضون حياة قد تحوّلوا أجسادًا فارغة، يبقون في حالة يقظة في النهار لمجرد أنهم لا يقوون على النوم طوال الوقت. وبما أنني كنت المرأة الوحيدة، فكان من المفترض أن أنظّف وأطبخ، لكنّني كنت أجهل الكثير من هذه المهام. ففي منزلنا، كانت أخواتي الأكبر مني سنًّا ونساء إخوتي يقمن بالأعمال المنزليّة بينما أنا أدرس، فكنت أشعر بأنّني عديمة الفائدة غبيّة، أخطئ في مهام الطبخ وأتعثّر في غسل الملابس. لكن إخوتي كانوا لطفاء معي، إذ كانوا يدركون جيّدًا أنّني ما تعلّمت يومًا كيف أقوم بالأعمال المنزلية، لذلك ساعدوني على القيام بها، لكن كان من الواضح أنه ما إن أتعلّم حتى تصبح هذه المهام من مسؤوليّتي. وكانت عمّتي تعلم أنّني لا أعلم كيف أصنع الخبز، فكانت تصنع كمّية مضاعفة لتحضر لنا البعض منه، وكان يفترض بي أيضًا أن أتقن تلك المهارة. كم أضحت المدرسة ذكرى غابرة.

لقد نجوت من داعش وأصبحت مع عائلتي، لكنّني ما زلت أشعر وكأن حياتي، عندما أفكر بها، وإن حالفني الحظ وهرمت، لن تكون سوى سلسلة متتالية من المآسي. يبدأ أوّلها بمرحلة الأسر لدى الدواعش، يليها العيش في حال معدمة من الفقر، بلا أي مكان يُعتبَر

مكاني، أعتمد على الآخرين لتأمين مأكلي، ولا أملك لا أرضًا ولا أغنامًا، ولا أرتاد المدرسة. أعيش مع جزءٍ صغيرٍ من عائلتي الكبرى، أنتظر ليس إلّا أن يبنوا لنا مخيّمًا، ثم أنتظر أن تحضَّر الخيم في المخيّم، قبل أن يتم استبدالها بالحاويات. ثم أنتظر تحرير كوجو، وقد خلت ذلك لن يحدث أبدًا، وأنتظر أن تتحرّر أخواتي، وأن يتم إنقاذ أمّي في صولاغ. كنت أبكي كل يوم. أحيانًا، كنت أبكي مع عمّتي أو مع إخوتي، وأحيانًا كنت أبكي في سريري بمفردي. وعندما أحلم، كانت أحلامي تدور حول إعادتي إلى داعش، واضطراري إلى الهروب مرة أخرى.

تعلّمنا كيف نستغل كل ما تقدّمه لنا وكالة الإغاثة. فمرّة في الأسبوع، كانت تصل شاحنات كبيرة محمّلة بأكياس الأرز والعدس والمعكرونة، بالإضافة إلى زيت الطبخ والبندورة المعلّبة. لم نكن نملك أي مخزن أو برّاد، فكان بعض الطعام الذي ندّخره يفسد أو يجتذب الفئران، وقد اضطررنا إلى رمي أكياس من السكر والبرغل قبل أن نجد برميل زيت فارغ قمنا بتنظيفه واستخدمناه لتخزين الطعام. فكان مشهد رمي الطعام أليمًا موجعًا؛ إذ لم نكن نملك المال لشراء المزيد، لذلك، كان يتعيّن علينا أن نتناول كمّيات أقل حتى تأتي الشاحنة التالية إلى زاخو. وعندما ازدادت برودة الطقس، أعطتني عمّتي بعض الملابس الشتويّة، لكنّني لم أكن أملك أي ملابس داخليّة أو جوارب، ولم أكن أريد أن أطلب أي شيء، لذا كان عليّ أن أتدبّر أمري بما أملك.

كان هاتف حزني يرن مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرّة، كان يرد على هاتفه في الخارج، بعيدًا عنّا كلنا. لكنّني كنت أتوق لمعرفة أي نوع من المعلومات كان يتلقّى، ومع ذلك، لم يكن يخبرني إلّا القليل القليل، لأنّه على ما أعتقد، لم يكن يرغب في إزعاجي. في أحد الأيام، تلقّى

اتصالًا من أدكي، فخرج ليكلّمها في الفناء. وعندما عاد، كانت عيناه حمراوين، كما لو أنّه كان يبكي. «إنّها في سوريا»، قال لنا. لقد نجحت بطريقة ما بالبقاء مع ابن أخينا، الذي ادّعت في صولاغ أنّه ابنها، لكنّها كانت خائفة من أن يكتشف الدواعش في أي لحظة أنّها تكذب فيأخذون الصبي بعيدًا عنها. ثم أخبرنا حزني: «أنا أحاول إيجاد مهرّب في سوريا. لكن إخراج الفتيات من هناك أكثر صعوبة من العراق، وأدكي لا تريد أن تترك أحدًا وراءها». وما زاد الأمر سوءًا، أن شبكة التهريب السوريّة كانت تتطوّر بشكل منفصل عن الشبكات العراقيّة، وبالتالي كانت عملية إخراج أدكي من هناك بالنسبة لحزني تتطلّب جهودًا جبّارة.

كانت عمّتي أول شخص أخبره قصّتي كاملة، بما في ذلك الاعتداء الجنسي عليّ. جلسَت تنتحب معي وتضمّني بين ذراعيها. أحسست بالراحة لإخباري أحدًا، ولم أعد أخشى أن يرفضني الأيزيديّون أو يلومونني على ما حدث. فقد قُتل عدد كبير منّا أو اختطفوا على يد الدواعش، ممّا حمّلَ أولئك الذين نجوا، أيًّا كان ما مررنا به، على التلاحم ومحاولة إصلاح ما تبقّى. ومع ذلك، رفضت غالبية السبايا الناجيات الإتيان على ذكر ما حدث معهن خلال أسرهن لدى الدواعش، كما كنتُ أفعل في البداية، وقد تفهّمت الأمر جيّدًا. فتلك مأساتهن، وحقّهن بعدم إفشائها لأي أحد.

روجيان كانت أول من هرب بعدي. وصلت إلى منزل عمّتي في الثانية فجرًا، وهي لا تزال ترتدي العباءة التي أعطاها إيّاها الدواعش. وقبل أن أطرح عليها أي سؤال سألت: «ماذا حل بالجميع؟». فما كان من حزني إلا أن أخبرها التفاصيل. كانت عملية إخبار رواية كل واحد منا عبئًا بحد ذاته. وكم كان مريعًا رؤية وجه روجيان يتلوّى ألمًا وهي

تنصت لما حدث لقريتنا ولعائلتنا. فقد تأكّد مقتل الرجال، لكنّنا لم نكن نعلم بعد ما حدث للنساء الأكبر سنًّا، وغالبيّة الفتيات اللواتي أسرن كنَّ ما زلن سبايا لدى داعش. بعد ذلك، انهارت روجيان في حال من اليأس حتى لخشيتُ أنّها قد تضع حدًّا لحياتها هنا في منزل عمّتي، كما حاول حزني فعله في الشهر الذي تلا اكتشافه المجزرة في كوجو. لكنّها تخطّت ألمها، كما فعلنا كلّنا، وفي الصباح الذي تلا وصولها، انتقلنا إلى مخيّم اللاجئين.

الفصل العاشر

كانت الطريق إلى المخيّم ضيّقة وموحلة تذكّرني بشوارع كوجو قبل أن يتم تعبيدها. وعندما وصلنا إلى هناك ذاك الصباح، حاولت أن أتخيّل نفسي وكأنّني عائدة فعلًا إلى دياري. غير أن كل ما كان يبدو مألوفًا لي، كان يشكّل دليلًا إضافيًا على المسافة التي باتت تفصل بيني وبين حياتي السابقة، ليزيد من تعاستي.

كان بإمكانك أن ترى بعينك المجرّدة، عن بعد، مئات المنازل من الحاويات البيض المنتشرة على المنحدرات المنخفضة في شمال العراق، وكأنّها أحجار طوب تؤلّف جدارًا، يفصل بينها مسار ترابيّ غالبًا ما تختلط فيه مياه المطر والاستحمام والعمل في المطابخ. وكانت الأسوار تحيط بالمخيّم - لسلامتنا الشخصيّة على حد زعمهم - لكن الأطفال كانوا قد بدأوا يلوون الأسلاك المعدنيّة ويصنعون فجوات في أسفل السور حتى يتمكّنوا من بلوغ الحقول في الخارج للعب كرة القدم. وعند مدخل المخيّم، حاويات ضخمة تشكّل مكاتب للإغاثة ولموظّفي الحكومة، إضافة إلى عيادة طبّية وغرفة للتدريس.

انتقلنا إلى المخيّم في شهر ديسمبر، عندما كان البرد قد بدأ يطرق باب شمال العراق، ومع أن المنزل نصف المشيّد في زاخو كان يمنح

حماية أكبر من الشتاء، إلّا أنّني كنت أتطلّع للحصول على مساحة أستطيع اعتبارها مساحتي الشخصيّة. كانت الحاويات فسيحة، وقد حصلنا على عدد منها بالقرب من بعضها البعض، استخدمنا إحداها غرفة نوم، وأخرى غرفة جلوس، والثالثة مطبخًا.

لكن لم يكن من السهل أن يتكيّف المخيّم مع فصل الشتاء في شمال العراق. فعندما جاء المطر، تحوّلت الممرّات بين البيوت المتنقّلة موحلة دبقة، ما جعلنا نجد صعوبة بالغة في عدم نقل تلك الأوساخ إلى الداخل. ولم نكن نحصل على المياه إلا لساعة في اليوم، كما كنّا نتشارك مدفأة واحدة نحاول أو ندفئ بها حاوياتنا. وفي غياب تدفئة كافية، كان الهواء البارد يتكثّف على الجدران فيقطر على أسرّتنا، حتّى ننام ورؤوسنا على وسادات رطبة فنستيقظ على رائحة العفن الحادة.

في المخيّم، كان نضال السكّان يتركّز على إعادة تكوين الحياة التي سُلبت منهم. فمن المريح أن تقوم بالأمور نفسها التي اعتدت القيام بها في ديارك، حتّى لو كنت تعيد اما اعتدت عليه ليس إلا. وفي المخيّم في دهوك، كانت العادات الروتينيّة هي نفسها التي كانت في سنجار. فراحت النسوة يطبخن وينظّفن بهوس واضح، كما لو أنّهن، إذا ما أتممن واجبتهن على أكمل وجه، سيتم نقلهن إلى قراهن، وسيوقظن رجالهن من قبورهم الجماعيّة، ويُعِدنَ الحياة إلى سابق عهدها. لكن في كل يوم، بعد أن تعود المماسح إلى زواياها، ويُخبز خبز اليوم كلّه، كنّ يصطدمن بحقيقة أن لا منزل لهنّ ولا زوج يعود إلى المنزل فتقع عليهن تلك الحقيقة وقع الصاعقة من جديد، فيبكين وينطلقن بجولة عويل تكاد تمزّق جدران المنزل الحاوية. لطالما كانت منازلنا في كوجو تصدح بالأصوات بينما الأولاد يلعبون، غير أن المخيّم كان ساكنًا هادئًا. حتى

إنّنا بتنا نشتاق لأصوات أفراد العائلة يتنازعون حول أشياء: فترانا نعيد ونكرّر جولات النزاع تلك في رؤوسنا وكأنّها أجمل الألحان وأفضلها على الإطلاق. ولم نحسن إيجاد أيّ عمل لنا أو الذهاب إلى المدرسة، لذا تحوّل الحداد على موتانا ومفقودينا خبزنا اليومي.

بالنسبة للرجال، كانت الحياة في المخيّم أكثر صعوبة بعد. فلم يكن من السهل أن يجدوا أي عمل لهم، ولم يملكوا سيّارات للتوجّه إلى المدينة للبحث عن وظيفة. وكانت زوجاتهم وأخواتهم وأمّهاتهم في الأسر، وإخوتهم وأباؤهم في عداد الأموات. وقبل أن يلتحق إخوتي بقوّات البيشمركة أو بالشرطة، لم نكن نملك أي مال باستثناء المعونة النقديّة الزهيدة التي كانت تقدّمها الحكومة العراقيّة وبعض وكالات الإغاثة التي تترأسها منظّمة حقوقيّة أيزيديّة اسمها يزدا، تشكّلت بعد مجزرة كوجو لنصرة الناجين من المذبحة. وسرعان ما تحوّلت يزدا، التي تقودها مجموعة من الأيزيديّين الذين يعيشون في مختلف أصقاع العالم وقد تخلّوا عن كل ما في حياتهم لنجدة ضحايا الإبادة الجماعيّة (والتي سأكرّس لها حياتي لاحقًا) إلى مصدر الأمل الوحيد للأيزيديّين في كل مكان. وكنّا لا نزال نركض لاهثين وراء الطعام عندما يأتون إلى المخيّم ويقدّمونه لنا. وأحيانًا تفوتنا الشاحنات، إذ تتوقّف يومًا في جانب من المخيّم، لتقف في اليوم التالي في الجانب الآخر. وكان الطعام يبدو فاسدًا أحيانًا، فنشتكي من أن رائحة الأرز عفنة عندما نطهوه.

عندما جاء فصل الصيف أخيرًا، قرّرت أن أمسك زمام أموري بنفسي. فتوجّهت للعمل في حقل مجاور كان المزارع، وهو كردي، يوظّف لاجئين لقطاف الشمّام. وعدني قائلًا: «إن عملتِ طوال اليوم، فسأقدّم لكِ طعام العشاء»، إضافة إلى الراتب الضئيل. لذلك، بقيت

أعمل حتى أوشكت الشمس على المغيب، أقطف الشمّام الثقيل من الحقل. لكن عندما قدّم لنا وجبة الطعام، كدت أتقيأ. كان الأرز الفاسد من المخيم، جافًا يلتصق في صحوننا. كدت أبكي لأن تلك كانت نظرة المزارع لنا. كان يرى أنّه لأنّنا معدمون نعيش في المخيّم، يستطيع أن يطعمنا أي شيء، وعلينا أن نكون ممتنّين له.

إنّنا بشر! أردت أن أصرخ به. كنّا نملك منازل، وكنّا نملك حياة كريمة. لسنا نكرة. لكنّني حافظت على هدوئي وتناولت ما استطعت من ذلك الطعام المقيت.

لكنّني عندما عدت إلى الحقل، شعرت بالغضب ينمو أكثر فأكثر داخلي. «سأنهي عملي اليوم»، رحت أفكر. يستحيل أن أعود في الغد للعمل لدى هذا الشخص. كان بعض العمّال الآخرين يتكلّمون عن داعش. بالنسبة للاجئين الذين فرّوا من قراهم قبل قدوم الإرهابيّين، كان أولئك الذين وقعوا في الأسر يثيرون فضولهم، فما كانوا ينفكّون يطرحون الأسئلة حول الحياة في ظل الدواعش، كما لو أنّهم يتابعون وقائع فيلم مثير.

كان المزارع يمشي وراءنا. «أي منكم جاء من عند الدواعش؟»، سأل، فأشار الآخرون إليّ. توقّفت عن العمل. خلته سيقول لي إنّه آسف على الطريقة التي عاملنا بها، وأنّه لو علم أن بيننا ناجين من الدولة الإسلامية، لكان عاملنا بطريقة أفضل. لكنه عِوَضًا عن ذلك، أراد أن يتكلّم عن عَظَمة البيشمركة، فقال: «آه، داعش سيُقضى عليها. تعلمين كيف يتصرّف البيشمركة. لقد قاموا بعمل عظيم، وقد خسرنا الكثير من البيشمركة لتحرير أجزاء كبيرة من العراق».

«وهل تعلم كم خسرنا نحن؟». لم أستطع أن أتمالك نفسي، «مات

الآلاف، قتلوا لأن البيشمركة اختاروا الانسحاب». توقّف المزارع عن الكلام وانسحب بعيدًا، فاستدار شاب أيزيدي إليّ وقال لي وعلامات الانزعاج بادية عليه: «رجاء، لا تقولي شيئًا من هذا القبيل. اعملي وحسب». وعندما انتهى اليوم وذهبت لأخبر المسؤول الأيزيدي أنّني لا أريد أن أعمل لدى هذا المزارع بعد اليوم. نظر إليّ بغضب وقال: «أبلغنا المزارع أنه لا يريد أن نعمل كلّنا لديه بعد اليوم».

تملّكني شعور كبير بالذنب إذ خسر الجميع عملهم بسبب ما تفوّهت به. ومع ذلك، تحوّلت تلك الحادثة رواية مضحكة تناقلتها ألسن كل من كان في المخيم. فبعد أن غادرتُ وبدأت أروي قصّتي خارج العراق، زار صديق لي المخيّم واشتكى لبعض أصدقائي من أنّني أتساهل مع البيشمركة. فقال: «على نادية أن تخبر العالم كلّه ما فعلوه بنا!». فانفجر أحد الأيزيديّين ضاحكًا، «قالت ذلك منذ البداية، وقد طُردنا كلّنا في النتيجة!».

نجحت ديمال في الوصول إلى المخيّم في تمام الرابعة فجرًا من يوم الأوّل من يناير 2015. لا تزال تمازحني فتسخر مني لأنّني كنت نائمة عندما وصلَت: «لا أصدّق أنّك تمكّنت من النوم بينما أنا أهرب لأنقذ حياتي!»، قالت لي، لكنّني عانقتها بقوّة أكبر. «بقيت مستيقظة حتى قبيل الرابعة فجرًا. لكنّكِ تأخرت!». كنت فعلًا بقيت مستيقظة قدر ما استطعت، إلى أن استحكم بي دوار، وعندما استيقظتُ رأيت أختي الكبرى تقف أمام سريري. كانت قد ركضت لساعات على طول الحدود مع تركيا وسوريا، وكانت قدماها تنزفان بعد أن خدشتهما الأسلاك الشائكة عند الحدود. بالطبع كان يمكن للوضع أن يكون أسوأ بكثير؛ فكان يمكن لأي دوريّة حرس حدود أن تكتشفها فترديها قتيلة. أو كان يمكن أن تدوس لغمًا أرضيًا.

كانت عودة ديمال بمثابة جرح بالغ يندمل. لكنّنا لم نشعر بالسعادة. بل أمسكنا ببعضنا البعض وأخذنا نبكي حتى العاشرة صباحًا، ثم راحت ديمال تستقبل حشود الضيوف الذين جاؤوا ليبكوا معها. ولم نجد الوقت لنتكلّم حتى الصباح التالي. تلك كانت أصعب مرحلة في عودة ديمال - أن نستيقظ ذاك الصباح على فرشنا بالقرب من بعضنا البعض، لأسمعها تسأل، وصوتها قد تحوّل إلى الخشونة من البكاء: «نادية، أين سائر أفراد العائلة؟».

لاحقًا في ذاك الشهر، تمكّنت أدكي أيضًا من الهرب. لكنّنا كنّا نشعر بقلق شديد عليها، إذ لم نستطع الحصول إلّا على القليل من المعلومات حول ما حصل معها. وقبل أسابيع قليلة، تمكّنت امرأة من الفرار من سوريا ونجحت في الوصول إلى المخيّم. فأخبرتنا أنّها كانت مع أدكي في سوريا. وبما أنّنا كنّا نتوق لسماع أي تفصيل عنها، رحنا نرجوها أن تخبرنا بما تعرف. فقالت لنا: «كانوا يعتقدون بأن أدكي هي أم، لذلك انتظروا قبل أن يلمسوها». وكانت أدكي لا تبالي إلّا بالاهتمام بابن أخينا ميران وحمايته. قالت لنا المرأة: «أخبرتني أنّني لو وعدتها بالاعتناء بميران، فستقتل نفسها». «وقد طلبت منها أن تتحلّى بالصبر، وأنّنا سنخرج كلّنا يومًا ما، لكنّها كانت شديدة الاضطراب».

بعد سماعنا ذلك، بتنا نخشى الأسوأ على أدكي. فبدأنا نرثي أختي المفعمة بالحيويّة التي كانت تصرخ في وجه جميع الرجال الذين قالوا لها إنّها لا تستطيع تعلّم القيادة، إضافة إلى ابن اخينا اللطيف. ثم تمكّنت أدكي من حيث لا ندري في أحد الأيام من الاتّصال بهاتف حزني. «إنّهما في عفرين!»، أخبرنا أخي فرحًا. كانت عفرين في الجزء الكردي من سوريا ولم تكن جزءًا من الدولة الإسلاميّة. بل كانت محميّة من الأكراد

في سوريا، ففكّرت بما أن هؤلاء المقاتلين قد ساعدوا الأيزيديّين في الجبال، فلا شك في أنّهم سيساعدون أختي.

تمكّنت أدكي وميران من الفرار من الرقة وقد استقبلهما راعٍ عربي مع عائلته. فبقيا معهم لشهر ويومين وهم يحاولون البحث عن أكثر السبل أمانًا لإخراجها من أراضي الدولة الإسلاميّة. كانت ابنة الراعي مخطوبة لرجل في عفرين، فانتظرت العائلة يوم الزفاف، ليكون لديها سبب مقنع يبرّر توجّه الجميع إلى الشمال. وقد أخبرنا حزني لاحقًا أنّه كان يعلم أن أدكي مع عائلة الراعي، لكنّه امتنع عن الإفصاح عن الأمر لأنّه لم يكن يريد أن يبعث فينا الأمل.

بعد يومين من المكالمة الهاتفيّة الأولى من عفرين، وصلت أدكي إلى المخيم مع ميران. هذه المرّة، انتظرتُ حتى السادسة صباحًا مع ديمال. كنّا نخاف على أدكي حين نضطرّ لإخبارها ما جرى مع الجميع - أولئك الذين كنّا نعلم أنّهم قتلوا وأولئك المفقودون - لكنّنا لم نحتج لذلك. فقد تصوّرت الأمر بنفسها، وسرعان ما انضمت أدكي إلى عالمنا الصغير الذي يعيش حالة حداد.

كانت رؤية أخواتي بمثابة أعجوبة لي. ففي السنوات الثلاث التي لحقت قدوم الدواعش إلى سنجار، تمكّنت الأيزيديّات من الهروب من العبوديّة بطرق شبه مستحيلة. بعضهن تلقّى مساعدة سكّان محليّين متعاطفين، مثلي أنا، بينما أخريات سدّد أفراد عائلاتهن، أو الحكومة المال، وأحيانًا مبالغ باهظة، للمهرّبين أو مباشرة لأعضاء من الدولة الإسلاميّة، مقابل استرجاعهن، فاشتروا الفتاة مجدّدًا منهم. كانت كل فتاة تكلّف نحو الخمسة آلاف دولار لإخراجها، على أن يذهب جزء كبير من هذا المبلغ - ما يصفه حزني بـ«كلفة سيّارة جديدة» - إلى

رئيس العمليّة الذي يستخدم علاقاته في الأجزاء العربيّة والكرديّة من العراق لتنسيق عمليّة الاسترجاع. وكان يتم توزيع المال على الوسطاء الكثيرين - من السائقين إلى المهرّبين ومزوّري الوثائق - اللازمين لتحرير كل فتاة من هؤلاء الفتيات.

كل قصّة فرار كانت قصّة مذهلة بحد ذاتها. فقد سيقت إحدى الفتيات من كوجو إلى الرقّة، عاصمة الدولة الإسلاميّة في سوريا، حيث بقيت مع مجموعة كبيرة من النساء في قاعة زفاف تنتظر توزيعهن. وبما أنّها كانت يائسة، حاولت إضرام النار بواسطة ولّاعة وحرق القاعة كاملة، لكن تم اكتشافها قبل أن تنفّذ مخطّطها. ثم أجبرت نفسها على التقيّؤ، وعندما أمرها مسلّح من الدولة الإسلاميّة أن تتوجّه إلى الخارج، ركضت مع مجموعة من الفتيات إلى الحقول المظلمة المحيطة بالقاعة. لكن مزارعًا كان مارًّا في الحقل أبلغ عنهن، ومع ذلك كانت محظوظة. فبعد أسابيع، ساعدت زوجة الرجل الذي اشتراها في تنسيق عمليّة فرارها من سوريا. وبعد ذلك بفترة قصيرة، توفّيت الزوجة نتيجة التهاب الزائدة الدوديّة. فعلى ما يبدو، لم يتمكّن أي جرّاح في الدولة الإسلاميّة من إنقاذها.

بقيت جيلان في الأسر لأكثر من سنتين قبل أن يتمكّن حزني من إخراجها بواسطة واحد من أكثر المخطّطات التي سمعتها تعقيدًا وخطورة. فقد بدأت زوجة آسر جيلان تضيق ذرعًا باستغلال زوجها للفتيات الأيزيديّات، فاتّصلت بحزني عارضة المساعدة. كان زوجها عضوًا رفيع المستوى في الدولة الإسلاميّة وهدفًا للائتلاف المناهض لداعش الذي كان يريد القضاء على الخلافة. فقال لها حزني: «عليك أن تساعدي على قتل زوجك. تلك هي الطريقة الوحيدة». فوافقت.

وضع حزني الزوجة على تواصل مع قائد كردي كان يعمل مع الأميركيّين الضربات التي تستهدف الدولة الإسلاميّة. فوجّه لها حزني التعليمات قائلًا: «قولي له متى يغادر زوجك المنزل»، وفي اليوم التالي، تعرّضت سيارة المسلّح لضربة جوّية. في البداية، لم تصدّق الزوجة حزني عندما أخبرها أن زوجها قد قتل. فسألت: «لماذا إذًا لا يأتي أحد على ذكر الموضوع؟». كانت خائفة من أن يكون زوجها قد تمكّن من الفرار واكتشف ما فعلته. أرادت أن ترى جثته. فقال لها حزني: «إنّها مشوّهة بالكامل. لقد ذابت السيارة».

لذلك، كان على المرأتين أن تنتظرا المزيد من التعليمات، ولم يكن لديهما سوى نافذة صغيرة تستطيع أن تصل عبرها جيلان إلى بر الأمان. بعد يومين أو ثلاثة، تأكّد أن زوجها قد قتل، فجاء أعضاء آخرون من الدولة الإسلاميّة إلى المنزل لأخذ جيلان ونقلها إلى مالكها الجديد. وعندما طرقوا الباب، فتحت الزوجة. «سبيّتنا كانت في السيّارة مع زوجي»، قالت لهم، محاولة أن تسيطر على صوتها المرتجف. «لقد قُتلت هي أيضًا». اكتفى المسلّحون بهذه الإجابة، وغادروا. وعندما باتوا بعيدين عن الأنظار، تم تهريب جيلان والزوجة إلى موقع للجيش العراقي، وتاليًا إلى كردستان. وبعد ساعات قليلة من مغادرتهما، تم قصف منزلهما أيضًا. «بالنسبة لداعش، لقد قتلوا كلّهم»، أخبرني أخي حزني.

لكن الحظ لم يحالف أخريات كثيرات. فقد علمت أنّهم وجدوا مقبرة جماعية في صولاغ في ديسمبر 2015، بعد أشهر قليلة من مغادرتي مخيّم اللاجئين وانتقالي إلى ألمانيا مع ديمال، كجزء من برنامج الحكومة الألمانيّة لمساعدة الضحايا الأيزيديّات اللواتي استعبدتهنّ داعش. تحقّقت في الصباح الباكر من هاتفي، فوجدته حافلًا بالرسائل

من أدكي وحزني. كانوا غالبًا ما يتّصلون بي لإطلاعي على أخبار أفراد العائلة الذين كانوا لا يزالون هناك، ولا سيّما سعيد الذي تحقّقت أمنيته، وكان يقاتل في سنجار مع وحدة أيزيديّة جديدة تشكّلت ضمن بيشمركة الحزب الديمقراطي. فأخبرتني أدكي عندما اتصلت بها: «سعيد قريب من صولاغ. سيعرف قريبًا ما حدث هناك».

كان يفترض بي أنا وديمال أن نذهب ذلك اليوم إلى الدرس الألماني، لكنَّ أيًّا منّا لم تستطع التحرّك. فجلسنا طوال اليوم في شقّتنا ننتظر ورود الأخبار. كنت على اتّصال بصحافي كردي كان يغطّي القتال الدائر لاستعادة صولاغ، وبينه وبين سعيد وأدكي، بالكاد توقّف هاتفي عن الرنين طوال اليوم. وإلى جانب النظر إلى الهاتف طوال اليوم، كنّا أنا وديمال نصلّي أن يجدوا أمّنا على قيد الحياة.

في وقت ما بعد الظهر، اتّصل الصحافي. كان صوته منخفضًا، فعلمت للتو أن الأخبار غير سارة. قال، «وجدنا مقبرة جماعيّة. إنها بالقرب من المعهد، ويبدو أن فيها حوالى الثمانين جثّة، كلّها لنساء». أصغيت إليه ثم أقفلت الهاتف. لم أستطع أن أتحمّل واقع أن أكون الشخص الذي يخبر ديمال، أو يتّصل بأدكي أو حزني ليخبرهما أن أمّنا، تلك الأم التي تخطّت الويلات على مدى سنوات طويلة طويلة، قد توفّيت. كانت يداي ترتجفان. ثم طنّ هاتف ديمال؛ لقد تلقّت رسالة من العائلة. كان الجميع يصرخ.

لم أستطع الإتيان بأي حركة. اتّصلتُ بسعيد، فراح ينتحب ما إن سمع صوتي. «لم ينفع كل ما قمت به هنا»، قال لي. «أنا أحارب منذ سنة، ولم نجد شيئًا، لا أحد». رجوت حزني أن يدعَني أعود إلى المخيّم للجنازة، لكنّه رفض قائلًا: «لم نستلم جثمانها بعد. العسكر لا

يزالون في صولاغ. وحتّى لو أتيتِ، لن يسمح لك أحد بالاقتراب من المقبرة. ليس الوضع آمنًا لك». كنتُ قد بدأت عملي كناشطة، وكان الدواعش يهدّدونني كل يوم.

بعد تأكيد مقتل أمّي، رحت أتشبّث بأمل أن كاثرين، ابنة أخي وصديقتي المفضّلة، تلك الصبيّة اللطيفة التي يحبّها كل من يلتقيها، ستتمكّن من الفرار ونجتمع من جديد. كنت بحاجة إليها إن كان عليّ أن أعيش ما تبقّى لي من أيّامي من دون أمّي. وحزني، الذي يحب ابنة أخيه كما لو كانت ابنته، كان يناضل منذ أشهر لإيجاد طريقة ينقل بها كاثرين إلى بر الأمان، لكنّه يواجَه بالفشل في كل مرة. وقد حاولت كاثرين الفرار مرّات عدة - من الحمدانيّة ومن الموصل - لكنّ محاولاتها كانت في كل مرّة تبوء بالفشل. وكان حزني يحتفظ برسالة صوتيّة منها على هاتفه، ترجو فيها أخي: «هذه المرة، أرجوك أنقذني. لا تدعني أبقى معه، خلّصني هذه المرة». فكان حزني يعيد الاستماع إليها ويبكي، متعهّدًا المحاولة من جديد.

في العام 2015، شهدنا اختراقًا بارزًا. تلقّى حزني اتّصالًا من عامل نفايات في بلدة صغيرة خارج كركوك كانت معقلًا للدولة الإسلاميّة منذ أول أيّام الحرب. قال لأخي: «كنت أجمع النفايات خارج منزل يعود للدكتور إسلام. فخرجت فتاة اسمها كاثرين. طلبت منّي أن أتّصل بك لأقول لك إنّها على قيد الحياة». كان عامل النفايات يخشى من أن يكتشف الدواعش أنه أجرى هذا الاتصال وطلب من حزني ألّا يتّصل به مجدّدًا، مضيفًا: «لن أعود إلى ذاك المنزل».

لا شك في أن عمليّة فرار كاثرين كانت بالغة الصعوبة. فالبلدة تضم ما لا يقل عن مئة ألف سنّي من العرب، والدكتور إسلام بات مسؤولًا

رفيع المستوى في داعش. لكن حزني كان على اتّصال مع أحدهم في البلدة، فتمكّن عبر تطبيق التيليغرام من الوصول إلى كاثرين. طلب صلة الوصل من كاثرين التوجّه إلى مستشفى. «ثمّة صيدليّة قريبة»، قال لها. «سأكون في الداخل أحمل ملفًّا أصفر بين يدي. عندما ترينني، لا تكلّميني، بل عودي إلى المنزل حيث يتم احتجازك، وأنا سأراقبك لأرى إلى أين تذهبين فأعلم مكانك». وافقت كاثرين. كادت تصل إلى المستشفى عندما أصابت غارة جوّية الموقع فأصيبت بالذعر، وعادت مباشرة إلى المنزل من دون لقاء صلة الوصل.

ثم حاول حزني الوصول إليها عبر بعض العرب الذين لم يكونوا يساندون الدواعش، لكنّهم عالقون في البلدة نفسها. كانوا يملكون منزلًا في قرية مجاورة يستطيعون بلوغها من دون التوقّف عند نقاط التفتيش الأساسيّة، فوافقوا على إخفاء كاثرين هناك. من خلالهم، تمكن حزني من تلقّي وإرسال رسائل إلى كاثرين، التي قالت إنّهم بعد الضربة الجوّية على المستشفى، انتقلوا إلى منزل آخر في المدينة. وصفته لصلة الوصل الجديدة، فأخذ زوجته إلى الحي، وراح يطرق الأبواب، مدّعيًا أنّهما يبحثان عن منزل للإيجار. وعندما طرق الباب حيث كاثرين محتجزة، فتحت له الباب سبيّة أخرى. كانت ألماس، وهي فتاة في التاسعة من عمرها من كوجو. تمكّن من رؤية ابنة أخي ووراءها لمياء، أخت صديقتي ولاء. كنّ كلّهن محتجزات لدى الدكتور إسلام. همس لكاثرين: «غدًا في الصباح، إن لم يكن أي مسلّح في المنزل، أخرِجي شرشفًا من الشبّاك. بعد التاسعة صباحًا، إن رأيت الشرشف، فسأعلم أنّه يمكنني أن أعود إليكن». كانت كاثرين خائفة، لكنّها وافقت.

ذاك الصباح، قاد سيّارته ببطء نحو المنزل. فرأى شرشفًا يتدلّى من

النافذة. خرج من سيّارته وطرق الباب. فأسرعت السبايا الأيزيديّات الثلاث - كاثرين ولمياء وألماس - إلى الخارج وركبن في سيّارته. بعد أن وصلت الفتيات بأمان إلى القرية المجاورة، اتّصل الرجل بحزني، فحوّل له بعض المال.

بعد ثلاثة أيام، وجد حزني مهرّبين كانوا مستعدّين أن ينقلوا الفتيات الثلاث والعائلة العربيّة التي ساعدتهم إلى بر الأمان مقابل عشرة آلاف دولار. لكن من دون أوراق ثبوتيّة صالحة، كان يتعيّن عليهم أن يسيروا عبر الحدود الكرديّة ليلًا. أخبر المهرّبون حزني، «سنأخذهم إلى أبعد نقطة عند النهر. بعد ذلك، سينقلهم رجل آخر إليكم». عند منتصف الليل، اتّصل المهرّب الأول ليخبر حزني أنّه قام بعملية التسليم. فتحضّرت عائلتي لاستقبال كاثرين في المخيّم.

انتظر حزني أمام هاتفه طوال الليل، متوقّعًا تلقّي اتّصال يخبره أن كاثرين نجحت في بلوغ الأراضي الكرديّة. كان توّاقًا لرؤيتها، يكاد لا يستطيع انتظار مرور الوقت. لكن الهاتف لم يرن في تلك الليلة. عوضًا عن ذلك، في حوالى الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي، اتّصل رجل كردي وسأل إن كانت كاثرين ولمياء وألماس من أتباعنا. فسأله حزني: «أين هن؟».

قال الرجل لحزني: «لمياء مصابة بجروح خطيرة». لقد داست على عبوّة ناسفة بينما كانت تحاول العبور إلى كردستان، فانفجرت العبوّة تحت أقدامهن. جسد لمياء كلّه تقريبًا مصاب بحروق من الدرجة الثالثة. «اللهم ارحم أرواح الفتاتين الأخريين. لقد توفّيتا»، أكمل قائلًا. أسقط حزني الهاتف من يده. لقد شعر وكأن أحدهم أطلق عليه الرصاصة الأخيرة.

كنت قد تركت العراق عندما وقعت تلك الحادثة. كان حزني قد اتّصل بي بعد أن وصلت الفتيات إلى منزل المهرّب الأوّل وأخبرني أن كاثرين بأمان. كنت أشعر بفرح عارم لفكرة رؤية ابنة أخي مجدّدًا، لكن في تلك الليلة، حلمت حلمًا رهيبًا. حلمت أنّني رأيت ابن عمّي سليمان يقف أمام أحد المولّدات الكهربائيّة التي تزوّد كوجو بالكهرباء. في الحلم، كنت أسير مع أخي مسعود وأمّي، وعندما اقتربنا من سليمان، وجدنا أنّه ميت وأن الحيوانات تأكل جثّته. استيقظت وأنا غارقة في عرقي، وفي الصباح، اتّصلت بحزني. «ماذا جرى؟»، سألته. فأخبرني.

هذه المرة، وافق حزني على عودتي إلى العراق لحضور مأتم الجنازة. وصلنا عند الرابعة فجرًا إلى مطار إربيل فتوجّهت أوّلًا لرؤية لمياء في المستشفى. لم يكن باستطاعتها الكلام، وكان وجهها يعاني حروقًا بليغة. ثم توجّهنا إلى كركوك للقاء العائلة العربيّة التي ساعدت كاثرين والأخريات على الهرب. أردنا أن نحصل على جثمان كاثرين كي ندفنها بطريقة لائقة، بحسب التقاليد الأيزيديّة، لكن العائلة لم تستطع مساعدتنا. قالوا لنا: «عندما داست الفتيات على العبوّة، قُتلت هي وألماس على الفور، فنقلنا لمياء إلى المستشفى، لكنّنا لم نستطع حمل الجثامين أيضًا. وهي الآن مع الدواعش».

كان حزني في حالة يصعب وصفها ولا سبيل لمواساته. شعر وكأنّه خان ابنة أخيه ولم يكن على قدر توقعاتها. وما انفك يستمع إلى رسالتها الصوتية التي ترجوه فيها، معذّبًا نفسه. «خلّصني هذه المرة»، كانت تقول له. أستطيع أنا أيضًا أن أتخيّل وجه كاثرين المتفائل عندما أسمع الرسالة، ووجه حزني أيضًا والدموع تنسكب عليه.

ثم توجّهنا إلى مخيّم اللاجئين. كان يبدو نفسه كما توجّهت إليه أول

مرة مع إخوتي قبل نحو السنتين، على الرغم من أن السكّان قد جعلوا تلك الحاويات تبدو أكثر كمنازل لهم، فعلّقوا الأقمشة لخلق مساحات مظلّلة في الخارج وزينوا الداخل بصور العائلة. وقد وجد البعض منهم وظائف لهم الآن، وازداد عدد السيّارات بين المنازل الحاويات.

بينما كنّا نقترب، كان بإمكاني رؤية أدكي وأخواتي غير الشقيقات، وعمّاتي يقفن في الخارج. كن ينتفن شعورهن ويرفعن أيديهن إلى السماء، متضرّعات باكيات. كانت والدة كاثرين، أسمر، تبكي بكاء منقطع النظير، حتى لخشي الطبيب من أنها قد تصاب بالعمى. بلغني صوت موشّحات الجنازة قبل أن نعبر بوّابة المخيّم، وعندما وصلنا إلى حاوية العائلة، انضممت إلى الجميع، ورحت أدور في دائرة مع أخواتي، أضرب صدري وأنتحب. شعرت وكأن جِراح أسري وهربي كلّها قد نُكئت من جديد الآن. لم أستطع أن أصدّق أنني لن أرى كاثرين أو أمّي بعد اليوم. تلك كانت اللحظة التي أدركت فيها أن عائلتي قد تشرذمت إلى غير رجعة.

الفصل الحادي عشر

يؤمن الأيزيديّون بأن الطاووس ملك جاء أوّلًا إلى الأرض ليربط البشر بالله في سهل جميل في شمال العراق اسمه لالش. كنّا كلّما استطعنا، نسافر إلى هناك لنصلّي ونعيد التواصل مع الله وملائكته. كانت لالش منطقة بعيدة نائية. للوصول إلى هناك، يتعيّن على المرء القيادة على طول طريق ضيّق يجتاز واديًا أخضر، فوق الأسطح المخروطيّة للمقابر والمعابد الأصغر حجماً، وصولًا إلى تلّة تفضي إلى القرية. خلال الأعياد الهامّة، مثل عامنا الجديد، تمتلئ الطريق بالأيزيديّين الحجّاج، ليتحوّل وسط البلدة كما المهرجان. وفي أوقات أخرى من السنة، تكون هادئة، لا يزورها إلا عدد قليل من الأيزيديّين الذين يصلّون في المعابد تحت أنوار الإضاءة الخافتة.

لا بدّ من الإبقاء على لالش نقيّة. لذلك، كان يتعيّن على زائريها خلع أحذيتهم والمشي عراة القدمين حتّى في شوارعها. وكانت مجموعة من المتطوّعين تقوم كل يوم بالمساعدة في الحفاظ على المعابد وأراضيها. فيكنسون الساحات، ويشحّلون الأشجار المقدّسة، ويغسلون الممرّات، ويسيرون مرّات عديدة في اليوم بين المعابد الحجريّة القاتمة ليضيئوا المصابيح الزيتيّة التي تعبق برائحة شجر زيتون لالش.

قبل أن ندخل المعابد، نقبّل إطار الباب، ونحرص على ألّا ندوس على العتبة التي نقبّلها أيضاً. وفي الداخل، نعقد قماشًا حريريًا في عُقَد، ترمز كل عقدة إلى أمنية وصلاة. وفي المناسبات الدينيّة المهمة، يزور بابا الشيخ لالش فينتظر الحجّاج في المعبد الرئيس ويصلّي معهم ويباركهم. ذاك المعبد هو قبر الشيخ عُدَي، وهو رجل نشر الديانة الأيزيديّة في القرن الثاني عشر وأحد أقدس رجالنا. ويعبر النبع الأبيض لالش. هناك نعمّد أنفسنا حيث تتجمّع مياه النبع في أحواض رخاميّة. وفي الكهوف الداكنة الرطبة تحت مرقد الشيخ عدي، حيث تقطر المياه من الجدران، نرش أنفسنا بالمياه ونصلّي في الموقع الذي ينقسم فيه النبع وينتهي.

كان أفضل وقت للذهاب إلى لالش في شهر أبريل، قرابة رأس السنة الأيزيديّة، عندما تتحوّل الفصول ويبدأ المطر بتغذية النبع الأبيض المقدّس. في شهر أبريل، تكون الحصاة تحت أقدامنا من البرودة بحيث يحملنا على المضي قدمًا، وتكون المياه من النضارة بحيث تشجّعنا على البقاء يقظين. أمّا الوادي، فمنتعش جميل، يرتدي حلّته المتجدّدة اليانعة.

تبعد لالش أربع ساعات بالسيّارة عن كوجو، وكان السفر إلى هناك باهظًا - فهو يحتاج إلى تأمين الوقود للسيّارة، والطعام، وسحب الناس من عملهم في الحقول، عدا عن الحيوانات التي تضحّي بها بعض العائلات - لذلك لم يكن بإمكاننا التردّد إلى هناك باستمرار، لكنّني كنت أحلم دائمًا بتلك الرحلة. فكان منزلنا يحفل بصور لالش، وبإمكانك أن تشاهد على شاشة التلفزيون برامج عن الوادي والشيوخ المقدّسين الذين يعيشون هناك، وتشاهد الحجّاج يرقصون معًا. وعلى عكس كوجو، كانت لالش غنيّة بالمياه، وتلك المياه تروي الأشجار

والأزهار التي تزيّن الوادي. وكانت المعابد مشيّدة من حجارة قديمة ومكلّلة برموز تحكي قصصنا. والأهم من ذلك، أن في لالش اتصل الطاووس ملك للمرّة الأولى بالعالم وأعطى البشر هدفًا ورابطًا مع الله. ومع أننا يمكننا أن نصلّي أينما كان، إلّا أن الصلاة في معابد لالش لها معنى آخر.

عندما بلغت السادسة عشرة من عمري، ذهبت إلى لالش لعمادتي. كنت بالكاد أستطيع انتظار ذاك اليوم. وفي الأسابيع التي سبقت ذلك اليوم الجلل، رحت أستمع إلى كل كلمة تقولها أمّي. فقد طلبت منّا أن نحترم الحجّاج الآخرين وكل مكوّن من مكوّنات الوادي، ونهتنا عن انتعال أحذيتنا أو العبث بالمكان. فحذّرتنا قائلة: «لا تبصقوا ولا تلعنوا ولا تأتوا بأي سوء. انتبهوا ألّا تدوسوا على عتبة المعابد. بل عليكم أن تقبّلوها».

حتّى سعيد، الصبيّ المشاغب، راح ينصت بتركيز إلى توجيهاتها. ثم قالت لي: «هنا سيتم تعميدك»، مشيرة إلى صورة حوض حجريّ محفور في الأرض حيث تسري مياه نضرة من النبع الأبيض في خيوط رفيعة وصولًا إلى الطريق. «وهنا ستصلّين لعائلتك». لم أشعر يومًا بأنّني لست على ما يرام لأنه لم يتم تعميدي حتى سن السادسة عشرة. فهذا لا يعني أنّني لست أيزيديّة «حقيقيّة». لقد كنّا فقراء، والله لن يحكم علينا لاضطرارنا إلى تأجيل تلك الرحلة. لكنّني كنت سعيدة أنّني سأتمكّن أخيرًا من القيام بها.

تعمّدت في النبع الأبيض مع عدد من أقربائي من الصبية والفتيات. غطّست سيدة، وهي من حرّاس لالش، وعاءً صغيرًا من الألومنيوم في المياه الجارية ثم سكبت المياه الباردة فوق رأسي، لتتركني أرشّ القليل من المياه على وجهي ورأسي بينما أدعو. ثم وضعت المرأة قطعة من

القماش الأبيض فوق رأسي، بينما أسقطت القليل من المال، نذرًا على حجر قريب. تعمّدت كاثرين في اليوم نفسه. «لن أخذلك»، همست لله. «لن أعود للوراء. سأتقدّم وأواصل ذلك الدرب».

عندما قدم الدواعش إلى سنجار، خشينا كلّنا ممّا قد يحصل للالش. كنّا نخشى من إقدامهم على تدمير معابدنا، كما فعلوا في أماكن أخرى. وهكذا،اختبأ الأيزيديّون الهاربون من داعش في المدينة المقدّسة، التي يحرسها خدّام المعابد وصلوات بابا الشيخ وبابا الجاويش. وكان الأيزيديّون الذين فرّوا من منازلهم إلى الوادي المقدّس بحالة من التوتّر، بعد أن قضت عليهم المجازر ذهنيًا وأنهكتهم جسديًا. كانوا على ثقة أن الدواعش سيدمّرون المعابد في أي لحظة.

في أحد الأيام، كان أحد هؤلاء الأيزيديّين، وهو والد شاب، جالسًا عند مدخل باحة المعبد مع ابنه. لم يكن قد ذاق طعم النوم منذ أيّام؛ وكل ما يقوى على التفكير به كان الأشخاص الذين قتلوا والنساء اللواتي اختطفن. كان يرزح تحت ثقل تلك الذكريات. فاستل مسدّسه من خصره، وقبل أن يستطيع أحد إيقافه، أطلق النار على نفسه هناك، عند مدخل المعبد أمام ابنه. لدى سماعهم صوت إطلاق النار، اعتقد الأيزيديّون الذين يعيشون هناك أن الدواعش قدموا فبدأوا الهروب نحو كردستان. وحدهم الخدم وبابا الجاويش بقوا، لتنظيف الدماء التي سالت من الرجل الميت، والقيام بدفنه، وانتظار ما سيأتي. كانوا مستعدّين للموت إن جاء الدواعش. فكان بابا الجاويش يقول: «وماذا يبقى لي لو دمّر هذا المكان؟». لكنّ الإرهابيّين لم يصلوا إلى الوادي. الله حمى لالش.

بعد المجازر، وبينما راحت النساء يهربن شيئًا فشيئًا من أسر الدولة

الإسلاميّة، أخذنا نتساءل كيف ستبدو رحلتنا التالية إلى لالش. كنّا بحاجة للمعابد والعزاء الذي تمنحنا إياه، لكن أوّلًا، لم يكن أحد واثقًا كيف سيعامل الرجال المقدّسون الذين يعيشون هناك السبايا الهاربات. فقد اعتنقنا الإسلام، وفقد معظمنا عذريتهن. لربّما لا يهم أنّنا أُجبرنا على الأمرين بعكس إرادتنا. ففي نشأتنا، تعلّمنا أن هذه خطايا تستحق الطرد من المجتمع الأيزيدي.

لكن لم يكن علينا التقليل من شأن زعمائنا الدينيّين. ففي أواخر شهر أغسطس، وكانت صدمة المجازر لا تزال قوية، عقدوا اجتماعًا حاولوا فيه تحديد أفضل رد على ما يجري. وسرعان ما اتّخذوا قرارهم. فأعلنوا أن السبايا السابقات مرحَّب بهنّ في المجتمع، ولا يجدر الحكم على ما حصل لهنَّ. ولن يتم اعتبارنا مسلمات لأنّنا أُجبرنا على اعتناق هذا الدين، ولأنّنا اغتُصبنا، فنحن ضحايا ولسنا نساء سيّئات. والتقى بابا الشيخ شخصيًّا بالناجيات الهاربات، عارضًا التوجيه ومقدّمًا تطمينات أنّنا نستطيع البقاء أيزيديّات. وفي شهر سبتمبر، قدّم زعماؤنا الدينيّون نصًّا مكتوبًا توجّهوا فيه إلى جميع الأيزيديّين، واعتبروا فيه أن ما جرى لنا لم يكن خطأنا، وأنّهم إن كانوا مؤمنين بحق، فعليهم الترحيب بالسبايا العائدات إلى المجتمع بأذرع مفتوحة.

لم يسبق لي أن أحببت مجتمعي كما أحببته في لحظة التعاطف والإحساس الجماعي تلك.

ومع ذلك، ليس ثمة في ما قد يقوله بابا الشيخ أو يفعله يستطيع أن يجعلنا نشعر بأنّنا أشخاص طبيعيّون من جديد. فكان يتملّكنا جميعًا شعور بالانكسار. بذلت النساء مساعيَ جمّة لمحاولة تطهير أنفسهن. وقد خضعت الكثيرات من الناجيات لجراحة إعادة العذريّة، فرمّمن غشاء البكارة على

أمل أن يمحينَ من ذاكرتهن الممارسات اللاأخلاقية التي تعرّضن لها. وقد عرض في المخيّم عدد من الأطباء الذين يعالجون الناجيات هذه الخدمة علينا، مقترحين بشكل طبيعي أن «نأتي للعلاج»، كما لو أنّه مجرد فحص عادي. فقالوا: «لن يستغرق الأمر أكثر من عشرين دقيقة».

كنت أشعر بالفضول فتوجّهت مع بعض الفتيات إلى العيادة. «إن أردت استعادة عذريّتك، يمكنك ذلك بواسطة إجراء بسيط»، قال الأطبّاء. قرّرت بعض الفتيات اللواتي أعرفهن القيام بذلك، لكنّني رفضت. فكيف يمكن «لإجراء بسيط» أن يمحو المرّات التي اغتصبني فيها الحاج سلمان، أو سمح لحرّاسه باغتصابي جماعيًّا عقابًا لي على محاولتي الهرب؟ لم يكن الضرر من تلك الهجمات مقتصرًا على جزء واحد من جسدي، أو حتى على جسدي وحده، وليس ثمّة ما تستطيع أي جراحة ترميمه. ومع ذلك، كنت أتفهّم لمَ قد تقوم أخريات بالأمر. فكنّا نشعر باليأس وعلى استعداد لأي نوع من العزاء. وإن كان ذلك يساعدهن على تخيّل مستقبل طبيعي يتزوّجن فيه ويكوّنَّ عائلة، فأنا سعيدة لأجلهن.

كنت أجد صعوبة في التفكير في مستقبلي. عندما كنت صغيرة في كوجو، كان عالمي صغيرًا مفعمًا بالحب. وجلّ ما كان عليّ أن أقلق بشأنه كان عائلتي، وكل ما حولي كان ينبئني بأن الأمور تتحسّن لنا جميعًا. أما الآن، فحتّى لو نجونا، نحن الفتيات كلّنا، وعملنا جاهدات على الشفاء ممّا عانيناه، فأين الشباب الأيزيديّون الذين سيتزوّجون بنا؟ إنّهم في المقابر الجماعيّة في سنجار. لقد دُمِّر مجتمعنا بأكمله، والفتيات الأيزيديّات سيعشن حياة تختلف عن تلك التي تخيّلناها في طفولتنا. لم نعد نبحث عن سعادتنا، بل عمّا يبقينا على قيد الحياة، إذا

ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، والقيام بما هو ذا مغزى في هذه الحياة التي سُمح لنا بمحض الصدفة بإنقاذها.

بعد أشهر قليلة من مكوثي في مخيّم اللاجئين، جاءني ناشطون، سألتني إحداهم عن عباءتي. قالت لي: «أنا أجمع أدلّة عن الإبادة التي وقعت يومًا ما. أريد أن أفتح متحفًا». وتساءلت أخرى، بعد أن أصغت إلى قصتي، إن كنت أوافق على التوجّه إلى المملكة المتّحدة لأخبر المسؤولين هناك بما حدث لي. فقبلت، من غير أن أعلم كم ستغيّر رحلة واحدة مجرى حياتي.

قضيت الأشهر الأخيرة في المخيّم أعد العدّة للذهاب إلى ألمانيا. كنّا سنهاجر أنا وديمال، لكن أدكي رفضت الذهاب معنا. فأصرّت قائلة: «لن أغادر العراق أبدًا». كانت أدكي العنيدة دائمًا وأبدًا، وكنت أحسدها على ذلك. لكن ألمانيا كانت تعدنا بالأمان وبالدراسة وبحياة جديدة. ويبقى العراق موطننا الأزلي.

اضطررنا لتعبئة أوراق لا تعَدّ ولا تحُصى للتحضير لانتقالنا، كما توجّهنا إلى بغداد للحصول على جوازات سفر لنا. كانت المرّة الأولى التي أزور فيها العاصمة العراقيّة، والمرة الأولى التي أركب فيها طائرة. بقيت هناك لاثني عشر يومًا، أزور كل يوم مكتبًا مختلفًا - كي يأخذوا بصمتي، وصوَري، وأتلقّى لقاحًا ضد أمراض غريبة عجيبة. بدا الأمر وكأنّه إجراء لن ينتهي، ثم قيل لنا في أحد أيّام سبتمبر أنه حان موعد الرحيل.

أخذونا إلى إربيل وأعطوا كلًّا منّا بعض المال لشراء الملابس. بكينا أنا وديمال كثيرًا ونحن نلقي نظرة الوداع على الجميع في المخيّم، وتحديدًا أدكي. أخذت أفكّر بحزني، الذي حاول قبل سنوات بعيدة،

بعيدة، أن يتسلّل إلى ألمانيا، معتقدًا أنه لو تمكّن من جمع المال - المال الحقيقي، ذاك الذي تستطيع جنيه في أوروبا، فلن تجد عائلة جيلان من خيار سوى السماح له بالزواج من ابنتهم. لكن أعيد إلى بلاده، وها أنا اليوم مع بطاقة سفر سدّدت ثمنها الحكومة. وتلك كانت أصعب خطوة خطوتها في حياتي.

قبل أن نغادر إلى ألمانيا، ذهبنا إلى لالش. كانت عشرات السبايا السابقات يطفن في شوارع البلدة المقدّسة، يبكين ويصلّين، مرتديات أسود الحداد. قبّلنا أنا وديمال إطار باب معبد الشيخ إدي وعقدنا القماش الحريري الملوّن في عقد، كل منها صلاة، لعودة كل من هم على قيد الحياة آمنين؛ ولهناء من هم في الحياة الآخرة مثل أمّنا التي توفّيت؛ ولتحرير كوجو؛ ولمثول داعش أمام المحافل الدولية لمحاكمتهم على ما قاموا به. ثم رششنا وجوهنا بالمياه الباردة من النبع الأبيض وصلّينا للطاووس ملك بخشوع فاق أي خشوع أحسسنا به في حياتنا من قبل.

كانت لالش هادئة في ذلك اليوم، وبينما كنّا هناك، خرج بابا الجاويش لملاقاة المجموعة. كان الرجل المقدّس فارع الطول نحيلًا، مع لحية طويلة وعينين دافئتين متّقدتين تحمل الناس على البوح بمكنوناتهم في حضرته. وبينما جلس وقدماه تحته في باحة مقبرة الشيخ إدي، راح رداؤه الأبيض يرفرف مع النسيم، بينما يعبق الدخان الثقيل من التبغ الأخضر الذي حشاه في غليونه الخشبي فوق حشد النساء اللواتي جئن لإلقاء التحية عليه.

جثونا أمامه، فقبّل رؤوسنا وطرح علينا الأسئلة: «ماذا حصل معكن؟». أراد أن يعرف، فأخبرناه أننا تعرّضنا للأسر لدى داعش لكنّنا تمكّنا من الهرب ونحن في طريقنا الآن إلى ألمانيا. «جيّد»، قالها

بصوت رقيق تشوبه مسحة حزن. كان يؤلمه أن يرى هذا العدد الكبير من الأيزيديّين يغادرون العراق. فها هو يشاهد مجتمعه يترنّح أمام ناظريه، لكنّه كان يدرك أنّه علينا المضي قدمًا.

ثم طرح علينا المزيد من الأسئلة. من أين أنتن؟ كم بقيتنَّ في الأسر مع داعش؟ كيف الحياة في المخيّم؟ وفي النهاية، عندما أصبح غليونه فارغًا تقريبًا وبدأت الشمس تطأطئ رأسها في السماء، استدار إلينا وسأل ببساطة: «من خسرتن؟».

ثم جلس يصغي إلى كل واحدة منّا، حتى أولئك اللواتي كنّ خجولات امتنعن في البداية عن الكلام، يذكرن أسماء العائلات والأصدقاء والجيران والأطفال والأهل والأموات والمفقودين. بدت الإجابات وكأنّها تطول إلى ما لا نهاية، بينما تحوّل الهواء باردًا وحجارة جدران المعبد اتّشحت سوادًا تحت الإنارة الخافتة، والأسماء الأيزيديّة تكرّ في سبحة لحن جماعي متواصل، فتبلغ السماء العليا حيث يستطيع الله سماعها، إلى أن جاء دوري، فقلت: إخوتي جلو، وبيز، ومسعود، وخيري، والياس. وأبناء إخوتي مالك وهاني. ونساء إخوتي منى وجيلان وسماهر. وبنات أختيَّ كاثرين ونسرين. وحاجي أخي غير الشقيق. والعديد ممّن أخذوا وهربوا. وأبي الذي لم يكن معنا لينقذنا. وأمّي، شامي، أينما هي.

خاتمة

في نوفمبر 2015، بعد سنة وثلاثة أشهر على قدوم داعش إلى كوجو، غادرتُ ألمانيا إلى سويسرا لألقي خطابًا في منتدى الأمم المتحدة حول مسائل الأقلّيات. كانت المرّة الأولى التي سأخبر بها قصّتي أمام جمهور كبير. كنتُ قد قضيت الليلة بمعظمها مستيقظة مع نسرين، الناشطة التي نظّمت الرحلة، أفكّر في ما سأقوله. أردت أن أتكلّم عن كل شيء، عن الأطفال الذين ماتوا عطشًا وهم يهربون من داعش، وعن العائلات التي لا تزال عالقة في الجبل، وعن آلاف النساء والأطفال الذين لا يزالون في الأسر، وعمّا رآه إخوتي في موقع المجزرة. لم أكن سوى واحدة من مئات آلاف الضحايا الأيزيديّات. لقد تشتّت مجتمعي، بعضهم يعيشون لاجئين داخل العراق وخارجها، وكوجو لا تزال واقعة تحت احتلال الدواعش. ثمة الكثير يحتاج العالم لسماعه لمعرفة ما يجري للأيزيديّين.

كان الجزء الأول من الرحلة في القطار عبر الغابات الألمانيّة المظلمة. كانت الأشجار تمر سريعة أمام نافذتي. كنت خائفة من الغابة التي تختلف كثيرًا عن الوديان والحقول في سنجار، وفي الوقت نفسه، ممتنّة أنني أمرّ في القطار أمامها، ولا أتوه بين أشجارها. ومع ذلك، كانت غابات جميلة، وكنت قد بدأت أتأقلم مع بلدي الجديد الذي بتّ

أحبّه. فقد رحّب بنا الألمان في بلادهم؛ سمعت قصصًا عن مواطنين عاديّين يرحّبون بالقطارات والطائرات التي تنقل سوريّين وعراقيّين فارّين. في ألمانيا، كنّا نأمل أن نصبح جزءًا من نسيج المجتمع، لا أن نعيش على هامشه وحسب. لكن الوضع كان أكثر صعوبة للأيزيديّين في دول أخرى. فبعض اللاجئين قد وصل إلى دول من الواضح أنّه غير مرغوب فيهم هناك، أيًا كان حجم الويلات التي هربوا منها.

في المقابل، وجد أيزيديّون آخرون أنفسهم عالقين في العراق، يبحثون عن فرصة للمغادرة، ليصبح الانتظار شكلًا آخر من أشكال العذاب. وقرّرت بعض الدول إبقاء اللاجئين كلّهم خارج أراضيها، الأمر الذي شحنني غضبًا. فلا سبب وجيهًا يحمل أحدًا على منع شعب بريء من الحصول على مكان آمن للعيش. أردت أن أقول ذلك كلّه أمام الأمم المتحدة في ذلك اليوم.

أردت أن أقول لهم إنّه يتوجّب عليهم القيام بالكثير الكثير. نحن نحتاج لإعداد منطقة آمنة للأقلّيات الدينيّة في العراق؛ وعلينا محاكمة داعش – من القادة إلى المواطنين الذين دعموا فظاعاتهم – على ما ارتكبوه من مجازر وجرائم ضد الإنسانية؛ وعلينا تحرير كامل سنجار. أما النساء والفتيات اللواتي هربن من داعش، فيحتجن للمساعدة كي يتمكنّ من الالتحاق بالمجتمع وإعادة بنائه، ولا بد من إضافة ما تعرّضن له من استغلال على لائحة جرائم الدولة الإسلاميّة. كما يجب تعليم الأيزيديّة في المدارس من العراق إلى الولايات المتّحدة، حتى يفهم الناس قيمة المحافظة على ديانة قديمة وحماية الشعب الذي يتبعها، بغضّ النظر عن صغر حجمه. فالأيزيديّة، إلى جانب الأقلّيات الدينيّة والإثنيّة الأخرى، هي ما جعلت العراق في ما مضى دولة عظيمة.

لكنّهم لم يعطوني إلا دقائق ثلاث أتكلّم فيها؛ وحثّتني نسرين على أن أبقي كلمتي بسيطة. «أخبريهم قصّتك أنت»، كانت تقول لي وهي تحتسي الشاي في شقّتي. لكن تلك كانت فكرة مريعة. فأنا كنت على يقين بأنّني لو أردت لقصتي أن تترك أي أثر، فلا بد لي من أن أكون صادقة أمينة لما حلّ بي قدر ما أستطيع. عليّ أن أخبر الجمهور عن الحاج سلمان وعدد المرات التي اغتصبني فيها، وتلك الليلة المرعبة في نقطة التفتيش في الموصل، وكل ما شهدته من اعتداء واستغلال. أن أكون صادقة كان أصعب القرارات التي اتّخذتها في حياتي، والأهم على الإطلاق.

رحت أرتجف وأنا أقرأ خطابي. وبكل ما أوتيت من قدرة على الهدوء، تكلّمت عن كيفيّة سقوط كوجو وكيف أُخذت الفتيات مثلي سبايا. أخبرتهم كيف اغتُصبت وضُربت مرارًا وتكرارًا إلى أن تمكّنت من الفرار. وأخبرتهم عن إخوتي الذين قتلوا. استمعوا بهدوء، لتأتي بعد ذلك امرأة تركيّة إليّ. كانت تبكي وهي تخبرني، «أخي علي قتل. وأصيبت عائلتي كلّها بحال من الذهول بسبب ذلك. لا أدري كيف يمكن لأحدهم أن يتحمّل خسارة ستة أشقاء دفعة واحدة».

«الأمر صعب للغاية»، أجبتها. «لكن ثمّة عائلات خسرت أكثر ممّا خسرنا بكثير».

عندما عدت إلى ألمانيا، أخبرت نسرين أنّهم إن احتاجوني في أي وقت، فأنا مستعدّة للذهاب إلى أي مكان في العالم والقيام بما أستطيع للمساعدة. لم أكن أدري أنّني سأتعاون قريبًا مع الناشطين الأيزيديّين الذين يعملون في يزدا وأبدأ حياة جديدة. أعلم الآن أنّني ولدت من رحم الجرائم التي ارتُكبت ضدّي.

بادئ ذي بدء، بدت حياتنا الجديدة في ألمانيا غير ذي مغزى مقارنة بأولئك الذين يعيشون الحرب في العراق. انتقلنا أنا وديمال إلى شقة صغيرة مؤلّفة من غرفتَيْ نوم مع اثنين من أبناء أعمامنا، وزيّناها بصور الأشخاص الذين خسرناهم أو تركناهم وراءنا. وفي الليل، كنت أنام تحت صور ملوّنة كبيرة لأمي وكاثرين. وكنّا نتزيَّن بقلادات تحمل أسماء موتانا وكل يوم نجتمع لنبكيهم ونصلّي للطاووس ملك لعودة المفقودين آمنين. وكنت كل ليلة أحلم بكوجو وأستيقظ كل صباح وأتذكّر أن كوجو، تلك التي أعرفها، لم تعد موجودة. كم غريبًا وفارغًا هذا الشعور؛ فالشوق إلى مكان فقدته يجعلك تشعر وكأنّك تلاشيت بدورك. لقد رأيت دولًا جميلة كثيرة في أسفاري كناشطة، لكنَّ أيًا منها لم ينجح في طمس تَوْقي وحنيني للعيش في العراق.

كنّا نذهب إلى صفوف تعلّم اللغة الألمانيّة وإلى المستشفى لنتأكّد أنّنا بصحة جيدة. وقد جرّب بعضنا جلسات العلاج النفسي التي قدّموها إلينا، والتي كان من المستحيل تحمّلها. وكنّا نطهو طعامنا بأنفسنا، ونقوم بالأعمال المنزليّة التي ترعرعنا عليها، من تنظيف وخبز، هذه المرّة في فرن معدنيّ صغير قابل للحمل وضعته ديمال في غرفة الجلوس. لكن من دون المهام التي تستهلك الوقت مثل حلب الأغنام أو الزراعة، أو الحياة الاجتماعيّة التي كان يجب أن نعيشها نتيجة عيشنا في بلدة صغيرة متقاربة وارتيادنا مدرسة واحدة، كانت ساعات فراغنا طويلة. عندما وصلت إلى ألمانيا، قضيت معظم الوقت أرجو حزني أن يسمح لي بالعودة، لكنّه طلب مني أن أعطي ألمانيا فرصة. قال إنّه عليّ البقاء، وأنّني في النهاية سأبني حياة لي هناك، لكنّني لا أعتقد أنّني صدّقته.

ثم قابلت مراد اسماعيل. كان مراد قد ساعد في تأسيس يزدا، وهي

مجموعة تناضل بلا هوّادة في سبيل الأيزيديّين، مع مجموعة من الأيزيديّين الذين يعيشون حول العالم، بمن فيهم هادي بير، وأحمد خديدة وعابد شمدين وحيدر الياس، المترجم السابق لدى الجيش الأميركي الذي بقي على الهاتف مع أخي جلو حتى لحظة مقتله تقريبًا. عندما التقيته للمرة الأولى، لم أكن بعد أكيدة ممّا ستكون عليه حياتي الجديدة. أردت المساعدة، وأن أشعر بأن لي فائدة، لكنّني كنت أجهل كيف. وعندما أخبرني مراد عن يزدا والعمل الذي يقومون به - لا سيّما المساعدة على تحرير النساء والفتيات اللواتي أسرهن الدواعش - بات مستقبلي يتظهّر أمامي بطريقة أكثر وضوحًا.

ما إن سمع هؤلاء الأيزيديّون أن الدواعش حضروا إلى سنجار حتى تخلّوا عن حياتهم الطبيعيّة لمساعدتنا في العراق. كان مراد يدرس الفيزياء الجيولوجيّة في هيوستن عندما بدأت المجزرة؛ وكان آخرون أساتذة أو عمّالًا اجتماعيّين تخلّوا عن كل شيء لتقديم العون والمساعدة. أخبرني عن أسبوعين قضاهما من دون أن يغمض له جفن في غرفة فندق صغير في العاصمة الأميركيّة واشنطن. أمضى هو ومجموعة تضم حيدر وهادي كل لحظة يتّصلون فيها بأيزيديّين من العراق، يحاولون مساعدتهم للنجاة. وغالبًا ما نجحوا. لكنّهم فشلوا في أحيان أخرى. أخبرني أنّهم حاولوا إنقاذ كوجو. فاتّصلوا بكل من خطر ببالهم في إربيل وبغداد. كما قدّموا اقتراحات استندوا فيها إلى الوقت الذي عملوا فيه مع الجيش الأميركي (إذ عمل مراد وهادي أيضًا مترجمَين خلال الاجتياح) وتتبّعوا الدواعش في كل طريق وكل بلدة. وعندما فشلوا في إنقاذنا، تعهّدوا القيام بما أمكنهم لمساعدة كل من ينجو ولتحقيق العدالة لنا. فحملوا مآسيهم على أجسادهم - كان حيدر

يعاني آلامًا متواصلة في الظهر، بينما وجه مراد مكحّل بالإرهاق - وعلى الرغم من ذلك كلّه، أردت أن أكون مثلهم. وبعد أن التقيت مراد، بدأت أصبح الشخص الذي أنا عليه الآن. ومع أن الحِداد لم ينقطع يومًا، إلّا أن حياتنا في ألمانيا بدأت ترتدي معنى مغايرًا.

عندما كنت مع داعش، كنت أشعر بأنّني مجرّدة من أي قوّة. فلو امتلكت أيًّا من القوّة عندما سُلخت أمّي عنّي، لكنت حميتها. ولو تمكّنت من ردع الإرهابيّين عن بيعي أو اغتصابي، لكنت فعلت. وعندما أعود بالذاكرة إلى واقعة هروبي - الباب غير المقفل والفناء الهادئ، وناصر وعائلته في الحي المليء بمناصرين للدولة الإسلاميّة -. أرتعش عندما أفكر كيف كان يمكن للأمور أن تسلك اتّجاهًا مغايرًا. لذلك أعتقد بأن ثمّة سببًا حمل الله على مساعدتي للهرب، وثمّة سبب لالتقائي بالناشطين في يزدا، لذلك لا أعتبر حرّيتي أمرًا مفروغًا منه. فالإرهابيّون لم يظنّوا أن الفتيات الأيزيديّات قادرات على المغادرة، أو أنّنا قد نملك الشجاعة لإخبار العالم أجمع بتفاصيل ما فعلوه بنا. نحن نتحدّاهم عندما لا نترك جرائمهم تمضي بلا إجابات. في كل مرّة أخبر فيها قصتي، أشعر وكأنّني أجرّد الإرهابيّين بعضًا من قوّتهم.

منذ تلك الرحلة الأولى إلى جنيف، أخبرت قصتي إلى آلاف الناس: من رجال سياسة وديبلوماسيّين وصنّاع أفلام وصحافيّين، وعدد لا يُحصى من الأشخاص العاديّين الذين أصبحوا مهتمّين بالعراق بعد أن احتلّه الدواعش. وأخذت أرجو القادة السنّة أن يدينوا الدواعش علنًا بقوّة أكبر؛ فبيدهم أن يوقفوا أعمال العنف. كما عملت مع كل الرجال والنساء في يزدا لمساعدة الناجين مثلي الذين يتعيّن عليهم أن يعيشوا كل يوم في حياتهم وهم يكتمون في سرّهم ما مرّوا به، ولحمل العالم

أجمع على الإقرار بأن ما حصل للأيزيديّين هو فعل إبادة جماعيّة ولسَوْق داعش أمام العدالة.

لقد قام أيزيديّون آخرون بالعمل نفسه وحملوا على عاتقهم الهدف نفسه: التخفيف من معاناتنا والحفاظ على ما تبقى من مجتمعنا على قيد الحياة.

وقصصنا تلك، على ما هي عليه من صعوبة وقسوة للاستماع إليها، إلا أنّها أحدثت فرقًا. فخلال السنوات القليلة الماضية، قرّرت كندا استقبال المزيد من اللاجئين الأيزيديّين؛ كما اعتبرت الأمم المتّحدة رسميًّا ما قامت به داعش للأيزيديّين فعل إبادة؛ وبدأت الحكومات تناقش إمكانيّة إقامة منطقة آمنة للأقلّيات الدينيّة في العراق؛ والأهم من ذلك، بات لدينا محامون مصرّون على مساعدتنا. فالعدالة هي كل ما يملكه الأيزيديّون الآن، وكل أيزيدي قد بات جزءًا من هذا النضال.

بالعودة إلى العراق، كانت أدكي وحزني وسعود وسعيد يقاتلون كل بطريقته الخاصّة. بقوا في المخيّم - إذ رفضت أدكي أن تتوجّه إلى ألمانيا مع النساء الأخريات - وعندما أكلّمهم، أشعر بشوق وحنين إليهم حتى بالكاد أستطيع الوقوف على قدمَيّ. فكل يوم فعل نضال للأيزيديّين في المخيّمات، ومع ذلك هم يقومون بما استطاعوا إليه سبيلًا من أجل مساعدة المجتمع بأكمله. فهكذا ساروا في مظاهرات ضد داعش، وقدّموا عرائض للأكراد وبغداد مطالبينهم بالقيام بالمزيد. وكلّما كان يتم اكتشاف مقبرة جماعيّة أو تموت فتاة وهي تحاول الهرب، يتلقّى فاجعة الخبر أوّلًا اللاجئون في المخيّم ويتدبّرون أمر الجنازة والدفن. وكل حاوية منزل تضم بين جدرانها أشخاصًا يصلّون لعودة أحبابهم سالمين.

كان كل لاجئ أيزيدي يحاول التأقلم مع الصدمة الذهنيّة والجسديّة

التي مر بها فيعمل مع أترابه على الحفاظ على مجتمعنا. فالأشخاص الذين كانوا قبل سنوات قليلة مزارعين وتلامذة وتجّارًا وربّات منازل قد تحوّلوا بين ليلة وضحاها علماء دين مصمّمين على نشر المعرفة حول الأيزيديّة، ومعلّمين يستخدمون المنازل والحاويات الصغيرة كصفوف تعليميّة في المخيم، وناشطين في حقوق الإنسان مثلي. فجلّ ما نسعى إليه هو الحفاظ على ثقافتنا وديننا وسوق داعش أمام العدالة ومحاكمتها على جرائمها. وأنا فخورة بكل ما فعلناه كمجتمع للنضال. ولطالما كنت فخورة بأنّني أيزيديّة.

بقدر ما أنا محظوظة بعيشي في أمان في ألمانيا، إلّا أنّه لا يسعني إلا الشعور بالغيرة من أولئك الذين بقوا في العراق. فعائلتي أكثر قربًا إلى موطني، يأكلون الأكل العراقي الذي أشتاق إليه كثيرًا، ويعيشون مع أشخاص يعرفونهم، وليسوا أغرابًا. إن ذهبوا إلى المدينة، يستطيعون التكلّم مع أصحاب المتاجر وسائقي العربات باللغة الكرديّة. وعندما سيسمح لهم البيشمركة بدخول صولاغ، سيتمكّنون من زيارة قبر أمي. نتّصل ببعضنا البعض عبر الهاتف ونترك رسائل لبعضنا البعض كل يوم. ويخبرني حزني عن عمله في مساعدة الفتيات على الهروب، بينما تقصّ عليَّ أدكي قصص الحياة في المخيّم. لكن غالبيّة القصص حزينة مريرة، ومع ذلك، قد تضحكني أختي النابضة بالحياة ضحكة حتى لأتدحرج بسببها على الكنبة فأقع أرضًا. كم أشتاق إلى العراق.

أواخر مايو 2017، تلقّيت أخبارًا من المخيّم تفيد عن تحرير كوجو من داعش. كان سعيد من بين أفراد الوحدة الأيزيديّة في الحشد الشعبي، وهي مجموعات عراقيّة مسلحة، التي دخلت البلدة، فشعرت بالفرح له، إذ حقّق أمنيته وأصبح مقاتلًا. لكن كوجو لم تكن آمنة بعد؛

فمسلّحو الدولة الإسلاميّة كانوا لا يزالون هناك، يقاتلون، وأولئك الذين غادروها زرعوا عبوّات ناسفة أينما كان قبل أن يهربوا، لكنّني كنت مصرّة على العودة. وافق حزني، فطرت من ألمانيا إلى إربيل، ثم سافرت إلى المخيّم.

لم أكن أدري كيف سأشعر عندما أرى كوجو، حيث انفصلنا وحيث قُتل إخوتي. كنت مع بعض أفراد عائلتي، من بينهم ديمال ومراد (وقد أصبح هو وبعض آخرون من يزدا كعائلة لي) وعندما بات الوضع آمنًا، سافرنا كمجموعة، سالكين طريقًا طويلًا لتفادي القتال. كانت القرية خالية. نوافذ المدرسة مكسورة وقد رأينا في داخلها بقايا جثّة. أمّا منزلي فقد نُهب - حتى الخشب نُزع من سطحه، وكل ما تبقّى منه تم حرقه. ألبوم صور العرائس تحوّل رمادًا. بكينا حتى سقطنا أرضًا. ومع ذلك، على الرغم من الدمار، لحظة عبرت الباب الأمامي، أدركت أنّه منزلي وموطني. شعرت للحظة كما كنت أشعر قبل داعش، وعندما قالوا لي إنه حان وقت الرحيل، رجوتهم أن أبقى ساعة واحدة بعد. عاهدت النفس أنه مهما حصل، عندما يأتي شهر ديسمبر ويحين وقت الصوم لدى الأيزيديّين للتقرّب أكثر من الله والطاووس ملك، الذي منحنا كلّنا الحياة، سأكون في كوجو.

بعد أقل من سنة تقريبًا على إلقائي خطابي الأول في جنيف - وقبل حوالى السنة من عودتي إلى كوجو - توجّهت إلى نيويورك مع بعض الأعضاء من يزدا، بمن فيهم عبير ومراد وأحمد وحيدر وهادي وماهر غانم، لتعيّنني الأمم المتّحدة سفيرة للنوايا الحسنة لحفظ كرامة الناجين من الاتجار بالبشر. وقد طُلب منّي مجدّدًا أن أتكلّم حول ما مررت به أمام مجموعة كبيرة من الحاضرين. لن تجد يومًا سهولة في إخبار قصّتك.

ففي كل مرّة تتكلّم، تعيش معاناتك من جديد. وعندما أخبر أحدهم حادثة نقطة التفتيش حيث اغتصبني الرجال، أو أصف شعور تلقّي ضربات سوط الحاج سلمان على الملاءة وأنا تحتها، أعود إلى تلك اللحظات وكل ما تحويه من إرهاب. كما تنتقل معي أيزيديّات أخريات إلى ذكرياتهن الخاصّة. وأحيانًا، يبدأ أعضاء يزدا الذين استمعوا إلى قصّتي مرّات لا تحصى ينتحبون هم أيضًا بينما أخبرها؛ فتلك قصّتهم أيضًا.

ومع ذلك، فقد اعتدت فن إلقاء الخطابات، وما عادت القاعات الكبرى الممتلئة حضورًا ترهبني. فقصّتي، وأنا أخبرها بكل صدق وواقعيّة، هي أهم سلاح أحمله في وجه الإرهاب، وأنا أخطّط لاستخدامه حتى يُساق هؤلاء الإرهابيّون إلى العدالة. لا يزال يتعيّن علينا القيام بالكثير. وعلى قادة العالم، لا سيّما رجال الدين المسلمين منهم أن يقفوا وقفة واحدة ويحموا المظلومين.

قدّمت خطابي الموجز. وعندما انتهيت من إخبار قصّتي، واصلت الكلام. قلت لهم إنّني لم أولد لألقي خطابات. قلت لهم إن كل أيزيدي يريد أن يُحاكم تنظيم داعش على ارتكابه إبادة جماعيّة، وأنّهم هم يستطيعون حماية الشعوب المستضعَفة في العالم. قلت لهم إنّني أريد أن أنظر في عيون الرجال الذين اغتصبوني وأراهم يساقون أمام قوس المحكمة. والأهم، أعلنت أمام الملأ أنّني أريد أن أكون الفتاة الأخيرة في العالم التي تحمل في قلبها قصّة مثل قصّتي. الفتاة الأخيرة.

في مذكّرات النجاة الحميمة هذه، تسرد أسيرة سابقة لدى تنظيم الدولة الإسلاميّة قصّتها المأساويّة، إنّما الملهمة في آن.

ولدت ناديا مراد ونشأت في كوجو، وهي بلدة صغيرة في شمال العراق يعيش فيها المزارعون والرعاة. وكانت تعيش حياة هادئة مع عائلتها الكبيرة في مجتمع أيزيدي، فلا تتعدّى أحلامها أن تصبح معلّمة تاريخ في مدرسة البلدة أو تفتح صالون التجميل الخاص بها.

في الخامس عشر من أغسطس 2014، وناديا لم تتخطّ بعد الحادية والعشرين من عمرها، انتهت هذه الأحلام. ارتكب مسلّحو داعش مجزرة في بلدتها فقتلوا الرجال، والنساء اللواتي في سن لا يصلح ليعملن جاريات. وهكذا قتل ستة من إخوة ناديا، وأمّها، ودُفنت جثثهم في مقابر جماعيّة. ونُقلت ناديا إلى الموصل، وأجبرت مع آلاف الفتيات الأيزيديات على الخضوع لداعش ليتم بيعهنّ في سوق النخاسة.

اليوم، قصّة ناديا -كشاهدة على عنف تنظيم الدولة الإسلاميّة، وناجية من الاغتصاب، ولاجئة، وأيزيدية- قد أجبرت العالم على الالتفات إلى هذه الإبادة المتواصلة. قصّتها شهادة حيّة على إرادة إنسانيّة تأبى الإنكسار، وعائلة شرّدتها الحرب، ودعوة إلى دول للتحرّك، وحماية مجتمع يتعرّض للإبادة.

«تقدّم الفتاة الأخيرة صورة قوية عن الهمجيّة التي تعرّض لها الأيزيديّون، إلى جانب لمحات عن ثقافتهم الغامضة... كتاب مؤثّر على لسان امرأة شجاعة، وشهادة حيّة عن قدرة البشر على ممارسة شرّ تقشعر له الأبدان». - إيان بيرل

اختيار المحررين في نيويورك تايمز - The Times

«تطرح هذه المذكرات المروّعة تجربة نادية وتسائل تواطؤ الشهود الذين وافقوا على معاناة الآخرين».

New Yorker

«مذكـرات مروّعة... معقّدة في السياق التاريخي... تترك الفتاة الأخيرة قرّاءها يطرحون أسئلة طارئة وملحّة».

The New York Times Book Review

«تقدّم إلينا نادية نافذة على الفظائع التي دمّرت عائلتها وكادت تقضي على مجتمعها الضعيف. مذكّرات شُجاعة تمثّل خطوة مهمة نحو محاسبة أولئك الذين ارتكبوا جرائم مروّعة».

Washington Post

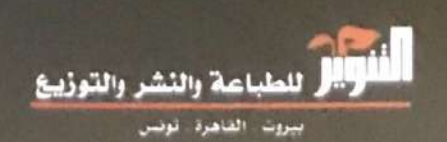
«إنها قصّة نادية مراد الشجاعة... أي شخص يريد أن يفهم ما سُمّيَ بالدولة الإسلامية عليه أن يقرأ **الفتاة الأخيرة**».

The Economist

«رائعة وعميقة... رواية واضحة عن فظاعة داعش».

مراجعة مميزة - Publishers Weekly


ISBN 978-614-472-061-5



@ourthings الغلاف



الفتاة الأخيرة
BOOKS GROUP
COZMO
« مذكّرات شجاعة »
Washington Post
الفائزة
بجائزة نوبل
للسلام
الفتاة الأخيرة
قصّتي مع الأسر ومعركتي
ضد تنظيم داعش
نادية مراد
تقديم أمل كلوني
ترجمة نادين نصر الله
قناة كوزمو للنخبة